الجمهورية العربية السورية
جـامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ



الأوضاع السياسية للساحل الشامي

ما بين (٥٨٥ – ٦٩٠ هـ / ١١٨٩ – ١٢٩١ م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالبة:

زينب خير الدين

إشراف:

أ. د. اكتمال اسماعيل

١٤٣٨-١٤٣٩ هـ/ ٢٠١٦-٢٠١٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل رَّبِّ زِدنـي عِلماً﴾



إلى من أستلهم منهم الصبر.....

إلى من علموني أن الطموح لا ينتهي....

إلى من علموني أنه بالإصرار يصنع المستحيل....

أهلي

إلى نور عيني الذين بهم أرى الدنيا...

سارة وماسة

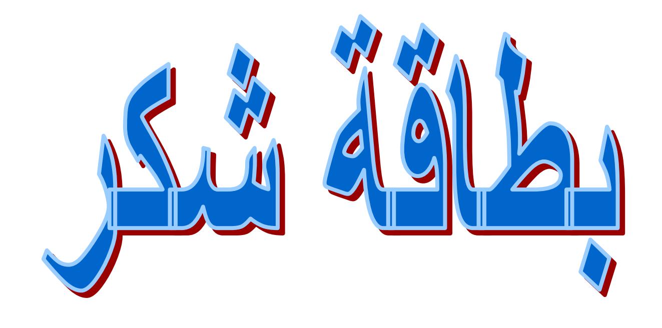
إلى زوجي الحبيب الذي شكل وجوده في حياتي حافزاً لإكمال علمي الذي بدأت به منذ سنوات...

زوجي

إلى سمائي وأرضي وكرامتي وأغلى ما عندي...

وطني الغالي سوريا أعزها الله

إلى كل إنسان يؤمن بأن العلم هو السبيل الوحيد للارتقاء والسمو ورفعة ومكانة الأمم....



يسرني أن أقدم أسمى آيات الشكر والعرفان للأستاذة الدكتورة اكتمال إسماعيل التي منحتني الكثير من وقتها الثمين وعلمها الغزير، وقدمت لي العديد من الملاحظات المهمة والتوجيهات القيمة، وسددت خطأي، ووجهت قاربي الصغير في بحر العلم العميق، وأغنت بحثي بملحوظاتها القيمة، جزاها الله كل خير وأدام عليها الصحة والعافية.

فهرس المحتويات

ملخص اللغة العربية

عُدّت الحروب الصليبية من أهم الموضوعات التاريخية التي حظيت باهتمام المؤرخين في معظم أنحاء العالم بسبب أحداثها، ونتائجها التي كانت ، مجالاً واسعاً للدراسة والبحث، فلقد كان الصراع الإسلامي الفرنجي الصليبي صراعاً حضارياً في جوهره، وسياسياً وعسكرياً في ظاهره، صراعاً بين حضارتين(العربية الإسلامية والأوروبية) فاستطاع الصليبيون تكوين كيانات صليبية لهم في المنطقة العربية بتأسيس مملكة لاتينية ببلاد الشام امتدت ما يقرب قرنين من الزمن كان لها أكبر الأثر على مجريات الأحداث على الصعيدين العربي و الأوروبي، و ما أحدثته من تفاعل مباشر بين الجانبين العربي والأوروبي ، و ما احدثته من تفاعل مباشر بين الجانبين على كافة المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية وغيرها.

بما أن الساحل الشامي كان هدفاً أساسياً من أهداف هذه الحروب المباشرة نظراً لأهمية الدور الذي شغلته المدن الساحلية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية خصوصاً و أن البحر المتوسط هو نافذة على العالم الخارجي ، بالإضافة إلى أنه أداة وصل بين الشرق والغرب ، ومن هنا كان تركيز الصليبيين على تلك المدن الساحلية ، لذلك كانت أولى المهمات الملقاة على عاتق الجيوش الصليبية هي الاستيلاء على تلك المدن لضمان حرية المواصلات من جهة ، و تأمين إمداد جيوشهم بالمؤن و الذخائر والجند من جهة أخرى .

تعد الحروب الصليبية من أهم الصراعات الكبرى التي أثرت إلى درجة كبيرة في تاريخ منطقة المشرق العربي الاسلامي ، وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوروبي باعتباره المخطط و المنفذ لها ، واتخذت من الدين شعاراً لتخفي أطماعها الاستعمارية الرامية إلى الاستيلاء على أراضي وثروات المسلمين والعبث بمقدساتهم في منطقة المشرق العربي الإسلامي .

إن الصليبيين لم يتمكنوا من إقامة إماراتهم في الساحل الشامي إلا لضعف البلاد العربية و الإسلامية وتفرق كلمتها ، و ما نجح العرب المسلمون في طرد الصليبيين إلا بوحدة الصف تحت قيادة حكيمة ، عملوا جميعاً تحت لوائها . فكان القضاء على الكيان الفرنجي الصليبي ببلاد الشام ضربة قاصمة حلت بالغرب الأوروبي ، بينما كان الملوك والحكام في الغرب الاوروبي منشغلين بمشاكلهم السياسية داخل أوروبا نفسها، ومنصرفين عن مملكة بيت المقدس اللاتينية .

مقدمة :

شكل التاريخ حركة تطور مستمرة منذ القدم و حتى الوقت الراهن، و انطلاقاً من أن التاريخ هو خبر ورؤيا ، فإنه من الطبيعي أنه ينقل أحداث الماضي نقلاً أميناً وواضحاً دون تصحيف أو تزوير، ثم استقراء تلك الأحداث لكشف ما يفيد الإنسان والحضارة وليس ما يهدم تلك الحضارة، وبالتالي فإن موضوع البحث يخضع لهذا المقياس من الاستقراء و الاستنتاج .

عُدتْ الحروب الصليبية من أهم الموضوعات التاريخية التي حظيت باهتمام المؤرخين في معظم أنحاء العالم بسبب أحداثها، ونتائجها التي كانت مجالاً واسعاً للدراسة والبحث، فلقد كان الصراع الإسلامي الفرنجي (الصليبي) صراعاً حضارياً في جوهره، وسياسياً وعسكرياً في ظاهره، صراعاً بين حضارتين (العربية الإسلامية والأوربية). فاستطاع الصليبيون تكوين كيانات صليبية لهم في المنطقة العربية وتأسيس مملكة لاتينية ببلاد الشام امتدت ما يقرب قرنين من الزمن كان لها أكبر الأثر على مجريات الأحداث على الصعيدين العربي والأوروبي، وما أحدثته من تفاعل مباشر بين الجانبين على كافة المستويات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وإذا كان موضوع العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى من الموضوعات التي تحتاج إلى دراسات مستفيضة، فإن الحركة الصليبية كانت أهم ظاهرة من مظاهر تلك العلاقات في مختلف المجالات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية... الخ.

لقد أحدثت هذه الحروب تبدلاً ملموساً في الأوضاع العامة للمنطقة بشكل لم تعرفه من قبل، فالسلاجقة مسلمون غرباء، أما الفرنجة الصليبيون فهم أجانب معتدون. هذا الشعور دفع كل قوة سياسية إلى بناء أماكن حصينة منيعة ممثلة بالقلاع والحصون، ومنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية غزت العالم الخارج عن سلطتها – المسيحي– وقوضت بعض أركانه، وبالمقابل كان أهالي أوروبا لا يألون جهداً في صد المسلمين ومحاربتهم. حينما جاء الصليبيون إلى الشرق لم يواجهوا كتلة واحدة متراصة، بل واجهوا خليطاً مبرقشاً من كيانات السلاجقة المسلمين الذين لا لحمة بينهم، فالسلاجقة لم يجدوا لغة مشتركة مع الخلافة الفاطمية التي استطاعت السيطرة على جنوب بلاد الشام، لا بل كان الصراع محتدماً بدوره في صفوف الفاطميين أنفسهم، ناهيك عن ذلك وجود الإمبراطورية البيزنطية

المتربصة بالجوار و التي كانت تتحين الفرص المناسبة للانقضاض على المسلمين، والأمل في هذا خلقته الفوضى السائدة في الدولة السلجوقية المقسمة إلى إقطاعات شبه مستقلة خصوصاً في المنطقة الساحلية، لهذا كان من اليسير على الفرنجة التوطن سنين طويلة في الأراضي الشامية الساحلية الغنية التي كان امتلاكها هدفاً استراتيجياً سعى إليه الفرنجة منذ البداية فكان الاستيلاء عليها ملبياً للمطامع التوسعية للإقطاعيين المدنيين والكنسيين في أوروبا الغربية.

ولما جذبت هذه الحركة أطرافاً أخرى من غير المسيحيين الغربيين إلى الصراع الدائر في الشرق الإسلامي من بيزنطيين ومغول وأرمن، أدى كل ذلك إلى تعقد وتشابك الموقف نتيجة لمروره بظروف متباينة ارتبطت في المقام الأول بأحوال كل من المسلمين في الشرق والمسيحيين في الغرب. فقد كشفت تلك الحقبة الزمنية عن المعنى الحقيقي للحروب الصليبية من خلال تلك العلاقات التي سادت بين الفرنجة الصليبيين والمسلمين. حيث انشغل حكام بلاد الشام ولاسيما الأيوبيين بالصراع معهم رغبة في تحجيم كياناتهم والقضاء عليهم بشكل نهائي لأن تلك الكيانات استنفذت خيرات المنطقة ومواردها البشرية والاقتصادية.

وهنا يتساءل المرء لماذا اختار الفرنجة الصليبيون احتلال المنطقة الساحلية من بلاد الشام دون سواها؟ وما هي الأهداف المبتغاة من ذلك؟ وهل تطابقت أهدافهم مع النتائج العملية لاحتلالهم الساحل الشامي؟

بما أن الساحل الشامي هدف أساسي من أهداف هذه الحروب المباشرة نظراً لأهمية الدور الذي شغلته المدن الساحلية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية خصوصاً وأن البحر المتوسط هو نافذة على العالم الخارجي، كان وما زال يتمتع بأهمية خاصة لأنه مركز للحضارات القديمة الكبرى، بالإضافة إلى أنه أداة وصل بين الشرق والغرب، ومن هنا كان تركيز الصليبيين على تلك المدن الساحلية التي شكلت منافذ للمشرق على البحر المتوسط، وبالتالي على أوروبا، لذلك كانت أولى المهمات الملقاة على عاتق الجيوش الصليبية هي الاستيلاء على تلك المدن لضمان حرية المواصلات من جهة، وتأمين إمداد جيوشهم بالمؤن والذخائر والجند من جهة أخرى. لكن المشهد السياسي لبلاد الشام ومصر تغير و تبدل كثيراً بسقوط الدولة الأيوبية وقيام حكم المماليك على الرغم من وجود حقبة انتقالية شهدت صراعات أيوبية أيوبية، وأيوبية مملوكية حتى أصبح المماليك هم الحكام الفعليون للمنطقة و

الذين واجهوا خطراً جديداً متمثلاً بجحافل لغزاة جدد هم المغول حيث استطاعوا إيقاف مد الغزو المغولي في موقعة عين جالوت آنذاك والتفتوا إلى تصفية الوجود الصليبي بالمنطقة.

وتصدر الظاهر بيبرس قائمة سلاطين المماليك الذين تولوا أعمال التحرير والاسترداد التي سيطر الصليبيون عليها فقد حرر الظاهر بيبرس حيفا وقيسارية وأرسوف ويافا... الخ، لكنه توفي وهو في ذروة نشاطه سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م فآلت السلطة إلى أبنائه على الرغم من أن هؤلاء المماليك لا يؤمنون بنظرية الوراثة في الحكم إلى أن رست مقاليد الحكم للسلطان قلاوون الذي تابع الأعمال الهجومية ضد الصليبين والتي من أهمها تحرير طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، وبذلك زالت من الوجود الإمارة الرابعة التي أسسها الصليبيون في المشرق، ولم يبق بأيديهم سوى عكا لكن قلاوون توفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وهو في ذروة نشاطه الجهادي ضد الصليبيين قبل أن يحررها، فتسلم السلطة بعده ابنه الأشرف خليل الذي التفت فوراً نحو عكا عازماً على متابعة ما بدأه والده، فقد حشد الأشرف خليل القوات والأسلحة والمعدات، وتحركت قواته باتجاه عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ونجح المسلمون بعد حصار دام قرابة الشهر والنصف من تحريرها، وما إن وصلت أخبار التحرير إلى المناطق الساحلية التي كانت ما تزال بأيدي الفرنج مثل عثليث وصيدا وصور وبيروت حتى أحرقوها وهربوا.

وإذا كان عنوان البحث قد توقف عند تحرير عكا ، فإن جهود المماليك ضد نشاط الصليبيين لم تنته عند هذه السنة ، بل تابعوا قتالهم لا سيما أن هؤلاء نقلوا نشاطهم إلى قبرص ، وبخاصة الاسبتارية ومن هناك أعادوا غاراتهم و غزوهم للساحل ليس الشامي فقط بل المصري أيضاً و كما هو معلوم فإن السلطة المملوكية بمساندة من الظهير الشعبي تصدروا لتلك المحاولات وأفشلوها

مما تقدم يمكن القول: إن الصليبيون لم يتمكنوا من إقامة إماراتهم في الساحل الشامي إلا لضعف البلاد العربية والإسلامية وتفرق كلمتها، ولم ينجح العرب المسلمون في طرد الصليبيين إلا بوحدة الصف تحت قيادة حكيمة، عملوا جميعاً تحت لوائها.

وترجع أهمية البحث إلى موقع مدن الساحل الشامي على البحر المتوسط فكانت ذا أهمية كبرى لطرفي الصراع الصليبي- الإسلامي، فلا شك أن موقع هذه المدن جعل لها مركزاً ممتازاً، وجعلها أيضاً مطمعاً لأهل الغرب في عصر الحروب الصليبية، فقد بذل الصليبيون

أقصى جهدهم للاستيلاء عليها والاستفادة منها، لتكون نقطة ارتكاز يوجهون منها الضربات إلى المدن العربية الإسلامية في المنطقة وإلى مناطق أخرى، ومن هنا برز دورها الحيوي الهام في الصراع الصليبي– الإسلامي.

جاء اختيار البحث من أجل استجلاء الدور السياسي لمدن الساحل الشامي وأثره على العلاقات الصليبية الإسلامية، والصليبية– الصليبية ومواقفها حيال طرفي الصراع التي تأرجحت بين السلم والحرب، وإن كان الطابع العدائي هو الغالب في زمن الحروب الصليبية إضافة إلى الرغبة في إبراز دور تلك المدن الهام في الصراع الصليبي– الإسلامي والتعرف على طبيعة العلاقات الصليبية– الإسلامية، والتي تفاوتت بين الحرب والسلم، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال، ومسوغات احتلال الصليبيين للمنطقة الساحلية دون سواها، والأهداف المبتغاة من ذلك ومدى مطابقة أهدافهم مع النتائج لاحتلالهم الساحل الشامي وسبب إخفاق الغرب في الاحتفاظ بهذا الشريط.

ويتجلى الهدف الرئيسي للدراسة في التركيز على دور مدن الساحل الشامي و هي تحت الاحتلال الصليبي وأعمال الفرنجة في السيطرة على ممتلكات المسلمين، وأثر ذلك في الصراع الصليبي– الإسلامي، مع عدم إغفال الحديث عن السفارات والمفاوضات التي كانت تتم بين الصليبيين والمسلمين وتوضيح علاقة مدن الساحل الشامي مع بعضها البعض ، ومع بيزنطة، قبرص، أرمينيا، الأيوبيين، المماليك، المغول، وتأثير هذه العلاقات على الوجود الصليبي في الساحل الشامي، إضافة إلى توضيح دور الحكام والأمراء المسلمين المتنافرين فيما بينهم في إعطاء الصليبيين الفرصة في البقاء والاستمرار عن طريق الاستنجاد بهم ضد بعضهم البعض، لا بل وصلوا إلى حد المهادنة معهم، مع عدم إهمال الدور الذي شغله كل من الأيوبيين والمماليك على مسرح الأحداث في مجابهة الفرنج وطردهم من معاقلهم في الساحل الشامي، وإيقاع الهزائم المتكررة بهم. وقد قام منهج البحث على استقصاء المادة العلمية من المصادر والمراجع وعرضها، ونقد الآراء التي كتبت حول موضوع الدراسة، والمقارنة بينهما بهدف استجلاء الحقيقية التاريخية، واستخلاص النتائج، كما اعتمد المنهج على استقراء بعض الأخبار والأحداث، واستخلاص ما يمكن استخلاصه والإفادة منها قدر الإمكان في البحث بموضوع، متشابك الأطراف، متعدد القوى، متنوع المصادر والأصول، مليء بالقضايا والنقاط الهامة التي

لا بد من الوقوف عندها ومعالجتها بغية الوصول إلى المعرفة التاريخية البحتة قدر الإمكان. وأمام هذا الموضوع الغني بتشعباته القليل بمعلوماته و بالرغم من الجهد كله والبحث المتواصل فقد وجدت عدة صعوبات منها : اهتمام المؤرخين العرب المسلمين بالتأريخ للسلطة الحاكمة وأعمالها العسكرية فقط، بينما أهملوا الأوضاع السياسية للمنطقة وما نتج عنها من علاقات سياسية بعد التحرير، فكان اهتمامهم بتحرير المناطق عسكرياً وكل ما ذكر هو استنتاج خاصة أن مدن الساحل الشامي و بالتحديد القلاع والحصون لم تشغل بال المؤرخين المسلمين إلا بكيفية بنائها وأقسامها أما دورها السياسي فقد أهمل .

إضافة إلى أن المصادر العربية والإسلامية و التي لا غنى عنها لم توجد فيها المادة العلمية الكافية مما سبب عناءً كبيراً في محاولة البحث واستقراء ما بين السطور و اللجوء أحياناً إلى المقايسة التي يمكن أن تفيد في هذا الموضوع فتم تعويض النقص و سد الفراغ و ذلك عن طريق الاستفادة من المعلومة الصغيرة ، وإبراز أهميتها والتعليل بأن محور الأحداث في تلك الحقبة كان مركزاً على دمشق و مصر لذلك لم تكن تحظى منطقة الساحل الشامي باهتمام المؤرخين إلا عندما يدق ناقوس الخطر عن أنباء حملة صليبية جديدة ، فعند ذلك يتفقدونها و يهتمون بتحصينها وبالتالي يتحدثون عنها كونها الممر الأساسي للحملة بعد اجتياز الأراضي البيزنطية براً ، و عن طريق البحر عبر هذه المدن أما بالنسبة للمصادر الغربية فهي قليلة على العموم ، و قد وجدت صعوبات في الحصول عليها من المكتبات أو غيرها لذلك تمت العودة إلى ما توفر من مراجع أجنبية ومصادر مترجمة إلى اللغة العربية وردت أخبارهم ضمن الموسوعة الشامية للأستاذ الدكتور سهيل زكار، واستفيد منها خير استفادة لتغطية الجوانب المفقودة في المصادر العربية خصوصاً وأنها تمثل وجهة النظر العربية، ومقارنتها ببعضها البعض مع إيضاح وجهات النظر إن وجدت بين الطرفين .

والسؤال المهم كيف كانت أحوال أوروبا قبل قدوم الحملة الصليبية الثالثة؟ وكيف كانت علاقات الدول مع بعضها ؟ و كيف كانت علاقتها مع البابوية وهل كانت هذه العلاقات تؤسس لحملة صليبية جديدة ؟ هل كان لخسارة القدس وقع جلل وأن الجميع ينصهرون في بوتقة استعادة الأرض المقدسة كما يفترض ؟ هل اختفت الصراعات الداخلية في أوروبا ليحل

بدلاً عنها الوفاق لاستعادة القبر المقدس ، أم هي لعبة الحرب و المصالح و إن اختلفت الساحات ؟

هل ما زالت أرض الشرق بروعتها وخيراتها تدغدغ أحلام القادة والنبلاء والمفلسين ؟ وهل ما زالت مدن الساحل الشامي مفتاح العبور إلى الأرض المقدسة ، أم أنها مفتاح السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب ؟ هذه أسئلة وأسئلة أخرى أكثر عمقاً تطرح للإجابة عنها من خلال بحث الأوضاع السياسية للساحل الشامي(٥٨٥ – ٦٩٠ هـ/١١٨٩ –١٢٩١ م)

يشتمل البحث على خمسة فصول تسبقها مقدمة و التعريف بأهم المصادر و المراجع ، أما المقدمة فخصصت للحديث عن أهمية البحث وإشكاليته، وأسباب الاختيار وصعوباته، وخطة البحث، ثم تمت دراسة أهم المصادر المعتمد عليها، وبعد هذا المدخل جاء الفصل الأول حاملاً عنوان **(عرض جغرافي– اقتصادي– اجتماعي لمدن الساحل الشامي)** وقد قسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام:

الموقع الجغرافي والحدود إضافة إلى البيئة الجغرافية والتضاريسية وذلك اعتماداً على مقولة التاريخ والجغرافية علمان متعاونان متكاملان فلا زمان بدون مكان ولا مكان بدون زمان ثم لمحة موجزة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية، من زراعة وصناعة وتجارة و دور المدن الإيطالية التجارية في الحروب الصليبية، إضافة إلى فئات المجتمع العربي الإسلامي، وفئات المجتمع الصليبي ومظاهر الحياة الاجتماعية.

وحمل الفصل الثاني عنوان **(إعادة الاحتلال الصليبي للساحل الشامي)** تم فيه الحديث عن الأوضاع السياسية والعسكرية لمدن الساحل الشامي قبل وصول الحملة الصليبية الثالثة وعن وصول الحملة الصليبية الثالثة إلى بلاد الشام ومنجزاتها التي هي سقوط عكا، معركة أرسوف، معركة يافا، سقوط عسقلان والداروم، ولم تقتصر الأحداث على ذلك فقط، بل تناولت المفاوضات بين الأيوبيين والصليبيين وصلح الرملة.

هذا وقد حمل الفصل الثالث من الأطروحة عنوان **(علاقات مدن الساحل الشامي الداخلية والخارجية وأثر ذلك على الصراع الصليبي– الإسلامي)** تناول هذا الفصل علاقات مدن الساحل الشامي مع بعضها البعض التي تضمنت الصراع على وراثة العرش (مملكة بيت

المقدس) ، والصراع على وراثة حكم أنطاكية، كما تمت فيه دراسة علاقة مدن الساحل مع الدول والإمارات الخارجية، و دراسة طبيعة تلك العلاقة، فكان لا بد من الحديث عن علاقة مدن الساحل الشامي مع قبرص ودورها في الحروب الصليبية، والعلاقة مع دولة أرمينيا الصغرى، بيزنطة، إضافة إلى العلاقة مع الأيوبيين والمماليك والمغول.

وكانت أحداث الفصل الرابع مختلفة عما سبقها فقد تناولت **(مرحلة المقاومة والاسترداد)** وتمت في هذا الفصل معالجة عدة قضايا هامة، مثل استرداد مدن الساحل الشامي على يد كل من بيبرس ٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧م وقلاوون ٦٧٦-٦٨٩هـ/١٢٧٧-١٢٩٠م، وابنه الأشرف خليل ٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م، كما تم فيه توضيح دور كل واحد منهم، وأهم الإنجازات التي حققها من تحرير قيسارية، حيفا، أرسوف، أنطاكية، المرقب، ميناء اللاذقية، طرابلس، عكا، صور، بيروت، حيفا، جزيرة أرواد، قلعة عثليث وطرد الفرنج من آخر معاقلهم في بلاد الشام.

وجاء الفصل الخامس مختلفاً منهجياً عما سبقه فقد بحث فيه عن **(دور القلاع والحصون الساحلية في الحروب الصليبية ٥٨٥-٦٩٠هـ/ ١١٨٩-١٢٩١م)** حيث شغلت القلاع دوراً فعالاً في دعم الكيان الصليبي عسكرياً وسياسياً واقتصادياً على مدى القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد و تم فيه الحديث عن البارونيات الصليبية ، ووصفت مملكة بيت المقدس بأنها مملكة القلاع وأهم هذه القلاع هي صهيون ، المرقب ، طرابلس ، جبيل ، عكا، أرسوف ......

وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها.

وأخيراً أتوجه بالشكر الكبير والامتنان العميق عرفاناً بالجميل لأستاذتي المشرفة الأم الفاضلة، التي منحتني الكثير من وقتها الثمين، وعلمها الغزير، وقدمت لي العديد من الملاحظات المهمة والتوجيهات القيمة حتى تمكنت من إنجاز هذا البحث.

أخص بالشكر الجزيل والكبير لأستاذنا الجليل الدكتور سهيل زكار الذي قدم لي المعلومات المهمة ، وكان سخياً في رفدي بأهم مصادر البحث و أعضاء اللجنة الكرام ولكل من ساهم في تقديم المساعدة لي

والله ولي التوفيق

تعريف بأهم المصادر والمراجع:

تناول البحث طرفاً من العلاقات بين الشرق والغرب في حقبة زمنية معينة من أحداث الحروب الصليبية، شهدت تغيراً وتطوراً كبيراً في تاريخ الحروب الصليبية، بدءاً من فتور الحماسة الصليبية لدى الفرنج في بلاد الشام، ودخولهم في منازعات فيما بينهم أدت إلى إضعافهم، في الوقت الذي فقدت فيه مدينة القدس أهميتها وثقلها كهدف للحملات الصليبية، تاركة لمصر الفرصة لأخذ تلك الأهمية، بعد أن أصبحت مركز الثقل للمقاومة العربية الإسلامية، ولتطهير البلاد من هؤلاء الصليبيين، وقد جذبت الحروب الصليبية، ومحاولات البابوية اليائسة في البحث عن حلفائها أنظار طرف جديد في الصراع، ألا وهو المغول، بالإضافة إلى وجود أطراف متعددة ومتصارعة مثل (بيزنطة، الفرنجة في بلاد الشام، والمماليك في مصر، والدويلات الإيطالية) ومن هنا يحتم الرجوع إلى المصادر الغربية والشرقية على حد سواء، ومقارنتها ببعضها البعض، سعياً وراء إظهار الحقيقة التاريخية أولاً وأخيراً.

١. المصادر العربية:

على الرغم من وفرتها، وأهميتها للبحث، فقد جاءت معلوماتها ضئيلة جزئية وأهم هذه المصادر حسب ترتيبها الزمني:

- **العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م):**

عماد الدين الأصفهاني[١] هو محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، ولد في أصفهان سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وتوفي في دمشق وهو شاهد عيان لأحداث القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد.

انحدر من أسرة مشهورة رفيعة المكانة واسعة الثقافة، عمل رجال منها بالإدارة، وكان العماد قد نشأ في أصفهان، وفيها تلقى علومه وفي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إلتحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الإدارية، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعدة شخصيات في دولة نور الدين. مما هيأ له السبل للعمل في خدمة الأخير، وفي سنة ٥٦٣هـ/

---

(١) العماد الأصفهاني (محمد بن حامد الأصفهاني ت ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م): الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح ، د.ط ، د.ت، ص ٣٣-٣٤

١١٦٧م تسلم ديوان الإنشا في دمشق وظل كذلك إلى ما بعد وفاة نور الدين محمود بأمد وجيز، واستخدمه صلاح الدين كمؤرخ وظل مرافقاً لهذا السلطان العظيم وقريباً منه حتى وفاته، مما أتاح له مشاهدة الأحداث والوقائع عن كثب والإطلاع على حقائق ومجريات أمور الدولة، بأدق التفاصيل.

كان العماد الأصفهاني خصب الإنتاج في ميدان الأدب والتاريخ ومن أهم مؤلفاته كتاب **(خريدة القصر وجريدة العصر)، (البرق الشامي)، (الفتح القسي في الفتح القدسي)** وترجع أهمية هذا الكتاب كونه يمثل وجهة نظر رسمية، ويؤرخ لمرحلة حطين حتى وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وقد أغنى البحث بمعلومات عديدة في الفصل الثاني عند الحديث عن الحملة الثالثة إلى جانب ما جاء فيه من عادات وتقاليد أوضحت ما تحدثه الحروب الطويلة والمستمرة بالجنود.

- **ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):**

يأتي على رأس المصادر العربية الإسلامية ما كتبه عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، المعروف بـ ابن الأثير ولد في جزيرة ابن عمر من أعمال الموصل من أسرة عملت في خدمة الملوك، وعاش في البلاط الزنكي، نشأ نشأة علمية أرستقراطية، وتنقل بين المدن العربية الإسلامية الكبرى مثل الموصل، بغداد، دمشق، والقدس، فكان لنشأته وتنقلاته الأثر العلمي الكبير على كتاباته من أهم كتبه **(التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية)** و **(الكامل في التاريخ)**[1] الذي يعد مصدراً رئيسياً غنياً ذا قيمة عظيمة حتى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ويتميز الكتاب بشمول النظرة، وعمق التفكير، ويعد من أهم المصادر التاريخية عن الحروب الصليبية لأن مؤلفه عاصر حقبة منها، وشهد أحداثها فسجلها تسجيلاً علمياً دقيقاً صادقاً وقد تمت الاستفادة من هذا الكتاب في الفصل الأول عند الحديث عن الكوارث الطبيعية والزلازل التي خربت المدن الساحلية مثل طرابلس، صور، عكا

(١) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م): الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق،بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ/ص٩-١٤،مصطفى شاكر): التاريخ العربي و المؤرخون، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١٩٨٠,١ م، ج٢،ص١١١-١١٣

سنة ٥٩٧–٥٩٨هـ/ ١٢٠٠– ١٢٠١م إضافة إلى معلومات عن صلاح الدين ومعركة عكا في الفصل الثاني.

- **ابن شداد (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):**

بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم موصلي الأصل، بغدادي النشأة ولد في الموصل سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[١]ودرس بها، تعرف إلى صلاح الدين أثناء حروبه مع الموصل وتوطدت معرفته بصلاح الدين الأيوبي، الذي رغب بإقامته لديه، وأوكل إليه وظيفة قاضي عسكر فصار بمثابة وزير لدى صلاح الدين وظل مرافقاً له في أغلب معاركه ضد الصليبيين، ومن أهم مؤلفاته (**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**) أرخ فيه سيرة صلاح الدين بدءاً من سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، أي بعد وفاة صلاح الدين حيث وضع فيه ترتيباً خاصاً عرض حياة السلطان وفق منهج خاص، وهو من أكثر المصادر العربية الإسلامية ثقة و التي تناولت العلاقات بين الصليبيين والمسلمين كان ابن شداد شاهداً بنفسه على الأحداث، فقد روى معظمها عن مشاهدات وإن يكن كذلك فإن الأمانة العلمية التي اتصف بها كتابه جعلته من أكثر المصادر ثقة لتأريخ هذه الحقبة الزمنية المليئة بالنضال ضد الصليبين، وقد كانت الإفادة كبيرة منه في الفصل الثاني عند الحديث عن صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ومعركة أرسوف وصلح الرملة والعلاقات بين الصليبين والمسلمين.

- **أبو شامة (٦٦٥ هـ/١٢٢٦ م)**

عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الأصل . ولد في دمشق سنة ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م ، تلقى علمه على يد عدد من المشايخ و العلماء أمثال العز بن عبد السلام ، والموفق المقدسي و غيرهم . وقد برع أبو شامة في علوم الحديث، والقراءة، والفقه، و التاريخ، فكان شيخ القراء، وحافظ العلماء[٢]، و صنف مؤلفات عديدة منها: (المحقق في الأصول)، و(الضوء الساري إلى معرفة الباري) ، و (الروضتين في أخبار الدولتين النورية و

---

(١) أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل ت٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، لبنان، بيروت،دار المعرفة، د.ت ،ج٣،ص١٥٦ ، (كحالة)عمر رضا : معجم المؤلفين ،د،م، مكتبة المثنى ، د.ت، جـ١٣،ص٢٩٩ م.

(٢) الصفدي(صلاح الدين بن أيبك الصفدي ت٧٦٤ هـ/١٣٦٢ م): أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق : علي أبو زيد وآخرون ، بيروت ، دار الفكر المعاصر، ط١٤٢٨,١هـ/١٩٩٨م،جـ٤،ص٤١٧-٤٢٠

الصلاحية) و تمّت الاستفادة منه في الفصل الثاني عند الحديث عن صلاح الدين و حروبه مع الصليبيين ، سقوط عكا ، معركة أرسوف، معركة يافا ، سقوط عسقلان والداروم ، صلح الرملة وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه كان معاصراً للأحداث .

- **ابن واصل (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م):**

جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ولد سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م[1] في حماة، كان والده قاضي حماة والمعرة لذا لازمه، وحضر معه مجالس الفقهاء والعلماء مما أكسبه الكثير من العلوم والمعارف، ومن أهم مؤلفاته **(مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)** وهو من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ بني أيوب بصفة خاصة، ودراسة تاريخ المشرق العربي الإسلامي ودوله جميعاً في القرنين ٦–٧هـ/ ١٢–١٣م بصفة عامة، لاسيّما فيما يتعلق بالحروب الصليبية، وترجع أهمية **(مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)** إلى أن مؤلفه عاصر العصر الأيوبي كله وعاش متنقلاً بين بلدان الشرق العربي الإسلامي وعواصمه، وخاصة التي كان لها علاقات مباشرة مع الصليبيين، فلم يكن بذلك شاهداً للعيان فقط، بل مشاركاً في الكثير من الأحداث لهذا كان كتابه الأصل الذي أخذ عنه المؤرخون اللاحقون له عند تأريخهم للدولة الأيوبية وقد أغنى البحث في الفصل الأول بالكثير من المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وتمت الاستفادة منه في الفصل الثاني عند الحديث عن صلاح الدين ومعركة يافا وأرسوف.

- **ابن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م):**

محي الدين أبو الفضل من أهم المؤرخين الذين اعتمد عليهم البحث، كان كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولى الظاهر بيبرس السلطنة، و استمر في مركزه طوال مدة حكم بيبرس، وأثناء حكم ابنه وجزء من مدة حياة السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل، وقد دوّن ابن عبد الظاهر عدة سير أهمها **(الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر)** كتبها للظاهر بيبرس، ومما دفع المؤلف إلى تدوين هذه السيرة العصر الذي عاش فيه الظاهر، حيث اشتد

---

(١) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت، المكتبة العصرية ،ط١,١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م ،جـ٦،ص٧-٢٢ ، العزاوي(عباس): التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م ، ص ١٢٩-١٣٠

النزاع بين المسلمين والفرنجة ولاسيما أن بيبرس كان أول شخصية مملوكية مهمة أرست قواعد السلطة، إثر الانتصار العظيم في عين جالوت ، وأول شخصية مملوكية خططت لاسترداد المعاقل العربية من الصليبيين ونجح في ذلك، كان منهج ابن عبد الظاهر حولي، لأنه جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات، حيث يضع كل سنة وتحتها عناوين فرعية تشير إلى طبيعة الحوادث. وجاءت معلوماته على مستوى كبير من الأهمية، تمت الاستفادة منه في الفصل الرابع عند الحديث عن بيبرس وحروبه.

- **أبو الفداء (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):**

إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة مؤرخ وجغرافي ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م[١]، وقد انخرط في المجال السياسي بدليل أنه شارك في الحملات التي شنت ضد الصليبيين مع العلم أنه كان لا يتجاوز العاشرة من عمره وحضر وهو في الثانية عشرة من عمره صحبة أبيه وابن عمّه المظفر أمير حماه حصار المرقب سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٢م ، وأصبح حاكماً لمدينة حماة (٧٢٠-٧٣٢هـ/ ١٣٢٠-١٣٣١م).

ألف عدداً من الكتب والتي تعد من أفضل المصادر التاريخية والجغرافية فله كتاب مشهور في الجغرافية و هو كتاب (تقويم البلدان) و آخر في التاريخ هو (**المختصر في أخبار البشر**) تناول فيه التاريخ منذ بداية الخليقة مروراً بالعصور كافة حتى سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م وقد تمت الاستفادة منه في الفصل الثاني عند الحديث عن صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ومعركة يافا وفي الفصل الرابع كانت الإفادة منه كبيرة في حروب الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل.

- **القلقشندي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م):**

أبو العباس أحمد بن علي من أصل عربي ولد بقلقشندة بالديار المصرية، وقد تتلمذ بالقاهرة والإسكندرية على يد أكابر شيوخ العصر آنذاك فتولى بعض الوظائف الإدارية وبدأت

---

(١) الصفدي (صلاح الدين بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٢م) : الوافي بالوفيات، تحقيق دوريتاكرافولسكي ،بيروت، دار الأندلس،ج١٧،ص٦٦٦-٦٦٧

براعته في الكتابة والإنشاء تستقطب إليه أنظار رجال البلاط، ومهدت له على سبيل الاطلاع بالمنصب الذي شغله.

من أشهر مؤلفاته **(صبح الأعشى في صناعة الإنشا)** صنفه فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشا في مصر. وهو موسوعة علمية في التاريخ والجغرافية والسياسة والأدب والعلوم، وتقع في أربعة عشر مجلداً، تميز القلقشندي في عمله الموسوعي بكثرة مصادره، وتنوعها وباتباعه طريقة علمية في إسناد كل ما يورد إلى مصدره. تمّت الاستفادة منه في الفصل الأول عند الحديث عن الأوضاع الإقتصادية و الإجتماعية لمدن الساحل الشامي.

- **المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):**

يعد تقي الدين المقريزي أبو محمد بن أحمد بن علي من أبرز علماء عصره، ممن اتسعت معارفه وغلبت عليه صفة المؤرخ لكثرة ما دونه في هذا الجانب من مؤلفات نافعة ومتنوعة. ولد تقي الدين المقريزي في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، أما تسميته بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك عرفت بحارة المقارزة، نشأ المقريزي نشأة حسنة فحفظ القرآن، وبعض المختصرات في الفقه، ثم تتلمذ في الفقه والحديث والقرآن واللغة، والنحو والتاريخ على عدد من أعلام العلماء، فضلاً عن اتصاله الواسع ببعض الأمراء. وقد تمكن المقريزي من مصادقة الظاهر برقوق وابنه الناصر، وشغل عندهما وظائف عدة.

له العديد من المؤلفات أهمها **(الخطط المقريزية)**، **(السلوك لمعرفة دول الملوك)** وهذا الأخير أرخ فيه للعصرين الأيوبي والمملوكي إلى قبيل وفاته سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م(١)، واحتواء هذا الكتاب لكثير من الحوادث التاريخية والجغرافية والاقتصادية مما جعله أشبه بموسوعة للتاريخ السياسي والحضاري وقد تمت الاستفادة منه في الفصل الثاني أثناء الحديث عن صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة والعلاقات بين الصليبيين والمسلمين وعند الحديث عن معركة أرسوف ومما يتعلق بالظاهر بيبرس وقلاوون و الأشرف خليل وغير ذلك من أعمالهم، كما ذكر الكوارث الطبيعية التي حلت بالمنطقة كالزلازل و غيرها .

(١) المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ،١٤٤١ م) :السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، القاهرة، دار الكتب المصرية ، د.ط،ت, ،جـ,،جـ١٩٣٤,١م ، ص١-٦، مصطفى : التاريخ العربي ، ج٣، ص ١٠٤

- **ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):**

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، عاش بين سنتي (٨١٣- ٨٧٤هـ/ ١٤٠٩- ١٤٦٩م) أصله من المماليك، أقبل على الدراسات الدينية والأدبية، ثم تعلم أنواع الفروسية، والعلوم العسكرية على يد أكابر المماليك، وبهذا يكون قد جمع النواحي الأدبية والدينية والعسكرية، غير أنه اختار لحياته مساراً دينياً أدبياً علمياً.

ظل أبو المحاسن قريباً من بلاط السلاطين منذ أيام برسباي حتى قايتباي اكتسب خلالها القدرة على الحكم على الناس وطبائعهم، والقدرة على تفهم روح العصر، فصارت كتابته للتاريخ صورة صادقة إلى حد كبير، له العديد من المؤلفات أهمها **(المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)** وهو كتاب تراجم و**(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)**[١] وهو تاريخ حولي.

اتبع ابن تغري بردي النظام الحولي في سرد التاريخ بمقتضى تتابع السنين، ورصد الحقائق المجردة دونما صلة أو رابطة عميقة، فقد انتهج خطين أساسيين في تدوين مادته التاريخية الأول مصري محلي، والثاني إسلامي عام مع عدم إغفاله لبعض الأحداث المهمة التي حدثت في ممالك الروم والمغول والفرنجة.

يعد كتابه النجوم على درجة كبيرة وعظيمة فهو كتاب ضخم ضم عدداً كبيراً من التراجم بالإضافة إلى أخبار أدبية واجتماعية واقتصادية فكانت الإفادة من كل ذلك وتمت الاستفادة منه أيضاً في الفصل الرابع عند الحديث عن استرداد الساحل الشامي على يد بيبرس، قلاوون، الأشرف خليل.

كما شكلت المصادر الجغرافية، وكتب الرحلات مصادر مهمة للبحث، إذ تمت الإفادة منها في تحديد مواقع مدن الساحل الشامي، فقد استفيد منها عند دراسة الأوضاع الاقتصادية، وحوى قسم منها على بعض الإشارات المهمة عن الجوانب الاجتماعية وإن بعض هؤلاء المؤلفين كانوا رحالة زاروا بلاد الشام وكتبوا عن مشاهداتهم عن كثب، فترتقي كتاباتهم إلى درجة

---

(١) ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٥٥هـ /١٩٣٦ م ، ص٣-١١

الوثائقية بينما اكتفى البعض الآخر بالوصف من خلال الاعتماد على كتب أخرى وعلى أشخاص لديهم إطلاع على تلك المناطق ومن هذه المصادر:

- **ابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):**

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكاتب، الرحالة كان عربياً أندلسياً قام بثلاث رحلات زار فيها مصر والشام والحجاز والعراق، وأصبح كتابه **(رحلة ابن جبير)**[١] من المصادر الهامة التي أعطت معلومات واضحة وقد استفيد مما كتبه عن مدن الساحل الشامي من معلومات جغرافية وعن العلاقات الاقتصادية بين الجانبين الإسلامي والصليبي وأيضاً مشاهدته للعادات والتقاليد التي كانت تمارس في ذلك الوقت.

- **ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):**

شهاب الدين أبو عبد الله، جغرافي، رحالة، مؤرخ، وأديب ولد سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م في بلاد الروم وتم بيعه بعد أسره لتاجر يدعى عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي لذلك لقب بالحموي، أشرف على تجارة سيده ، واهتم بتعلم الأدب والنحو ، وفي رحلاته التجارية اطلع على أحوال الطرق والبلاد وبعد عتقه اتخذ من نسخ الكتب وسيلة لكسب عيشه.

له مؤلفات عدة أهمها: **(معجم البلدان)**[٢]، وهو معجم جغرافي، طبع في خمسة مجلدات تحدث فيه عن المناطق والمدن والقرى والجبال والوديان والأنهار في البلدان العربية والإسلامية. وهذا الكتاب لا يعد معجماً جغرافياً فقط بل خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية وقد عرف فيه الأماكن الجغرافية مرتباً إياها على حروف المعجم، وكان إذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه، ثم ذكر من اشتهر فيه أو نسب إليه من الأدباء والشعراء، والفقهاء والمحدثين، وهكذا فقد وردت فيه مادة غزيرة عن مدن الساحل الشامي، وأعمالها وجبالها وأنهارها. وقد كانت الاستفادة من هذا الكتاب في الفصل الأول عند الحديث عن جغرافيا الساحل الشامي، وعند التعريف ببعض الأماكن والمواضع، وكذلك عند عرض الأوضاع الاقتصادية.

---

(١) ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي ت٦١٤هـ/١٢١٧م) : رحلة ابن جبير ، بيروت ،١٩٥٩ ، ص ٥-٦

(٢) الحموي (شهاب الدين ياقوت بن أبي عبدالله ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م): معجم البلدان، بيروت ، دار صادر،د.ط، ص٦،حميدة (عبد الرحمن): أعلام الجغرافيين العرب ، دمشق ، دار الفكر ، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ م ، ص ٤٤٧-٤٤٨

- **أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):**

الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل المشهور بأبي الفداء، وكانت الفائدة من هذا المصدر (**(تقويم البلدان)**) تثبيت بعض المواقع الجغرافية وفي الحديث عن المزروعات، تميز هذا الكتاب بالوضوح في عرض المادة، فذكر التقسيمات الجغرافية لكل بلد وما تشتهر به مياهها وطرق تجميعها، أنهارها، سكانها، لذا يعد مصدراً غنياً عن التعريف.

- **ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):**

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي، المشهور بابن بطوطة، بدأ ابن بطوطة رحلته سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، فدون مصنفة **(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)** المعروف بـ **(رحلة ابن بطوطة)** بشكل أدبي، تأثر فيه كثيراً بابن جبير فترك وصفاً طبيعياً لبعض المواقع التي أشار إليها، ويبدو من ملاحظاته أنه زار هذه المواقع وكتب ما شاهده، وعلى هذا الأساس ينظر إلى معلوماته بشيء من الأهمية كونه شاهد عيان حيث يمكن الاستشهاد بها عن أحوال الساحل الشامي.

٢. المصادر الأجنبية المعربة:

لا تقل أهمية عن المصادر العربية بالنسبة لموضوع البحث، بل إنها باتت الأكثر إغناء من الكتب العربية في معظم معلوماتها بشأن حروب الفرنجة، وإن تركزت على النواحي الدينية، ومشكلة الدولة والعرش، والنواحي الاقتصادية فاكتملت بها الصورة وسدت النقص في المصادر العربية، كما أنها كتبت بأكثر من لغة من قبل كتاب غربيين غير مسلمين، وهذا ما جعلها تمثل وجهة النظر الغربية لدى الغزاة الفرنجة، إنما بدرجات، وحسب انتماءات كل كاتب سواء أكانت الانتماءات كنسية أم إقليمية أم شخصية... الخ.

وأهم هذه المصادر:

- **بورتشارد Bortchard(٥٨٢هـ/ ١١٨٦م):**

كان بورتشارد راهب دير جبل صهيون ألمانياً ولد سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، واختلفت الروايات بشأن نشأته أهو من أهالي مدينة ستراسبورغ أم مجديبورغ. وقد عاش في القرن ٧هـ/

١٣م، وصار راهباً من رهبان طائفة الدومنيكان قدم إلى الشرق سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م وزار خلالها مصر وسورية، وكذلك أرمينية قيل بأنه أمضى عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعد إلى أوروبا حتى تقدم به السن كثيراً هذا و بقي تاريخ وفاته مجهولاً، عاش بورتشارد في عصر تسامح دل عليه لهجة كتابته وعد أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم.

كان بورتشارد مخلصاً تقياً ومساعداً لجميع الطوائف الأخرى دون استثناء ويبدو أن قراءاته كانت ضخمة أظهر فيها كثيراً من الذكاء في تعلم ما أمكنه أثناء رحلاته، وكذلك في استيعاب المعلومات التي تلقاها، وقد أظهر أكثر من أي كاتب معاصر له مزيجاً غريباً من الشجاعة والتواضع وحب المعرفة، كما كان قادراً على زيارة الكثير من البلدان والمدن التي كانت مزدهرة قديماً لذلك قام بمزج الحكايات الخارقة وردد أصداء الملاحم في كتاباته وقد تمت الاستفادة من هذا الكتاب بأخذ المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين وسوريا وغيرها من المدن الهامة، كما أشار إلى أنماط السكان ومظاهر الحياة الاجتماعية، وإلى نواحي زراعية هامة مثل إشارته إلى زراعة التين والزيتون في سهول طرطوس، وتحدث عن القلاع والحصون الساحلية.

- **جاك دي فيتري Jack dervetry (٥٧٦–٦٣٧هـ/ ١١٨٠–١٢٤٠ م):**

ولد في مدينة فيتري– سورسين في فرنسا سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م[1]، وأصبح كاهناً شماساً سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م، وتدرج في المناصب الكهنوتية إلى أن أصبح كاهناً من كهنة أوستن فيلابرول في برابانت، وما لبث جاك أن صار واحداً من الرجال البارزين بشهادة معاصريه بدليل تأثيره على الحركة الصليبية في القرن ٧هـ/ ١٣م، كان لا يقل تأثيره عن تأثير بطرس الناسك عليها في القرن ٦هـ/ ١٢م، وقد كان مؤلفه **(المنتقى من تاريخ القدس)** كبيراً ضاع جزء كبير ووصلت بعض الفصول المبتورة ومع كل هذا لم يفقد قيمته، أما تاريخه فقد اعتمد فيه على تاريخ وليم الصوري لذلك وقع في أخطاء كثيرة أثناء نقله للمادة نتيجة لفقدانه القدرة على التدقيق والنقد لأنه كتب تاريخه في الغرب، وقد تقدم به السن، يضاف إلى هذا عقليته

(١) دي فتري (جاك) : المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية ، تر .د.سهيل زكار من خلال الموسوعة الشامية ، دمشق ، دار الفكر ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م،جـ٣٣، ص١٢٥

الخاصة وتكوينه اللاهوتي، الأمر الذي أثر في كتابته، ومع هذا ظل الكتاب وثيقة من أهم وثائق القرن ٧هـ/ ١٣م.

أما بالنسبة لموضوع الأطروحة فقد تمت الاستفادة منه عند الحديث عن احتلال الفرنج لمعظم القلاع الساحلية، ودور القلاع وأهميتها كمراكز للقوات الفرنجية من أجل محاصرة المدن، وعن تجارة بعض المدن الإيطالية الأخرى، إضافة إلى بعض المعلومات الاقتصادية، فقد أشار إلى صناعة تعلمها الفرنجة من المنطقة ومنها عملية استخراج السكر من القصب.

- **جون أوف وورزيبرغJohnof worzeberg:**

كان جون كاهناً في الكنيسة في وورزيبرغ، وشرع بكتابة ما رآه في القرن ٧هـ/ ١٣م زار القدس، وقد تمت هذه الزيارة في أثناء وجود المملكة الفرنجية فيها ألف كتابه **(وصف الأرض المقدسة)** وخاصة مدينة القدس، لذلك يعد شاهداً لبعض الأحداث في حين نقل بعضها الآخر عن الآخرين، وقد تحدّث كثيراً في كتبه عن الأماكن التي زارها لكنه افتقر إلى الجدة والحداثة التي يأتي بها شاهد عيان، لا بل زاد الأمر على ذلك فقد نسخ بشكل مصطنع أوصافها عن الآخرين، و تمت الاستفادة منه في الفصل الأول عند الحديث عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمدن الساحلية.

- **بييردوبوا Peirredubais:**

ولد في شمال فرنسا وربما في أو على مقربة من كوتانسيز في نورمندي ويرجح ذلك إلى أنه كان من أصل برجوازي وأن تاريخ ميلاده كان فيما بين ٦٤٧– ٦٥٢هـ/ ١٢٤٩– ١٢٥٤م، أمّا كتابه الرئيس هو **(استرداد الأرض المقدسة)** حيث كتبه في وقت كان ما بين تتويج البابا كلمنت الخامس ووفاة إدوار الأول لذا يرجح أن السنة التي ألف فيها كتاب الاسترداد هي سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م، تحدث في الاسترداد عن الخلافات والخصومات بين الدويلات الإيطالية جنوه– البندقية– بيزه– كما تحدث عن التنظيمات الرهبانية الداوية، الاسبتارية، ومساعداتهم للفرنجة لاسيما في تقديم السلاح، وعن بعض الترتيبات الكنسية، ومصطلح الملك وواجبات كل واحد منهم.

وقد تمت الاستفادة منه في المجال التجاري، كما أنّه تحدث عن دور الإيطاليين في البحر المتوسط ومنافستهم للقسطنطينية من أجل السيطرة الدولية على الأسواق.

- **مارينو سانوتوMariano sanoto (٦٦٨-٧٤٣هـ/١٢٧٠-١٣٤٣م)**

كاتب مؤرخ/ سياسي صليبي ولد سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م[١] في البندقية، امتاز عن غيره أنه لم يضع تاريخه بناءً على رغبة أحد الملوك أو الحكام أو حتى لتمجيد شخص بعينه، وتسجيل أعماله، بل كانت لديه دوافع صليبية بحته، وأهم ما كتب عن الحروب الصليبية كتاب **(الأسرار)** تميز فيه بالموضوعية والدقة وزاد من أهميته غزارة المعلومات التاريخية الجغرافية التي وردت فيه عن الشرق اللاتيني، فلم يترك مصدر معلومات عن الأحداث، بل زاد على ذلك في تفصيل عن أحوال الصليبيين والمسلمين على حد سواء، أما بالنسبة لموضوع الأطروحة فقد أمدها بمعلومات جغرافية عن الجبال الساحلية، ومعلومات اقتصادية عندما أشار إلى وجود الجمال واستخدامها في عملية النقل وحمل البضائع، واجتماعية تحدث فيها عن بعض الفئات السكانية إضافة إلى معلومات تجارية حيث أشار إلى العملية التجارية في المنطقة وذكر مدى التنافس القائم بين الدول الإيطالية.

- **جوانفيلJwanivel (٦٢١- ٧١٨هـ/١٢٢٤- ١٣١٨م):**

ينحدر جان أو (جون) سيردي جوانفيل من إحدى الأسر الفرنسية العريقة[٢] بمقاطعة شامبانيا، والتي برز الكثير من أفرادها على مسرح السياسة في فرنسا خلال النصف الأول من القرن ٧هـ/ ١٣م. ولد جوانفيل في سنة لم يتفق عليها المؤرخون أما الأكثرية فترجح أنه ولد سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، وتوفي حوالي ٧١٨هـ/ ١٣١٨م.

لا يعرف الكثير عن حياته الأولى سوى أنه التحق بحملة الملك لويس التاسع على مصر. وكان أقرب المقربين من الملك لويس وموضع ثقته.

---

(١)- سانوتو(مارينو): الأسرار من خلال الموسوعة الشامية ،ترجمة : سهيل زكار، دمشق ، دار الفكر ،١٩٩٩م،جـ٣٨،ص٢٩١-٢٩٤

(٢) أبو بكر (نضال) : أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية و علاقتها مع الصليبيين ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨ م ، ص ١٢

كان جوانفيل مخلصاً لعقيدته المسيحية، كتب مذكراته في كتاب سماه (**القديس لويس**) تخليداً لذكر الملك لويس وذلك على طريقة الحوليات. أما مصادر جوانفيل في كتابه الشهير على ثلاثة أنواع: منها ما رآه بنفسه ومنها ما سمعه من أفراد أو جماعة، وكانوا بدورهم شهوداً لما رأوه، أما المصدر الثالث فهو استعانته بكتاب ضمن سيرة الملك لويس التاسع دون أن ياتي على ذكر ذلك الكتاب.

تحدث جوانفيل في كتابه عن الحملة الصليبية السابعة، وقد استفيد من هذا الكتاب فيما يتعلق بحملة ريتشارد قلب الأسد وحملته إلى عكا، ثم عودة ملك فرنسا إلى بلاده والاتصالات الصليبية المغولية، إضافة إلى الحديث عن فئات المجتمع الصليبي ببلاد الشام.

- **فليكس فابريPhilix phabry (جولات الراهب الدومينكاني ورحلاته):**

كان راهباً ألمانياً متعصباً جداً حيث قام برحلتين إلى فلسطين أولهما قصيرة جرت في سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، أما الثانية فطويلة تمت في سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م وأودع في كتاباته جميع مشاهداته مع ما قرأه وسمعه.

ورحلة فابري مهمة جداً حيث أنها تمت في أواخر العصر المملوكي، وتعد رحلاته من أوسع الرحلات الأوروبية جاءت في أربعة مجلدات فكانت أشبه بالعمل الموسوعي تمت الاستفادة منه عند الحديث عن الموقع الجغرافي، والحدود لمدن الساحل الشامي، والحديث عن الموانئ منها ميناء يافا.

هذه دراسة لأهم مصادر الرسالة وأصولها من مصادر عربية وأخرى أجنبية مترجمة بالإضافة إلى ذلك فقد تمت الاستفادة من الكثير من المراجع العربية والأجنبية المترجمة في مقدمتها:

- **الموسوعة الشامية:**

في تاريخ الحروب الصليبية للأستاذ الدكتور سهيل زكار التي تعد الأولى من نوعها، والتي ساعدت على رسم صورة حية للأحداث والوقائع التاريخية، تحدث في الأجزاء الأولى عن أحداث الحروب الصليبية من وجهة نظر عربية إسلامية، ثم ألحقها بأجزاء أخرى حوت أعداداً كبيرة جداً من المصادر الأصلية لتاريخ هذه الحروب، بعد تحقيق بعضها وترجمة بعضها الآخر، لذا كانت هذه الموسوعة عوناً وذخراً لكامل الأطروحة دون استثناء، وتم استخدام العديد

من المراجع التي أغنت البحث منها (**الحركة الصليبية**) لسعيد عبد الفتاح عاشور، وكذلك كتابه (**أوروبة في العصور الوسطى**)، وعمران محمود سعيد (**تاريخ الحروب الصليبية**)، وأحمد عبد الكريم سليمان (**المغول والمماليك في دولة بني قلاوون**) ومحمد العروسي المطوي (**الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**)، وحامد غنيم (**الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية**)، أكرم حسن العلبي (**الملك الأشرف خليل بن قلاوون**)، محمد كردعلي (**خطط الشام**) كما اعتمد في البحث على بعض الدراسات الحديثة التي تخص الساحل منها (**جزيرة أرواد والجذور الفينيقية على ضوء الاكتشافات الجديدة**) لحسين حجازي أما بالنسبة للمراجع المترجمة فأهمها كتاب ستيفن رنسيمان (**تاريخ الحروب الصليبية**)، وأرنست باركر (**الحروب الصليبية**) ميخائيل زابوروف (**الصليبيون في الشرق**)، كلودكاهن (**الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**) فولفغانغ- مولر- منير (**القلاع أيام الحروب الصليبية**)، هايد (ف) (**تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**)، كما استخدم في البحث مصادر ومراجع أخرى كثيرة أشير إليها في الحواشي، وأثبتت في جريدة المصادر والمراجع في آخر البحث.

الفصل الأول:

عرض جغرافي واقتصادي واجتماعي لمدن الساحل الشامي:

أولاً: الموقع الجغرافي والحدود.

ثانياً :البنية الجغرافية والتضاريسية.

ثالثاً:الحياة الاقتصادية في مدن الساحل الشامي.

١. الزراعة.

٢. الصناعة:

أ- الصناعات الغذائية.

ب- الصناعات النسيجية.

ج- صناعات متفرقة.

٣. التجارة:

أ- أهم المراكز التجارية على الساحل الشامي.

ب- دور المدن الإيطالية التجارية في الحروب الصليبية.

رابعاً: الحياة الاجتماعية في مدن الساحل الشامي:

١. فئات المجتمع العربي الإسلامي.

٢. فئات المجتمع الصليبي.

٣. مظاهر الحياة الاجتماعية.

أولاً: الموقع الجغرافي والحدود:

شغل إقليم الشام دوراً سياسياً وجغرافياً هاماً على مر العصور، وذلك لموقعه المتوسط بين قارات العالم، وغنى أرضه وحضارة سكانه كل هذا أضفى عليه شهرة واسعة، يضاف إلى ذلك كونه طريق اتصال بري وبحري.وقد شكل البحر المتوسط الحد الطبيعي لبلاد الشام من الغرب، وعلى هذا البحر تقع مدن الساحل الشامي التي شكلت جسر ارتكاز لنقل المؤثرات الحضارية منها وإليها وفي الحقيقة فإن إقليم الشام يقع في الإقليم الرابع[١]،وعرف ساحله باسم البحر الشامي أو البحر المتوسط[٢] وقديماً عرف باسم بحر الروم[٣]،وتعود تسميته بالبحر الشامي لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه[٤] كما سمي البحر المتوسط بالبحر الكبير[٥]،ولأن مدن الساحل الشامي متسلسلة ومتجاورة وفيما يوجد في واحدة يوجد في أخرى لذلك ستتم دراسة أبرز المدن التي قامت على الساحل الشامي:

- **أنطاكية:** وتعد قصبة العواصم من الثغور الشامية، فهي بلدة كبيرة ذات أعين وسور عظيم، تحوي ثلاثمائة وستين برجاً، وأيضاً لها خمسة أبواب ،وداخل هذا السور يوجد قلعة كبيرة موصوفة بالنزاهة وكثرة الفاكهة[٦].

---

(١) – الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٩م، مج٢، ص٦٤٣.

(٢) – فابري (فليكس): جولات الراهب الدومينكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي ١٤٨٠-١٤٨٣م من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جـ٣٨، ص٢٢٠.

(٣) – الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص١٤٥.

(٤) – القلقشندي (أحمد بن علي ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، جـ٣، ص٢٣٩.

(٥) – يسوغ أحد المؤرخين الفرنجة سبب تغير أسماء المدن والأماكن بشكل تدريجي أنه عائد إلى تغير الأمم التي سكنت البلاد في أوقات مختلفة.

(٦) – البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، د.م، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، جـ١، ص١٢٤-١٢٥.

- **اللاذقية:**

من أجمل مدن الساحل تقع غربي جبلة بينهما ستة فراسخ، محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث، وميناؤها من أعجب الموانئ وأكثرها اتساعاً، فهي مدينة المتعة والعمارة.[١]

- **بانياس:**

تلك المدينة الصغيرة الحسنة، التي تميزت بكثرة خيراتها من أنهار وأشجار حمضيات، وتشكل حصناً منيعاً.[٢]

- **طرابلس:**

تقع على شاطئ البحر وتميزت بسورها الصخري القوي البنيان، وقد وجد في بساتينها من الفواكه ما لا يوجد في سائر الأقاليم.[٣]

- **بيروت:**

مدينة مشهورة جليلة تميزت بحسن أسواقها وبخصوبة أرضها التي أدت إلى كثرة بساتينها حيث تصدر الفاكهة والحديد إلى مصر.[٤]

- **قيسارية:**

تقع في جنوب الساحل الشامي وتعد من أعمال فلسطين فهي من أمهات المدن العظام.[٥]

- **أرسوف:**

توجد بين قيسارية ويافا فيها سوق كبير، وهناك ثمانية عشر ميلاً بينها وبين قيسارية.[١]

---

(١) – أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): تقويم البلدان، تحقيق: البارون ماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٥٠م، ص٢٥٠، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٣، ص١١٩٤.

(٢) – الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٦٤٤-٦٤٥، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٠.

(٣) – شيخ الربوة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢١م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ٢، ص٨٨٢.

(٤) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٦-٢٤٧، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٢٤٠، ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص٢٦٥.

(٥) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩.

- **يافا:**

تقع مدينة يافا الساحلية بين قيسارية وعكا، تميزت بكثرة رخائها، حيث كانت حصناً منيعاً فيه أسواق عامرة، وفي مينائها الكبير مرسى للمراكب الواردة إلى فلسطين.[٢]

- **عسقلان:**

من أجل وأجمل مدن الساحل ويقال أنها عروس الساحل، فيها آثار قديمة على جانب البحر، بينها وبين غزة ثلاث فراسخ، وهي من جملة ثغور الإسلام الشامية، يشرب أهلها من آبار حلوة، وتقاس المسافة بينها وبين غزة باثني عشر ميلاً وبينها وبين الرملة بثمانية عشر ميلاً.[٣]

---

(١) – البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٥٦.

(٢) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩.

(٣) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ٢، ص٩٤٠.

ثانياً: البنية الجغرافية والتضاريسية للساحل الشامي:

اعتاد المؤرخون أثناء كتابتهم عن تاريخ منطقة معينة أن يقدموا عنها كلاماً موجزاً في تخومها وجبالها وسهولها وبحيراتها وأنهارها، وأشهر مدنها لأن التاريخ والجغرافية يكملان بعضهما بعضاً لذلك لا بد من دراسة الشريط الساحلي الشامي جغرافياً وتضاريسياً وأثر ذلك على الإنسان وكيفية تفاعله معه.

تتباين مظاهر سطح الشريط الساحلي بشكل ملحوظ حيث يضم ثلاث وحدات تضاريسية هامة وهي:

أولاً: الساحل:

يشكل الساحل الشامي على البحر المتوسط وحدة تضريسية ذات ميزات طبيعية وبشرية تجعله ذا أهمية بالغة، يقسم إلى قسمين: شمالي متعرج تربته خصبة ومناخه دافئ ومياهه متوفرة.[١] حيث يبدأ من لواء اسكندرون شمالاً إلى الجنوب، والذي يعد أحد الحصون على ساحل البحر المتوسط[٢]. وأهم ما يميز هذا الساحل تعاقب الرؤوس والخلجان من ناحية الجنوب مع تعرجات واضحة كبيرة في وسط الساحل تبدو خلالها الرؤوس على شكل محدبات كما في محدب جبلة. أما الخلجان فأبرزها خليج السويدية الذي تميز بمنحدراته الكثيرة من الشرق إلى الغرب، وإلى الشمال من محدب جبلة، تقع بانياس في بقعة تأثرت بحركة المجاورة حيث بني القسم الجنوبي فيها فوق طبقة من أصل بركاني. أما القسم الشمالي فهو مبني فوق توضعات رسوبية أكثر حداثة[٣] وإنّ ما يميز الأجزاء المقعرة والخلجان هو امتداد الأرصفة القارية الساحلية بعمق متدرج يصل إلى مئات الأمتار ما عدا مناطق الرؤوس والخلجان فإنها لا تمتد سوى بضعة أمتار فقط [٤]. أما القسم الجنوبي من هذا الساحل فهو رملي قليل التعاريج

---

(١) – المعجم الجغرافي لسوريا: مركز الدراسات العسكرية، ط١، ١٩٩٢م، مج٤، ص٤٦٣.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٥٦.

(٣) – أثناسيو (متري هاجي): سوريا الشمالية، دمشق، مكتبة النيل، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٢٧، الدبس (يوسف): تاريخ سوريا، مراجعة: مارون رعد، دار نظير عبود، ١٩٩٤م، ص٢٢٧.

(٤) – موسى (علي): في ربوع سوريا (جغرافياً وسياحياً)، دمشق، مطبعة الشام، ١٩٩٥م، ص٢٩٨.

لابتعاد الجبال عن البحر، ويشكل قوساً مقعرة تنتهي في خليج عكا، وقبالة هذا الساحل توجد مجموعة من الجزر الصغيرة البارزة فوق سطح المياه أهمها جزيرة أرواد وهي جزيرة صخرية في أعماق البحر[١] قاحلة لا تغطيها التربة[٢] تبعد عن الشاطئ حوالي ٢.٥كم[٣] ويحيط بها من الشمال والغرب والجنوب جزر صغرى.[٤] أما مياه البحر المتوسط فهي دافئة نسبياً تتراوح حرارتها بين °[17–18] درجة مئوية، كما أن حركة المد والجزر ضعيفة، حيث يسود تيار بحري ساحلي مساير للساحل من الجنوب إلى الشمال.[٥]

ثانياً: السهل الساحلي:

تمتد السهول الساحلية على طول الساحل من الشمال إلى الجنوب مثل سهل اسكندرونة وسهول اللاذقية وجبلة وطرطوس. حيث تكونت من الحت والترسيب ومن لحقيات الأنهار، فهي سهول خصبة على العموم تلي الساحل مباشرة على شكل أشرطة متقطعة نسبياً بينما تتسع في مناطق الخلجان. والتقعرات كما هو الحال في سهول اللاذقية وجبلة وطرطوس.[٦]

ويعد سهل جبلة من أعرض هذه السهول وأكثرها خصوبة وأهمية يبلغ طوله حوالي ٤٣كم، يروي نبع السن قسماً منه أما القسم الثاني من هذا الساحل فيبدأ من جنوب بانياس بتلال بركانية تصل إلى شاطئ البحر غرب المرقب حيث ينعدم الشريط هنا ثم يعود للظهور جنوباً على شكل شريط لا يتجاوز عرضه ٢كم[٧] حتى يصل إلى مشارف طرطوس، وفي جنوبها يشق

---

(١) – بورتشارد: وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، جـ٣٧، ص١٥٧–١٥٨، دي فيتري : المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، جـ٣٤، ص١٥٠.

(٢) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٥٨.

(٣) – موسى: في ربوع سوريا جغرافياً وسياحياً، ص٢٩٨.

(٤) – كوكيد (جان بول ري): كتابة جديدة من أرواد، تعريب: عدنان البني، مجلة الحوليات الأثري، مج٨، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٥٤.

(٥) – عبد السلام (عادل): الأقاليم الجغرافية السورية، دمشق، مطبعة الاتحاد، ١٠٤١– ١١٤١هـ/ ١٩٨٩– ١٩٩٠م، ص١٩٨.

(٦) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٧.

(٧) – المعجم الجغرافي لسوريا، ص٤٦٣– ٤٦٤.

هذا السهل عدداً من الأودية النهرية القادمة من السفح الغربي للجبال الساحلية مثل النهر الكبير الشمالي والجنوبي ونهر السن ومرقية.[١]

بينما يتميز خط الساحل في لبنان بكثرة تعاريجه وتعدد خلجانه ورؤوسه وينقسم إلى قسمين: شمالي طرابلس وبيروت وجنوبي بيروت حتى رأس الناقورة، فالقسم الأول صخري أكثر تعرجاً تنتشر فيه الرؤوس والخلجان الصغيرة، أهمها رأس المينا في طرابلس يليه جنوباً رأس الشقعة المرتفع الذي يحمي خليجاً صغيراً في شماله، ثم خليج جونيه ذو الشكل الهلالي المفتوح غرباً، وينتهي هذا القسم بخليج بيروت (مار جرجس) ورأس بيروت الممتد في البحر والذي أقيمت عليه مدينة بيروت.

أما ساحل فلسطين فهو رملي مستقيم إذا استثني منه بروز الكرمل وبعض النتوءات في عكا ويافا لذلك فهو رملي قليل الصلاحية في إنشاء الموانئ وذلك لضحالة عمق مياهه وقلة تعاريجه.[٢]

ثالثاً: الجبال الساحلية:

جبال التوائية قديمة تعرضت لعوامل التعرية ولحركات التصدع والانكسار، وتمتد على شكل نطاق متقطع مواز للبحر من الشمال إلى الجنوب، حيث تتألف من عدة كتل تطغى على معظم أجزائها الصخور الكلسية وينحدر سفحها الغربي من الشمال بشكل تدريجي نحو السهول الساحلية أما انحدار السفح الشرقي فيكون نحو الأودية.

وقد قطعت الممرات والفتحات الجبلية وأودية الأنهار هذه الجبال إلى عدة أقسام منها:

جبل اللكام (الأمانوس):

يبدأ من جنوب جبال طوروس في آسيا الصغرى، وينتهي عند مصب نهر العاصي شمالاً على مقربة من السويدية حتى ينقطع هناك مقابل جبال الأرمن،[٣] أما تسميته باللكام فتعود إلى

(١) – البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٣، ص١٢٦٠.

(٢) – دويدري (رجاء وحيد): جغرافية الوطن العربي، جامعة دمشق، مطبعة طربين، ١٤٠١- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨١- ١٩٨٢م، ص٦١-٦٢، عبد الله (عبد الفتاح لطفي): جغرافية الوطن العربي، عمان، دار المسيرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٨.

(٣) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٨٠-٨٤، ٨٩.

تسمية في الكتب القديمة،[١] وتعد هذه الجبال من أكثر جبال المنطقة ارتفاعاً وأشدها وعورة تتجه من الشمال الشرقي ثم تضيق في الوسط، وبعدها تتابع إلى الجنوب الغربي، ويلاحظ أن انحداراتها الغربية وخاصة في أقصى الجنوب تكون شديدة نحو البحر، وفي جنوب مصب نهر العاصي يبدأ جبل جديد يسمى جبل الأقرع.

جبل الأقرع (كاسيوس):

وهو أعلى جبال الشام حيث يبلغ ارتفاعه ١٧٦٨م، وفي جنوب هذا الجبل هناك سلسلة جبلية تنتهي على مقربة من دير الحميرا[٢] وتعرف باسم جبال اللاذقية[٣]، والتي كانت تعرف قديماً باسم جبال بهراء وتنوخ.[٤]

وتحفل هذه الجبال بغاباتها حيث تغطيها أشجار الصنوبر السنديان[٥]، وتتميز بتربة حمراء خصبة غنية بغطائها النباتي[٦]، وبسفوحها الشديدة الانحدار خاصة السفوح الغربية المطلة على كل من مدينتي اللاذقية وطرطوس، ويتدرج ارتفاع هذه السلسلة الجبلية من الجنوب نحو الأعلى حتى أنها تأخذ مظهراً تلالياً إلى الشمال من حمص[٧]، حتى تصل إلى أقصى ارتفاع لها في شرق صلنفة بعدها تنحدر بشكل شاقولي تقريباً باتجاه الوادي الكبير الشمالي، وتتخذ هذه السلسلة شكل كتل جبلية متعددة خلفتها عوامل التعرية المائية التي كانت السبب الرئيسي في تشكيل هذا التضريس الواضح[٨]، أما من جهة الشمال فتأخذ حافات الأخدود بالارتفاع التدريجي حيث تشكل جبال لبنان الغربية والشرقية عقدة الكتل الجبلية في بلاد الشام. وقد عملت الصدوع على ظهور أعالي الثنيات المحدبة على شكل حافات صخرية شديدة الانحدار تشرف على

---

(١) – سانوتو : الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، ، جـ٣٦، ص٢٥٧.

(٢)– دير الحميرا: لم أعثر لها على ترجمة.

(٣) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٢٢، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص١٤٨–٢٥١.

(٤) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٧١.

(٥) – جوهر (دلال): جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، طـ١، ١٩٩٢م، جـ١، ص٢٠٤.

(٦) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٣٢.

(٧)– حمص: هي أحد قواعد الشام وهي ذات بساتين شهرتها من نهر العاصي، وبظاهر حمص على بعض ميل يجري النهر المقلوب وهو نهر الارنط ولهم عليه أجنة حسنة وكروم. (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤١).

(٨) – غلاب (محمد): الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، طـ١، ١٩٦٩م، ص٣٠٠.

الجانب الغربي لسهل البقاع، وكأنها حائط جبلي رأسي على طول محور ثنية مرتفعات لبنان الغربية المحدبة، وتظهر أعالي المرتفعات الجبلية ممثلة من الجنوب إلى الشمال في جبال أبو رشيد...، وإلى الشمال من ظهر البيدر تحتل قمم جبال الكنيسة، كسروان، المنيطرة، الأرز، قرنة السودا ٣٠٨٨م أعالي المحور الرئيسي لهذه الثنية المحدبة بينما تتدرّج السفوح الغربية بانحدارها باتجاه البحر، وتشكل القسم الشرقي في أرض لبنان يمتد محورها[١] الرئيس في اتجاه عام من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بين بلدتي حاصبيا في الجنوب وحسيا في الشمال، وفي أعالي المحور الرئيس لهذه الثنية المحدبة العظمى تقع مجموعة جبال بين المرتفعات الجبلية تسمى جبل الحرمون.[٢]

أما الحافة الغربية فتبدأ بجبال الجليل[٣] على شكل كتلة جبلية مربعة الشكل لها شكل الجبال والتلال المستديرة، وتختلف عن كتلة جبال الخليل بتنوع مظاهرها الطبيعية ما بين سهول وتلال ووديان، يعلو قسمها الشمالي عن الجنوبي بكثير، وأعلى ارتفاع يقع شمال غرب صفد[٤] في قمة جبل الجرمق ١٢٠٨م وهو أعلى قمة في فلسطين، وإلى الجنوب من جبال الجليل تمتد جبال الخليل وهي مقطعة كثيرة الوديان يعرف القسم الشمالي منها باسم جبال السامرة، وهي منطقة كثيرة التلال مستديرة جبلية المظهر يتخللها كثيراً من السهول والوديان الصغيرة، تنتهي كتلة جبال الخليل في الجنوب لتبدأ هضبة النقب التي يشكل فيها بئر السبع الحد الفاصل بينهما.[٥]

---

(١) – دويدري: جغرافية الوطن العربي، ص٥٣-٥٤، عبد الله: جغرافية الوطن العربي، ص٣٧، الهيثي (صبري فراس)، أبو سمور (حسن): جغرافية الوطن العربي، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٤٢-٤٣.

(٢) – دويدري: جغرافية الوطن العربي، ص٥٤، جوهر: جغرافية العالم الإسلامي، ص٢٠٤، الهيثي، أبو سمور: جغرافية الوطن العربي، ص٤٢، غلاب: الساحل الفينيقي، ص٣٠٠.

(٣)– الجليل: جبل في ساحل الشام تمتد إلى قرب حمص، الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص١٨٣.

(٤)– مدينة في جبال عامل المطلة على حمص الشام وهي من جبال لبنان شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧٧.

(٥) – دويدري: جغرافية الوطن العربي، ص٥٣، عبد الله: جغرافية الوطن العربي، ص٣٧.

ثالثاً: الحياة الاقتصادية في مدن الساحل الشامي:

شهدت الحياة الاقتصادية في مدن الساحل الشامي، في حقبة الحروب الصليبية نشاطاً ملحوظاً في أوقات السلم لكن من المرجح أن هذا النشاط لم يكن بالسوية نفسها وقت الحرب. وإنما طرأ عليه تغيرات كبيرة، وقد شمل هذا النشاط جميع جوانب الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، حيث هيأت الظروف المناخية التي عمت البلاد، عوامل نجاح الزراعة بكافة أنواعها من فواكه ومحاصيل، كما ازدهرت الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية، ومن أهم هذه العوامل هو توافر المواد الأولية، والميزة الحسنة للموقع الجغرافي، إضافة إلى نشاط المدن التجارية الإيطالية (جنوه- البندقية- بيزا) في تجارتها مع مدن الساحل الشامي، وبما أن الاقتصاد كان يقوم على دعائم أساسية هي الزراعة والصناعة، إضافة إلى التجارة فلا بد من تبيان تلك الدعائم التي كان على رأسها:

١. الزراعة:

احتلت الزراعة مركزاً هاماً في الحياة الاقتصادية، فمعظمها كانت بعلية تعتمد على الأمطار، بينما كان البعض الآخر مروياً يعتمد على الأنهار والآبار وغيرها، كما وجدت مقومات أساسية جعلت الزراعة ناجحة، من أهمها المناخ والمياه والتربة الخصبة، وجميعها متوافرة في مدن الساحل الشامي وهذا ما ساعد على نمو أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية، أما المناخ فهو متوسطي، رطب ،ماطر شتاء، وحار صيفاً، وهذا يناسب جميع المزروعات[١] وكانت التربة من أخصب أنواع الترب ((ومعظم تربتها حمراء فهي تفرح النفس)).[٢]
انتشرت في مدن الساحل الشامي المحاصيل الزراعية االمتنوعة مثل القطن والفستق وأشجار الفاكهة والقمح والخضراوات المتنوعة... الخ.[٣]

---

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩٠، الشنتاوي (أحمد): دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٩م، جـ٢، ص١٨، المعجم الجغرافي لسوريا: مركز الدراسات العسكرية، ص٤٦٤.
(٢) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٣٣.
(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٦٤٢- ٦٤٥، شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧٥-٢٧٦، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩، كردعلي (محمد): خطط الشام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦٩م، جـ٤، ص٨٣.

ولذلك لا بد من معرفة أهم الزراعات والمحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها بلاد الشام؟

تنوعت الزراعات بين مدينة وأخرى أما أهمها فكانت نبته القطن، وقد انتشرت زراعتها في جبال اللاذقية[١]، وهي نبته سنوية وأوراقها مثل أوراق الكرمة، لكنها أصغر وينمو فوقها جوزات في داخلها القطن[٢] ويلي القطن أهمية قصب السكر الذي يشابه القصب العادي، ويعد من أهم المنتجات الغذائية الرئيسية نظراً لحاجة السكان الماسة إليه، وقد انتشرت زراعة قصب السكر في المنطقة بكثرة وخصوصاً في مدينة بانياس والمرقب وصور وصيدا وعكا[٣]، وتعد هذه الزراعة من الزراعات المتميزة، ويوجد في داخل قصب السكر تجويف مليء بمواد ليفية تشبه ما يجده الإنسان في الأخشاب القديمة، وهذه الألياف كثيرة الماء، ويجمع القصب ويشطر طولياً، ويقطع إلى قطع طول الواحدة منها نصف شبر، ثم يعصر بالمعصرة، وبعد هذا يتم غلي العصير المستخرج منها في غلايات نحاسية، وعندما يصبح سميكاً يجمع في سلال ويصنع على شكل قوالب مستديرة وعلى الفور يصبح بعد هذا جافاً وقاسياً، هذه هي الطريقة التي يصنع فيها السكر[٤] فإذا كانت زراعة قصب السكر حظيت باهتمام كبير في مدن الساحل الشامي فإن زراعة الزيتون حظيت باهتمام أكبر لأنها مورد مهم للسكان تجارياً، باعتبارها تدر الأموال والأرباح الطائلة وقد كثرت زراعته في طرطوس[٥] وصافيتا، وجبلة، وصور، وعسقلان، ويافا وأرسوف، وقيسارية[٦]، واللاذقية التي تزرع فيها أنواع عديدة أهمها الخضيري، الطمراني، وقلب

---

(١) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٦.

(٢) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٦، كردعلي، جـ٢، ص١٧٩.

(٣) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٦، ماير (هانس أبرهارد): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم، دمشق، دار المدى، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٥٣.

(٤) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٦، شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧٦.

(٥) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلا ل الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص١٥٧، كردعلي: خطط الشام، ج،٢، ص١٧٩.

(٦) – ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٣.

الطير[١]، وقد قيل عنه: ((وفيه الغاية من الكثرة، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلاد))[٢].

وكان للحمضيات حصة من زراعات مدن الساحل، لاسيما تلك المدن التي تقع ضمن البيئة المتوسطية الدافئة، والتي تعيش فيها الحمضيات بأنواعها كالأترج (تفاح فارسي) والليمون[٣]، وأهم المدن التي اشتهرت بتلك الزراعة صهيون، قيسارية، بانياس[٤]، ويضاف إلى ما سبق أن سكان جبال الساحل لم يهملوا زراعة التين والكرمة، و اهتموا بها لأسباب عدة وكانت الكرمة تزرع بعلاً، وتؤكل طازجة، أو يصنع منها زبيب أو دبس أو نبيذ[٥]، وتوجد الكرمة بكثرة حول صيدا وطرطوس والمرقب ونابلس[٦]، ولها أصناف مختلفة من أهمها عنب الشيخ وأصبع الست[٧]، بينما اشتهرت أنطاكية بزراعة التين، وغطت أشجاره سهول طرطوس وقيسارية[٨] **وإذا كانت هذه أهم زراعات مدن الساحل فمن الضروري معرفة وضع الفلاحين في تلك المنطقة.**

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩٠.

(٢) – كردعلي: خطط الشام، جـ٢، ص١٧٩.

(٣) – ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم: سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧م، جـ٤، ص٢١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩٠.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢١٧، شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧٦، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٢.

(٥) – كردعلي: خطط الشام، جـ٢، ص١٨، الزين (سميح وجيه): تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، بيروت، دار الأندلس، د.ت، ص١٤٣.

(٦) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٨.

(٧) – كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٨٠.

(٨) – القلقشندي:: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩٠ ،بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص١٥٧، ، حسين (حسن عبد الوهاب): تاريخ قيسارية والشام في العصر الإسلامي، تقديم: محمد محمد مري الشيخ، اسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م، ص٢٤٣.

من الواضح أن الفلاح قد عانى كثيراً من الظلم والمصادرات وإتلاف المزروعات في حقبة الحروب الصليبية[١]، إذ أن الأوروبيين نقلوا معهم النظام الإقطاعي السائد في مناطقهم، كما نقلوا معهم أشكال العلاقات الإقطاعية مع ضرورة ملاحظة شكل الاختلاف الذي فرضته طبيعة الاحتلال الصليبي، وما نتج عنه من علاقات إقطاعية قائمة على الخدمة العسكرية بشكل أساسي، وعلى استنزاف الإقطاعات لتمويل خزائن مملكة بيت المقدس الصليبية لمواجهة هجمات المسلمين المتكررة، مع العلم أن الصليبيين في المشرق العربي نظموا أمور الزراعة وقسموا الأراضي إلى وحدات عرفت باسم الكاريوكا، تمت زراعتها بالعديد من المحاصيل والأشجار والخضراوات[٢]، وقد تم تنظيم الحقول بسلاسل من الحجارة من أجل تفادي المشكلات التي كانت بين أصحاب الأراضي المتجاورة، ولا يخفى دور الطبقة الغنية– البرجوازية– الحيوي في المستعمرات التي أقامها الصليبيون كمراكز حضارية ذات توزيعات مختلفة ومتعددة تدعيماً للوجود الصليبي في مواجهة الكثافة السكانية المسلمة، ومعنى ذلك أن الزراعة دخلت ضمن مخطط الصليبيين فلم يجعلوا المسلمين يحتكرون العمل بها، زد إلى ذلك قيام بعض المستوطنين الأوروبيين القادمين إلى بلاد الشام بممارسة الزراعة، والعمل بها[٣] وقد أدت سيطرة الفرنج على الشام إلى هروب الكثير من الفلاحين ومالكي الأراضي الزراعية مسلمين كانوا أم مسيحيين، تاركين وراءهم مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، بسبب الاضطهاد المحلي الممارس ضدهم. وقد أدى هروبهم إلى الاستعانة بالمزارعين الغربيين[٤]، كما ارتبطت حالة الفلاح البائسة بنظام الحكومات أي أصول الإدارة المتبعة التي لم تؤسس على ما يجب فكانت المظالم أشد

---

(١) – كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٤٣.

(٢) – عوض (محمد مؤنس): الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩– ٢٠٠٠ م، ص١٣٧.

(٣) – ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٨، عوض: الحروب الصليبية، ص١٣٧، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٣٧–٤٢.

(٤) زابوروف (ميخائيل): الصليبيون في الشرق، موسكو، دار التقدم، ١٩١٦، ص١٣٣، ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥.

تأثيراً عليه[١] هذا إلى جانب المعاملة السيئة التي تلقاها، وما تعرض إليه من سلب ونهب وتشتيت أسرته نتيجة للصراعات بين المسلمين والفرنج، يضاف إلى معاملة الفرنج السيئة للفلاحين، وما تعرضت له المنطقة من كوارث طبيعية، ومناخية، بيئية، سياسية نجم عنها أزمات اقتصادية، ومثال ذلك ما يرويه أحد المؤرخين أنه في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م وهي بداية حكم الظاهر بيبرس عندما حدث غلاء شديد في بلاد الشام نتيجة تلف مقادير هائلة من الغلال، و كثرة الفئران وعندئذ تم استيراد الغلال من المناطق التي يسيطر عليها الفرنج في بلاد الشام، وإن كانوا قد أخذوا مقابلها المال الكثير، إضافة إلى الزلازل المتكررة على المنطقة والتي أدت إلى تصدع المدن، وفقدان قسم كبير من سكانها وهلاك زرعها[٢] ومن الطبيعي أن هذه الزلازل ضربت مدن الساحل الشامي، وأحدثت دماراً وخراباً فيها ولا أدل على ذلك إلا الزلزال الذي ضرب طرابلس وصور وعكا ما بين سنة ٥٧٥- ٥٩٨هـ/ ١١٧٩- ١٢٠١م[٣]، والذي كانت نتائجه كارثية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي فمن المتوقع تناقص في أعداد السكان نتيجة فناء الكثير منهم ، يضاف إلى ذلك تضرر المزروعات والمصنوعات لما لحق بها من دمار وخراب واضح ، وانعكست الأوضاع السياسية خراباً أيضاً على الزراعة نتيجة الغزو والحروب ما أدى إلى خراب المزروعات، نقص اليد العاملة نتيجة عمليات القتل والتشريد، فكان لابد من الاستعانة بالمدن التجارية التي يسيطر عليها الفرنج، وهي التي سلمت من تخريب المغول، وتم جلب كميات كبيرة من الحبوب وغيرها من مناطق إقامتهم[٤].

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٣٤، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٣٧.

(٢) – ابن واصل، جـ٦، ص٣٢٢، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٣٤.

(٣) – ابن الأثير، جـ٩، ص٢٥٥، ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، جـ١٣، ص٢٧٧.

(٤) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٧٧-٢٢٨، ابن تغري بردي الأتابكي، جـ٩، ص١٧٤.

وإذا كانت آثار الاحتلال الصليبي للمشرق العربي الإسلامي سلبية فإنها لم تكن ذلك بالنسبة للغرب الأوروبي بل كانت إيجابية على الصعد كافة خاصة الاقتصادية منها فعندما عاد أبناء الغرب الأوروبي إلى بلادهم سواء منهم الذين فضلوا العودة أو الذين تم طردهم من بلاد الشام عقب سقوط عكا آخر معاقل الفرنج سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[١].

عادوا ومعهم الأدوات والأساليب الجديدة بالنسبة للمجتمع الزراعي الأوربي فعن طريق سواحل بلاد الشام عرفوا الأسمدة الزراعية، والأساليب الزراعية التي لم يعرفوها من قبل، فرأى أبناء الغرب الأوروبي أن النظم الموجودة في الشرق العربي تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتادوه فقد اقتبسوا طرقاً جديدة وعادوا إلى بلادهم ليطبقوها هناك[٢]. وليس هذا فحسب بل ذكر أحد المؤرخين أنهم نقلوا إلى أوطانهم نباتات وحاصلات وأشجار جديدة لم تكن لهم معرفة بها من قبل، كالسمسم والذرة والأرز والليمون والبطيخ، والمشمش وقصب السكر والثوم وغيرها[٣]. وإذا كانت الزراعة تأخذ حيزاً كبيراً من حياة مدن الساحل في بلاد الشام فإن حرفة الرعي وتربية الحيوان ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً باعتبار أن المنطقة تتلقى أمطاراً سواء أكانت متوسطية أم قليلة لا تكفي لقيام زراعة مستقرة، وتختلف المراعي باختلاف كميات الأمطار فإذا كان المطر غزيراً والعشب نضيراً ساعد ذلك على قيام تربية الماشية مثل الأبقار والأغنام التي تشكل دخلاً

---

(١) – ابن المغيزل (نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفري ت ٧٠١هـ/ ١٣٠١م): ذيل مفرج الكروب في أخبار بين أيوب، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، صيدا، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٤٠– ١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، ابن العماد الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي ت١٠٩٨ هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق الأرناؤوط، دمشق،بيروت،دار ابن كثير،ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، جـ٧، ص٧٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٩٧، عمران (محمود سعيد): تاريخ الحروب الصليبية، ١٠٩٥–١٢٩١م، بيروت، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٩٩م، ص٣٣٩.

(٢) – محمود (علي السيد علي): العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، د.م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٣٧.

(٣) – باركر (أرنست): الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية، ط٢، د.ت، ١٥١.

اقتصادياً هاماً نظراً لفوائدها المتعددة من أصواف وألبان ولحوم[١]، كما يوجد الكثير من الظباء والأرانب ومختلف أنواع الوحوش الضارية.[٢]

٢. الصناعة:

شغلت الصناعة ركناً أساسياً من أركان الحياة الاقتصادية في مدن الساحل الشامي نتيجة لتوفر المواد الخام الأولية اللازمة لها، والأيدي العاملة الخبيرة، إضافة إلى الآلات والمصانع أو الورشات سواء أكانت صغيرة أو كبيرة وعلى سبيل المثال لا الحصر مصانع السلاح، مصانع السفن أو الأسطول وغيرها الكثير الكثير والتي رفدت خزينة البلاد بأموال طائلة ومن أهم تلك الصناعات:

أ- الصناعات الغذائية:

١. صناعة الزيت:

كثرت زراعة الزيتون في طرطوس وصافيتا وصور ويافا وعكا مما جعل الحصول عليه سهلاً، وما من قرية من قرى إقليم الشام إلا شوهد فيها معصرة حجرية لعصر الزيتون، فبعد قطف الثمار يقوم الفلاحون بجمع المحصول، ثم يرسلونه إلى المعاصر التي كانت تدار بواسطة الإنسان أو الحيوان، وبعد أن يتم عصر الزيتون يأتي الفلاحون ويستلمونه زيتاً خالصاً[٣]، وقد كان الزيت يصدر إلى البلاد العربية والإسلامية بكميات وفيرة.

٢. صناعة السكر:

ولما كان قصب السكر مليء بالعسل. فقد كان يحصل عليه الناس بواسطة سحق القصب بالضغط ثم يتم تكثيف العصير على النار، وبذلك يصنع الناس أولاً نوعاً من العسل ثم سكراً[٤]، وقد انتشرت زراعته في بانياس والمرقب وصور وصيدا وعكا[١].

---

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩١.

(٢) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩١.

(٣) – ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م): بغية الطلب في تاريخ حلب، من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، جـ١٤، ص٢٢.

(٤) – دي فيتري :المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٣، ص١٥٨.

٣. طحن الحبوب:

طحن الحبوب وخاصة القمح وعملية الطحن تحتاج إلى مطاحن و التي كانت ((عبارة عن أحجار رحى يديرها الماء بقوة انحداره)).[٢] وبعض هذه الطواحين ركبت على مياه الأنهار كالعاصي مثلاً حيث تعمل وتطحن بشرط توافر جريان الماء.[٣]

ب- الصناعات النسيجية:

ومثلما اشتهرت مدن الساحل الشامي بالصناعات الغذائية، فإنها فاقتها شهرة بالصناعات النسيجية وخاصة الملابس المحلية، حيث حيكت الأنسجة الحريرية ذات الشهرة والجودة الفائقة[٤]، والصوفية، والقطنية، وغيرها وإن كانت تتفاوت في شهرتها بين مدينة وأخرى، وعلى الرغم من أن أوربا كانت على مقدرة كافية وشهرة في صناعة السلع الكتانية والصوفية التي صدرتها بكميات معقولة إلى آسيا، إلا أن مهارتها الفنية كانت عاجزة في صناعة القطن، والحرير لعدم وجود الحرفيين أو الصناع الماهرين البارعين في تلك الصناعة، لهذا استوردت أوربا كميات كبيرة من الأقمشة الجاهزة من الشام، فقد احتاج أصحاب المناصب الرفيعة في الكنيسة والأمراء للملابس المطرزة بالقصب أو الذهب أو الفضة والأطلس (الساتان) التي تفوقت على جميع المنسوجات الغربية وكل تلك الملابس كانت ترد من الشام، ومن أشهر مدن الساحل الشامي التي أنتجت تلك المنسوجات طرابلس، صيدا، صور، أنطاكية، يافا وقد تفاخرت طرابلس بأنه يوجد لديها /٤٠٠/ نول حرير ولها عمال يعملون في صناعة المنسوجات الحريرية[٥]، وكثر الطلب في أوربا على حرير المشرق المعروف باسم البروكار الذي كان يجلب من الإسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية.

---

(١) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٣٦، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٩٢.

(٢) – كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٩٢.

(٣) – الحموي: معجم البلدان ، جـ١، ص٤١٩.

(٤) – فابري: جولات الراهب الدومنيكاني، جـ٣٨، ص٨٥، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١٢، النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص١٧٥.

(5) – Heyd (w): Histoirreales Commece dulevamt, Paris, 1936, 2voles, P12.

وقد ارتبطت الصباغة بالصناعات النسيجية ارتباطاً وثيقاً، وبما يتناسب مع جميع الأذواق، وقد عدت هذه الحرفة من الحرف التي احتكرها اليهود دون سواهم، حيث انتشرت في اللاذقية صناعة الأصباغ وتحضير الفراء، وكانت هذه الصناعة على جانب كبير من الأهمية لوفرة المادة الأولية التي تحتاجها فكانت من الصناعات المتقدمة ويلحق بهذه الصناعة دباغة الجلود[١] وإلى جانب الصناعات الغذائية والنسيجية انتشرت صناعة محلية فردية في كل المدن الساحلية تقريباً منها:

٣- صناعات متفرقة:

- صناعة الزجاج:

اشتهرت الشام وذاع صيتها بصناعة الزجاج والتحف الزجاجية، وذلك بسبب توافر المواد الأولية والأسواق اللازمة لتصريف هذه الصناعة، ومن المدن التي تفوقت بصناعة الزجاج صيدا وصور وحلب ودمشق وأنطاكية، وقد احتلت مكانة فائقة، كما صنع الخزف في كل من يافا وبيروت وصور وعكا[٢]، وترجع صناعة الزجاج إلى الفينيقيين القدماء الذين برعوا فيها، وتوارثها عنهم الأهالي حيث تفننوا في صناعة الكثير من النماذج والأشكال المختلفة، وإن الغرب الأوروبي أخذ تلك الصناعة عن بلاد الشام ولا أدل على ذلك من أن زجاج البندقية قد احتل المركز الأول في العالم الذي يرجع في أصوله الأولى ومواده الأولية إلى بلاد الشام.

وقد تمكن الفنانون البنادقة منذ القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد من محاكاة هذه النماذج، فلم تكن هذه المصنوعات حكراً على المصانع العربية الإسلامية، بل انتقلت من البندقية إلى غيرها من مراكز صناعتها في أوروبا والتي أنتجت الأواني الزجاجية، وكان التأثير العربي الإسلامي واضحاً عليها.

---

(١) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٩٤، النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاجتماعية، ص١٨٣، رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة البازالعريني ،د.م،١٩٨١،جـ٣، ص٦٠٣، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٥٨-٥٩.

(٢) – دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٣، ص١٥٠، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١٨.

- **صناعة الصابون:**

إن لهذه الصناعة ارتباطاً وثيقاً بمناطق استخراج الزيت ولاسيما زيت الزيتون الذي كثرت أشجاره في المدن الشامية، فقد اعتمدت عليه صناعة الصابون الذي انتشر استعماله في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد بوجه خاص. وأصبح ذو أهمية كبرى في المدن الشامية حيث أقاموا له المتاجر الخاصة به[١]. فكان يؤخذ من ثمار الزيتون الزيت المسمى بالجفت، والذي هو التفل المتبقي في قعر أحواض ترسيبية، ذو لون أسود ويستخدم في هذه الصناعة[٢].

- **صناعة الورق:**

للورق أنواع كثيرة لكن بعض مدن الساحل الشامي اشتهرت بصناعته. وقد كانت طرابلس من أهم مدن الشام في صناعة الورق الذي كان يتم إرساله إلى كثير من المدن الشامية المختلفة لجودته وشهرته بل لتفوقه على الورق الذي صنع في سمرقند[٣] نفسها من ذلك النوع[٤]، هذا إلى جانب أنها كانت من المصادر الهامة للحصول على مواد الصناعة التي اعتمدت على نوع من النبات كانت تستخرج من أصباغ أرجوانية اللون.[٥]

- **صناعة السلاح:**

تعد صناعة السلاح من أهم الصناعات في إقليم الشام عامة، وهي ليست جديدة كصناعة السيوف وآلات الحرب المصنوعة من الحديد نتيجة لاستيراد الحديد أو لوجوده في المنطقة حيث

---

(١) – القلشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩٠، الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، ص١٥٥، النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٩٦، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١٣.

(٢) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٩، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص١٩١، النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٩٦–٩٧.

(٣)– سمرقند: بلد معروف مشهور، وهو قصبة الصغد، على جنوبي وادي الصغد، مرتفعه عليه وهي مدينة عظيمة يقال أن لها اثني عشر باباً، بين كل بابين فرسخ، وهي من حديد وداخلها مدينة أخرى لها أربعة أبواب البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ٢، ص٧٣٦.

(٤) – ناصر خسرو (أبو معين الدين ناصر، ت، ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) سفرنامة، ترجمة: أحمد خالد الرياض، جامعة الملك سعود، ١٩٨٣م، ص٤٨، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١١، الزين: تاريخ طرابلس، ص١٥٥.

(٥) – محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١١.

يوجد على مقربة من بيروت جبل فيه معدن الحديد[١] كان يستخرج منه كميات كبيرة من الحديد، وتصدر هذه الكميات إلى دمشق لصناعة الأسلحة وكذلك إلى مصر.[٢]

- **صناعة القوارب والسفن:**

تعد من الصناعات القديمة المتجددة التي كانت موجودة في بعض مدن الساحل الشامي كبيروت وعكا وأنطاكية، حيث زودت المدن الشامية الخاضعة للحكم العربي الإسلامي وحكام مصر بكميات كبيرة من الأخشاب اللازمة لأغراض البناء والعمارة وبناء السفن.[٣]
وقد وجدت في المناطق التي استولى عليها الفرنج أهم أنواع غابات الأشجار كالسرو والصنوبر والأرز، كما وقع بأيديهم أهم الغابات التي اشتهرت في العصور الوسطى كغابة عسقلان وأرسوف، وجبل لبنان، بالإضافة إلى سهول طرطوس ومحيطها واستخدمت أخشابها في صناعات متعددة منها المباني والأدوات المنزلية إلى جانب السلالم والآلات الحربية من منجنيقات ودبابات تجرها العجلات،[٤] كما صنع من هذه الأخشاب السفن التي تركزت في مدن عديدة من الساحل الشامي مثل حصن سليمان.[٥]

٣. التجارة:

تعد التجارة الوسيلة الوحيدة لتصريف الإنتاج الزراعي والصناعي، وهي عمليات البيع والشراء، وتخضع التجارة الداخلية لأحكام المعاملات العامة بين المواطنين، أما التجارة الخارجية فلها أحكامها الخاصة، وسواء كانت داخلية أم خارجية فإنها حققت دخلاً عظيماً لأصحابها،

---

(١) – ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحلبي ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢م، ص١٠١-١٠٢.

(٢) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٣.

(٣) – ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص١٠٢.

(٤) – بورتشارد وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٥٧.

(٥) – حصن سليمان: حصن قديم يقع جنوب جبال اللاذقية على مسافة ١٤كم شرقي دريكيش و٥كم عن طرطوس بارتفاع ٨٠٠م، يعود تاريخه إلى القرن ٥ ق.م، وهو أكبر هيكل للإله المحلي عشتار الذي عرف بمعبد البعل، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٥.

لاسيما أن مدن الساحل الشامي تعد مدناً تجارية بالدرجة الأولى، فهي تمتلك كل المؤهلات اللازمة لذلك.

وقد شغلت الأحداث السياسية والعسكرية دوراً هاماً في التأثير على حركة التجارة وطرقها حيث ظلت الطرق التجارية البرية والبحرية غير آمنة، وأصابها بعض التخريب لذلك نالت عناية كبيرة من قبل حكامها، وأصدرت العديد من القوانين والنظم التي كان هدفها حماية التجارة، ومنها حسن معاملة التجار الأجانب، فازداد حجم التجارة نتيجة المبادلات مع الغرب ممثلين بالبيازنة والبنادقة، كما ظهرت العديد من النظم والقوانين البحرية التي تشير إلى التنظيمات التي وضعها ملوك وأمراء غرب أوروبا لأساطيلهم في البحر، وهذه القواعد والمبادئ أدت إلى قيام تقاليد فرعية وأعراف بحرية يتعامل الطرفان في ظلها[(١)].

ومن المواد التي تتعلق بمعاملة السفن وما عليها من بضائع وأموال وأشخاص في حال انكسارها في بلد الطرف الآخر، جاء النص التالي في معاهدة السلطان قلاوون مع فرنج عكا سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، ((وعلى أنه إذا انكسر من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة، ورعيتها من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم في ميناء عكا وسواحل البلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأتباع والمتاجر وإن وجد أصحاب هذه المراكب التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده، وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج يجري لها مثل ذلك من بلاط السلطان وولده ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم))[(٢)].

---

(١) – ابن عبد الظاهر (محي الدين بن عبد الظاهر ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، مراجعة: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط١، ١٩٦١م، ص٢١١، المقريزي (تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف للترجمة والنشر، د.ت، جـ١، ق٣، ص٩٩١–٩٩٢، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٥٧–٥٨.

(٢) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢١١–٢١٢، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٩٩٢.

وفيما يتعلق بمحاربة القرصنة وأعمالها في البحر، فقد جاء في المعاهدة نفسها النص التالي: ((وعلى أن النائب بمملكة عكا والمقدمين يوصون في سائر بلاد السواحل التي وقعت عليها الهدنة، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة عندهم، ولا من حمل ماء، وإن ظفروا بأحد منهم يمسكوه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكهم كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها، وتسلم إليه، وكذلك يعتمد مولانا السلطان وولده في أمر الحرامية هذا الاعتماد من الجهتين)).[١]

كما تجدر الإشارة إلى أن تهديدات المغول قد دفعت السلطان المملوكي قلاوون إلى عقد عدد من المعاهدات التجارية مع أمراء الفرنج في بلاد الشام منها معاهدة مع طرابلس في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ومع فرسان الداوية[٢] في طرطوس سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، بالإضافة إلى الفرنج في عكا سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، فقد تضمنت هذه المعاهدة السماح لسفن المماليك بالقدوم إلى موانئهم على أن يتعهد الأمراء الفرنج بعدم إقامة تحصينات جديدة علاوة على منحهم الآمان لجميع رعايا السلطان حيث يذهبون إلى المدن التي يسيطر عليها الفرنج في بلاد الشام[٣].

وتشير المصادر العربية إلى أن سلاطين المماليك أمثال الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون قد عقدوا كثيراً من الاتفاقيات التجارية مع حكام المدن التي يحكمها الفرنج ببلاد الشام لتشجيع التبادل التجاري بين المسلمين والفرنج، وتنظيم العلاقات الاقتصادية بين الطرفين، وتم ترجمة هذه الاتفاقيات على شكل بنود في المعاهدات والهدن التي تم توقيعها منذ بداية العصر

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢١١.

(٢)- الداوية: هي فرقة إفرنجية تلتزم الجانبين الديني والعسكري أسسها فارس يدعى هيوباينز سنة ٥١٤هـ/١١١٩م لحماية الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس ثمّ تحوّلت إلى هيئة حربية مستقلة اتّخذت الصليب الأحمر شارة لها ثم أسهم فرسان الداوية في جميع الأعمال العدائية التي قام بها الصليبيون، وكانت الداوية تابعة للبابوية مباشرة. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،جـ١،ص٢٤٩–٢٥٠، عاشور: الحركة الصليبية،جـ١،ص٤٨٧–٤٨٩.

(٣) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٤٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٩٩٠، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٦٦–٦٧.

المملوكي، وحتى سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية في أيدي المسلمين، هذا بخلاف المعاهدات التجارية العديدة التي تم عقدها بين سلاطين المماليك وأبناء المدن الأوروبية المختلفة[١] إضافة إلى أن حقبة الحروب الصليبية قد شكلت عاملاً مساعداً على زيادة التعامل التجاري بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام، فعلى إثر إقامة الفرنج في بلاد الشام، أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه، مما أدى إلى تزايد ملحوظ في إقبالهم عليها بل وتطلع الكثيرون من بلدان أبناء الغرب الأوروبي المختلفة للحصول على هذه السلع، وبما أن الفرنج في بلاد الشام أصبحوا الممثلين للغرب الأوروبي، فعن طريقهم استطاعت مجتمعات الغرب الأوروبي الحصول على منتجات المسلمين، كما استطاع المسلمون الحصول على احتياجاتهم من الغرب الأوروبي، وعلى هذا الأساس كان كل طرف يلبي احتياجاته من الطرف الآخر، مما أدى بالضرورة إلى قيام تعامل تجاري بينهما، ويأتي في قائمة احتياجات الفرنجة مادة السكر التي بلغ من عنايتهم بها أن أعفوها من الضريبة تشجيعاً لاستيرادها ثم بذلوا كل جهد ممكن للإكثار من زراعة قصب السكر في المناطق التي خضعت لسيطرتهم على طول الساحل من طرابلس إلى صور.

وقام الإيطاليون بنقل السكر وقصب السكر[٢] إلى الغرب الأوروبي، وكانت هذه السلعة ذات أهمية فائقة خصوصاً وأن معظم أوروبا كانت قد اعتادت في حقبة ما قبل الحروب الصليبية على استخدام العسل، وعصير الفواكه كمصادر رئيسية في صناعة الحلوى، والمشروبات الحلوة، ومعظم السكر الذي كان يستهلك في أوروبا في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد كان يأتي من المدن الساحلية في بلاد الشام حيث أقيمت العديد من المصانع في أغلب المدن وكان أضخمها مصنع عكا، أما المركز الرئيسي لتلك الصناعة فكانت

---

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣١–٨٧، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٦٧–٦٨.

(٢) – الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٣٧٥، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٢، الحويزي (محمود محمد): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، د.م، دار المعارف، ١٩٧٩م، ص١٣٣–١٣٤، زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٤٩، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص٤٤٤، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٦١، باركر: الحروب الصليبية، ص١٥١.

صور، كما كانت تصدر أنواعاً من الفواكه كالتين والرمان والسفرجل والكمثرى والجوز و التين[١] إضافة إلى البصل والثوم والحمص والجبن والأسماك أما الزيت فلم يصدر إلا بكميات قليلة لأنه لم يجلب للبلاد دخلاً يدعو للتقدير[٢]. واحتلت الأقمشة أيضاً والملابس المرصعة بالجواهر والمشغولات الذهبية مكانة في الصادرات من المدن الإسلامية حيث كانت النساء الصليبيات يتنافسن ويتفاخرن في ارتداء هذه الملابس، وكذلك كان الغرب يتلقى من المشرق الحرير الخام[٣] كل هذا جعل الملابس تحتل المرتبة الثانية من الصادرات، فقد كان جزء من هذه الملابس مصنوع من الحرير الذي يعتمد على دودة القز التي كانت تربى حول طرابلس وبيروت منذ نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. أما الكتان فكان ينمو في سهول طرابلس. وكانت الأنسجة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة تصنع في عكا وبيروت بينما تباع المواد الحريرية للتصدير، وقد نالت الأقمشة المصنوعة في طرابلس شهرة عالمية[٤]، بالإضافة إلى الأقمشة القطنية التي وجدت في جوار اللاذقية ((وكان يحمل بمراكب إلى سبته ويعم بلاد المغرب)).[٥]

وقد اشتهرت المناطق الشمالية من بلاد الشام بصناعة وتصدير البسط والسجاد، حيث انتقلت هذه الصناعة عن طريق الفرنج إلى أوروبا وبخاصة فرنسا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إضافة إلى تصدير الزجاج الذي اشتهرت به أنطاكية[٦]، وتصدير

---

(١) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٣٢، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤١.

(٢) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٩١.

(٣) – كردعلي (محمد): غرائب الغرب، مصر، المطبعة الرحمانية، ط٢، ١٩٣٢م، جـ٢، ص٢٦، زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٤٩.

(٤) – بييردوبوا: استرداد الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، جـ٣٦، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤١٠، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٦٤.

(٥) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٢، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص٢٣٣.

(٦) – التطيلي (بنيامين): رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، ط١، ١٩٤٥م، ص٨٧، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٤، زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٤٩.

الأواني الفخارية[١] والكثير من الأصناف القادمة من الهند وغيرها إلى الغرب، وبكميات كبيرة عن طريق المدن الساحلية كالتوابل والقرفة والجوز الهندي[٢].

أما الواردات: فكان الحديد والرصاص والنحاس والفضة من أهم السلع التي حملها الفرنج إلى بلاد المسلمين، كما تم استيراد الجلود والجوخ من مدن فرنسا، أما التجار البنادقة فحملوا معهم الجوخ والصدف[٣]، إضافة إلى الرقيق وخاصة من الذين لجأ سلاطين وأمراء المماليك إلى شرائهم، لتشكيل جيوشهم المحاربة، وشراء الجاريات اللواتي ملأن قصورهم[٤].

أ- أهم المراكز التجارية على الساحل الشامي:

إن الموانئ التي سيطر عليها الصليبيون استقبلت الكثير من التجار المسلمين، وخاصة المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر، وقاموا برحلات داخل الشام بقصد التجارة، فكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها في هذه الموانئ[٥] **وأهم هذه الموانئ:**

- **ميناء اللاذقية:**

من أشهر الموانئ السورية[١] لأنه صالح لرسو المراكب والقوارب القاصدة إليه من أصقاع البلاد في كل مناخ وطقس[٢]، ولا سيما مراكب الصليبيين التي كانت ممتلئة بالتجار والحجاج[٣] وغير ذلك.

---

(١) – التطيلي: رحلة بنيامين، ص٨٧، عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣م، جـ٣، ص٦٠٢، ٦٠٤، جـ١، ص٣٨٣.

(٢) – سانوتو :الأسرار من خلال الموسوعة الشامية ، جـ٣٦، ص٦٥، الخوري (متير): صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت، منشورات المكتب التجار للطباعة والنشر، د.ت، ص١٧٢– ١٧٣.

(٣) – سانوتو: الأسرار، جـ٣٦، ص٦٦–٦٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٢، كاهن (كلود): الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، القاهرة، سينا للنشر، طـ١، ١٩٩٥م، ص١٨٢، الشنتاوي: المعارف الإسلامية، ص٤٤٧.

(٤) – الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٦٨، صبره (عفاف سيد): العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٦٦.

(٥) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص١٥٨، كوكيد (جان بولدي): كتابة جديدة من آرواد، تعريب: عدنان البني، مجلة الحوليات الأثرية، مج١٨، ١٩٨٦م، ص١٩٣، حجازي (حسين): جزيرة أرواد والجذور الفينيقية على ضوء الاكتشافات الجديدة، طرطوس، دار أماني، ١٩٨٩م، ص٤٦–٤٧.

- **ميناء جبلة:**

كان صغيراً ولكن على الرغم من ذلك تلقى جزءاً من البضائع الواردة من الشرق، إضافة إلى كونه ميناء صالح لرسو السفن ذات الحمولات الصغيرة، ويوجد فيه سوق مركزية[٤] ومما يدل على أهميته استيطان الجنوبيين به[٥].

- **ميناء طرطوس:**

من الموانئ الهامة على الساحل الشامي وقد تميز بنشاط وحركة تجارية واسعة إضافة إلى أنه من المنافذ الهامة لتصريف البضائع من المدن الداخلية نحو البحر، وعن طريقه كانت تشحن البضائع الواردة من القسم الأعلى لنهر العاصي[٦].

- **ميناء صور:**

تقع صور على شاطئ البحر وتتفوق في حصانتها وأسوارها على كافة المدن الأخرى فهي تتخذ شكل جزيرة، وتحيطها المياه من جوانبها الثلاثة تقريباً، أما الجانب الرابع فهو محصن تحصيناً قوياً ولها ميناءان إحداهما لدخول سفن المدينة، أما الآخر مخصص للسفن الأجنبية ويوجد بين الميناءين برجان على شكل كتلتين من الصخر وبينهما باب مزود بسلسلة ضخمة

---

(١) – شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧١، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٤٩، هايد (ف): تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، د.م، ط١، ١٩٨٥م، جـ١، ص١٨١.

(٢) – أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م): الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، بيروت– لبنان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، جـ٢، ص٢٢٢، هايد: تاريخ التجارة، جـ١، ص١٨١.

(٣) – ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي ت٥٥٥هـ/ ١١٥٩م): تاريخ دمشق لابن القلانسي، من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جـ١١، ص٥١.

(٤) – هايد: تاريخ التجارة، جـ١، ص١٨١.

(٥) – أثناسيو: سوريا الشمالية، ، ص٥٤٦.

(٦) – هايد: تاريخ التجارة، جـ١، ص١٨١.

من الحديد وعندما يغلق يصبح الخروج والدخول منه أمراً مستحيلاً، وهذا يدل على دور الميناء في الحركة التجارية وهناك ميناء مزدوج أيضاً في صيدا(١).

- **ميناء أو مرفأ بيروت:**

وهو مرفأ جيد ويحتوي على برجين كبيرين يتصلان بسلسلة يمكن من خلالها التحكم في عبور السفن، وهذا جعل بيروت تتمتع بالازدهار التجاري الواسع(٢).

- **ميناء عكا:**

من أشهر موانئ الشام على الرغم من صغره، وإليه يتجه التجار الوافدون من اليمن، جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد أشار أحد الرحالة إلى هذا الميناء بقوله: "في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا" وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة، كما أظهر دهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس(٣). وهذا بدوره يشير إلى أن الحجاج الوافدين من الغرب الأوروبي إلى الشام، كانوا يفضلون عادة النزول في عكا بالذات، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية في الداخل، ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه في كثير من الأحيان عن استقبال عدد كبير من السفن الكبيرة، جعله يتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور فضلاً عن الموانئ الأخرى في شمال الشام مثل اللاذقية والسويدية(٤).

ويلاحظ أن ازدهار حركة التجارة في عكا، لم تكن فقط من خلال الصادرات والواردات التي قام بها التجار لسد احتياجات الصليبيين بل إنها مثلت منفذاً تجارياً مهماً للمدن الشامية الداخلية التي لم تطل على ساحل البحر المتوسط مثل دمشق وغيرها، ولا شك أن ذلك زاد في النشاط

---

(١) – البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٢، ص٨٥٦، عوض (محمد مؤنس): الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ١٠٩٩– ١١٨٧م، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢١٨–٢١٩.

(٢) – البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٢، ص٢٤٠، عوض: الرحالة الأوربيون، ص٢١٧.

(٣) – ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٧١، فابري: جولات الراهب الدومنيكاني من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٨، ص٨٣.

(٤) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٥٨، عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٤٩٧.

التجاري لذلك الميناء الحيوي الهام، إضافة إلى وجود مراكز للتجار الإيطاليين مثل البيازنة والبنادقة والجنوية للإشراف على نشاطهم التجاري ومن ذلك يتبين حجم التعاملات التجارية[١].

- **ميناء يافا:**

وهو أقدم ميناء في فلسطين، فقد أعاد الصليبيون بناءه وخاضوا معارك كثيرة عنده أما المسلمون قاموا بهدمه مع المدينة من خلال حفرهم تحت الأسوار والجدران[٢] كلها باستثناء برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر.

فعلى بعد رمية سهم من هذا البحر العميق صخور منزلقة وأماكن ضحلة وصخور منبعثة من الماء مرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة يتطاير الرزاز عالياً في الهواء، والميناء محاط بهذه الصخور من أجل حمايته، بحيث لا تستطيع حتى القوارب من المرور بينها، إلا من خلال مكان واحد وذلك بين صخرتين عاليتين، تجذف القوارب بينها بعناية عظيمة.

كل هذا منع السفن الكبيرة من الدخول إلى الميناء فاضطرت للتوقف خارجاً وإيجاد مكان ترسو فيه بعد قياس الأعماق[٣].

ب- دور المدن الإيطالية التجارية في الحروب الصليبية:

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد ساهمت في النشاط الاقتصادي وخاصة التجاري بعد احتلال الفرنجة للمنطقة، فإنهم بالتأكيد قاموا بذلك مدفوعين بمزايا يكتسبونها وامتيازات يحصلون عليها[٤] **لذلك لابد من التساؤل عن دور تلك الجمهوريات في قيام واستمرار الحروب الفرنجية؟**

---

(١) – عوض: الرحالة الأوربيون، ص٢١٨– ٢١٩.

(٢) – فابري: جولات الراهب الدومنيكاني من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٨، ص٣٣٤، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٨٤.

(٣) – فابري: جولات الراهب الدومنيكاني من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٨، ص٣٤٩.

(٤) – مؤرخ مجهول قبل ١١٨٧م: من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٤٣، عاشور (سعيد): أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، د.م، ط١، ١٩٨٦، جـ٢، ص٩٦.

تحررت تجارة الغرب الأوروبي من النظام الإقطاعي في أوروبا في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فدعوة الكنيسة إلى الحروب الصليبية، انتزعت الغرب من عزلته القديمة، كما وجدت التجارة فرصتها في مواكبة الحملات الصليبية من ناحية، ومرافقة الحجاج إلى الأرض المقدسة من ناحية أخرى[١]. وفي تلك الحقبة كان الإيطاليون رجال التجارة والأساطيل في البحر المتوسط، وذلك قبل الحروب الصليبية واستمروا لما بعدها. ولهذا فقد كان لهم النصيب الأوفر من التجارة، حيث أنهم نافسوا القسطنطينية في السيطرة على أسواق مدن البحر المتوسط، وقد بدا واضحاً أن المدن الإيطالية /بيزه- جنوه- البندقية/ كانت أكثر المدن اختلاطاً بالشرق نتيجة لدورهم التاريخي الهام في كل زمان ومكان. فقد كان لهم دور في تغذية التجارة ورعايتها[٢]. حيث ظهرت إلى جانبهم مدن أخرى مثل أمالفي ومرسيليا. وهدف الإيطاليون من السيطرة على تلك المدن إلى الاستيلاء على المرافئ الشامية واستخدامها كقاعدة سياسية واقتصادية لهم، وحصلوا مقابل ذلك على مزايا عديدة من جراء مساعداتهم للصليبين **وهنا يمكن التساؤل ما هي المزايا التي حصل عليها الإيطاليون من خلال تقديم المساعدة للصليبيين؟**

توجه الفرنجة في طلب المساعدة من الإيطاليين الذين وجدوا فيهم خير حليف[٣] على الرغم من المنازعات والمنافسات بين المدن التجارية التي كانت تقع بين الحين والآخر[٤] وبالأخص الصراع (الجنوي مع البنادقة)[٥] الذي انعكس سلباً على العلاقات بين الفرنجة أنفسهم فأصبحت عاملاً قوياً من عوامل تفكك الصليبيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد. ولم ينته

---

(١) – كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص٢٤٦، كاهن: الشرق والغرب، ص١٧٩.

(٢) – كاهن: الشرق والغرب، ص١٧٩– ٣١٨.

(٣) – ميخائيل السوري: روايات ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، تأليف و تحقيق و ترجمة : سهيل زكار ،دمشق، دار الفكر ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، جـ٥، ص١٨٧.

(٤) – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٠٤.

(٥) – حاج مجهول قبل ١١٨٧م: من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٧–٣٨، كردعلي: خطط الشام، جـ٤، ص٢٤٦، عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ص٤٥.

ذلك التنافس بين هذه الدويلات إلا بعد سقوط آخر معاقل الفرنج في الشرق العربي الإسلامي سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[(١)].

فإذا تصادمت المصالح السياسية رجحت كفة المصلحة التجارية المباشرة[(٢)]. لذلك لم يكن هؤلاء الأصدقاء ثابتين في ولائهم للفرنجة. والثابت أن الحركة الصليبية– بعد نجاحها– استطاعت أن تحول البحر المتوسط إلى بحيرة لاتينية، ومن المحتمل أن مرسيليا كانت المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا، التي استطاعت أن تنافس المدن الإيطالية وإن تحول جزء من تجارة الصليبيين المبكرة إلى مينائها، فضلاً عن الدور الذي شغلته مرسيليا خلال الحروب الصليبية فالامتيازات التي حصلت عليها المدن الإيطالية كانت سخية معفاة تماماً من أية أعباء وغير ملتزمة بالنظم الإقطاعية للفرنجة في بلاد الشام. وقد تضمنت هذه الامتيازات منحهم الحي الذي كان يشكل مقاطعة أو جزءاً من الحكومة الأم في الأرض المقدسة، مستقلة عن السلطة الشرعية الملكية، وكان لكل مجموعة من التجار الإيطاليين وكيل خاص بها لرعاية مصالحها التجارية، فلها موازينها ومقاييسها الخاصة المتداولة في الوطن الأم[(٣)]. ومما لا شك فيه أن المستعمرات التجارية الإيطالية في بلاد الشام كانت تدين بالولاء والإخلاص لحكوماتها الوطنية ولا تثق بمملكة بيت المقدس الإقطاعية، حيث طالبت تلك المستعمرات مملكة بيت المقدس باستقلالها التام فحصلت عليه لأن الصليبيين كانوا لا يستطيعون الاستغناء عن أساطيلهم، ومن ثم منحهم إعفاءات، وهكذا أُنشئت الفنادق أو الأحياء الأجنبية المستقلة في موانئ الشام، واحتلت كل من البندقية وجنوه وبيزا مكانة مختلفة عن الأخرى، بمعنى أن البندقية تركز نشاطها التجاري بشكل أعظم في البحر الإيجي والقسطنطينية وموانئ آسيا الصغرى من الشرق، وفي الشام احتل النشاط التجاري لجنوه المرتبة الأولى تليها بيزا ثم آمالفي ومرسيليا[(٤)].

---

(١) – كيناموس (يوحنا): أعمال يوحنا كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٧م، جـ١٩، ص٢٦٨– ٢٦٩.

(٢) – حاج مجهول قبل ١١٨٧م: من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٧–٣٨.

(٣) – عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٤٨٩، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص١١٧–١١٨.

(٤) – كيناموس: أعمال يوحنا كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٢٨، ص٢٢٧، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٩٩–٦٠٧.

وقد اهتم بعض من التجار الإيطاليين بالحصول على أسواق ومراكز في المدن الداخلية على عكس البنادقة الذين لم يهتموا بالحصول على مراكز لهم في المدن الداخلية عدا مدينة القدس ذاتها إلا أنهم اهتموا بتركيز نشاطهم في المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا[١] ولم تقتصر المساعدات البحرية للحركة الصليبية على التجار الإيطاليين وحدهم، بل ساهمت في ذلك الأساطيل الإنجليزية والألمانية، والدانماركية والنرويجية المتواجدة في البحر المتوسط، أما دور الأسبان فكان قليلاً في الحروب الصليبية، كما أن السريان والأرمن واليهود، كانوا منافسين خطرين للجمهوريات البحرية الإيطالية ذات الشهرة والاختصاص في التجارة، وقد كان للمسلمين بيوت تجارية في المدن الساحلية[٢] وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين في فتح المدن فإن اهتمامهم بالتجارة ظل في الواقع مستمراً في مصر، علماً أن تجارة الإيطاليين مع الإسكندرية في ذلك الوقت، ضمنت لهم ربحاً وافراً في البحر الأحمر، ولذا فإن توقف الصليبيين ببلاد الشام ثم طردهم في النهاية، كل ذلك لم يلحق الأذى بالتجارة الإيطالية، وعلى أي حال فإن النشاط التجاري للمدن الإيطالية ، سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم، جعل لهم السيادة التامة على البحر المتوسط. كما لا يمكن إغفال أن الحركة الصليبية في بلاد الشام أدت إلى زيادة الثروات للمدن الإيطالية جنوه، وبيزا والبندقية، بالإضافة إلى برشلونة وناربون ومرسيليا وغيرهم. ولهذا فقد قامت تلك الأساطيل على اتخاذ مهام عدة منها نقل الحجاج والصليبيين وكذلك المتاجرة بالسلع الشرقية، ونقلها إلى الغرب الأوروبي[٣] ويعد القرن السادس وأوائل السابع للهجرة/ الثاني عشر وأوائل الثالث عشر للميلاد العصر الذهبي لما جنته الجمهوريات الإيطالية البحرية من أرباح في بلاد الشام. ومن الجدير بالذكر أن العلاقات بين الجمهوريات الإيطالية البحرية الثلاث– جنوه وبيزا والبندقية– لم تكن على صفاء مطلق بسبب التنافس على المصالح التجارية. وقد انتقلت هذه الخصومات إلى بلاد الشام حيث اشتد

---

(١) – كيناموس: أعمال يوحنا كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٢٨، ص٢٢٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥٢٢.

(2) – Thomposn (j.w): Ecomomicand social History of the Middle Ages, London, 1959, 2vols, P425.

(٣) – سانوتو: الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٦، ص٧٩–٨٧.

النزاع بين المدن الثلاث، بل وصل الأمر إلى حد الاشتباكات في بلاد الشام، وليس من شك أن الخصومة بين المدن الإيطالية وجشعها الذي لا ينطفي ومنازعاتها الحادة أدى إلى إنهاك القوى الصليبية في الشام، والقضاء على ما تبقى منها.[(١)]

---

(١) – سانوتو: الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٦، ص٨٠–٨٧، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص١١٩، اسكندر (توفيق): بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٧٦.

رابعاً: الحياة الاجتماعية في مدن الساحل الشامي:

تكون المجتمع العربي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية من العرب المسلمين، وغير المسلمين (أهل الذمة). كما شكلت العناصر غير العربية ركناً أساسياً منه كالتركمان والأكراد، وقد أدى وجود هذه الأعراق المختلفة إلى تمازج في العادات والتقاليد والقيم التي أثرت في الحياة الاجتماعية. ومع ذلك احتفظ المجتمع العربي الإسلامي بعاداته وتقاليده ويمكن القول: إن المجتمع العربي الإسلامي انقسم إلى عدة فئات متمايزة عن بعضها بعض نظراً لاختلاف الظروف السياسية والحياتية، فقد تكون المجتمع حقبة الاحتلال الصليبي من عدة فئات ومذاهب:

١. فئات المجتمع العربي الإسلامي:

١. المسلمون:

شكل المسلمون فئة ذات كثافة سكانية كبيرة لا يستهان بها، على الرغم من الأحداث الدموية التي رافقت غزو الصليبيين لمنطقة بلاد الشام، ثم الفتك بالآلاف من السكان وفرار الآلاف من المسلمين إلى المدن العربية الإسلامية المجاورة للمناطق الصليبية طلباً للأمن والحماية بينما بقيت أعداد كثيرة من المسلمين لم تستطع الفرار، وظلت تحت الحكم الصليبي[١]، وقد تركزوا في المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا، وكذلك في حوض نهر العاصي وفي سهل البقاع وقد شكل هؤلاء بجميع فرقهم مجموعات لها سماتها الخاصة وطريقتها في الحياة والعادات والتطلعات **ولكن من هؤلاء؟**

ضم الشريط الساحلي بسهله وجبله فئات مسلمة من مذاهب متعددة منهم السنية، العلوية، الإسماعيلية. فالعلويون الذين سكنوا في جبل بهراء[٢] وتشتمل بلادهم على المنطقة الواقعة شمالي غرب سورية، وتفصل بجبالها الشامخة المناطق الساحلية عن الداخلية، مما أكسبها أهمية إستراتيجية، ولهذه الطائفة تقاليد وطقوس دينية شأنها شأن بقية الفرق الإسلامية كما أن

(١) – فابري: جولات الراهب الدومنيكاني، جـ٣٨، ص٥٦٢، عوض: الحروب الصليبية، ص٤٧١.

(٢) – ابن جبير: الرحلة، ص٢٥٢، ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٧١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٢٢٩، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٧٦٣.

بعض أسماء رجالها مسيحية الأصل[١]. فما هي علاقة هذه الطائفة وموقفها من قدوم الصليبيين إلى بلادهم، **وهل رحبوا بهم أم وقفوا بوجههم ودافعوا قدر المستطاع عن بلادهم؟**

لم تكن هذه الطائفة على علاقة وئام مع الصليبيين ويستنتج من كلام بورتشارد الذي قال عنهم: ((ويسكن في هذه الجبال قوم اسمهم الباطنية جفاة وأناس قساة يكرهون الصليبيين))[٢] وهؤلاء لم تصل إليهم الحملة الصليبية الأولى بالمعنى الدقيق للكلمة لأنهم تحصنوا في الجبال المنيعة، فكان إخضاعهم أمراً عسيراً للغاية، ولم تفصّل المصادر عنهم الكثير إلا أنهم وبالمجمل وقفوا ضد الصليبيين وغيرهم من المحتلين للبلاد، وقد سكن إلى جانبهم أقليات سكانية في الجبال خصوصاً في جبل الأقرع مثل الأتراك والتركمان، كما سكنت الإسماعيلية في منطقة اللاذقية وما جاورها من أعمال حمص وحماة والسلمية وعرفوا بالباطنية أما قلاعهم التي تحصنوا بها فقد عرفت باسم قلاع الدعوة[٣].

٢. المسيحيون الشرقيون:

لقد تمتع المسيحيون في بلاد الشام بالتسامح والحرية الدينية في ظل الحكم العربي الإسلامي فبنوا الكنائس الفاخرة، ومارسوا عباداتهم فيها بأمن وسلام، ولم يشعروا بالتضييق عليهم في عقيدتهم[٤]. قال ميخائيل الكبير **(إن الحكام المسلمين لم يسألوا عن مهنة الشخص أو عقيدته مثلما كان يفعل الهراطقة البيزنطيين، تلك الأمة الشريرة)**[٥].

عاش المسيحيون الشرقيون إلى جانب المسلمين في كنف الدولة العربية الإسلامية، وتمتعوا في مجتمعاتهم الخاصة بقسط وافر من التسامح الديني الذي عرف به الدين الإسلامي. وخلال

---

(١) – حسن (إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، جـ٤، ص٢٦٥.

(٢) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٥٨.

(٣) – القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٥١، فابري: جولات الراهب، جـ٤١، ص٥٦٢.

(٤) – متز (أدم): الحضارة العربية في القرن ٤هـ/ ١٠م: ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، بيروت– لبنان، دار الكتاب العربي، ط٥، د.ت، جـ١، ص٩٠-٩١، أغناطيوس(ديك): الشرق المسيحي، بيروت– لبنان، المكتبة البوليسية، د.ت، ص١٠٠، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٩٢.

(٥) – ميخائيل السوري: روايات ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، جـ٥، ص١٤٨-١٤٩.

العصور الوسطى المتتابعة مارس المسيحيون الشرقيون طقوسهم في كنائسهم بحرية تامة، وشكلوا أعداداً لا بأس بها من أرمن وأرثوذكس كذلك شكل السريان الأرثوذكس أكثرية عددية بالنسبة لغيرهم من الطوائف المسيحية المحلية في كل من طرابلس وجبيل وبيروت وعكا وأنطاكية[١] أثناء الحكم الصليبي لهذه البلاد ولم يقتصر وجودهم على المناطق الساحلية، بل تواجدوا في المناطق الداخلية، في كل من الرها، وبيت المقدس وقال عنهم ميخائيل الكبير: **(تمتع أساقفة السريان وكهنتهم بالراحة والسكينة في عهد دولة الصليبيين)**[٢]. وبالمثل يمكن أن يقال عن طائفة النساطرة وإن كانت لا تشكل أكثرية عددية من سكان المدن والبلاد التي خضعت للحكم الصليبي، إلا أن أبناءها عاشوا في عداء صريح مع الصليبيين وكانوا غير متعاونين معهم على عكس بعض الأقليات الأخرى من أرمن وموارنة، والسبب في ذلك يرجع إلى ما لمسوه من فارق كبير في المعاملة بين المسلمين وتحت حكمهم، وبين معاملة الصليبيين لهم. فقد كان يعيش قسم منهم في طرابلس وعكا وبيروت وجبيل[٣]، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن عواطف كثير من أبناء الطوائف المسيحية المختلفة في بلاد الشام كانت مع إخوانهم المسلمين. فالأرض أرضهم جميعاً بصرف النظر عن تصرف قلة من أبناء طوائف أخرى لهم وهم الموارنة لأنهم لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة لغيرهم من المسيحيين في ذلك العصر، وكيف لا تتحد عواطفهم جميعاً، وقد رأوا أن الصليبيين كانوا إذا دخلوا مدينة يقترفون الفحشاء، ويسيلون الدماء، ويرتكبون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان ثم يقومون بصبغ المدينة بصبغة لاتينية بحته بعد أن يزيلوا منها الشعائر الإسلامية والمسيحية الشرقية. والجدير بالذكر أن بعض الموارنة على نحو خاص كانوا من أكثر عناصر المسيحيين الشرقيين الذين أظهروا الود للصليبيين حيث عملوا كمرشدين وأدلاء لهم منذ اللحظات الأولى لقدوم الحملة الصليبية إلى مناطق توزعهم ولاسيما في طرابلس، وما جاورها. وقد ارتبط الموارنة جغرافياً بلبنان وشكلوا غالبية السكان في

---

(١) – فابري: رحلات الراهب الدومنيكاني، جـ٣٨، ص٥٦١، ابن الشحنة (محمد بن الشحنة ت٩٢١هـ/ ١٥١٥م): الدر المنتحب في تاريخ حلب، دمشق– سوريا، دار الكتاب العربي، ١٩٤٩م، ص١٤٢.

(٢) – ميخائيل السوري: روايات ميخائيل السوري ، جـ٥، ص١٦٠.

(3) - Cahen (claude): La Syria du Nord a l e poauedes Croisades, Paris, 1940, P191.
فابري: رحلات الراهب الدومنيكاني، جـ٣٨، ص٨٥، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص١٦٣.

جبل لبنان، وظل تاريخ الموارنة خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالصليبيين(١)، وكثرت المواقف التي قدّم فيها الموارنة المساعدات للفرنجة، لدرجة أنهم انخرطوا في جيش الفرنجة، وشكلوا فرقة مستقلة من رماة السهام، وهذا ما عبّر عنه أسقف عكا جاك دي فيتري بقوله: **(هناك أناس فوق هضاب لبنان في إقليم فينيقيا، غير قليلي العدد، مدربون، بارعون في رمي السهام واستعمال القوس).**(٢)

ومن الفئات التي ساعدت الصليبيين إلى جانب الموارنة، الأرمن الذين تعاونوا معهم وقاتلوا في صفوفهم، لذلك احتلوا مكانة سامية لديهم، وحدثت حالات للزواج بينهم وبين الصليبيين(٣).

٣. المسيحيون الغربيون (الوافدون):

وهؤلاء هم الذين قدموا إلى الشرق مع الحملة الأولى في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان معظمهم من أصول أوروبية متعددة الجنسيات منها الفرنسية، الألمانية، البريطانية، النرويجية بالإضافة إلى الجاليات الإيطالية القادمة بحراً وخاصة من جنوه والبندقية وبيزه والإيطاليون فكانوا أكثر جدية وبراعة لأنهم يتسمون بالحكمة والحذر(٤)، وبصفة عامة يمكن القول أن الإيطاليين الذين ينتمون إلى المدن التجارية الكبرى من إيطاليا كانوا من أسباب الازدهار التجاري الذي أصاب الشرق اللاتيني. وقد تركزوا في المدن الساحلية الشامية، وخاصة الموانئ الساحلية مثل يافا، عكا، قيسارية، أرسوف، صور، بيروت، طرابلس، جبيل، اللاذقية والسويدية، وقد ظل هؤلاء التجار يشكلون طبقة مستقلة قائمة بذاتها يتكلمون الإيطالية، ولا يختلطون بغيرهم إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية، ويشبهون في وصفهم تجار

(١) – ابن الشحنة (محمد بن الشحنة ت١ ،٩٢ ه/١٥١٥م: الدر المنتخب في تاريخ حلب، دمشق، سوريا،دار الكتاب العربي،١٩٤٩م، ص ١٤٢، زعيتر (محمد): المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، الوكالة الشرقية للتوزيع، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٧، صليبي (كمال): الموارنة صورة تاريخية، بيروت– لبنان، دار النهار، ١٩٧٢م، ص١٥–١٦، الزين: تاريخ طرابلس، ص١٤٣.

(٢) – دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٨٧.

(٣) – عبده (سمير): المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً، دمشق، دار علاء الدين، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨٨، الزين: تاريخ طرابلس، ص١٤٣، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٩٧.

(٤) – دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٨٧، محمود: العلاقات الاقتصادية، ص٩٢.

مرسيليا في عكا ويافا وصور وجبيل وتجار برشلونة في صور[١]. كما وجدت الجاليات الجنوية التي زخرت بها المدن الكبيرة، فخصصت لهم أحياءاً وأسواقاً، وعقدوا معاهدات كفلت لهم إقامة منشآت في اللاذقية والسويدية وأنطاكية[٢]، بينما اقتصرت مؤسسات البنادقة على المدن الكبرى، ونزلت جاليات من بيزه في اللاذقية وأنطاكية وحل اللومبارديون (أهل أمالفي)[٣] في اللاذقية، ولم يتجاوز عدد أفراد جميع هذه المستعمرات التجارية في كل المدن، المئات من الأشخاص فقط[٤] لأن الفرنجة بالإجمال كانوا دوماً أقلية وهذا طبيعي لأنهم وافدون على المجتمع العربي الإسلامي، ولن يبقوا طويلاً بعد حقبة من الزمن سيرحلون، وتقتلع جذورهم مع رحيل سلطانهم السياسي.

٤. اليهود:

أغفلت المصادر التاريخية ذكرهم، وذلك يعود إما لقلتهم أو عدم وجودهم في المدن الساحلية، أو لعدم توليهم أي دور سياسي، وقد استدل على وجودهم عن طريق إشارات من خلال عملهم بحرف محددة كالتجارة، وصناعة الزجاج[٥]، والمعروف أن اليهود كانوا يمارسون مهنة الصياغة والتجارة والصرافة في كل المناطق التي عاشوا فيها وهذا ليس في حقبة محددة وإنما في كل الحقب، فاللاذقية مثلاً وجد فيها نحو /٢٠٠/ يهودي[٦] بينما وجد في أنطاكية نحو عشرة يهودي[٧] وفي صيدا[١] نحو ستين عائلة[٢]. **ولم تحدد المصادر أين استقر هؤلاء اليهود هل في المدينة أم في الريف؟**

---

(١) – عاشور: الحركة الصليبية، ص١٩٤.

(٢) – دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٨٦.

(٣) – ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص١٦٣.

(٤) – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،جـ٢ ،ص٥٩ .

(٥) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٩٤، الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، ص١٦، الزين: تاريخ طرابلس، ص١٤٣.

(٦) – التطيلي: رحلة بنيامين، ص٨٧، ١٠٦، عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٣٨٣، كاهن: الغرب والشرق، ص٢٢١.

(٧) – التطيلي: رحلة بنيامين، ص٨٧.

على الأغلب استقر هؤلاء اليهود في مركز المدينة وليس في ضواحيها.

مما تقدم يتضح أن المجتمع العربي الإسلامي في بلاد الشام كان متنوعاً مذهبياً وفيه أقليّات إثنية في زمن الحروب الصليبية، وقد اعتبر الصليبيون أغلب السكان المحليين وحتى المسيحيين منهم هراطقة غير جديرين بالاحترام، ولذلك لم يجدوا حرجاً في نهب كنائسهم، على الرغم من أن بعض تلك الطوائف تناقلت فيما بينها بعض الاعتقادات المحلية وبعض العبادات هذا بالنسبة للمسيحيين، أما المسلمين فقد كانوا في أغلب الأوقات محرومين من ممارسة حقوقهم الاجتماعية والدينية الرسمية في ظل حكم الصليبيين لمناطقهم.

٢. فئات المجتمع الصليبي:

شكل المجتمع في مدن الساحل الشامي لوحة فسيفساء تتميز بامتزاج مختلف الألوان فيها، فقد كان خليطاً من الأجناس والقوميات على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأديانهم، مما أدى إلى تفاوت المظهر الاجتماعي والثقافي[٣]، وإذا كانت الدراسات للفئات المحلية بمذاهبها المتعددة قد شغلت حيزاً كبيراً من جهد الباحثين فإنها على عكس ذلك بما يخص الصليبيين والآن بدأت الجهود تتجه إلى التركيز عليهم **ولكن ما هي أهم فئاتهم؟**

١"- فئة النبلاء:

بما أن المجتمع الصليبي في أساسه مجتمع حربي، فإنه اعتمد على القتال في الحفاظ على وجوده من ناحية، وفي التوسع على حساب الغير من ناحية أخرى، لذلك كان للمحاربين الفرسان المكانة الأولى في هذا المجتمع[٤]. وهذا ما لاحظه أسامة بن منقذ بقوله: **(والإفرنج–**

---

(١) – صيدا: على ساحل البحر المتوسط وهي بلدة صغيرة ذات حصن وبها الأشجار والأنهار. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٨.

(٢) – الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، ص١٦٠.

(٣) – دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٣٠، جون اوف وورزبيرغ: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ٣٤، ص٣٢٩.

(٤) – يوشع (براور): الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طـ١، ٢٠٠١م، ص٨٣.

خذلهم الله– ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمه ولا منزلة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، لذلك فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم)[(١)] وهؤلاء النبلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال، ومثلهم من النساء والأطفال ومثل ذلك العدد أيضاً في إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين، وقد ظلت هذه الفئة التي كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقري للمجتمع الصليبي في الشام تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا وقلة الوارد من الغرب. فكان المجتمع الفرنجي أقلية أجنبية حاكمة يخضع لهم أغلبية سكان منطقة الشرق العربي الإسلامي[(٢)]. والواقع أن التقسيم القومي الظاهري للجماعات الصليبية كان له تأثيراً حاسماً على مستقبل الأراضي التي احتلها الصليبيون في الشرق العربي الإسلامي، فقد قام قادة الحملة الصليبية الأولى الذين أصبحوا حكاماً للإمارات الصليبية الجديدة بمنح الإقطاعات والإيرادات لأتباعهم، هكذا أصبحت إمارة أنطاكية الصليبية التي حكمها بوهيموند[(٣)] ذات سمة نورماندية في عاداتها وسماتها، وأصبحت كونتية طرابلس التي أسسها ريموند الصنجيلي بروفنسالية الطابع، وهذه الإمارات شكلت طبقة من النبلاء. وقد وصف أحد المؤرخين فرسانهم بقوله: **(الفرنج مشهورون بالفروسية وشدة البأس، وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة، وكثرة السطوة والتناهي في الشر)**[(٤)]. وقد انقسمت فئة النبلاء إلى ثلاث شرائح الأعيان– الرجال الأغنياء– البارونات، صغار الفرسان، ولم يكن هناك تمايز طبقي أو قانوني بين هذه الشرائح

---

(١) – ابن منقذ (أسامة بن منقذ مؤيد الدولة أبو مظفر ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م): الاعتبار، حرره: فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م، ص٨٣–٨٤.

(٢) – عوض: الحروب الصليبية، ص١٢٣، الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، ص١٧١.

(٣) – بوهيموند: هو ابن روبرت جويسكارد والبيرادا Alberada ولد سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥٠ م شارك أباه في الحرب ضد بيزنطة خلال المدة من ٤٧٤–٤٧٧ هـ / ١٠٨١–١٠٨٤ م وقدمت الحملة الصليبية الأولى الفرصة لبوهيموند لتحقيق حلمه في إقامة إمارة له في أنطاكيا. توديبود (بطرس): تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، نقله إلى العربية وعلق عليه: حسين محمد عطية، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٩٨ م، ص٩١، هامش٢٢.

(٤) – أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص٢١٢.

الثلاث[١]، وعلى أية حال فقد عاشت الفئة الحاكمة من النبلاء والبارونات والكونتات والفرسان- فيما عدا التجارة والحرب- عيشة أميل إلى الدعة والتراخي فقد سكنوا في قصور فخمة حتى قلاعهم وحصونهم (قلعة صهيون[٢]، قلعة المهالبة [حصن بلاطنس[٣]]) جهزت بوسائل الترفيه على الرغم من غرضها الأول و هو دفاعي[٤].

وهذا يعني أن النبلاء قد تأثروا بالمجتمع الشرقي العربي، واقتبسوا كثيراً من عاداته وتقاليده كالحمامات، ولعبة الباز[٥] وغيرها مما يوحي بتأثر الأوربيين بالحضارة العربية الإسلامية.

٢"- فئة البوليانز:

البوليانز وصفوا بأنهم جيل الفقراء و أبناء المملكة أما الفرنجة الوافدين -البوتيفير-و هم الذين لم يلدوا في المملكة بل أنهم جاؤوا من أوروبا مع غي لوزينان و من المؤكد أن الطائفة المواجهة للبوتيفير حوت أعداد كبيرة من الناس الذين لم يكن تحدرهم الفرنسي و أصلهم الصافي في موضع أي شك و مثال على ذلك الأخوة الأبلينين ، و ريموند صاحب طرابلس[٦]

وقد وصف البوليانز بعبارات بعيدة عن الأمراء فأسقف عكا جاك دي فتري قال عنهم: **(إنهم تربوا في الترف وهم نموذج للنعومة والتخنيث اعتادوا التردد على الحمامات الشرقية بدلاً من التوجه إلى ساحات المعارك بهم ميل إلى الرفاهية، وارتداء الأثواب الناعمة، كسالى،**

---

(١) – يوشع: الاستيطان الصليبي، ص٩٧.

(٢) – قلعة صهيون: تشمخ فوق جبال اللاذقية وهي من أشهر قلاع الشام كثيرة الخصب والمياه، تقع على بعد ٣٣كم شرقي مدينة اللاذقية، صهيون بلدة حصينة لا ترام وهي على صخر أصم، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٥٧.

(٣) – قلعة المهالبة: تقع على قمم جبال اللاذقية وعلى بعد ٤٠ كم شرقي اللاذقية، بين اللاذقية وبلد برزية، ترتفع عن سطح البحر حوالي ٧٥ م وكانت من أعمال حلب. أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢.

(٤) – ابن منقذ: الاعتبار، ص١٤٠- ١٤١.

(٥) – ابن منقذ: الاعتبار، ص١٤٠- ١٤١، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٢٤٦.

(٤)–صاحب طرابلس : قال جاك دي فيتري بأن "البوليانز كانوا من أصل فرنسي أكثرهم من أصل أوروبي بشكل عام و أنهم انحدروا من الصليبيين الأصليين مع أنهم غير جديرين بوراثة ما استولى عليه آبائهم"

خاملون، جبناء)[١]. وكان البوليانز على استعداد لعقد الصلح مع المسلمين والعيش معهم في سلام، و خاصة ريموند صاحب طرابلس و بالين دي ابلن فقد مالوا إلى طلب المساعدة من المسلمين بدلاً من الصليبيين ذلك لأن الحرب ستتدخل في شؤونهم وتعطل مصالحهم التجارية مع المسلمين [٢]. أما حياتهم العائلية فقد شابهت حياة المسلمين لأنهم تربوا في هذه المنطقة واقتبسوا عاداتهم وتقاليدهم، فقد حجّبوا نساءهم ولم يسمحوا باختلاط الرجال مع النساء، وأذنوا لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمامات ثلاث مرات في الأسبوع، والتردد على الكنيسة مرة واحدة في السنة[٣]، وقد أصبحت تصرفات البوليانز أقرب إلى أهالي البلاد الأصليين، وهذا ما دفع أحد المؤرخين لذكرهم بقوله: **(ومن الإفرنج من تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم)**[٤]. و بذلك يمكن القول بأن البوليانز هم ذراري الصليبيين ، الذين قارنهم دي فيتري مثله مثل وليم مع آبائهم الصليبيين الأصليين و قالوا عنهم : بأنهم ليسوا جيل المهاجرين الأول من أوروبا ، مثل غي وأتباعه بل هم لـ أبناء المملكة، أي ذرية المهاجرين و يمكن وصفهم بأنهم كانوا مستعمرين من الجيل الثاني ، و لم يكونوا أبداً من دم خليط .[٥]

٣"- فئة الكوميونات الوطنية الأوربية:

كان وجود هذه الفئة من السمات المميزة للتصنيف الفئوي للمجتمع الصليبي، وقد اشتملت على الإيطاليين والبروفنساليين، والإسبان، وعلى الرغم من اعتناقهم المذهب الكاثوليكي الأوروبي مذهب الحكام الصليبيين، فإنهم لم يعدوا نبلاء أو برجوازيين، وإنما كانوا يشكلون فئة مستقلة تتمتع بوضع وامتيازات مختلفة عن كل من النبلاء والبرجوازية، وقد نجحوا في خلق نفوذ

---

(١) – أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري من خلال الموسوعة الشامية ،تأليف و تحقيق و ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ،١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م ، جـ٨، ص٢٤٠-٢٤١ دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٩٣، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٨٢- ٨٣.

(٢) – أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري، من خلال الموسوعة الشامية ، جـ٨، ص٢٤٠-٢٤٢ دي فيتري: المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص١٩٣- ١٩٤، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٨٢، زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٥١.

(٣) – الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٨٢- ٨٣.

(٤) – ابن منقذ: الاعتبار، ص١٨٠.

(٥) أرنول: ذيل تاريخ وليم الصوري ، من خلال الموسوعة الشامية،جـ٨ ، ص ٢٤٠ – ٢٤٢

مستقل لهم، وبمثابة دولة داخل دولة، وهؤلاء كانوا حريصين على المال والربح من أي طبقة في المجتمع الصليبي لأن هدفهم كان تحقيق الكسب والربح ثم العودة إلى الغرب الأوروبي، بالمال الوفير[١]، وفي الحقبة المبكرة من الوجود الصليبي في المشرق، كانت الأحياء الإيطالية بالحكم الذاتي في المدن الساحلية، وفي أماكن الأسواق لم تزد عن كونها قواعد مؤقتة للنشاط الاقتصادي ومراكز تجارية أكثر من كونها مناطق للاستيطان الدائم والمستمر، فقد كان لأبناء بيزا مستعمرات في اللاذقية وطرابلس وصور وعكا[٢] كانت عليها كومونات تدار بالحكم الذاتي، ومواطنوها يتكلمون الإيطالية، فلم يختلفوا اجتماعياً عن جيرانهم، أما عدد الأشخاص في كل من تلك المستعمرات فلا يزيد عن فئات قليلة وحصلت تلك الفئة على العديد من الامتيازات منها امتلاك أحياء في المدن، وحق المحاكمة ليس فقط لأبناء جنسيتهم بل لمن يسكن أحياءهم في بعض الحالات[٣].

٤"– فئة البرجوازية:

هم الرجال من العامة الذين اشتركوا في الحروب الصليبية برفقة البارونات والكونتات كذلك من الأوروبيين الوافدين إلى بلاد الشام بهدف ممارسة التجارة. وقد احتشدت البرجوازية في المدن الساحلية، وعدد من المدن الداخلية، وأدت الثروة التي حصلوا عليها إلى إضفاء أهمية عليهم، وعلى الرغم من أن البرجوازية كانت منزلتها أدنى من منزلة النبلاء إلا أنها احتلت مكانة أسمى بين السكان الوطنيين[٤]. وقد تمتعت فئة البرجوازية الفرنجية في الشام بوضع يفوق نظيرتها في فرنسا إبان الحروب الصليبية، كما استطاعت أن تؤلف مجتمعاً متمتعاً بالحكم المحلي الذاتي في الشام قادراً على مزاولة التجارة من جهة، وممارسة الحرب من جهة أخرى.

(١) – بييردوبوا: استرداد الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٦، ص٢٢٨– ٢٢٩، براور: الاستيطان الصليبي، ص١١٠– ١١١.

(٢) – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٢.

(٣) – عوض: الحروب الصليبية، ص١٢٩، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٧٦.

(٤) – عوض: الحروب الصليبية، ص١٢٦، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٨٣، عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٤٩٥.

ولم تكن البرجوازية ملزمة بتقديم أية واجبات أو خدمات للسيد الإقطاعي لأن واجبها اقتصر على الخدمة الحربية له وكل ما عليها أن تجهز عدداً معيناً من فرق المشاة للجيش الصليبي[١]. وقد عملت فئة البرجوازية في إمارتي طرابلس وأنطاكية في كل المهن والحرف الحضرية (نجارين، خياطين، صائغين، صانعي تروس وأسلحة... وغيرها) كما تم الاستعانة بهم في الوظائف الإدارية مثل جباة الضرائب، محاسبين، موظفي الجمارك، مشرفي الأسواق، شرطة المدن، المحاربون، المشاة، أو رجال الحاشية الإقطاعية أو الفرقة العسكرية المصاحبة للسيد الإقطاعي من البرجوازيين وعلى أية حال، فإن القادم الفرنجي الجديد إلى بلاد الشام كان يعد برجوازياً حراً، وهو ما كان يغير وضعه الاجتماعي ومستواه الاقتصادي، وكل واجباته عبارة عن التزامات عامة، فقد كانت الالتزامات المالية تفرض على البرجوازي وفقاً لمهنته، ومردودها الاقتصادي وليس وفقاً لتبعيته الشخصية[٢].

٥"- فئة الرقيق والأقنان:

قام النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه، وذلك في إطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة[٣]، والواقع أن آلاف الفلاحين عاشوا في الغرب الأوروبي عيشة سيئة، فتكونت فئة العبيد في أساسها من العبيد والأقنان الذين تقاربت ظروفهم جميعاً، ومع بداية الحروب الصليبية وفد عشرات الألوف من الأقنان الذين تركوا أراضيهم بحجة الاشتراك في النشاط الحربي[٤].

وكان أغلبهم من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين تظاهروا بالتوبة، وقدموا إلى الأرض المقدسة تكفيراً عن ذنوبهم، ولكنهم لم ينسوا طباعهم، فعاثوا في الأرض خراباً وسلبوا ونهبوا

---

(1) − Chalandon (F): histoirede la premire crosiada, jusque, ill lectionde gode frol de bouillon, Paris, 1962, P.P302- 303.

(٢) – براور: الاستيطان الصليبي، ص١٥٥، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٦.

(٣) – بييردوبوا: استرداد الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٦، ص٢٢٧، يوشع: عالم الصليبيين، ص١١٧.

(٤) – عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ٢، ص٧١-٧٢، عوض: الحروب الصليبية، ص١٣٢.

ونشروا الفساد والدعارة حيثما وجدوا[١]، وكان النبلاء والفرسان يعاملونهم معاملة غير كريمة، ومن العادات التي تمسك بها الفرنجة أشد التمسك، ضرورة تنصير العبد إذ عاش وسط مسيحيين، وسيده مسيحياً، ولا يجوز بحال من الأحوال استرقاق النبلاء أو البارونات، ولكن يحتفظ بهم للحصول على فدية كبيرة[٢]. والجدير ذكره أن البناء الاجتماعي للكيان الصليبي اعتمد على إمداده بأعداد كبيرة من الأوروبيين الجدد من أجل استمراريته وثباته ولكن ذلك البناء باء بالإخفاق بل أدت تلك الأعداد إلى تمزيقه أكثر من الداخل بدل توحيده، وظهور ثغرة كبيرة بين أفراده وخاصة من الناحية السلوكية والأخلاقية، مما أدى إلى عدم تماسك الصليبيين بالشام من ناحية، وإلحاق الضرر بهم من ناحية أخرى.

٣. مظاهر الحياة الاجتماعية:

إن العلاقات التي ربطت بين العرب المسلمين والصليبيين، خلقت حياة اجتماعية بين الفريقين، هي في الواقع مزيج من الحضارتين الشرقية العربية الإسلامية والغربية الصليبية، وقد تداخلت إحداهما في الأخرى، وأثرتا ببعضهما، فتأثر الصليبيون خلال سنوات قليلة بالزي العربي، ولكنهم جددوا في هذا المجال ما اتخذوه من أزياء وملابس، وكان الفرنجي مستعداً للاستفادة من ميزة المنسوجات الراقية التي عرفها الشرق العربي الإسلامي فالمنسوجات التي لم تكن متوفرة في أوروبا إلا في بيوت الملوك والأمراء كانت في متناول الناس جميعاً حتى محدودي الدخل منهم في الشرق من الحرير والقصب والقطن والصوف[٣].وكانت هذه الملابس تنسج بأيدي الفرنجة ونسائهم حيث أقلع الصليبيون عن لباسهم الأوروبي وتعلقوا بالأزياء والملابس الشرقية التي كانت أقرب إلى الراحة حيث ارتدى الفارس برنساً من الحرير فوق درعه إضافة إلى سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس، كما جعل على خوذته كوفية على

---

(١) – ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢١٨.

(٢) – جوانفيل (لويس): حياة القديس لويس جوانفيل من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، جـ٣٥، ص١٦٦، عاشور: الحركة الصليبية، ص٣٧، حبشي (حسن): نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٤٨-١٤٩.

(٣) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص١٥٥، براور: عالم الصليبيين، ص١١٢- ١١٣، رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٠٩، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٢٤٥.

نحو ما فعل العرب ، أما السيدات الصليبيات فاتبعت بعضهن الزي الشرقي التقليدي وارتدت الواحدة منهن قميص طويل إلى القدمين وسترة قصيرة وكلها موشاة بخيوط الذهب، وأحياناً الجواهر وفي الشتاء كانت المرأة الصليبية ترتدي الفراء مثلما يفعل زوجها وتضرب الخمار على وجهها، وإذا خرجت من الدار اتخذت الحجاب، شأن النساء المسلمات[١] أما فيما يخص نموذج البيت فقد أعجبهم نموذج البيت العربي وطرائق العيش فيه، وتخيروا لأنفسهم الراحة أكثر مما كانوا عليه في أوروبا الغربية باتخاذهم الخدم المحليين والممرضين مع الأطباء للكشف عليهم عندما تصيبهم الأمراض، كما قام الصليبيون بإدخال الكثير من نعم الحياة في مجتمعهم الجديد إلى حياتهم، ومنها الحمامات فأقبلوا عليها، وقصدوها في أوقات فراغهم وكانوا يقضون فيها الساعات طلباً للراحة فضلاً عن الغاية الأولى منها وهي النظافة[٢]. وكان النبلاء الصليبيين مثل أقرانهم المسلمون يتباهون ويتفاخرون على بعضهم بجمال خيولهم، إذ كانوا ينفقون مبالغ طائلة في سبيل اقتناء الخيول وتجهيزها بالسروج وأفخر الثياب، وبالأدوات الغالية والمعادن النفيسة وكانت الأراضي حول المدن تستخدم كمكان لاستعراض الخيل والخيالة، وفي سنوات السلم كان المسلمون يشاركون في هذه التدريبات، وكانت المباريات هي المجد الذي يتوج الفارس النبيل وفي مثل هذه المناسبات كانت السيدات تظهر في ميادين المدينة أو القلعة للمشاركة في هذه العروض التي تغدو أكثر العروض تشويقاً وإثارة، ومع ذلك يبدو أن تلك المباريات كانت ترتبط غالباً بالأعياد وكانت في الشرق الصليبي أقل منها في أوروبا في ذلك الوقت[٣] وبالنسبة لوسائل التسلية فقد كانت متعددة يضاف إليها العلاقات الاجتماعية الأخرى حيث كان المرء يلتقي بأصدقائه في المنزل أو في الحمام، أو حتى في إحدى الحانات، وكانت لعبة الملوك المعروفة هي الشطرنج وأما النرد فهو التسلية الأكثر شيوعاً في ذلك العصر فالواحد منهم يغامر

---

(١) – فابري: جولات الراهب، جـ٣٨، ص٧١٧، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٠٩، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٢٤٣.

(٢) – الحويزي: الأوضاع الحضارية ،ص ٢٤٥-٢٤٦

(٣) – فابري: جولات الراهب، جـ٣٨، ص٧٤٠- ٧٤٧، براور: عالم الصليبين، ص١١٧، رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٠٩، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٢٤٥- ٢٤٦.

بثروته وحياته من أجل هذه اللعبة، وكانت الوجبات الغذائية والشراب جزءاً من التسلية[١].كما عرف الصليبيون أطعمة المسلمين، وأعجبتهم نكهتها، فأقبلوا عليها بأنواعها وأشكالها كالفطائر وغيرها من التمر الهندي والبهارات والذرة الشامية، ومن ناحية أخرى كان المجتمع الصليبي الذي رفع شعارات الطهارة والنبل مجتمع يغلب عليه الطابع الروحي والأخلاقي بينما الواقع التاريخي عكس ذلك إذ أن المجتمع الصليبي احتوى على المفاسد والمساوئ، هذا المجتمع يماثل جميع المجتمعات التي عاصرته أو التي سبقته من حيث استشراء مفاسد اجتماعية كالدعارة أو البغاء، وشرب الخمر، وغيرها الكثير فعلى سبيل المثال أن الدعارة انتشرت في صفوف الصليبيين، وفي مدينة عكا كان هناك الحي الأحمر الذي حقق شهرة واسعة في هذا المجال، حتى أن السفن الصليبية تأتي من الغرب الأوروبي بالعاهرات من أجل الترفيه عن الجنود الصليبيين[٢] كما أن رجال الكنيسة كان منهم من يؤجّر أماكن العبادة من أجل أعمال الدعارة، التي درت عليهم أرباح طائلة في ذلك الوقت. وكانت مساعي البابوية نهايتها الإخفاق بالرغم من جهودها لإيقاف ذلك، كما يلاحظ ارتفاع معدلات الجريمة في الكيان الصليبي حيث أن النساء الصليبيات في مدينة عكا وجد منهن من قامت بدس السم لزوجها في الطعام كي ترتبط بعشيقها الذي قدم من الغرب الأوروبي[٣]، ودائماً أثناء الحروب تنتشر مفاسد اجتماعية فيستشري الفساد نتيجة الفوضى وانعدام الأمن.

ويتضح مما تقدم:

- **أولاً:** أن المدن الساحلية الشامية على مر العصور كانت هدفاً للغزوات والهجمات المباغتة ابتداءً من أنطاكية في الشمال حتى الجنوب في فلسطين بسبب موقعها الجغرافي الممتاز والاستراتيجي الهام بين القارات الثلاث القديمة.
- **ثانياً:** كان العامل الاقتصادي بالغ الأهمية إذ أن الصليبيين سعوا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية في الشرق العربي والمتتبع لدور الصليبيين في تجارة الشام، يتضح له أنهم لم

(١) – ابن منقذ: الاعتبار، ص١٣٧.

(٢) – العماد الأصفهاني، ص١٧، الحويزي: الأوضاع الحضارية، ص٢٤٥.

(٣) – عوض: الحروب الصليبية، ص١٣٣.

يجنوا من ورائها إلا أرباحاً ضئيلة. كما تم إلقاء الضوء على النشاط التجاري للمدن الإيطالية التي بادرت بإرسال أساطيلها إلى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين مقابل امتيازات في كل مدينة أسهموا في الاستيلاء عليها، إضافة إلى أهم المراكز التجارية وما ارتبط بها من ازدهار في عصر الصليبيين، وكشف النقاب عن أهم السلع التي كانت محور النشاط التجاري ببلاد الشام، فقد أولع الغرب الأوروبي بالسلع الشرقية، واشتد إقباله عليها خاصة التوابل التي حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى.

- **ثالثاً:** عاش في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مزيج من جنسيات عرقية وطوائف دينية عديدة وافدة و أهل البلاد الأصليين مكوناً بذلك مجتمعين أساسيين هما المجتمع الشامي الإسلامي/ والمجتمع المسيحي الصليبي. ومن الثابت أن البناء الاجتماعي للكيان الصليبي بالشام تألف من طبقات مختلفة، غير متجانسة، ظلت متميزة بالفوارق الواضحة، أما عن التداخل والاختلاط والتفاعل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين فالواقع أن الحروب الصليبية ببلاد الشام أتاحت فرصة لذلك، لأن انقضاء الجيل الأول من الصليبيين، جعلهم ينسوا تعصبهم الديني الأعمى، وربطت بينهم وبين المسلمين في بعض الأحيان العلاقات الودية من جراء المعاشرة، كما أن كبار السادة الإقطاعيين الصليبيين قد تبنوا عادات المسلمين وتقاليدهم في الأزياء والأطعمة والأشربة والحمامات الشرقية.
- **رابعاً:** كلفت الحركة الصليبية ببلاد الشام، الغرب الأوروبي الكثير من التضحيات في الأرواح والأموال، ولكنها بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب كان لقاءً حضارياً، مكن الغرب الأوروبي من النهوض من سباته، وإذا كانت الحركة الصليبية أخفقت كمحاولة مبكرة قصد بها استعمار الشرق العربي الإسلامي، إلا أنها فتحت الغرب الأوروبي على آفاق جديدة، وساهمت في إحداث التغيرات والأفكار الجديدة التي خرجت به من عزلته.

الفصل الثاني

إعادة الاحتلال الصليبي للساحل الشامي

أولاً: أحوال أوروبا السياسية قبل الحملة الصليبية الثالثة .

ثانياً: الأوضاع السياسية والعسكرية لمدن الساحل الشامي قبل وصول الحملة الصليبية الثالثة.

ثالثاً: وصول الحملة الصليبية الثالثة إلى بلاد الشام ومنجزاتها.

رابعاً: سقوط عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م و أثر ذلك على مجريات الأحداث السياسية للحملة الصليبية الثالثة.

خامساً: معركة أرسوف سنة٥٨٧هـ/١١٩١م وأثرها السياسي على الصليبيين.

سادساً: معركة يافا سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م و أثرها السياسي على المفاوضات.

سابعاً: سقوط عسقلان والداروم سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م.

ثامناً:المفاوضات بين الأيوبيين والصليبيين وصلح الرملة.

الفصل الثاني: إعادة الاحتلال الصليبي للساحل الشامي

تعد معركة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في مجرى تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يصحوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم و لم يكن منتظراً أن تتمكن مملكة بيت المقدس الصليبية من البقاء والصمود بعد فناء جيشها وأسر ملكها، في الوقت الذي ارتفعت معنويات جيش المسلمين و أخذوا يتطلعون لتحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين أما عن صلاح الدين فقد تحلى في ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والشهامة والمروءة والبعد عن التطرّف، وهي الصفات التي كثيراً ما أنزلت الأضرار بمصالح المسلمين [١]

وكان من المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولي عليها في سهولة، بعد أن غدت تلك المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها، ولكنه آثر أن يتجه أولاً إلى الموانئ السّاحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة ترسل إليهم من غرب أوروبا عن طريق البحر.

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا في سهولة، ويبدو أن السياسة التي اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين في عكا، ساعدته في الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية والداخلية بعد ذلك، مثل الناصرة، قيسارية، حيفا، صفورية وغيرها . هذا في الوقت الذي زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا ، في حين سقط حصن تبنين وصرفند وصيدا في أيدي المسلمين. كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان، وفي جميع تلك المدن والمعاقل ، كان صلاح الدين يترك الحرية لأهاليها ويخيرهم بين البقاء أو الرحيل، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور [٢]

(١)- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص١٩٤ ، عاشور: الحركة الصليبية ج٢،ص٦٤١-٦٤٧ .

(٢)- ابن شداد: النوادر السلطانية،ص١٢٦، ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٣، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٥

و لا شك أن هذه السياسة كانت خطأ كبير وقع فيه صلاح الدين ودفع ثمنه فيما بعد، لأن تجمع كافة عناصر المقاومة الصليبية في مدينة صور، أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين على تلك المدينة من ناحية ، و إلى تمكين الصليبيين من اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعباً ، آثر أن يتجه إلى بيت المقدس، ودخلها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م .

وبعد أن أتم صلاح الدين تقويض البناء الصليبي لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية في شمال الشام، مثل طرابلس، وأنطاكية، فضلاً عن الحصون الداخلية ، مثل حصن الأكراد وحصن المرقب. أما صور فقد فشلت كافة جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها، بعد ان تجمعت فيها البقايا الصليبية لم يجد صلاح الدين بداً من ترك صور وتوجيه جهوده ضد إمارتي طرابلس وأنطاكية في الشمال .

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة مثل قلعةهونين،كماحاصر صفد وحصن كوكب واستولى أيضاً على بانياس في أقصى الشمال من إمارة طرابلس، ثم أوغل في إمارة أنطاكية واستولى على جبلة واللاذقية وحصن صهيون في مدة قصيرة[١]

---

(١) أبو شامة: الروضتين ، ص١٣٦-١٣٧، عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٦٤٧ ، عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص٦٦-٦٧

أولاً: أحوال أوروبا السياسية قبل الحملة الصليبية الثالثة :

لم تكن أوروبا في أحسن أحوالها آنذاك بل كانت تعيش في أصعب الظروف من حروب داخلية أنهكت كل الأطراف و حملتهم للبحث عن حلول. فانكلترا كان على رأسها هنري الثاني و هو ابن ماتيلدا من زواجها الثاني من الأمير الفرنسي جوفري بلانتاجوي كونت مقاطعة أنجو في فرنسا .

و ماتيلدا هذه هي ابنة هنري الأولHenry I ملك بريطانيا الذي توفي دون ولد ذكر يرث المملكة من بعده ، فكانت ماتيلدا Matelda وريثته الشرعية ، لكن بعض البريطانيين رفضوا أن تحكمهم امرأة ونصبوا عليهم ابن أخت هنري الأول ستيفان كونت بلوا الانكليزية ، و على هذا نشبت الحروب الأهلية في بريطانيا بين المؤيدين والمعارضين ، واستمرت هذه الحروب مدة طويلة لكنها توقفت نتيجة عقد اتفاق بين ستيفان وهنري على أن يكون ستيفان الملك، و هنري وريثاً له ، توفي ستيفان سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م/، وخلفه هنري الثانيHenry II الذي عمل على إضعاف نفوذ كبار الإقطاعيين في إنكلترا ، و طور القضاء وأنشأ المحاكم التابعة للقصر الملكي و فرض ضريبة المجهود الحربي ليتخلص من الاعتماد على الإقطاعيين في جمع الأموال و عمل على تنظيم ما يسمى الجيش الشعبي ، وأخضع الكنيسة الإنكليزية للسلطة المركزية [١]

أما فرنسا : فقد كان على رأسها فيليب أغسطس [٢] الذي خلف والده لويس السابع على العرش سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠ م . فقام بمضاعفة أملاكه على حساب كبار الإقطاعيين الفرنسيين ، و تحالف مع فردريك بريروسا سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ليستخدم هذا التحالف داخلياً و خارجياً ضد الإنكليز الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الأراضي الفرنسية ، و استغل خروج أولاد الملك الإنكليزي هنري الثاني عليه ، وأخذ يؤازرهم لتضعيف سلطة والدهم وهم (هنري– رينتشارد – جيوفري – حنا).

أما **الامبراطورية الألمانية** : فكانت تعيش مرحلة سلام بعد أن وصل فردريك بربروسا إلى الحكم، لأنه كان يجمع بين دم الأسرتين الجولفنية ، والهوهنشتاوية اللتين كانتا تتصارعان داخلياً لأن أمه هي أخت هنري المتكبر دوق سكونيا وبافاريا و زعيم الأسرة الجولفية و

(١) – فرح (نعيم): تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، منشورات جامعة دمشق ، ١٤١٥ – ١٩٩٥ م ، ص ١٦٥

(٢) – عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٥٤

هذا ما أدى إلى إنهاء النزاعات بين الأسرتين الألمانيتين ، و لكن كان هناك عداء بينهم و بين الامبراطورية البيزنطية بقيادة اسحق الثاني انجيلوس ، وكان سبب ذلك هو التحالف بين فردريك بربروسا ، النورمان أعداء الامبراطورية البيزنطية[١] كما كان هناك تحالف بين ألمانيا ، وفرنسا ضد بريطانيا ، فمن الجدير ذكره أيضاً أن الامبراطور الألماني كان يعد الأرض المقدسة خاضعه لحكمه ، بموجب التخويل من الملك السرمدي وبحكم كونه الوصي على يهودا و السامرة و فلسطين .

أما البابوية الطرف الأهم في الحروب، فقد كان على رأسها البابا أوروبان الثالث ، و كان رجلاً مسناً مريضاً ما إن سمع بالهزائم الصليبية حتى مات كمداً ، وقد خلفه غريغوري الثامن و كان مسناً أيضاً ، وقد بدأ بإرسال رسائل إلى الملوك والقادة و البارونات لكن القدر لم يسعفه ، حيث توفي بعد شهرين من تسلمه الكرسي الرسولي فجرى تعيين كلمنت الثالث في السادس عشر من شوال سنة ٥٨٣ هـ/ العشرين من كانون الأول ١١٨٧ م [٢]. و قد قام البابا الجديد بإرسال مبعوثيه للدعوة للحملة في ربوع أوروبا، وقد بذلوا جهوداً كبيرة أدت إلى خروج الحملة الصليبية الثالثة .

ثم اعتلى بعده البابا أنونسنت الثالث وكان على درجة واسعة من العلم والمعرفة إذ درس اللاهوت في باريس كما درس القانون في بولونيا، وقد برهن على أنه سياسي ماهر سريع البديهة متطور عارف بمقتضيات الظروف و الأهوال . و كانت آمال أنوسنت الثالث تنحصر في العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك الأوروبية ليسودها السلام كي يتمكن من تسخير كافة القوى الاوروبية في سبيل غزو بيت المقدس إلى أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ [٣].

هذا من جانب ومن جانب آخر أظهرت الانهيار الذي بدا واضحاً على الصليبيين سواء سياسياً أم عسكرياً، أما في المشرق فقد شغل صلاح الدين الأيوبي مكانة خاصة في التاريخ العربي الإسلامي نتيجة للدور الذي قام به في الجهاد ضد الصليبيين من جهة، وفي بناء الوحدة العربية الإسلامية من جهة أخرى، إذ أنه خاض مع القوات العربية الإسلامية معارك عديدة ضد الصليبيين وكان أشهرها معركة حطين التي كان لها وقع خاص في

---

(١)–عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٦٥ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٨ ، ١٥٠
(٢)– دي فيتري : تاريخ القدس ، ج٣٦ ، ص ٦٨٢ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٨ ، ١٥٤
(٣)– عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٠٥ –٢٠٦

التاريخ إذ أنها المعركة التي أظهرت مقدرة فائقة وخطة عسكرية وسياسية بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي ، وأظهرت تاريخه وتسامح العرب المسلمين.

لم تقتصر المعارك على حطين فأعقبها استرجاع مدينة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ولم تمر ثلاث سنوات على هذا الهجوم حتى انكمشت الممتلكات الصليبية في بلاد الشام بحيث لم يبق في حوزة الصليبيين من مملكة بيت المقدس إلا صور ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد، ومن إمارة أنطاكية إلا عاصمتها مدينة أنطاكية إضافة إلى المواقع الثانوية الأقل أهمية.

أحوال بيزنطة :

عندما اعتلى البابا أنونسنت الثالث كرسي البابوية كان يجلس على عرش الامبراطورية البيزنطية الكسيوس الثالثAlexis III، وكان هذا الامبراطور قد استولى على العرش إثر ثورة قام بها ضد أخيه اسحق الثانيEshak II و سمل عينيه و زج به و بابنه الكسيوس الرابع في السجن و قام الامبراطور الجديد بإغداق الأموال على من ساعدوه في الاستيلاء على العرش فأرهق خزينة الدولة، في الوقت الذي كانت فيه هيبة الامبراطورية قد ضاعت بسبب ثورة بلغاريا ، بالإضافة إلى ضياع قبرص و استيلاء ريتشارد قلب الأسد عليها سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١[(١)]، وهو في طريقه إلى عكا مع الحملة الصليبية الثالثة، و يعد ضياع قبرص أول إشارة إلى ضياع هيبة الأباطرة البيزنطيين في القسطنطنية .

وعلى أية حال ، فلم يقم الامبراطور البيزنطي الجديد بأي عمل ناجح من شأنه إعادة أملاك دولته الضائعة في قبرص وإعلاء شأن الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى ، فقد واصل الحرب البلغارية بنفس الإخفاق الذي صاحب سلفه ، كما تنازع مع الامبراطور الألماني هنري السادس بسبب ادعاء هنري صاحب عرش بيزنطة عن طريق والد زوجته

---

(١) ويندوفر(روجر اوف): ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق،دار الفكر،١٤٢١هـ /٢٠٠٠م ، ج ٣٩ ، ص ٣٦٨ ، ، فلهاردين، الاستيلاء على القسطنطينية من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر،١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٠، ص ١٠٠-١٠٧ ، كلاري : سقوط القسطنطينية، من خلال الموسوعة الشامية، ج١ ، ص ١٠٠، ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٢٠٠-٢٠١ بشور : أضواء على حروب الفرنج، ص٩٤ ، قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٤٩ ، مهر المطوي : الحروب الصليبية ، ص ٨٩ ، ربيع (حسين محمد) دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية،ص٢٤٥-٢٤٦.

روبرت الصقلي Robertofsicily واستعد هنري فعلاً لغزو بيزنطة إلا أن المرض داهمه و أصيب بالحمى التي قضت عليه سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م .

و إذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد أمنت شر هنري بمماته ، فإنها تعرضت إلى ما هو أشد فتكاً عندما اجتاحتها[١] جحافل جنود الحملة الصليبية الرابعة من سنة /٦٠١–٦٦٠ هـ/١٢٠٤–١٢٦١ م ، حيث هرب الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث ، و جلس على العرش اسحق الثاني و إلى جانبه ابنه الكسيوس الرابع الذي ما لبث أن انفرد بالعرش[٢]، لكنه عجز عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة فانتهى الأمر بعزله و إزالة الامبراطورية البيزنطية و إقامة الامبراطورية اللاتينية التي جلس على عرشها بلدوين التاسع كونت فلاندرز ، وقسمت الامبراطورية الزائلة إلى حين على القادة الصليبيين والبنادقة كما طرد البطريرك البيزنطي و نصب بدلاً منه أسقفاً من البنادقة ، وأرسلت الأخبار إلى البابا تنبئه بتوحيد الكنيستين ، و هو أمل طالما كان يتمناه و يسعى إليه بعد قطيعة سنة /١٠٥٤ م.

وعندما نصّب بلدوين وعد بتحرير الأرض المقدسة ، ولكنه لم يفعل، و ربما يرجع ذلك إلى حروبه مع البلغار التي انتهت بوقوعه أسيراً في يد قيصر البلغار الذي قتله بعد أشهر من أسره . وتولى بعده أخوه هنري (٦٠٢–٦١٣ هـ/١٢٠٥–١٢١٦م)، الذي واجهته متاعب كبيرة رغم انتصاره على الامبراطورية البيزنطية المتقلصه في بروسه، لأن البلغار لم يتركوه يهنأ بهذا النصر ، فظل الصراع مع البلغار حتى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م عندما توفي قيصر البلغار حوهانتزا JohannTze و عقد هنري معاهدة مع بلغاريا ، و قد أعطت هذه المعاهدة للأمبراطور اللاتيني الفرصة للسيطرة على أملاكه إلى حد ما . و لكن موت هنري سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م أضاع كل أمل في استقرار دولة اللاتين في القسطنطينية الأمر الذي لم يسمح لها بالمساهمة الفعلية في الحملة الخامسة [٣].

أما عن موقف البابا من الامبراطورية في القسطنطينية فإنه حتى توفي سنة ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م ، كان لديه الأمل بأن تستعد الحملة و تتجه إلى مصر ، ومما شجع على هذا

---

(١)–عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢١٧ ، ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٤٥–٢٤٦ .

(٢)–ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٥٤ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢١٨

(٣)–فلهاردين : الاستيلاء على القسطنطينية من خلال الموسوعة الشامية ، ج١٠، ص ١١٨–١١٩

عمران : تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٨ ، ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٥٧ –٢٥٨

الاعتقاد أن الامبراطور هنري عبر في خطاباته للبابا عن حماسة للحملة وأنه على استعداد للمساهمة بجيشه لتحرير بيت المقدس ، ولكن شيئاً مثل هذا لم يحدث ، و يرجع ذلك لعدة أسباب ، منها فتور الحماس الصليبي عن ذي قبل بعد أن أصبح الناس يشككون في حدوث حرب صليبية ضد المسلمين و الصراع بين هنري و أتباعه من جانب و بين هنري و بلغاريا من جانب آخر ، بالإضافة إلى الصراع بين هنري و تيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذي كان يحاول استعادة عرش بيزنطة عن منفاه في بروسه كما أن صليبي الحملة الرابعة أنفسهم لم يفضلوا ترك مواقعهم الجديدة بعدما رأوا هجرة إخوانهم الصليبيين من الشام إليهم . يضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية التي سادت أوروبا في هذا الوقت و التي جعلت الحكام ينشغلون بتأمين ممتلكاتهم عن أي عمل آخر [١].

أحوال اسبانيا :

إن البابا أنوسنت الثالث لم تسنح له فرصة إلا وانتهزها لدعوة الممالك المسيحية في اسبانيا لطرح عداواتها جانباً و أن تجمع نفسها لتتمكن من إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية ولم يكتف بذلك بل دعا إلى حملة صليبية في سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م لطرد المسلمين من اسبانيا و نجحت جهود البابا إذ اتحدت أراجون و نافار و قشتالة و تمكنت من هزيمة المسلمين في موقعة العقاب ١٤ محرم ٦٠٩ هـ/ ١٦ تموز ١٢١٢ م وهو الانتصار الذي رجح وجود المسيحيين على بقاء المسلمين فيها. و أعقبه عديد من الانتصارات التي انتهت بخروج المسلمين نهائياً من اسبانيا.

ولكن هذه الحروب شغلت الممالك المسيحية في الشمال الاسباني عن المساهمة الفعالة في الحرب الصليبية التي كان البابا يستعد لإعلانها لاستعادة بيت المقدس و هكذا كان الغرب الأوروبي في أواخر القرن السادس والسابع للهجرة / الثالني عشر والثالث عشر للميلاد مسرحاً للقلاقل والاضطرابات و المشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين ، وكان على رأس البابوية في ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا أنوسنت الثالث[٢].

---

(١)–فلهاردين : الاستيلاء على القسطنطينية ، ج١٠،ص١٥٤–١٥٦، ١٨٢–١٨٦ ، ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٥٩ –٢٦١ ،عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢١٩

(٢)– عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢١٣ ، دنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٩ – ١٥٠

ثانياً: الأوضاع السياسية والعسكرية لمدن الساحل الشامي قبل وصول الحملة الصليبية الثالثة :

إن العلاقة بين القوى العربية الاسلامية والقوى الصليبية لم تكن سلمية ولكن المعارك التي جرت بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين لم تكن تصل إلى مداها، ففي بعض الأحيان حين كانت المعارك تتوقف بين الطرفين بسبب انشغال السلطان بتوحيد الجبهة الاسلامية(١) كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب أي مواجهة كبرى مع الصليبيين قبل توحيد الجبهة العربية الاسلامية، فقد عقد هدنة سنة ٥٧٦هـ /١١٨٠م مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، واضطر إلى القيام بعدة غارات تأديبية على كل من ريموند صاحب طرابلس ورينالد دي شاتيون (أرناط) صاحب الكرك لتأمين طريق التجارة العالمية والتي كانت مورد بالغ الأهمية من موارد المسلمين في مصر والشام. ولكن دخول الموصل في الجبهة الاسلامية جعل صلاح الدين يستعد للمواجهة الحاسمة ضد الصليبيين(٢)، هذه المرحلة تمتد من سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حتى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ولقد كانت معركة حطين بداية لها، واتجهت الأمة الإسلامية كلها إلى هدف واحد هو القضاء على الصليبيين، ووجد صلاح الدين تحت قيادته منطقة تمتد من النيل إلى الفرات. وقد اجتمعت عدة عوامل سياسية واقتصادية وعسكرية مهدت السبيل أمام هذه المعركة. فعلى المستوى السياسي كانت الجبهة الداخلية قد أصبحت قوية، كما اطمأن صلاح الدين إلى استقرار أوضاعه الداخلية بعد أن ارتبطت الموصل معه في الصلح الذي عقد سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م والذي أدّى إلى دخول حاكم الموصل "عز الدين مسعود" في طاعة صلاح الدين على أساس أن يكون له حق الحكم الذاتي. وزاد من استقرار الجبهة الداخلية تأييد الأراتقة لصلاح الدين وتلك الهدنة التي عقدها مع الاسماعيلية في بلاد الشام. وهكذا كان الموقف السياسي الداخلي في المنطقة العربية الاسلامية لصالح القوى العربية الإسلامية(٣).

وعلى الجانب الآخر أي في المعسكر الصليبي كان الموقف السياسي مفككاً، فعندما غادر بلدوين الرابع Bldouin IV سرير المرض في الناصرة، كان واضحاً أنه لم يعد قادراً على تحمّل مهام الحكم فقد بات عاجزاً عن الحركة تقريباً فوضعته أمه وأخته سبيلا والبطريرك

---

(١)– ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٩٨ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ٢ ، ص ١١٩–١٤٢ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية،ص١٥٠–١٥٥ .

(٢)–ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص ١٢٣–١٣٦، قاسم: الأيوبيون والمماليك،ص٧٢– ٨٠ .

(٣)–ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٧٢ .

هيراكليو تحت الحراسة وأقنعوه بأن يجعل الوصاية على العرش لزوج سبيلا غي لوزنيان، وتمكن غي لوزنيان Gelouzinan من فرض سيطرته الكاملة على المملكة باستثناء مدينة بيت المقدس التي احتفظ بها الملك لنفسه حتى يستفيد من مواردها المالية الهائلة[١] لكن التصرفات التي قام بها غي في إحدى المعارك التي خاضها ضد صلاح الدين صدمت الجنود والبارونات وعندما عاد غي إلى القدس تشاجر مع الملك بلدوين الرابع، فقد أراد الملك أن يرحل إلى عكا للاستشفاء ولكن غي لوزينان قابل طلب الملك بوقاحة أدت إلى أن يجمع الملك بلدوين أتباعه ويقررون خلع غي لوزينان من الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس. وعلى الرغم من أن الملك لم يكن يستطيع الحركة دون مساعدة كما كان عاجزاً عن التوقيع باسمه فقد استمر يباشر مهام الحكم بنفسه[٢]. ونتيجة لذلك عاد غي لوزنيان إلى إمارته في عسقلان ويافا وأنهى تحالفه مع الملك الذي بدأ يفقد أعصابه فهاجم يافا واستولى عليها ولكن غي صدّه عند عسقلان وأراد الملك بلدوين الرابع أن يبعث بطريرك بيت المقدس وزعيم الداوية إلى أوروبا لتنجده بحملة صليبية جديدة ولكنهما ظلّا مترددين في القيام بهذا العمل [٣]، وفي مملكة بيت المقدس كان الملك العاجز ما يزال يمسك بأعنة الحكم في يديه الواهنتين وكان غي لوزنيان ما يزال يحكم عسقلان ويرفض أن يعترف بالمواطنين الملكيين في مدينته، ولكن أصدقاءه كانوا في أوروبا يحاولون تحريك مشاعر الامبراطور فردريك بربروسا ملك ألمانيا، وهنري ملك انكلترا، ولويس السابع ملك فرنسا لشنّ حملة صليبية جديدة لإنقاذ صليبيي الشرق وقابلهم ملوك أوروبا الكبار بترحاب ولكنهم التمسوا لأنفسهم الأعذار حتى يهربوا من تبعية المشاركة في حملة صليبية [٤] .وفي ظل هذه الظروف رقد بلدوين ملك بيت المقدس الصليبي في سريره مريضاً ولم يقم منه مرة أخرى. وقد رأى الملك أن يجعل خليفته على العرش صبيّاً صغيراً هو ابن أخته، وكان البارونات يميلون إلى جعل الوصاية على العرش لريموند كونت طرابلس بدلاً من غي لوزنيان،

---

(١)–أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٦–٣٥ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٢٧–١٣٠ ، المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): الخطط المقريزية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م،جـ١،ق١ ،ص٧٩

(٢)– أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٦–٣٥، قاسم (قاسم عبده) : الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،د.ت، ص ٧٢–٨٠ .

(٣)–أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٧٤–٧٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٨٥، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص ٧٥–٧٩ .

(٤)–ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٩٤ .

ولكن ريموند رفض الوصاية على الملك الطفل وفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م توفى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وكان عمره أربعة وعشرين عاماً، ووافق الجميع على عقد هدنة أربع سنوات مع صلاح الدين بناء على اقتراح ريموند الصنجيليRemond ALsanjely، وقد استغل صلاح الدين هذه الهدنة لتقوية نفوذه وتدعيم سلطانه وحشد موارده استعداداً للمعركة الفاصلة. ولكن موت الطفل بلدوين الخامس في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م وهو لم يبلغ التاسعة من عمره هزّ موقف الصليبيين من جديد، وبدأ النزاع بين الصليبيين حول العرش مرة أخرى......

وبعد عدة تقلبات في الأحداث تولى غي لوزنيان عرش مملكة بيت المقدس[١] .وفي ظل هذا التمزق الذي أنشب مخالبه في مملكة بيت المقدس كان المنطق يفرض على الصليبيين أن يتمسكوا بالهدنة مع صلاح الدين، ولكن أرناط حاكم الكرك ارتكب واحدة من حماقاته المعهودة حيث أقدم سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م على مهاجمة قافلة ضخمة قادمة من القاهرة ومعها حامية صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها، وفجأة هاجم أرناط القافلة فذبح الحامية وأسر التجار وكانت النتائج أكبر من أي غنائم حصل عليها من قبل . وهكذا صارت الحرب حتمية، وهي حرب لم تكن مملكة بيت المقدس الممزقة على استعداد لمواجهتها بينما كانت الجبهة العربية الاسلامية بوحدتها وتماسكها مستعدة تماماً لهذه المواجهة فقد سارع بوهيموند أمير أنطاكية لتجديد هدنة مع صلاح الدين وعقد ريموند الصنجيلي أمير طرابلس هدنة يحمي بها إمارته، وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بين الصليبيين[٢]، حيث بدأت معركة حطين وشن المسلمون هجومهم الحاسم على الصليبيين، وقتل أسقف عكا واستولى المسلمون على الصليب الأعظم ولم تنج من خيول فرسان الصليبيين سوى قلّة قليلة. ففي الخيمة السلطانية استقبل صلاح الدين الملك الصليبي غي لوزنيان وأخاه أماليك وأرناط Arnat وعدداً آخر من بارونات الصليبيين وزعمائهم وقد لقي بعض هؤلاء وخاصة مقدّم الراوية وأرناط حتفهم على يد صلاح الدّين نتيجة لما قاموا به وما تسبّبوا به من قتل، وتشريد، وأسر لأهالي وقوّاد مسلمين.

ما حدث بعد معركة حطين كان أشبه بنزهة عسكرية فقد سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصياً وإما لقادة جيوشه فقد استسلمت عكا ونابلس ويافا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة.

فما كاد الصليبيون يخسرون معركة حطين حتى هرول الرسل صوب الغرب الأوروبي لإبلاغ حكامه نبأ الكارثة وللدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

---

(١)–أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٧٤–٧٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٥، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٧٩–٨٠.

(٢)–ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٣٢٤ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٧.

ثالثاً: وصول الحملة الصليبية الثالثة إلى بلاد الشام ووقائعها:

لا شك أن المصائب التي حلت بالصليبيين في الشرق على يد صلاح الدين كان لها صداها الواسع في الغرب الأوروبي فارتفع صوت البابوية ينادي ملوك أوروبا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبرى تسترد بيت المقدس وتثأر لما حل بهم في الشام على يد صلاح الدين ورد فعلها العنيف في الغرب[١].

فالأحداث التي وقعت في الشرق عامة وسقوط بيت المقدس خاصة سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٢] هو الذي دفع بالفرنج للتحضير لحملة صليبية جديدة هي التي عرفت بالحملة الثالثة، لقد كان نبأ سقوط- القدس- له وقع الصاعقة في أوروبا الغربية يضاف إلى أنه كان حافزاً لدفن الخلافات وتوحيد القوى فيها فما أن علم البابا أوروبان الثالث(UrbanIII) بالخبر حتى توفي من هول الصدمة فخلفه البابا غريغوريوس الثامن(GrgoryVIII) الذي أصدر منشور بابوي دعا بموجبه إلى حملة صليبية جديدة، لكنه لم يتسن له معرفة ما آلت إليه الأحداث بسبب وفاته بعد شهرين. فوقعت على عاتق البابا الجديد كلمنت الثالث (Clement III)(٥٨٣-٥٨٧هـ/١١٨٧-١١٩١م)مهمة الدعاية لتلك الحملة، فأرسل الكاردينالات يطوفون مشياً على الأقدام في أرجاء فرنسا وانكلترا وألمانيا لإثارة الحماس الديني، يضاف إلى ذلك أن عدداً من فرنجة الشرق لبسوا السواد وذهبوا وراء البحار يحثون الفرنج في أوروبا[٣] للأخذ بثأر سقوط بيت المقدس، وفرضت ضريبة جديدة عرفت باسم (عشور صلاح الدين) مقدارها عشرة في المئة على كل دخل، وكذلك الأملاك المنقولة وقد سميت بهذا الاسم لأنها ستستخدم في تغطية نفقات

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني (١١٠٢)م: حملة الملك ريتشارد إلى أراضي القدس المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، جـ٣١، ص٢٠-٢١، بشور (وديع): أضواء على حروب الفرنج والتركمان (الحروب الصليبية)، د. م، د.ت، ص ١٩١، عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦، ص٦٨.

(٢)- ابن أبي الدم (شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم ت ٥٨٣هـ/١١٨٧م): التاريخ المظفري من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، جـ٢١، ص٣٤٠، ابن الأثير، جـ٨، ص١٦-١٧، الصلابي (علي محمد): صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، د.م، دار ابن الجوزي، د.ت، ص٥١١.

(٣) – سيولف الأنكلوسكوني (١١٠٢م): حملة الملك ريتشارد، جـ٣١، ص٣٠-٣١، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١١، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٢، قاسم (قاسم عبده): ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طـ٢، ٢٠٠١م، ص١٤٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٨.

الحملة الثالثة التي ستتوجه إلى الشرق لمحاربة صلاح الدين وقد فرضت هذه الضريبة في انكلترا ثم في فرنسا مما أثار استياء العامة، فألغيت في فرنسا ولقي نداء البابا تجاوباً في صفوف الإقطاعيين والملوك وبدرجة أقل في صفوف الفرسان الصغار والمتوسطين[١].

امتازت هذه الحملة بقيادتها الضخمة. فقد اشترك فيها وقادها أعظم ملوك أوروبا وهم فردريك بربروسا(Frederick Barbarossa) ملك ألمانيا (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م)، وريتشارد الأول (Richardcoeur-de-lion)ملك انكلترا (٥٨٥-٥٩٦هـ/١١٨٩-١١٩٩م)، وفيليب أغسطس(Philip Augustus) ملك فرنسا (٥٧٦-٦٢٠هـ/١١٨٠-١٢٢٣م).[٢]

بدايةً تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م قبل القوات الفرنسية والإنجليزية في جيش يضم نحو مئة ألف محارب مخترقاً بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية فأقلق هذا الجيش الإمبراطورية البيزنطية. وهذا ما دفعهم إلى عدم تقديم أية مساعدة له بل بلغ بهم الأمر أن أخبروا صلاح الدين بقدوم الألمان.

وما لبثت أن عبرت الجيوش الألمانية إلى آسيا الصغرى، إلى أن اعترضهم سلاجقة الروم في قونية، ولكن لم تستطع ثنيهم عن متابعة سيرهم باتجاه هدفهم المنشود، ولما وصلوا أرمينية الصغرى، وجدوا من الأرمن خير مساعد لهم، إلا أن غرق الإمبراطور الألماني، وموته بنهر سالف الأزرق[٣] في أرمينية الصغرى جعل جيشه في تشتت واضطراب[٤]، ورجع أغلبه إلى ألمانيا أما بقيته فقد تابعت سيرها إلى عكا بقيادة ابنه المدعو فردريك دوق سوابيا لكن المشيئة والقدر كانت بعدم وصوله إلى عكا بسبب وفاته في الطريق غير أن عدداً قليلاً من الجيش وصل المدينة، بعد كل تلك العراقيل، وبالتالي لو وصل الجيش كاملاً لربما كانت تغيرت موازين

---

(١)- ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص١٦-١٧، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٢، قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٨.

(٢)- سيولف الأنكلوسكوني :حملة الملك ريتشارد، جـ٣١، ص٣٠-٣١، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١١، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٥٦٨، .

(٣) – سمباط الأرمني: التاريخ المعزو إلى القائد سباط الأرمني من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، جـ٣٥، ص٢٩٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٨، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٣-١٩٤.

(٤) – سيولف الأنكلوسوني حملة الملك ريتشارد، جـ٣١، ص٣٢-٣٣، سمباط الأرمني: التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني، جـ٣٢، ص٢٩٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٨، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٤، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩، المطوي (محمد العروسي): الحروب الصليبية في المشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م/ط١، ص٨٨-٨٩.

القوى العسكرية بالنسبة للصليبيين، لكن ما حدث كان خسارة فادحة ومصيبة ألمت بالجيش الصليبي القادم من أوروبا قبل أن يحقق هدفه وانتهى أمر الألمان بالمشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة، أما بالنسبة للحملتان الفرنسية والانكليزية فقد وصل كلاً من ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انكلترا وفيليب أغسطس (ملك فرنسا) بقواتهما إلى صقلية بطريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ٥٨٦-٥٨٧هـ/ ١١٩٠-١١٩١م فيها لأن موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر تمضية الشتاء في صقلية بمدينة مسينا، وكانت صقلية تحت حكم تنكرد الذي خلف الملك وليم الثاني على سدة السلطة ومن الواضح أن هناك نزاعاً ما بين جوانا زوجة الملك وليم الثاني والتي هي أخت ريتشارد وما بين تنكرد متسلم العرش فتدخل ريتشارد وأرغم تنكرد على إعطائها ما تريد، وقد استغل ريتشارد سوء المعاملة التي لقيتها جوانا من قبل تنكرد، وقام بما لديه من قوات بالاستيلاء على بعض الأراضي في صقلية ومنها مدينة مسينا، وقد قام جنوده بنهب هذه المدينة[١] وعندما رأى الفرنسيون أعلام الملك ريتشارد تخفق فوق أسوار المدينة شعر فيليب ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك ريتشارد، لكنه أرسل إليه لينزل أعلامه واستبدالها بأعلام فرنسية، فغضب الملك ريتشارد من طلب ملك فرنسا في أن يتخلى عن حراسة الأبراج، حتى يعرفوا مشاعر الملك تنكرد(Tancred) تجاه ما حصل، ولذلك تم رفع أعلامهما معاً فوق أسوار مسينا، وبعد اجتماع عام، تم إرسال رسل من قبل الملك ريتشارد إلى تنكرد بغية مطالبته بتعويضات عن الأضرار البالغة التي لحقت بشعبه نتيجة الاضطرابات، وأن تعطى الملكة الأرملة جوانا حصتها من أموال الملك المتوفي وليم التي آلت إليه والتي هي حق لها،. ولذلك فإن هذه العوامل أو الظروف العائلية ووقوف ريتشارد إلى جانب أخته جعلت دوره في صقلية أقوى من دور فيليب أغسطس وقد أثار الملك الفرنسي مشكلة حول نهب المدينة وطالب بحصته ولأن الملك ريتشارد رفض طلبه، لم يتوقف عن إزعاجه، ثم تم الاتفاق بينهما على شرط اقتسام كل شيء سيتم الحصول عليه بالتساوي بينهما.[٢]

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني (١١٠٢م): حملة الملك ريتشارد، جـ٣١، ص٣٨، ويندوفر: ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٩، ص٣٦٢، أمبرويز: صليبية ريتشارد، جـ٣٢ ،ص٨٩-٩٠ ،.المطوي: الحروب الصليبية، ص٩٠، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٤.

(٢) – ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٦٢-٣٦٣، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ، ص١٥٣-١٥٥، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ،١٩٤.

وأوفد ريتشارد وفيليب الرسل ولكن قضيتهم مع تنكرد لم تنته فقد أجاب إجابات غامضة، وأكد أنه سيتولى إرضاء الملكين وفقاً لمشورة نبلاء البلاد، ولكن هذا كان في الظاهر أما في الخفاء فكان فيليب قد أرسل لتنكرد رسالة بعدم الاستجابة لمطالب ريتشارد ، بل طلب منه صلابة في الموقف وفي الدفاع عن حقوقه في كل شيء، وأكد له أنه لن يشارك الملك ريتشارد في أي عمل يقوم به ضده على أنه سيكون مخلصاً وفياً له. ويبدو أن هذه الهوة بين موقف الملكين استغلها السكان المحليين لصقلية فبذلوا غاية جهودهم لإيذاء ريتشارد ورجاله بالقدر الممكن لهم. وكان هدفهم من وراء ذلك إرغام الإنكليز على الخضوع لسلطانهم.

كما ترسخت قناعة لدى تنكرد بعدم مغادرة ريتشارد أراضي صقلية، حتى حصوله على ما يرغب به وبناء عليه أرسل له رسلاً عرضوا عليه السلام. وتم الاتفاق على شروط الصلح، وبينما كان الملكان الفرنسي والانكليزي غارقين في النزاع حول الأمور الداخلية في صقلية كان الصليبيون في عكا ينتظرونهم بفارغ الصبر، ولأنهما لم يكونا على وفاق فقد غادر الفرنسيون صقلية في آخر أذار ٥٨٧هـ/١١٩١م، بينما الانكليز غادروها بعد ذلك بعشرة أيام(١). وصل الفرنسيون إلى عكا في ٢٠ نيسان من العام نفسه، فأضافوا للصليبيين بعكا قوة جديدة وشدوا أزرهم وبذلك أحيوا آمال الصليبيين في عكا بتغيير على أرض الواقع، هذا من جهة الفرنسيين. أما الانكليز وفي أثناء مسيرهم بقيادة ملكهم ريتشارد فقد تعرضوا إلى عاصفة دفعت ببعض سفنهم إلى جزيرة قبرص التي كان يحكمها اسحق دوكاس كومنيوس(Isaac Ducas Comneny) منذ سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وقد استولى اسحق على ما أنقذ من السفن، وعامل الانجليز معاملة سيئة، ولما علم ريتشارد بما حل بسفنه أقسم بالانتقام، وعندما بدأت القوات الإنجليزية في النزول إلى الشاطئ شرعت في حصار مدينة ليماسول، ولم يكن أمام اسحق سوى إعلان قبوله للتفاوض ولكن الأمور تعقدت وانتهى الأمر بأن استولى ريتشارد على جزيرة قبرص بأكملها، وقد ساعده على ذلك القوات الصليبية التي أتت من سواحل الشام لاستقباله وعلى رأسهم الملك غي لوزينيان ثم أقلع الأسطول الإنجليزي في اتجاه الساحل الشامي فازداد الصليبيون قوة بمجيء ريتشارد الأول وهكذا بدأت وقائع الحملة الصليبية الثالثة على أرض الشام(٢). وبوصول ريتشارد إلى عكا أصبح الانقسام واضحاً بين جموع الصليبيين ، حيث

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١، ص٤١-٤٢، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٤-١٩٥، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩.

(٢) – أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد ، من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ /١٩٩٣ م،جـ ٣٢ ، ص ١٧٠ ،ويندوفر: ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٩،

انقسمت إلى فئتين ، حاولت كل فئة كسب الود ، و الثقة من أكبر عدد من الصليبيين المحاصرين لعكا ، فعمل فيليب على شراء إرادة الناس، و ذلك عن طريق إعطاء كل جندي ثلاث قطع ذهبية كل شهر ، و يقول أمبرويز: " إن هذا التصرف قد جلب له الكثير من الأتباع "، و ما إن سمع ريتشارد عن ذلك حتى أدرك لعبة فيليب ، فأرسل المنادين ليذيعوا أو يبلّغوا النّاس أنّ كل من أراد الدخول في خدمة ريتشارد بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها سوف يعطيه ريتشارد أربع قطع ذهبية في الشهر. إذاً هي الحرب بين الرجلين لشراء ولاء الجنود و كسب ودّهم للانضمام إلى أحدهم ضد خصمه ، حيث يقول أمبرويز: لقد استطاع ريتشارد خلق مناخات رائعة بين صفوف الجنود ، وخاصة في ظروف الحصار ، وما يعانيه الناس من ضيق ذات اليد ، وقلة الإمدادات ونفسية الذين قدموا في هذه الحملة ، و حبهم للمال[1] من خلال ذلك يتبيّن أهمية هذه الإجراءات من قبل الملك فيليب ، ثم من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد الذي استطاع أن يحوز على ثقة عدد كبير من هؤلاء .

ص٣٦٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢٠٠–٢١٠، ٢١٣–٢٢١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٩، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص٩٤، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩، المطوي: الحروب الصليبية، ص٨٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٥.

(١) -أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد من خلال الموسوعة الشاميّة ، تأليف وتحقيق وترجمة : سهيل زكار، دمشق، دار الفكر ١٤١٤هـ/١٩٩٣م،جـ ٣٢ ، ص ١٧٠

رابعاً: سقوط عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وأثر ذلك على مجريات الأحداث السياسيّة للحملة الصليبيّة الثّالثة:

تتالت الإمدادات والنجدات من الغرب الأوربي إلى الساحل الشامي في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يعملون على تعزيز مراكزهم الدفاعية، ويستعدون لاستعادة مدن الساحل الشامي التي حررها صلاح الدين، مما أزعج الأخير فرد على ذلك بمهاجمة قوات الملك غي لوزينان التي كان معسكره خارج عكا، وباءت هذه المحاولات بالإخفاق، وبدأت القوات الصليبية بالهجوم على مدينة عكا وعلى قوات صلاح الدين، فنجحت في مطاردة القوات الإسلامية، غير أن صلاح الدين تصدى لهم وأنزل بهم خسارة فادحة إضافة إلى أسر بعض قوادهم، ولكن هذا النصر لم يغير كثيراً من الموقف بسبب وصول أعداد كبيرة من الصليبيين على ظهر السفن ونجاحهم في إحكام الحصار على المدينة من البر. عندها بدأ صلاح الدين باتخاذ خطوات أو إجراءات داخلية تتضمن تجميع القوات من جميع المناطق[١]، وخارجية تمثلت في مراسلة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور طالباً مساعدته في قتال الجيوش الزاحفة إلى الشام، ولكن رُفِضَ طلبه كون القوات والأساطيل الموحدية كانت مشغولة بقتال المسيحيين في إسبانيا والبرتغال فلم يرسل العون والمساعدة وانقضى شتاء سنة ٥٨٥-٥٨٦هـ/١١٨٩-١١٩٠م دون حدوث اشتباكات بين القوات الإسلامية والصليبية. ومع بداية ربيع سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م وصلت إلى مدينة عكا إمدادات صليبية قادمة من صور فحاولت البحرية الإسلامية التصدي لها، ولكنها أخفقت في مهمتها، ثم نجحت فيما بعد في التصدي للصليبيين عندما قاموا بالهجوم على عكا. وكانت نتيجة الهجوم الإخفاق فقتل الكثير من الصليبيين مع استمرار القتال بين الطرفين[٢] دون أن يحرز أي طرف نصراً يذكر على الطرف الآخر، وكل منهما ينتظر وصول الإمدادات التي تقويه على خصمه. والملاحظ أن الإمدادات كانت تأتي للمسلمين براً بينما كانت تتدفق

---

(١)-ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٤، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، بيروت، لبنان، دار المعرفة، جـ٣، ص٧٦-٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية،جـ١٢، ص٣٤١، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٩، بروجاوي: الحروب الصليبية، ص٤١٥.

(٢) - ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٧٢، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٤٩-١٥١.

الإمدادات إلى الصليبيين بحراً[١] في الوقت الذي كانت تسيطر فيه القوات العربية الإسلامية على المدينة. وفي هذه الأثناء سمع الصليبيون بوصول أسطول من مصر عندئذ استعدوا للتصدي له ولكي يشغل صلاح الدين الصليبيين قاتلهم من جهة البر، وقد فطن الصليبيون إلى ذلك فكان القتال في البر والبحر، فنجح الأسطول المصري بوصول عكا واستمرت متاعب القوات الصليبية في الشتاء بسبب عدم وصول المؤن لهم من ناحية، وحصار المسلمين لمعسكرهم من ناحية أخرى[٢].

لكن سرعان ما تغيرت الظروف السياسية وتغيرت موازين القوى العسكرية بالنسبة للصليبيين نتيجة لعوامل متعددة ، منها وصول الأسطول الانكليزي، بما يحمله من قوة عسكرية، وإحراز بعض الصليبيين المحاصرين لعكا نجاحاً بعد وصول القوات الفرنسية[٣].

ولكن الأحوال لم تكن على ما يرام بين قادة الجيش الصليبي المحاصر لعكا فقد دب النزاع بين قادة المملكة وخصوصاً بين كونراد دي مونتفرات (Conrad of Montperrat)الذي سانده فيليب أوغسطس وبين غي لوزينيان على رفض الأسطول الانكليزي مشاركة البحرية في مهاجمة المدينة، وعلى أية حال فقد أخفقت البحرية الفرنسية.

مما تقدم يتبين أن مدينة عكا قد عانت الكثير سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ومع محاولات صلاح الدين فتح ثغرة من جانب البحر للنفاذ إليها واستخدام البحرية الإسلامية الموجودة عند ساحل بيروت ففي السادس عشر من جمادى الأول ٥٨٧هـ/ آخر أيار ١١٩١م[٤] وصلت

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٩٧–٢٩٩، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٤، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٩، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٤١٥–٤١٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥١.

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٩٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٦–٧٧، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٤١٧–٤١٨، ب. هـ، نيوباي: صلاح الدين وعصره، ترجمة: ممدوح عدوان، تقديم: ساعي الجندي، دمشق، دار الجندي للنشر، ط١، ١٩٩٣م، ص١٨٩.

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٥، سيولف الأنكلوسكوبي: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١، ص٤٠–٤١، العسلي (بسام): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، دار النفائس، ط٥، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٧٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٨–١٥٩.

(٤) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٥–٢٠٦، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٨٠–٣٨١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٨.

بطسة[١] عظيمة هائلة من بيروت، كانت مشحونة بالآلات والأسلحة والميره والرجال، وكان عدد رجال المقاتلة فيها ستمائة وخمسين رجلاً، واعترضتها البحرية الصليبية ولعلها الإنكليزية في عدة ثوان، فأحاطوا بها من جميع جوانبها، واشتدوا في قتالها، فقاتلوها قتالاً عظيماً غير أن كل محاولاتهم باءت بالإخفاق حيث قتل نتيجة ذلك الكثير من الصليبيين، كما أحرقت البحرية الإسلامية شاحنة صليبية كبيرة وهلك من عليها، وعند ذلك تكاثرت السفن الصليبية على البطسة الإسلامية، فلما رأى مقدم البحرية الذي يتولى قيادتها أن لا فائدة من المقاومة ضرب المسلمون البطسة بالمعاول حتى غرقت بمن عليها من مؤن وذخائر، ولم يظفر الصليبيون منها بشيء إلا القليل[٢]. **وهنا يمكن التساؤل لماذا لم يفكر صلاح الدين بالاستسلام ثم مبادلة الأسرى كما يجري في بعض الأحيان، أهي ظروف المعركة اقتضت ذلك لشراسة المعارك وضراوتها؟**

عند استيضاح الصورة يلاحظ أنه اشتدت ضراوة المعارك واستمرت سجالاً، وتعددت الآلات الحربية التي استخدمها الفرنجة في هذا الحصار الطويل ومن هذه الأسلحة المنجنيقات كما أن الملك فيليب نفسه صنع قلعة على شكل دبابة عظيمة هائلة أشبه برج تتحرك على عجلات يتكون من عدة طوابق يستقر بها الجنود لمهاجمة الأعداء، وكان لهذه الدبابة أربع طبقات الطبقة الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت تنقر الأبواب وتلقي بالنار، فسببت هلعاً وخوفاً عظيماً لأهل مدينة عكا، مما دفعهم إلى التفكير بطلب الأمان من الصليبيين مع استمرار جهود المدافعين عن المدينة في التصدي لهذه الدبابة واستطاعوا إصابتها عندما ضربوها بالنفط مما أدى إلى احتراقها هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يقتصر هجوم الفرنجة على الدبابة فقط بل عمدوا إلى صنع أبراج كبيرة من الأخشاب

---

(١) – بطسة: معناها مركب للتجارة أو للحرب وهي نوع من المراكب البحرية عظيمة الحجم كثيرة القلوع يصل عددها إلى حوالي أربعين شراعاً في البطسة الواحدة، وهي أشهر أنواع السفن الصليبية، وقد شغلت دوراً كبيراً في الصراع الإسلامي– الصليبي، وكانت تزود بالأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب والحصار فضلاً عن المؤن اللازمة، وكانت ذات أسطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاصة من الجند الذين يصلون إلى ستمائة وخمسون رجلاً أو أكثر. ماهر (سعاد): البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧، ص٣٢١–٣٣٢.

(٢)–سيولف الانكلوسكوني : حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية،جـ٣١،ص٨٤ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣٦–٢٣٧، ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٢٠٥، ابن واصل (محمد ابن سالم بن نصر الله ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م، جـ٢، ص٣٩١، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٣، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٨١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٨.

والحديد ذات خمس طبقات يسع سطحها منجنيقاً ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمئة رجل وقد علت هذه الأبراج على أسوار المدينة ومنازلها، وكانت مكسوة بجلد البقر، ومبللة بالخل والطين كي لا تتأثر بالنار إذا أطلقت عليها[١] وكان الفرنج يقذفون منها النار والأحجار والسهام[٢].

مع استمرار ضراوة المعارك بين المسلمين والصليبيين، ومع المحاولات المستمرة للصليبيين ضرب أسوار المدينة بالمنجنيقات استطاعوا تحقيق أهدافهم . حيث تخلخل السور وضعف بنيانه وبالمقابل تأثر المدافعون المسلمون بالسهر والتعب، وأنهكهم ذلك بسبب قلة عددهم، بعكس القوات الصليبية الكثيرة العدد التي تناوبت على قتال المدينة.

وعلى الرغم من إتباع العرب المسلمين المدافعين عن عكا طرقاً جديدة في قتال الصليبين من استعمال النفط الأسود في القذائف والمجلوب من ساحل البحر الأحمر، والنفط الأبيض المجلوب من العراق، وصناعة أقواس تطلق عدة سهام في آن واحد، إلا أن معنوياتهم[٣] قد ضعفت بسبب طول مدة الحصار مع العلم أن عكا المحاصرة براً وبحراً ضربت مثلاً فريداً من صبر أهلها وصمود حاميتها وشجاعة جندها وقتالهم المستميت، عندها أدرك صلاح الدين خطورة الموقف فجمع الجيش بفرسانه ورجالته، وزحف على خنادق المعسكر الصليبي، ودارت معركة كبيرة، وكان كلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما جرى على ساكنيها من المصائب، اشتد في الزحف والحث على القتال، الذي استمر حتى دخل الليل فعاد صلاح الدين إلى خيمته وقد حل به التعب وعليه علامات الحزن[٤].

وفي اليوم التالي ثامن جمادى الأخرة ٥٨٧هـ/ الثالث من تموز ١١٩١م أمر صلاح الدين بالاستعداد للقتال، وتواءم هذا مع وصول رسالة من أهل مدينة عكا يقولون فيها "إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، وإن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونسلم البلد

---

(١) – ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٥٦، ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٢٨، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩٠.

(٢) – ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٣، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٨، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩٠.

(٣) – سيولف الانكلوسكوني : حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية،جـ٣١،ص٨٤ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٩١-٢٩٢، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩١، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١٨-٥١٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٩-١٦١.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٩١-٢٩٢، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٩-١٦١.

ونشتري مجرد رقابنا"[١]. وكان هذا أسوأ خبر تلقاه المسلمون وأنكاه في قلوبهم، لأن مدينة عكا كانت المخزن الضخم الذي احتوى جميع سلاح مدن الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية[٢].

رأى صلاح الدين ضرورة المبادرة بمهاجمة الصليبيين. ولكنه لم يوفق في كسر خطوطهم فقد اصطفوا كالسور المحكم البناء بكل أسلحتهم، ودارت معركة بين الفريقين سقط فيها الكثير من القتلى والجرحى من الطرفين، وبعدها اشتد زحف الصليبيين براً وبحراً على مدينة عكا وتكاثروا عليها من كل جانب، وتناوبوا عليها فدب الخوف والقلق بين رجال المدينة وفرسانها لكثرة القتل فيهم[٣] فضعفت نفوس أهل البلد، نتيجة تمكن الصليبيين من ردم خندق المدينة، ونقب أسوارها، وحاول صلاح الدين القيام بهجوم شامل على القوات الصليبية ولكن العساكر الإسلامية لم تساعده على ذلك وتخاذلوا[٤]، وفي الحادي عشر من جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ السادس من تموز ١١٩١م، استعدت القوات الصليبية بأكملها ولبست لباس الحرب وتحركت حركة عظيمة لكنه لاح في الأفق قيام المفاوضات بين الصليبيين من جهة وبين بعض الأمراء المسلمين الذين كانوا في عكا من جهة أخرى، حيث أن هؤلاء ضاق بهم الأمر وتيقنوا بالهلاك، فبدأوا التفاوض مع العدو في سبيل الصلح، ويبدو أن الصليبيين بالغوا فيما طالبوا به عندئذ، أخفقت المفاوضات، وفي اليوم التالي وصلت الكتب من داخل عكا لصلاح الدين مع أحد العوامين وقد ورد بها: "إنا قد بايعنا على الموت، ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له فأما نحن فقد فات أمرنا"[٥].

---

(١) – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/١٣٤٦م): العبر في خبر من غبر، حققه: صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠–١٩٦١م، جـ٤، ص٢٦١.

(٢) – ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٥، ت.هـ نيوباي: صلاح الدين وعصره، ترجمة: ممدوح عدوان، تقديم سامي الجندي، دمشق، ط١، ١٩٩٣م، ص١٩٠، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩١.

(٣) – ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٥، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩١.

(٤) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٥٥–١٥٦، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٣٠–٥٣١، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٤٢٣–٤٢٤.

(٥) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٠، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٣٠–٥٣١.

وهنا يمكن التساؤل لماذا فقدت حامية عكا وأهلها الأمل في مساعدة المسلمين لهم؟ ولماذا قالوا (فقد فات أمرنا)؟

من الواضح أن الحامية والسكان داخل عكا قد استقرؤوا الواقع السياسي والعسكري وعاشوه لحظة بلحظة، ولأن قوتهم وهنت وضعفت وأسوارهم تهدمت، ولم يعد لهم طاقة على مواصلة الصمود مع فقدان معظم قطع الأسطول الأيوبي التي كانت تقوم بمحاولات يائسة لإنقاذ المدينة المحاصرة، فقد حطم بعضها الأعداء، وأغرق بعضها هياج البحر، ومع تزايد أعداد الفرنج وتعاظم تفوقهم البحري بدأ أمراء الأجناد من المسلمين يتململون ((وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل)). ويبدو أنه لم يكن من اليسير على صلاح الدين إبقاء هذه الجيوش في حالة حرب أمام القلاع والحصون أعواماً متصلة على غير المألوف. حيث أن هذه الجيوش اعتادت على الحرب والغنيمة السريعة ثم العودة إلى مناطق تواجدها وتواجد أسرها.

ولكن ربما لاحت في الأفق بوادر لتغيير النتيجة و أنها سوف تتغير عندما وصلت الإمدادات من شيزر إلى صلاح الدين غير أن الصليبيين ثبتوا على موقفهم رافضين الصلح أو إعطاء الأمن للمدينة حتى يطلق سراح جميع الأسرى الصليبيين وعودة البلاد الساحلية إليهم، ونتيجة للمعاناة ولشدة الحصار براً وبحراً عرض المسلمون على الصليبيين تسليم المدينة وإطلاق أسير مقابل كل فرد بالمدينة وتسليم صليب الصلبوت فرفضوا كل ذلك، وقد كان لأسطول ريتشارد الأثر الفعّال في تشديد الحصار على عكا، إلا أن أسطوله لم يكن الأسطول الوحيد الذي حاصر عكا وإنما أسهمت أساطيل صقلية وبيزا وجنوه والبندقية جميعاً[١]. حيث عجز المسلمون عن الدفاع عنها، وفي الوقت نفسه أدركوا أنه متى سقطت عكا سيقتلون جميعاً، وسوف يستولي الصليبيون على ما فيها من العدد والأسلحة والمراكب، ونتيجة ذلك صالح أهل المدينة الصليبيين وتولى كونراد الوساطة في الصلح مقابل تسليمهم عكا، وجميع ما فيها من الآلات والمراكب، وتقديم مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ومئة أسير معروفين إضافة إلى صليب الصلبوت، ومقابل ذلك يتم خروجهم من المدينة سالمين مع أموالهم وزوجاتهم وأولادهم[٢]. وفي السابع عشر من جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ الثاني عشر من تموز

(١) – أمبرويز: صليبية ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية ،جـ ٣٢ ،ص ٢٠١–٢٠٣، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٩٦، الصلابي: صلاح الدين، ص٥٣٨–٥٣٩.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٦، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٧–٧٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٠، قلعجي: صلاح الدين، ص٣٩٤.

١١٩١م، خرج أحد العوامين من عكا ليبلغ صلاح الدين بما تم الاتفاق عليه فأنكر ذلك وجميع أرباب المشورة، وأبلغهم بما حدث، وأثناء تبادل الرأي رفعت أعلام الصليبيين على المدينة، فقد وضع علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال. وخرج المسلمون من عكا[١] ودخلها الصليبيون وعلى رأسهم كونراد، وقد رفع لواء كونراد ولواءي الملكين الإنجليزي والفرنسي، ونزل ريتشارد في القصر الملكي السالف عند السور الشمالي للمدينة بينما نزل فيليب في دار الداوية السالفة[٢]. وهكذا سقطت عكا بأيدي الصليبيين لأسباب عدة منها سياسية وعسكرية وضعف قوة المسلمين البحرية، ثم فقدان الروح المعنوية عند أمراء صلاح الدين، واختلافهم معه في الرأي وأكثر المناسبات الحربية إضافة إلى عدم إنجاد الخليفة العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية أو مادية كبيرة[٣].لكن فرحة الصليبيين لم تكتمل لأنه سرعان ما دب النزاع بين القادة الصليبيين و عمت الفرحة أرجاء دنياهم و ما أن تقاسم المدينة بين الملكين حسب الاتفاق المبرم بينهما. أقام الملك الفرنسي في القلعة ، ونزل ريتشارد قلب الأسد بدار الداوية، أما بقية الفرسان فقد نزلوا في بيوت أعيان الصليبيين الذين فقدوها نتيجة لفتحها من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧ م، و الآن أراد هؤلاء أن يعودوا إلى بيوتهم وممتلكاتهم ، فمنعهم الفرسان الذين استولوا عليها ، وأقاموا فيها ، فخرجوا صفر اليدين وكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار . فلا هم نزلوا في بيوتهم ، ولاهم حصلوا على ما فقدوه من ممتلكات ، و تبخّرت آمالهم أدراج الرياح بعد أن منّوا النفس كثيراً بعودة الأملاك والديار عندما ذهب هؤلاء إلى ملك فرنسا ورفعوا إليه ظلامتهم، وطلبوا منه المساعدة ، وقالوا: قدمتم يا مولاي لاسترداد مملكة المقدس ، و من غير المعقول أن تحرمونا من ممتلكاتنا، ذلك أن الفرسان قد احتلوا بيوتنا، ويقولون إنهم استولوا عليها من المسلمين ، فقام الملك الفرنسي و طلب عقد مؤتمر أو اجتماع يضم الملكين، وبقية البارونات ، وفعلا عقد الاجتماع وعندها توجه فيليب

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية،جـ٣١ ، ص ٨٩–٩٠
ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٢٠٦، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٧–٧٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦١.

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٩٧–٢٩٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦١، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٣–٨٣، عبد القوى (زينب عبد المجيد): الإنجليز والحروب الصليبية، د.م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طـ١، ١٩٩٦م، ص١٢٤–١٢٥.

(٣) – قلعجي: صلاح الدين، ص٣٩٦، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص٧٣–٨٣، عبد القوى: الإنجليز والحروب الصليبية، ص١٢٤–١٢٥.

أغسطس بالخطاب إلى السادة الذين رفعوا إليه ظلامتهم قائلاً: أيها السادة الذين طالبوا بإعادة بيوتهم وممتلكاتهم ، نحن لم نأت لاحتلال أراضي الآخرين أو أملاك أو بيوت ، إنما قدمنا من أجل الرب وفي سبيله ولتقديم المساعدات لجيوشنا ولاسترداد مملكة بيت المقدس التي اغتصبها المسلمون و انتزعوها من المسيحيين، وإعادة ممتلكات المسيحيين إليهم و غضب فيليب غضباً شديداً، و طلب من رجاله أن يكونوا بكامل جاهزيتهم ، وأن يحملوا السلاح لنصرة هؤلاء الذين فقدوا ممتلكاتهم ، وإذا لم يستجب الفرسان فيجب أن يكونوا مستعدين لمهاجمتهم ومهاجمة ملكهم ريتشارد ، و لكن تدخل بعض البارونات ، ووساطتهم هدأت الخواطر بين الطرفين وأزالت الغضب من النفوس ووافق ملك إنكلترا والبارونات على ما اقترحه ملك فرنسا[١] لكنهم طالبوا أن يبرز كل من يطالب ببيته أو أملاكه البرهان على ما يقول ، ثم أصدروا الأوامر للفرسان بإخلاء البيوت التي استولوا عليها ، وإعادتها إلى أصحابها ، و لم يكن هذا الخلاف الوحيد بين الصليبيين بل اختلفوا على كل شيء، وبدأت الشجارات والنزاعات حول الأسقفية ، ومن ينبغي أن يعيش هناك ، كما بدأ يقف بعضهم ضد بعضهم الآخر ، وعندما رفع ليوبولد Leopld Dukeof Au stria دوق النمسا رايته على أسوار عكا [٢] سحبها الجنود الإنكليز ورموها في الخندق عند السور بعد أن داسوها بالأقدام مما أغضب الدوق الذي قرر وهو في قمة غضبه أن يعود إلى بلاده بعد أن أصيبت كرامته وجُرح كبريائه، بعد وقت قصير أصيب كونت فلاندرز بمرض خطير شعر أن هذا المرض سيودي بحياته ، و يبدو أنه كان يحتفظ ببعض الأسرار الخطيرة ، لذلك أرسل إلى ملك فرنسا ، وطلب منه أن يأتي إليه فاستجاب الملك وقد تحدّثا معاً، حيث باح له ببعض الأسرار الخطيرة و منها أن عليه (أي على الملك الفرنسي) الاحتراس الشديد من الآخرين ، و أن يكون حذراً لأن في الجيش مجموعات أقسمت الإيمان على التخلص منه وقتله ، وقد اهتم الملك بهذا الكلام وأخذه على محمل الجد، لكنّه أيضاً تركه سراً في داخله ، ولم يبحْ به ، و لم يقمْ بأي تحقيقات للتأكد من صحة ما سمع، و سيطر الخوف على سلوكه لدرجة أنه أصيب بمرض شديد من جراء ذلك، و في أثناء هذا المرض عمل ريتشارد قلب الاسد على حبك مؤامرة لقتل الملك الفرنسي بشكل سري ، أي أن يقتل الملك الفرنسي دون أن يبدو أن لريتشارد يداً في ذلك و لكن في اللحظة الاخيرة قبل التنفيذ

---

(١)– أمبرويز : صليبية ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية،جـ٢ ،ص٣٣ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية،جـ٢ ص٧٣-٨٣ ، عبد القوى : الانجليز والحروب الصليبية، ص ١٢٠-١٢٥

(٢)- ويندوفر: ورود التاريخ ، ج٣٩ ، ص ٣٧٣ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٦٣ ، قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ،ص٤٩٣

استيقظت عند ريتشارد قلب الاسد صحوة ضمير ، فقد شعر أنه أساء لهذا الملك كثيراً فقد كذب عليه ونكث بوعده ، ولم يتزوج من أخته على الرغم من كل الاتفاقات ، بل تزوج ابنة ملك نافار ثم اجتذب رجاله بالعطايا و الهدايا والوعود المختلفة مع إزعاجات كثيرة أخرى سببها له في أثناء حصار عكا ، لكن هذه الصحوة في ضمير ريتشارد لم تكن صادقة، و تحول من التخطيط للقتل المباشر إلى التخطيط للقتل غير المباشر ، فقد قرر أن يعزز الضغط النفسي على فيليب أغسطس ، بغية النيل منه ، ولا سيما أنه مريض ، فقد أشاع عن موت ابن الملك الفرنسي، وانتشرت هذه الشائعة إلى أن وصلت إلى فيليب أغسطس، فزادت مرارته و كبرت أحزانه و تألم ألم الأب المفجوع ، مما أخر في شفائه واستدعى باروناته واستشارهم وطلب منهم أخباراً إذا كان لديهم علم بما حلّ بابنه في ممتلكاته. فقال له أحدهم: مولاي منذ أن قدمنا لحصار عكا لم يأت مركب من بلاد ما وراء البحار لينتقل مثل هذا الخبر، و أوضحوا له أن هذا مجرد شائعة، عمل على نشرها ريتشارد ليبقَ الملك الفرنسي غارقاً في همه، تقتله أحزانه و مرضه ، وهذا يندرج في إطار الحرب النفسية والإعلامية القائمة بينهما ، لذلك قرر فيليب أغسطس العودة إلى بلاده مدّعياً أن سبب هذه العودة هو المرض[1]، وقال : إنه وفى بوعده بقدر ما استطاع عندما طالب ليوبولد دوق النمسا باعتباره قائد للجيش الألماني أن تكون له المكانة نفسها بالنسبة للملوك الآخرين. وطلب رفع لواءه إلى جانب لواء الملك الإنجليزي، ولكن العساكر الإنجليزية نزعوا العلم وألقوا به في خندق المدينة. وإذا كان النصر السياسي للصليبيين بضم عكا إلى مناطق نفوذهم ووجودهم فإن غنيمة التجار كانت أكبر حيث حصلوا على امتيازات كانت قبل سقوط المدينة في أيدي المسلمين.ترتب على استسلام عكا بالنسبة للصليبيين إعداد الكنائس وتدشينها، لاستقبال المصلين إضافة إلى حل مسألة عالقة وشائكة بينهم، منها مشكلة عرش المملكة، فقد وضع النبلاء تسوية نهائية لمشكلة العرش وتم الاتفاق على بقاء غي لوزينان ملكاً لبيت المقدس طوال حياته، ثم ينقل التاج من بعده إلى كونراد وزوجته إيزابيلا، ويصبح كونراد أيضاً سيداً لمدينة صور وصيدا وبيروت، مع العلم أن هاتين المدينتين الأخيرتين في هذه المرحلة كانتا بيد المسلمين، وأن يقتسم غي لوزينان وكونراد موارد المملكة، وبعد أن ضمن فيليب لكونراد عرش المملكة بعد غي لوزينان بدأ يستعد للعودة إلى بلاده، وفي السابع من رجب ٥٨٧هـ/ نهاية تموز ١١٩١م غادر فيليب وهو مريض عائداً إلى

---

(١) - سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد ،من خلال الموسوعة الشامية ،جـ٣١ ، ص٩٠-٩٢ ، أمبرويز : صليبية ريتشارد، جـ٣٢ ، ص ٣٣٠-٣٣١، رنسيمان :تاريخ الحروب الصليبية، ص ٧٣,٨٣ ، عمران :تاريخ الحروب الصليبية ،ص ١٦٣

بلاده، **لكنّ السؤال المهم: هل كان مرضه فعلاً سبباً كافياً ليترك عكا بعد أن استسلمت للصليبيين ؟** يبدو أن الاكتفاء بقبول المرض سبباً وحيداً للعودة دون إنجاز المهام المتفق عليها ، و ترك ما أنجز منها على الرغم من صغر حجمه، في هذه الأرض غير مقنع ، ربما ما عاناه فيليب أغسطس من ريتشارد و مكائده سبباً إضافياً أكدت له أن ريتشارد ربما يذهب إلى أكثر من ذلك ، و بالتالي التآمر على حياته و قد بدأ يشك بالاتصالات التي جرت بين ريتشارد و بين صلاح الدين لتسوية الأوضاع بين الرجلين فإذا ما تحقق ذلك لريتشارد سوف يتفرغ لمكائده ضد فيليب إضافة إلى سبب آخر قد يكون سبباً رئيسياً في اتخاذ ذلك القرار ، وجعله يرغب بالعودة إلى بلاده هو الاستيلاء على مقاطعة فلاندرز، التي توفي كونتها في أثناء حصار عكا وبقيت من دون حاكم ، حيث حاول كلا الطرفين الفرنسي والإنكليزي ثنيه عن قراره بالعودة لكنه رفض التراجع ، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء ، لذلك حصلت عند الفرنسيين ردة فعل عنيفة ضد ملكهم ، فأنزل عليه البعض كل أنواع اللعنات وأماني السوء ، ومع ذلك أصر على العودة بعد أن ترك الجزء الأكبر من جيشه في بلاد الشام. وتولى ريتشارد القيادة العامة للجيش الصليبي، وبدأ في مباشرة المفاوضات مع صلاح الدين لتحديد وضع أمر الأسرى الصليبيين والمسلمين الذين كانوا بعكا. وقد ذكر الرسل لصلاح الدين أن الملك ريتشارد وافق على تنفيذ شروط عكا وذلك على ثلاث دفعات، مدة كل دفعة شهر، على أن يطلق سراح الأسرى المسلمين بعد الدفعة الأولى[١] وقد طالب الصليبيين تسليم الأسرى والمال الخاص، وصليب الصلبوت ومئة ألف دينار، وألف وستمئة أسير وإذا كان الجانب العربي الإسلامي قد التزم بتنفيذ الاتفاق فإن الجانب الفرنجي لم يلتزم بذلك فقد رفض الصليبيون تسليم أسرى المسلمين مع إصرارهم بالمطالبة بتنفيذ القرارات المتخذة بشأن الدفعة الثانية، فرفض صلاح الدين ذلك لمعرفته بغدر الصليبيين، إذ تسلموا الأموال وصليب الصلبوت والأسرى[٢].

وعلى الرغم من هذه المأساة بالنسبة للعرب المسلمين فإنها لم تزيدهم إلا صبراً وإصراراً على قتال الأعداء المتربصين بالأمة والوطن، كما أنهم لم يعرفوا الخنوع والاستكانة والاستسلام، فإذا كان للظلم جولة فللحق جولات كثيرة. وهي التي أطالت وأمدت عزائمهم.

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني ،حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية ،جـ٣١ ،ص ٩٦–٩٧

أمبرويز: صليبية ريتشارد ،جـ٣٢ ،ص ٣٣٥–٣٣٦، ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٧٣، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٣.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٢٠٧، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٠٢–٣٠٣، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٥٠–١٥٦، ب.هـ ينوباي: صلاح الدين وعصره، ص١٣٩–١٩٤، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٩٤.

خامساً:معركة أرسوف ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وأثرها السياسي على الصليبين:

بعد الاستيلاء على عكا اتجهت أنظار الصليبين نحو أرسوف لكونها بوابة ميناء يافا الشمالية هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتحقيق هدفهم العسكري المتمثل في إقامة قاعدة توفر لهم من خلالها إمكانية مهاجمة بيت المقدس، وإذا كانت أطماع الصليبيين وأهدافهم ليس لها حدود فإن رغبة المسلمين في الثأر لإخوانهم الذين سقطوا من أفراد حامية عكا، والذين أمر ريتشارد بضرب أعناقهم جميعاً لا تقف عند حد أيضاً. والواضح أن الفارق الزمني بين معركتي عكا وأرسوف كان قصيراً[(١)].

اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، وساروا بمحاذاة البحر، وامتازوا بتنظيم العمل. وكان جيشهم يتبادل الراحة حتى لا يصاب بالإنهاك والتعب، فهناك قسم يشارك في الصدام مع المسلمين، بينما القسم الآخر يستريح لا يقاتل، فعندما يلحق التعب والإرهاق بالقسم الأول يتولى القسم الثاني مهمة الدفاع الأمر بدلاً منه. في الوقت الذي كانت فيه عناصر الخيالة في الوسط لا تخرج إلا عندما تحمل على المسلمين فقط.

ومن ذلك كله يتبين أن المشاة كان يقع عليهم العبء الأكبر في معركة أرسوف مع عدم إغفال دور عناصر الفرسان خصوصاً وأن الهجوم الأيوبي على الجيش الصليبي كان بالسهام، حيث تم إيقاع الخسائر في جيش الصليبيين وكذلك خيولهم[(٢)]، إضافة إلى أن السهام ذاتها كان من شأنها فرض التوتر العصبي الشديد على الجنود الذين تعرضوا لها. كذلك عمل المسلمون على خطف الصليبيين وقتلهم[(١)]. وفي الواقع لقد استمر هذا الأسلوب القتالي حتى الوصول إلى غابة أرسوف وخاصة عند قرية تعرف بدير الراهب، ثم تطور الأمر بعد ذلك، وطلب الصليبيون التفاوض مع المسلمين. ومن الممكن تسويغ سبب ذلك برغبة الصليبيين في كسب الوقت وإعادة ترتيب وتنظيم قواتهم بعد أن أجهدهم السير جنوباً هذا من جهة، ومن جهة أخرى

---

(١) –أمبرويز: صليبية ريتشارد، جـ٣٢، ص ٣٤٥-٣٤٦، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٧-٢٠٩، برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص٤٢٧، ب.هـ. نيوباي: صلاح الدين، ص١٩٩-٢٠٠.،

أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٨٠، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٠، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٥-٤٠٦، برجاوي : الحروب الصليبية، ص٤٢٧

(٢)– ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢١٥، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٦-٤٠٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٤.

من المرجح أن الخسائر التي لحقت بالصليبيين كانت من العوامل التي دفعتهم إلى طلب الدخول في المفاوضات(٢).

حيث ذكر ريتشارد أن القتال طالت مدته بين الجانبين، وأن الصليبيين القادمين من الغرب الأوروبي، ما قدموا إلا من أجل مناصرة صليبيي الشام، وطالب المسلمين بأن يصالحوه من أجل أن يعود كل إلى موقعه هذا بالنسبة للصليبيين.
أما المسلمون فإن السلطان صلاح الدين عمل على الإفادة من المفاوضات في كسب الوقت أيضاً، ومما يدل على ذلك أنه أوصى العادل بأن "يطاول الفرنج في الحديث"(٣) وسبب ذلك أن الجيش الأيوبي كان ينتظر عناصر التركمان من أجل تدعيم الفعالية الحربية ضد الجيش الصليبي في الصدام المرتقب(٤).

ومما تقدم يتبين أن الأيوبيين كانوا على يقين تام وكامل بضرورة المواجهة الحربية مع الصليبيين، وأن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد كسب وقت، وذلك من أجل ضمان إعداد أفضل لقواتهم والجدير بالذكر أن ذلك الاجتماع التفاوضي بين الجانبين قد وقع في ١٢ شعبان ٥٨٧هـ/ ٥ أيلول ١١٩١م أي قبل خوض معركة أرسوف بيومين فقط وقد مثل آخر فرصة ممكنة من أجل التوصل إلى حل سلمي بين الجانبين، وتجنب الصدام الحربي بينهما على نطاق متسع في المرحلة التالية(٥).

وهكذا من الممكن القول: إن إخفاق المفاوضات أثبت أن الاحتكام للقوة العسكرية أصبح أمراً لا مفر منه. **ولكن هل وضع كلا الجانبين خططاً لخوض المعركة؟**

---

(١) – ابن الأثير الكامل ،جـ ١٠ ،ص ٢٠٧-٢٠٩ ، برجاوي، الحروب الصليبية ،ص ٤٢٧،ب.هـ. نيوباي : صلاح الدين ،ص ١٩٩-٢٠٠

(٢)–سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١٠٧-١٠٩
ابن الأثير: الكامل،جـ٩ ،ص ٢١٥ ، قلعجي: صلاح الدين ،ص ٤٠٦-٤٠٧ ،عمران تاريخ الحروب الصليبية ص ١٦٤.

(٣)– سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٠ ،ص ١١٠
ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٢، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٤-١٧٧.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٤.

(٥) – سعداوي (نظير حسان): الحروب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص٣٦-٣٧.

بدا واضحاً من خلال ما أوردته المصادر انتشار الجيش الصليبي على امتداد ساحل البحر. وقد أوكلت مهمة حراسته إلى هنري دي شامبني[١] Henry de champny وعناصر من المشاة، بينما اتخذ الرماة مواقعهم في الصف الأمامي، ووقف الفرسان من خلفهم و تموضعت عناصر الداوية في الميمنة وعناصر الاسبتارية في الميسرة. بينما حوى قلب الجيش الصليبي على الملك ريتشارد الأول ملك انجلترا وعساكر من الإنجليز والنورمان، أما الفرنسيون فقد كانوا تحت قيادة هيو دوق برجنديا. وهذا يعني أن التشكيل القتالي للجيش شمل ضمن عناصره الاسبتارية والداوية. وهما من الرهبانيات الحربية الصليبية التي ساهمت بنصيب وافر في الصراع الحربي الصليبي الإسلامي، كما ضم الجيش الصليبي نخبة كبيرة من كبار القيادات العسكرية سواء من تلك القادمة من الغرب الأوروبي مع جيش ريتشارد، أو تلك التي وجدت ضمن صفوف الصليبيين المحتلين في بلاد الشام. كما تجب الإشارة إلى أنه وجدت بين صفوف الجيش عناصر لها صفتها الدينية وكان لوجودها أثر في رفع المعنوية لدى القوات الصليبية من خلال إشعال الحماس الديني في الصراع ضد المسلمين، ولا يمكن إغفال دور الأسطول الإنجليزي في المعركة إذ أن ريتشارد أرسل يطلب من قائد الأسطول النجدة، فوصلته ثماني سفن كبيرة مشحونة بالرجال والمعدات. وإن مثل تلك القوات كان لها تأثيرها الواضح في دعم فعاليات الصليبيين، وعلى الرغم من أن معركة أرسوف تعد وبحق معركة برية الطابع بصفة عامة، إلا أن الأسطول الصليبي تدخل من أجل دعم القوات الصليبية قبل خوضها المعركة[٢]أي أنها كانت برية ، بحرية.

وكعادة كل القادة في وضع الترتيبات والخطط والتكتيك لأجل المعارك فقد قام صلاح الدين بتقسيم جيشه إلى أربعة أقسام، المقدمة وتحتوي على العناصر التي تقوم بتمهيد الطريق، أما القسم الثاني فإنه احتوى على الساقة، وهم الذين يسيرون في المؤخرة يراعون الذين يتخلفون من عناصر الجيش، ثم هناك أيضاً القسمان الثالث والرابع ويتمثلان في الميمنة والميسرة، ويقوم

---

(١)–ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٨٢–١٨٥ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٦٤–١٧٤، نيوباي: صلاح الدين، ص ١٩٩–٢٠٠

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٩، عوض (محمد مؤنس): في الصراع الإسلامي– الصليبي معركة أرسوف (٥٨٧هـ،/١١٩١م)، عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٠–٢٥.

القسمان المذكوران برعاية الجوانب[١]، وقد ضم الجيش الأيوبي كلاً من عناصر المشاة، والخيَّالة الثقال. أما قياداته فقد شاركت إلى جانب السلطان الأيوبي إخوته وأبناءه فكان أخيه العادل أبو بكر، وكذلك ابنه الأفضل نور الدين علي وغيرهم[٢].

وعلى الرغم من أن الجيش الأيوبي كان على أتم الاستعداد سواء بالسلاح أو الرجال غير أن القائد الصليبي ريتشارد هو الذي أمسك بزمام المبادرة فقد قاد الجيش الصليبي زاحفاً من عكا سالكاً الطريق الساحلي، وهذا ما يدل على كفاءته في التخطيط من أجل تجنب الاصطدام مع الجيش الأيوبي في معركة مكشوفة وفي الوقت نفسه يكون على مقربة من أسطوله الذي أمده بالمؤن والإمدادات، وكذلك من أجل تأمين ميمنة الجيش الصليبي، لذلك يمكن القول: أنه فرض على الأيوبيين موقع النزال معهم، وبدء المعركة التي جرت أحداثها في ١٤ شعبان ٥٨٧هـ/ ٧ أيلول ١١٩١م[٣]. وللمعركة أهمية كبرى لأنها حددت مستقبل الوجود الصليبي في المنطقة، لذلك يمكن القول: إن الصدام الحربي انقسم إلى ثلاث مراحل:

-المرحلة الأولى:

كانت أطولها جميعاً، وبحكم كونها امتداداً طبيعياً للأسلوب الحربي نفسه الذي اتبعه الجيش الأيوبي خلال التعامل مع الجيش الصليبي في طريقه إلى أرسوف، وقد اتسمت هذه المرحلة بالهجوم على الصليبيين لأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، وكان اعتماد الجيش الأيوبي على المشاة المزودين بالأسلحة الخفيفة التي تسمح بقدر أكبر من المناورة ، وخفة الحركة، وبناء على تلك الخطط فقد تم إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وتكبيدهم الخسائر الفادحة فتساقطت خيولهم في أعداد كبيرة مما أدى إلى إلحاق الاضطراب في الجيش الصليبي، عندئذ تدخل الفرسان الأيوبيون لحسم الموقف، وكانت أشد الهجمات الأيوبية خلال تلك المرحلة موجهة لعناصر الاسبتارية وكذلك للبارونات الصليبيية المحلية، وكان الهدف من هذا الهجوم القضاء على الجناح الأيسر[٤] للجيش الصليبي، لأن إمكانية الجيش الأيوبي مؤثرة فيه أكثر،

---

(١) – سعداوي (نظير حسان): التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م، ص٢١٦-٢١٧.

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٤٨، عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي، ص٢٠-٢٥.

(٣) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١١٥ م، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢١٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٥٥-١٥٦، العسلي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٧٥.

(٤) – الصلابي: صلاح الدين، ص٥٤٣-٥٤٤.

باعتبار الجناح الأيمن كان محتمياً بالبحر، وهذا يعني أن الهجوم الأيوبي توزع على أكثر من ناحية دون أن يقتصر على مهاجمة الأفراد، فقط بل ومعداتهم أيضاً، وذلك من أجل بعث أكبر قدر من الفوضى والاضطراب في صفوف العدو[١]. ومن العوامل التي أدت إلى تفوق المسلمين خلال تلك المرحلة اتخاذهم أسلوب الهجوم الخاطف والسريع لإلحاق أكبر قدر من الخسائر سواء في الرجال أو الدواب والأمتعة، واتخاذ الصليبيين جانب الدفاع في مواجهتهم.

-المرحلة الثانية:

تحولت خطط الصليبيين فيها من الدفاع المنتظم إلى الهجوم المفاجئ العنيف، والواقع أن الملك الإنجليزي كان قد أصدر أوامره لقواته بعدم الرد على هجمات الجيش الأيوبي، وضبط النفس لأقصى درجة[٢].

ومرد ذلك يعود إلى الرغبة في امتصاص فعاليات الهجوم الأيوبي ريثما يصاب الجند الأيوبيين بالإجهاد وعندئذ يتم مواجهتهم الحربية مع المسلمين، لأن الصليبيين عانوا من مشكلة نقص العنصر البشري في جيوشهم من خلال صراعهم مع المسلمين وتعويض هذا النقص لم يكن يسيراً وسهلاً[٣]. وهكذا تجمعت عوامل عدة أدت إلى ذلك الموقف من جانب الصليبيين وتأخر ردهم على الهجوم الأيوبي، وعلى أية حال، فإن ذلك الأسلوب لم يلق الرضا من جانب بعض القيادات العسكرية الصليبية الأخرى لاسيما هيئة الاسبتارية ومنهم مقدم الاسبتارية جارنيه دي نايلس الذي قابل الملك ريتشارد ووضح له أن جنده ضاقوا ذرعاً بسياسة الدفاع التي انتهجها، وعدم الرد على الهجوم الأيوبي، بيد أن الملك الإنجليزي طالبه بالانصياع للأوامر العسكرية، والمزيد من ضبط النفس[٤].

وإذا كان مقدم الاسبتارية قد التزم بنصائح الملك الإنجليزي، إلا أنه لم يتمكن من فرض ذلك على رجاله، ويصف أحد المؤرخين أثر الهجوم الصليبي بقوله: "لقد رأيتم وقد اجتمعوا في وسط

---

(١) – أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص١٩١، العريني (السيد الباز): الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، جـ١، ص٦٣.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢١٥، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٦، عاشور (فايد حماد): الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م، ص٢٢٤.

(٣) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٣، زكي (عبد الرحمن): الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح الغربي إلى معركة المنصورة، القاهرة، ط١، ١٩٧٠ م ، ص١٤٨.

(٤) – مقامي (نبيلة): فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٣.

الرجالة، وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وخرج لهم رجالهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة، وطائفة على الميسرة، وطائفة على القلب، واندفع الناس بين أيديهم"[١].

وبناء على ذلك يمكن القول إن الهجوم على الميمنة والميسرة والقلب بالنسبة للجيش الأيوبي كان هجوماً شديداً، مما زاد من تأثيره وفعاليته ضد ذلك الجيش، وبعث الاضطراب في كافة الجوانب، وهذا يدل على أن الأحداث المتصلة بالهجوم الصليبي سارت بسرعة كبيرة ولذا يمكن القول إن المرحلة الثانية من الصراع امتازت بتلك الصفة، وذلك عكس المرحلة الأولى التي استهلكت وقتاً طويلاً على مدى مسيرة الجيش الصليبي متجهاً صوب الجنوب، وقد أدى هذا الهجوم إلى تفرق عناصر الجيش الأيوبي[٢]، وهكذا يصدق قول بعض المؤرخين في تلك المعركة "نال المسلمون وهن شديد فيها"[٣]. وأمام تلك الظروف لجأ المسلمون إلى الاحتماء بغابات أرسوف[٤] وكان لذلك التوجه فائدتين، الأولى أنه حماهم من تزايد عدد القتلى، والجرحى في صفوفهم، والثانية تصور الصليبيون أن في الأمر خدعة ما، وأنه كمين معد من جانب الجيش الأيوبي، ولذلك لم يلاحقوا المسلمين[٥]، وكان لذلك دوره في مسار المعركة وتقييمها النهائي.

-المرحلة الثالثة:

والجدير ذكره أن المرحلة الثالثة أتت كرد فعل أيوبي على المرحلة الثانية من جانب الصليبيين إذ أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عمل على تجميع أمرائه وقواته مرة أخرى لمعاودة الهجوم على الصليبيين، كما عمل على إثارة الحماس في صفوفهم من أجل رص صفوفهم وتماسكهم من جديد[٦]، وقد وصف أحد المؤرخين ذلك "كرت عليهم نخب الرجال كرة

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١١٧–١٢٠ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٣، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٧–٤٠٨.

(٢) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٧٥–٢٧٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٨.

(٣) – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٩، ص١٩٧، ابن تغري بردي، جـ٦، ص٥.

(٤) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢١٥، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٦، عاشور (فايد حماد): الجهاد الإسلامي، ص٢٢٤.

(٥) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢١٥.

(٦) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١٢٠–١٢١

أردتهم وردتهم"[١]. إنه وعلى الرغم من وضع خطط جديدة وتكتيكات جديدة في المرحلة الثالثة إلا أنها باءت بالإخفاق ولم يكتب لها النجاح شأنها شأن المراحل سالفة الذكر.

وهكذا ومن خلال مسار المعركة يلاحظ بأن المراحل الثلاث كانت متواصلة، ومتعاقبة، ولا انفصال بينها، أملتها الظروف المحيطة المصاحبة لأحداث معركة أرسوف ذاتها، وإن اختلفت المدة الزمنية لكل مرحلة من تلك المراحل، وكان من نتائج تلك المراحل إلحاق الهزيمة بالأيوبيين وانتزاع الصليبيين الظفر من أيديهم، **ولا بد من التساؤل أكان هؤلاء الصليبيين يمتلكون عوامل النجاح والظفر في الوقت الذي فقد فيه العرب المسلمون دفة القيادة وآلت النهاية إلى الهزيمة؟**

بالطبع لا بد من وجود عوامل ومؤهلات أدت لذلك النجاح منها نوعية القيادة ثم تكتيك المعركة في امتصاص الموجة الأولى من الهجوم الأيوبي، تليها المبادرة بالمواجهة والتحول من الأسلوب الدفاعي إلى الأسلوب الهجومي، كما أنه لا يمكن إغفال فعاليات الأسطول الصليبي الذي عمل على تقديم المساعدات الحربية للمقاتلين، إضافة إلى المؤن اللازمة قبل خوض المعركة، وخطط القادة في تأمين الجانب الأيمن للجيش الصليبي، ووجود عناصر حربية يدل على كفاءة عالية في القوات الصليبية خاصة عناصر الرهبان الفرسان كالاستبارية والداوية[٢].

أما الأسباب التي أدت إلى عجز الجيش الأيوبي عن تحقيق الانتصار فتعود إلى مجموعة من العوامل منها غياب فعالية الأسطول البحري الأيوبي التي هي في الأساس ضعيفة، وهكذا فبينما كان الأسطول الصليبي يقدم المؤن والإمدادات للصليبيين كان الأسطول الأيوبي غائباً عن المعركة، ولم يقدم إمدادات لقواته، كما لم يقم بإعاقة تقدم القطع البحرية الصليبية وهكذا يمكن القول: إن معركة أرسوف كانت انتصاراً ثانياً جنته الحملة الصليبية الثالثة، بعدما أنجزت انتزاع عكا من أيدي المسلمين، وأدت نتيجتها إلى رفع معنويات الصليبيين إلى درجة كبيرة، كما تألق نجم الملك الإنجليزي ريتشارد، وبلغت شهرته ذروتها، ولكن أثر الحملة كان عكسياً تماماً، بالنسبة للمسلمين فقد كان لها أثرها النفسي السيء على القيادة الأيوبية خاصة والمسلمين عامة،

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٤، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، ص١٩١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٨، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٨.

(١) – العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٥٤.

(٢) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١١٧-١١٨ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٧-١٨٤، عوض: في الصراع الإسلامي- الصليبي، ص٤٧-٤٨، العسلي: صلاح الدين، ص١٧٤.

حيث بدأ يتحول تيار الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين، والذي سار في صالح المسلمين منذ سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م بعد تلك المعركة ليكون في جانب الصليبيين لمدة طويلة من الزمان تصل إلى منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وبالتحديد سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٥٠م.

إن انتصار الصليبيين في معركة أرسوف قد جاء من كونه انتصاراً سريعاً وخاطفاً، ولم تتمكن القيادة الأيوبية من تجميع قواتها من جديد، لأجل مواصلة الصراع مع أعدائها، ومع ذلك تمكن الجيش الأيوبي من إتباع سياسة دفاعية في أعقابها، ولم يتمكن الصليبيون من استعادة بيت المقدس على نحو عكس محدودية فعاليات معركة أرسوف، وهكذا فإن الهدف المعلن من أسباب قدوم الحملة الصليبية الثالثة لم تستطع أن تحققه وباءت بالإخفاق الذريع[١].

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٧، غنيم (حامد): الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، د.٢، ص١٥٩، العسلي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٧٤، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٨، عوض: في الصراع الإسلامي– الصليبي، ص٤٧–٤٨.

سادساً: معركة يافا سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م وأثرها السياسي على المفاوضات:

اتخذ ريتشارد قلب الأسد من مدينة يافا قاعدة لجيشه إثر انتصاره على صلاح الدين في أرسوف، نظراً لقربها من بيت المقدس، وفي الوقت الذي كانت فيه المفاوضات دائرة بين الطرفين الإسلامي والصليبي بشأن عقد الصلح أرسل لصلاح الدين وأخيه العادل طالباً السلام ضمن شروحه و هي :

١- أن يردّوا إليه مملكة المقدس كلها ، كما كانت أيام الملك بلدوين الرابع (المجذوم)

٢-أن تدفع مصر الجزية كما كانت تدفعها إلى أجداده الصليبيين .

٣-استرداد كل شيء أخذه صلاح الدين من الصليبيين

هذه الشروط كما وردت في المصادر اللاتينية وبمجرد النظر إليها يرى الباحث أنها أرادت أن تبرز فرض إرادة المنتصر على المنهزم ، لذلك لم يوافق صلاح الدين عليها في المصادر نفسها ، لكنه قال لهم :

سأرسل لملككم الجواب مع أخي العادل، رأى الصليبيون في رد صلاح الدين محاولة لكسب الوقت حتى يستطيع أن يدمر المدن والقلاع، كما رأوا أن استمرار التباحث وتبادل الهدايا بين ريتشارد و العادل أمر مزعج ، وليس في مصلحة الصليبين ، وعلى رأسهم الملك ريتشارد و زاد في غضبهم لأنهم اعتقدوا أن تبادل الهدايا هو عقد صداقة مع مسلم وهذا بحد ذاته خطيئة بينما أصر الملك ريتشارد على أن سياسته حكيمة يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبين وإبرام سلام موثق مع المسلمين وبخاصة بعد أن ضعفت شوكتهم بعودة الملك الفرنسي فيليب أغسطس .

غادر ريتشارد قلب الأسد يافا إلى عكا[(١)] وقد أعد خطة للإقلاع والعودة إلى بلاده إذ لم يتم حتى وقتذاك توقيع معاهدة مع المسلمين، وتقضي هذه الخطة بالتوجه نحو بيروت، ثم الإبحار منها إلى أوروبا. وفي ذلك الوقت وقع خلاف في صفوف القوات الصليبية، كان صلاح الدين على دراية به، وعندما علم برحيلهم عن يافا اتجه على رأس قواته من القدس في ١٥

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١٨٩-١٩٠ ويندوفر: ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية ،جـ ٣٩،ص٣٨٩-٣٩٠ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٦-٢١٧، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٨٠، الذهبي: العبر، جـ٤، ص٤٦٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٢، الصلابي: صلاح الدين، ص٤٤٤.

رجب ٥٨٨هـ/ ٢٧ تموز ١١٩٢م فوصل يافا في العام نفسه. **ولا بد من استقصاء أهداف صلاح الدين من حملته على يافا**

يمكن القول أنه ربما تجمعت أهداف عديدة في ذهن صلاح الدين ووضعها نصب عينيه وأراد تحقيقها إذا ما سنحت له الظروف، منها رفع معنويات جنوده إضافة إلى غياب ريتشارد والأهم من ذلك كله اتخاذ زمام المبادرة بالهجوم وليس الدفاع فقط لأن ذلك سيؤثر على سمعته العسكرية والسياسية، لذلك وما كاد يقترب من يافا في ١٥ رجب ٥٨٨هـ،/ ٢٧ تموز ١١٩٢م حتى وصلت رسالة عاجلة إلى ريتشارد قلب الأسد تحمل إليه نبأ الهجوم على يافا، لذلك تخلى ريتشارد عن قراره بالعودة إلى بلاده مؤقتاً، وآثر التوجه إلى يافا، بمشاركة قوات برية وبحرية، وكان هو على رأس القوات البحرية المتوجهة إلى يافا بأسطول يزيد عن خمسين سفينة منها خمسة عشر شانيه، يسانده البيازنة والجنويون بينما أرسل جيشاً بطريق البر غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل ولم يشأ أفراد الجيش البري أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم لذلك تمهلوا في سيرهم(١)، وقد أتاح هذا التطور العسكري فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا فأحضروا المنجنيقات وركزوها على أضعف موضع في سور المدينة، واشتد القتال على القوات الصليبية المدافعة عن المدينة وارتفعت الأصوات و عظم الضجيج ، ووهنت وسقطت المدينة في أيدي القوات العربية الإسلامية عدا قلعتها التي لم تستطع السيطرة عليها حتى هذه المرحلة، وفعلاً دخل العرب المسلمون المدينة يوم الجمعة في ١٨ رجب/ ٣ تموز وبعد قتال مرير مع حاميتها، وضربوا حصاراً على قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح، كل هذه الأمور كانت تجري وريتشارد لم يصل إلى المدينة بعد. غير أن الأمور لم تسر كما يشتهي القادة المسلمون، حيث انقلبت رأساً على عقب إثر وصول القائد الصليبي ريتشارد إلى يافا حيث كان مقرراً تسليم القلعة إلى المسلمين، ولكن ريتشارد لم يمكنهم من تحقيق حلمهم، لأنه اعتمد خطة الهجوم المضاد على يافا وكانت نتيجة هذا الهجوم تمكنه من دخول المدينة وإجبار الجيش العربي الإسلامي على الانسحاب منها(٢).

إثر هذا الإخفاق جرت مفاوضات بين الطرفين من أجل الصلح وتقرير الهدنة، ولكنها ما لبثت أن تعثرت ووصلت أنباء إلى صلاح الدين تخبره بخروج القوات الصليبية – النجدة– خارج

---

(١) – ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٨٩، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٦–٢١٧، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٤–٥٤٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٧٢.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٦–٢١٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٥٥–١٥٦، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٥١–٥٥٣، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧١–١٧٢.

يافا متجهة إلى قيسارية إلى جانب نزول ريتشارد خارج يافا بعدد قليل من القوات عندها آثر صلاح الدين استغلال هذه الفرصة ومهاجمة خيمة الملك الإنجليزي ووصل في صباح ٢٣ رجب ٥٨٨هـ/ ٥ آب ١١٩٢م إلى خيام الصليبين، وكانت قليلة العدد، وحمل المسلمون على القوات الصليبية حملة الرجل الواحد فثبت الصليبيون في أماكنهم[١] رغم قلتهم ويعود السبب في ذلك إلى أن أحد الجنود الصليبيين كان يتجول خارج المعسكر الصليبي، فأحس بقدوم القوات الإسلامية وكان ريتشارد قد أقام حاجزاً منخفضاً من أعمدة الخيام لإعاقة تقدم القوات الإسلامية ورتب قواته خلف هذا الحاجز أزواجاً، وقد حملوا التروس لحماية أنفسهم إضافة إلى قيام القوات الصليبية بغرس رماحهم الطويلة أمامهم مصوبة تجاه صدور الخيول الإسلامية، ووضع ريتشارد بين كل اثنين من الصليبيين أحد النبالة، وعندما هاجمت القوات العربية الإسلامية الصليبيين اعترضهم الحاجز ثم النبالة ثم الرماح، لذلك أخفقوا في اختراق هذه المواقع، وكان هذا آخر لقاء يتم بين قوات صلاح الدين وقوات ريتشارد قلب الأسد الذي سقط مريضاً بالحمى، فلزم خيمته، وفي الوقت نفسه بادرت بعض القوات الصليبية بالاستعداد للرحيل خاصة الفرنسية، فلم يجد الملك الإنجليزي بديلاً عن الحرب سوى الجنوح إلى السلم وفتح باب المفاوضات من جديد[٢].

و هكذا يمكن القول بأن الحرب و منذ الأزل هي كر و فر ، هي انتصار و هزيمة ، لكن الانتصار يشعر الإنسان بالعزة والكرامة ، بينما تشعره الهزيمة بالمرارة والحزن ، ولا يسع الأمة العربية الإسلامية إلا أن تعي الماضي والمستقبل حتى تحقق الانتصارات التي لا تكتب إلا بالدم والتضحيات .

---

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١٩٥-١٩٧ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٦-٢١٧، الصلابي: صلاح الدين، ص٥٥٢.

(٢) – ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٩٠-٣٩١، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٢-١٧٣.

سابعاً: سقوط عسقلان والداروم سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م:

اتجهت خطط القيادة الأيوبية بعد معركة أرسوف إلى تدمير بعض المواقع الإستراتيجية الخاضعة لسيادتها مثل عسقلان وغيرها، ويمكن تسويغ ذلك بأنه كان لعسقلان أهمية إستراتيجية كبرى بصفتها مفتاح مصر وخسارتها ستعرض مصر للغزو الصليبي بما يعنيه ذلك من خسارة للمال والتموين والجنود[١]، لذلك يجب ألا تقع في قبضة الصليبيين على نحو يجعلهم يحققون مكاسب عسكرية على أرضية الصراع، ولا أدل على ذلك من أن صلاح الدين قد عقد اجتماعاً مع القادة العسكريين من أجل تقرير أمر مدينة عسقلان في وقت كان فيه الصليبيون قد نزلوا بـ يافا التي تعد ميناء بيت المقدس، فأدرك المسلمون أن أعداؤهم إن وصلوا إلى عسقلان أخضعوه لسيطرتهم مثلما فعلوا في عكا[٢].

فعندما تأكد الصليبيون أن صلاح الدين قرر هدم أسوار عسقلان جمع ريتشارد الأمراء و من بعض زعماء العامة ، وطلب منهم الرأي والمشورة في أن يزحفوا إلى عسقلان ويمنعوا صلاح الدين من تخريبها أو أن يتابعوا مسيرتهم إلى القدس.

اختلفت الآراء وتعددت الرؤى ، وكثرت الاقتراحات ، وظنّ كل فريق أن رأيه هو الصائب و أن رأي الطرف الآخر غير صحيح ، عندها أراد ريتشارد حسم الموقف كقائد عام ، وزعيم للجميع قائلاً: يخيّل إليّ أنّه من غير الموائم و مما لايعود عينا بالنفع أن تختلف الآراء فتبلغ هذا المدى الشاسع من التباين ، ويذهب كل واحد برأيه الذي يتناقض مع رأي غيره . ففي ذلك خسارة ليست بالضئيلة ، وقانا الله شرها ...، وأرى الواجب يقتضي أن أصارحكم أن خير نصيحة يمكن أن أسديها لكم هي أن نطرد الأيوبيين من عسقلان ، ونحافظ عليها من معاول الهدم إلا أن الفرنسيين عارضوا هذا الرأي مكايدة منهم للملك، وقالوا : إن ترميم يافا ، وإعادتها إلى سابق عهدها هو الأمر الأفضل، والاجدى والأكثر فائدة للصليبيين ، وسوّغوا ذلك بأن الطريق (طريق الحج) من يافا إلى عسقلان ، ثم القدس ، وهلّلت الجنود ، وأيدت الموقف

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٨، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٧-٢٠٩، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٩، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي: ص٤٠٣.

(٢)سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣١ ،ص ١٩٨-٢٠٣،ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٧-٢٠٩، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي،ص٥٤٣-٥٤٤، نيوباي: صلاح الدين، ص ١٩٩.

الفرنسي ، لأنهم يريدون اتباع الطريق الأسهل وتجنب الجهد والإنفاق ، وبهذه المعارضة استطاعو أن يفسدوا رأي ريتشارد ، و أن يفرضوا إرادتهم عليه ،لأنهم كانوا الأكثر عدداً ، والملفت للنظر هو ما نطق به كفراً المركيز كونراد مونتفيرات حليف الفرنسيين الذي سكت دهراً ، والآن جاء دوره ليعارض وليقف في وجه ريتشارد علانية عندما قال له : الذي مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ، ويتقدم على الجيوش ، فتسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان و تقيم مكانك يا جاهل طبعاً مثل هذا الكلام هو للتشهير فقط لأن ذلك لا ينطبق على الملك ريتشارد لا قولاً و لا فعلاً ، فالملك كان حريصاً على أن يحقق أكبر الإنجازات الممكنة ، فهو أراد أن يذهب إلى عسقلان لكن حلفاء المركيز منعوه في النهاية كانت الغلبة لرأي الغوغاء وقررت جميع القوى أن تذهب إلى يافا لتعيد بناءها و هذا ما حصل .

ولكن لماذا كانت وجهة الصليبيين عسقلان؟ أكانت ضمن الخطة العسكرية الموضوعة لديهم، أم كانت تمثل هدفاً عسكرياً بعيد المدى لإخضاع كل المناطق لسيطرتهم؟

إن عسقلان كانت وجهتهم لأن الخطط العسكرية تقتضي السيطرة أولاً على المناطق الهامة والحيوية التي تعد مفتاحاً للمناطق الأخرى. وهذا ما يؤدي إلى القول بأن الصليبيين ومن خلال امتلاكهم عسقلان يستطيعون الضغط عسكرياً على بيت المقدس من جهة والضغط سياسياً على الأيوبيين من جهة أخرى، وإشعارهم بأنه لا جدوى من استمرار الصراع العسكري وخصوصاً بعد سقوط معاقلهم الواحد تلو الآخر[(١)]، وهذا ما يعكس أهمية عسقلان على نحو خاص في الصراع الإسلامي– الصليبي، **ولكن و بعد كل هذا السجال ماذا كان مصير عسقلان؟** يلاحظ من خلال دراسة وتتبّع الأحداث إلى قيام السلطة الأيّوبيّة أنها تشير إلى قيام المسلمين بتخريب المدينة فما هو سبب إقدام الأيوبيين على ذلك؟

يمكن القول: إن الجيش الأيوبي لم يكن باستطاعته تحصين عسقلان وجعلها مركزاً لصراع عسكري مرتقب بعد أحداث عكا، وأرسوف لأن قيادته نظرت إلى قضية بيت المقدس على أنها الهدف الأكثر خطورة الذي ينبغي المحافظة عليه وحرمان الصليبيين من إخضاعها لسيادتهم[(٢)]. ومن أجل ذلك صدر القرار بتخريب المدينة حتى إذا وصل إليها الصليبيون وجدوها خراباً[(١)] وقد تم بالفعل إخلاء سكان عسقلان منها، وتم تدميرها في يوم ١٩ شعبان ٥٨٧هـ/ ٢ أيلول

---

(١)- ابن شداد : النوادر السلطانية،ص١٨٨-١٨٩ ، أبوشامة: الروضتين،ج٤،ص٢٧٨-٢٨٠،قلعجي:صلاح الدينالأيوبي،ص٥٤٥-٥٤٦،عمران: تاريخ الحروبالصليبية،ص١٦٨-١٧٠ .

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٨-١٨٩، الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٥، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٨.

١١٩١م[٢] أي بعد خمسة أيام فقط من الصدام الحربي في أرسوف مما يعكس حجم السياسة الدفاعية التي اتجه إليها صلاح الدين، وإصراره على منع الصليبيين من اكتساب أرض جديدة بمرافقها، ومظاهرها العمرانية المتعددة، وقد قسم السلطان الأيوبي مباني المدينة على أمرائه من أجل أن يتولوا تدميرها، وقد حث هو وابنه الأفضل نور الدين أهل عسقلان على تخريبها قبل أن يصل إليها الصليبيون[٣].

لقد قضى الجنود والعمال أكثر من شهر وهم يدمرون تلك المدينة. كما أجبر الأهالي على مغادرة منازلهم، وترك ما لا يستطيعون حمله من أرزاق في رحيلهم إما إلى مصر أو إلى الشام، وأضرمت النار في بيوتهم وفي المباني الأخرى، وكان هدم الأسوار والأبراج التي تحمي المدينة مهمة جبارة، وكانت تحت إشراف صلاح الدين شخصياً حيث ملئت الأبراج بالأخشاب ثم أشعلت النيران، مما أدى إلى تشقق الحجارة فسهل خلخلة الكتل الكبيرة[٤] وكانت القلعة المطلة على البحر متينة البناء إلى درجة أن المعاول لم تؤثر فيها، ولم يكن جيش ريتشارد يبعد أكثر من ٤٨كم، وكان صلاح الدين قلقاً من أن يرى الكشافة الفرنجة أعمدة الدخان، فيقومون بهجوم مباغت على المسلمين، ولكن ريتشارد لم يفهم ما يجري إلا بعد فوات الأوان[٥].و لكن ألم يستطع صلاح الدين اتخاذ خطط و إجراءات أخرى لعدم تخريب المدينة و تدميرها؟! هل كان التدمير مسوّغاً من قبل الناصر صلاح الدين لعدم امتلاك الصليبيين لها؟ **ألم يكن هناك منهج آخر أو خطة أخرى تحمي المدينة ؟!**

في الواقع لم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة لحياة صلاح الدين أو اللاحقة أخبار غير ما ذكر وقتها والواضح أن الظروف السياسية والعسكرية كانت صعبة جداً دفعت إلى اتخاذ هذا

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٩، ص١٩٨، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص٣٦٩–٣٧٠، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٨٠، ابن تغري: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٤٦–٤٧، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٩.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٦، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٧٨.

(٣) – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٩، ص١٩٨، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٩–١٧٠.

(٤) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٨، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٧٩– ٢٨٠، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٥.

(٥) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٠، ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص٢١٥، نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٢٠٣، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٠.

الإجراء، ولو كان هناك بصيص أمل في اتخاذ إجراءات أخرى غير التدمير لما أقدم على ذلك، ولكن بالطبع لا يرجح بأن المدينة سويت بالأرض لأن الحياة عادت إليها فيما بعد.

بعد خراب عسقلان لم يكن أمام القوات الصليبية إلا البدء في تحصينها مرة أخرى حتى غدت قلعة متينة بعيدة عن مشاغل صلاح الدين في الموصل والجزيرة وإذا كانت عسقلان قد خرجت من خطط صلاح الدين فإنها كانت الركيزة في خطط الصليبيين. فقد قرر ريتشارد أن يهاجم بعدها حصن الداروم فسار إليه سنة ٥٨٨هـ/ ٢٣ أيام ١١٩٢م وقد تمكن من حصاره عدة أيام مع استبسال رجال حاميته في الدفاع عنه. ولكن هؤلاء مع أهل الحصن أدركوا عدم جدوى استمرار القتال فعمدوا إلى إضرام النار في الذخائر، وأخيراً سقط الحصن بيد الصليبيين الذين وضعوا منه حامية للدفاع عنه شأنه شأن كل الأماكن المستولى عليها وهكذا سقط آخر حصن إسلامي على الساحل الشامي تجاه مصر وهذا ما فتح طريق الصليبيين مرة أخرى إلى بيت المقدس[١].

---

(١) – ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٨٣، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٢٣٢، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦٦.

ثامناً: المفاوضات بين الأيوبيين والصليبيين وصلح الرملة:

اتخذت قضية عقد الصلح بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد مراحل متعددة وكان الملك ريتشارد هو الذي بدأ بهذه الفكرة عند وصوله إلى سواحل بلاد الشام في الثالث عشر من جمادى الأولى ٥٨٨هـ/ التاسع من أيار ١١٩١م[١] أثناء تواجد المسلمين في عكا ومحاصرة الصليبيين لها من جهة البر ولقد تمت المفاوضات على مراحل متعددة:

المرحلة الأولى:

كان فيها القتال قد اشتد بين المسلمين والصليبيين، وبلغ ذروته عند وصول الملك الإنكليزي ريتشارد، وقد صبر المسلمون داخل عكا.

وهذا الصبر والإقدام حفز ريتشارد على إرسال رسول إلى صلاح الدين متوجهاً إلى الملك العادل أولاً، ومرافقاً إياه إلى صلاح الدين.

وكان موجز الرسالة التي أرسلها ريتشارد تتلخص في أن الملك ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين، ولما علم الأخير بذلك أجاب دون تردد وقال: "إن الملوك لا يجتمعون إلا من أجل هدنة، وإذا أراد ريتشارد الاجتماع به فلا بد من تقرير الهدنة أولاً، ولا بد من ترجمان موثوق به بين الطرفين يفهم كل ما يقوله الطرف الآخر[٢].

وقد تم الاتفاق بعد ذلك على اجتماع العادل مع الملك ريتشارد في مرج عكا والعساكر محيطة بهما بالإضافة إلى الترجمان، و تمّ تبادل الرسل بين الطرفين.

وهنا يمكن استنتاج الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء تكرار هذه الرسائل، وهي تعرف الصليبيين على مدى قوة المسلمين ونقاط ضعفهم، أما غرض المسلمين من قبول الرسائل كان الكشف عن قوة الصليبيين ومقدرتهم[٣].

---

(١) – العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٠١-٥٠٢، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨-٢١٩، عمران: الحروب الصليبية، ص٤٣٢، توفيق (عمر كمال): الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م، ص١٧١-١٧٢، غوانمة (يوسف حسن): معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، عمان، دار الفكر، طـ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٤١.

(٢)عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص١٦٠-١٦٥

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٧٤، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٦.

المرحلة الثانية:

قررت حامية عكا الإسلامية أثناء القتال بين المسلمين والصليبيين التخلي عن القتال وأرسلت إلى ريتشارد في طلب الصلح، وتسليم مدينة عكا مقابل الأمان وقد تم استسلام مدينة عكا للصليبيين[١].

المرحلة الثالثة:

بدأت المرحلة الثالثة من المفاوضات في شعبان ٥٨٧هـ/ ١٣ أيلول ١١٩١م حيث أتت بعض رسل الصليبيين تطلب التحدث إلى الملك العادل، وكان مضمون الحديث أن القتال قد طال، وقتل من الجانبين الرجال والأبطال وإن الحملة الثالثة قد أتت لنصرة فرنج الساحل فإذا تم الصلح يرجعون إلى بلادهم[٢] وقد طلب صلاح الدين من أخيه العادل إطالة الحديث مع الرسل حتى تصل النجدات الإسلامية.

اجتمع الملك العادل بالملك الإنكليزي ريتشارد وتولى همفري سيد تبنين Humphrey lord of toron الترجمة فسأله العادل عن شروط الصلح فأجابه أن تعود البلاد كلها إليهم وهنا يعني عودة الحال إلى ما قبل معركة حطين فلم يقبل الملك العادل بذلك، ثم جرت معركة أرسوف التي انتصرت فيها القوات الصليبية وبعد ثمانية أيام وأثناء إقامة القوات الصليبية بقيادة ريتشارد في مدينة يافا، وقيام صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان. وصل في التاسع عشر من شعبان ٥٨٧هـ/ الحادي عشر من أيلول ١١٩١م إلى صلاح الدين من أخبره من جانب العادل أن الصليبيين تحدثوا معه في أمر الصلح وأن شروطهم إعادة جميع البلاد الساحلية، فطلب صلاح الدين من العادل فتح باب المفاوضات لما رآه في نفوس المسلمين من الضجر، وبينما كان يتم تخريب مدينة عسقلان وصلت رسل من جانب كونراد مونتفرات المعروف بالمركيس[٣] الذي انحاز عن قوات الحملة الصليبية الثالثة، عندما أحس أن الصليبيين يريدون الاستيلاء على صور، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح مقابل إعطائه صيدا، وبيروت مقابل أن يسير

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٧٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٩–٣٦٠، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٩، غوانمة: معاهدات الصلح والسلام، ص٤٠–٤١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٦١–١٦٥.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٦، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤١٠.

(٣) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧٣، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤١٠، توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص٧٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٤–١٧٧.

بقواته إلى عكا ويحاصرها ويستولي عليها، فطلب منه صلاح الدين القيام بحصار عكا والاستيلاء عليها، لكي يتأكد من نواياه، وأن يطلق سراح الأسرى في عكا وصور ثم يقوم صلاح الدين بعد ذلك بتسليمه صيدا وبيروت[١].

على كل حال ، علم ريتشارد بالسفارة التي أرسلها كونراد إلى صلاح الدين فأسرع إلى عكا للعمل على ضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية، وإلغاء فكرة المصالحة التي شرع فيها الأخير. فأجابه صلاح الدين إلى قصده محاولاً شقّ الصّف الصّليبي، كونراد كان يدرك أنه إذا ما تحقق ذلك فستكون ضربة قاسية. القصد منها إبعاد المركيز عن الصليبيين، فإنه كان رجلاً خبيثاً وملعوناً، وكان قد استشعر الخوف من أن يأخذ الصليبيون منه صور ويعطوها للملك غي لوزنيان، فانحاز عنهم واستعصم بصور، وهذه هي إحدى دوافعه، واشترط عليه أيضاً أن يبدأ بمجاهدة قومه وحصار عكا ، وأَخذِها منهم، وإطلاقِ من فيها وفي صور من الأسرى المسلمين وعند ذلك يعطيه السلطان (صيدا وبيروت)[٢]، وعندما سمع ريتشارد بذلك رجع إلى عكا لإفساد هذه العلاقة بين السلطان والمركيز، وحاول استعادة المركيز إليه عبر طرق شتى فأرسل إليه الرسل يحضونه على الحضور لينضم إلى الجيش، وذكروه بالحرص والوفاء على الالتزامات تجاه المملكة التي يتطلع إليها، وأمره ريتشارد بتنفيذ هذا الطلب وذكره بيمين الولاء الذي قطعه على نفسه للملك الفرنسي فيليب، أغسطس من أجل هذه الأرض، إلا أن المركيز رفض تلك المطالب ورد على الرسل بسخرية، وأكد أنه لن يستجيب أبداً ما لم يعقد الملك ريتشارد اجتماعاً معه وإلّا فلن يحرك ساكناً، أو ينقل قدماً باتجاه الذهاب والالتحاق بالجيش، ولن يستطيع أحد في الدنيا زحزحته عما يراه [٣]، فأجابه الملك ريتشارد على طلبه هذا، وتقرر أن يجتمعا في الزيب [٤] وتم اللقاء ولكن دون فائدة.

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٩٩، غوانمة: معاهدات الصلح والسلام، ص٤٠-٤١، توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص٧٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٤-١٧٧.

(٢)–ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٢٠٧، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص ١٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٢٧٢، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص٢٠٩ .

(٣)– أمبرويز : ريتشارد قلب الأسد، جـ٣٢، ص١٤٢.

(٤) –الزيب: هي قرية فلسطينية عرفت بأسماء عديدة منها تل أكزيب TELACHZIB ، وفي العصر الروماني دعيت أكذيبا Ecdippa وذكرت أيام الصليبيين Ziph كما أطلق عليها الصليبيون قرية أمبرت أو قرية هيبرت Hubert نسبة إلى الفارس الصليبي الذي تسلمها عقب الاستيلاء عليها سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م و الزيب تقع على الساحل عند مصب القرن شمال عكا ويحدها من الشمال قرية رأس الناقورة ومن الشمال الشرقي قرية البص=

وفي الثلاثاء ١٥ شوال سنة ٥٨٧هـ/٦ تشرين الثاني ١١٩١م وصل صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيز إلى صلاح الدين للتأكيد على ما تم الاتفاق عليه بينهما، فأمر السلطان باحترام هذا الرسول وإجلاله، وضربت له خيمة، ولما كان ١٩ شوال ٥٨٧هـ/١٠ تشرين الثاني ١١٩١م جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته فحضر، وحضر وإيّاهُ جماعة أتوا معه، ويقول ابن شداد: إنه شاهد عيان على هذا اللقاء حيث تم إكرامهم، وكان حديثهم منصباً على ضرورة عقد الصلح بين السلطان والمركيز، ثم انضم إليه عدد من أكابر الإفرنج وتوصلوا إلى اتفاق ولكن ضمن شروط هي:

١. أن يقاتل المركيز الصليبيين.
٢. أن ما يأخذ بانفراده من البلاد الافرنجية بعد الصلح يكون له.
٣. ما نأخذه نحن بإفرادنا يكون لنا.
٤. ما نتفق نحن، وهو على أخذه تكون البلد له، ويكون لنا مافية من الأسرى المسلمين وغير ذلك من الأحوال.
٥. أن يطلق لنا كل أسير في مملكته.

في ٦ ربيع الآخر من سنة ٥٨٨هـ/٢٢ نيسان ١١٩٢م، وصل رسول المركيز يجدد حديث الصلح حيث رحل الفرنسيون، وأصبح الحال بينه وبين الفرنجة في قطيعة، وإن تأخر أمر الصلح بطل أمر الحديث فيه، فرأى السلطان أن يجيبه إلى طلبه، لأن فيه مصلحة المسلمين، وكان الوضع في المشرق ليس على ما يرام، حيث خرج الملك المنصور بن الملك المظفّر، وأظهر العصيان متذرعاً بالخوف من السلطان على نفسه، ودخل في إمرة الملك العادل، وأدرك ريتشارد صعوبة الموقف، وفي الوقت نفسه أدرك أن وعود العادل له وعود جوفاء لن يتحقق منها شيء وخاصة بعد أن طلب منه تهديم حصن الشوبك كشرط لإقامة السلام بينهما، الأمر الذي رفضه صلاح الدين وجعل ريتشارد يفكر باتجاه آخر والقيام بأعمال كثيرة منها إعادة بناء أسوار عسقلان[١]

=ومن الجنوب قرية أبي الفرج الدباغ (مراد مصطفى) : بلادنا فلسطين ، بيروت – لبنان ، جـ٧ ، ق٢ ، ص٣٣٤.

(١)– ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٤ وما تليها.، أبو شامة : الروضتين ، ج٤ ، ص ١٩٩، ابن واصل مفرج الكروب ،ج٢ ، ص٢٧٢ زابوروف : الصليبيون في الشرق ، ص٢٠٩ ، قلعجي : صلاح الدين ص ٤٠٣–٤٠٤ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص١٧٦ –١٧٧ .

هذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن المصالح الشخصية الخاصة لهؤلاء القادة كانت تطغى على المصالح الصليبية العامة كلها ولم ينتهج كونراد هذا النهج لوحده بل شاركه به معظم القادة الصليبيين وكما هو ملاحظ فإن الوحدة لم تكن منهجاً لهم وإنما كانت الفرقة هي طريقهم

من ذلك يمكن ملاحظة أن صلاح الدين أدرك الشقاق بين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة التي عانت وتكلفت الكثير للدفاع عن الصليبيين المحليين، وكان لذلك الأثر الأكبر على سير المفاوضات وشروطها.

المرحلة الرابعة:

تمثلت بوصول رسول من قبل الملك الإنجليزي إلى الملك العادل في ٢٤ رمضان ٥٨٧هـ/ ١٥ تشرين الأول ١١٩١م[١]، يحمل معه هدية له وهي حصان، مقابل الهدية التي كان قد أرسلها الملك العادل إلى الملك الإنكليزي، واعتبر ذلك مقدمة لمفاوضات المرحلة الرابعة، وبعد مرور يومين على ذلك أرسل ريتشارد بطلب إلى الملك العادل لإيفاد رسوله إليه من أجل التحدث في أمر الصلح.

واجتمع الملك ريتشارد مع الملك العادل وقد طلب منه الأخير أن يعيد إليه المسلمون القدس إضافة إلى صليب الصلبوت. وعلى أية حال عندما بلغ الملك العادل ما يطلبه ريتشارد عمد إلى إبلاغ صلاح الدين بالشروط والطلبات.

فكان رد صلاح الدين بقوله: ((**القدس هي لنا كما هي لكم، والأرض لنا واستيلاؤكم عليها كان طارئاً. وذلك لضعف المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فلا يجوز أن نفرط به إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام**))[٢].

كان جواب صلاح الدين قوياً وذلك لعدة أسباب تعود إلى ما رآه من شقاق وخلاف بين الصليبيين المحليين، وبين قوات الحملة الثالثة الآتية من الغرب الأوروبي.

وبعد ثلاثة أيام عاد رسول الملك ريتشارد من يافا بمقترحات جديدة وتتلخص بالاتي:

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٤-٢٥، أبو شامة : الروضتين ، ج٤،ص٢٨٧-٢٨٩ ص١٩٤،ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ، ص ١٥٥-١٥٦ عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٤-١٧٧، برجاوي : الحروب الصليبية.

(٢) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٨٧، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٧، برجاوي : الحروب الصليبية ، ص٤٢٦ ، نيوباي ، صلاح الدين ،ص٢٠٥ .

- أولاً: يتزوج الملك العادل من جوانا Joanna ملكة صقلية السابقة أخت الملك ريتشارد[١] على أن يكون مستقر ملكهما في القدس الشريف، فيقدم لها ريتشارد بلاد الساحل التي فتحها من عكا إلى يافا وعسقلان ويجعلها ملكة الساحل مقابل أن يعطي صلاح الدين أخاه العادل جميع بلاد الساحل فيجعله ملكاً عليها إضافة إلى البلاد التي تحت سيطرته.
- ثانياً: تسليم صليب الصلبوت.
- ثالثاً: إطلاق سراح أسرى الجانبين.
- رابعاً: يرحل الملك الإنكليزي إلى بلاده.

وافق صلاح الدين على مقترحات ريتشارد، لكن الملكة جوانا رفضت الزواج من الملك العادل، فما كان من الملك ريتشارد إلا الإسراع بتقديم عرض بدخول العادل الديانة المسيحية ولكن عرضه قوبل بالرفض من العادل لأن تلك الشروط غير مقبولة سياسياً ولا حتى شرعياً فلا يجوز لسلطان المسلمين أن يكون مسيحياً كل هذه الأمور تركت باب المفاوضات مفتوحاً.

المرحلة الخامسة:

بدأت هذه المرحلة سيرها في خطين متوازيين الأول مع رسل كونراد[٢] والثاني مع الملك الإنكليزي ريتشارد وذلك في ١٥ من شوال ٥٨٧هـ/ ٥ من تشرين الثاني ١١٩١م وفي تلك الأثناء وصل حاكم صيدا رينالد جارنيه Reynald Garnier كرسول من جانب كونراد، وقد أكرمه المسلمون وأحسنوا استقباله لمدة أربعة أيام إلى أن استقبله صلاح الدين.

بادر حاكم صيدا بتقديم عرض لصلاح الدين موجزه تنازل المسلمين عن صيدا مقابل تحالفه معها ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة ومجاهرتها بالعداوة.

لكن صلاح الدين لم يبدِ أي جواب على هذه المقترحات واعداً إياه بالرد فيما بعد وفي مساء اليوم نفسه استقبل صلاح الدين رسول الملك الإنكليزي ريتشارد[٣] (سيد تبنين همفري) الذي قدم مقترحاته فوعده صلاح الدين بوعد جميل، ولكن نيته كانت عدم الموافقة على عقد الصلح لأنه لا يثق بالصليبيين، وكان لصالحه استمرار القتال حتى إخراج الصليبيين من الساحل الشامي.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٨٠-٨٤، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٥٥-١٥٦، قلعجي: صلاح الدين، ص٤١، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٢٩٩، بشور: أضواء على حروب الفرنجة، ص١٩٧، برجاوي :الحروب الصليبية ، ص٤٢٩ .

(٣) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٨-١٧٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٩-١٨١.

وبعد ذلك قام صلاح الدين بعقد اجتماع دعا إليه الأمراء والأكابر وأرباب المشورة ليطلعهم على المقترحات الصليبية، وذلك في ٢١ من شوال ٥٨٨هـ/ ١١ تشرين الثاني ١١٩٢م،و في ذلك الاجتماع قام صلاح الدين بعرض مقترحات كونراد وريتشارد، كانت سياسة كونراد التي تهدف إلى عقد الصلح مع المسلمين قد دفعت الملك ريتشارد إلى الإسراع في عقد الصلح مع المسلمين قبله، فأرسل بطلب مقابلة الملك العادل، وعندما ترامى الخبر إلى مسامع صلاح الدين طلب من أخيه العادل إطالة أمر المفاوضات.

وفي ٤ ربيع الأول ٥٨٨هـ/ ٢٠ آذار ١١٩٢م خرج العادل من القدس ومعه عدة مقترحات منها:

- أولاً: يمكن للصليبيين أن يضموا إليهم مدينة بيروت إذا ما أصروا على طلبها بشرط أن تظل خراباً.
- ثانياً: أن يسلّم لهم صليب الصلبوت.
- ثالثاً: أن يعيّن لكنيسة القيامة قسيساً من الفرنجة.
- رابعاً: يسمح بفتح أبواب مدينة القدس للصليبيين للزيارة بشرط عدم حمل السلاح وكان دافعه من هذه المقترحات المعاناة التي حلت بالمسلمين من تعب المعارك وكثرة الديون والبعد عن الأوطان(١).

وقد زادت رغبة ريتشارد في عقد الصلح والعودة إلى وطنه، وكان السبب الأول وصول مبعوث من إنكلترا إلى معسكر ريتشارد يخبره باضطراب الأوضاع في انكلترا، وذلك بسبب تطلع شقيق الملك يوحنا إلى تولي السلطة والسيطرة على انكلترا.

أما السبب الثاني فهو قيام هيو دوق برجانديا الذي كان يتولى قيادة ما تبقى من القوات الفرنسية باستدعائها من معسكر ريتشارد، لأن الملك كان لا يمد هذه القوات بالمواد الضرورية اللازمة للقتال(٢).

---

(١) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٩٩، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٩–١٨٠، توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص١٧٨–١٧٩، بشور: أضواء على حروب الفرنج، ص١٩٧.

(٢)– ويندوفر: ورود التاريخ، جـ٣٩، ص٣٩٣ ، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ، ص٢١٨ –٢١٩ ، قلعجي: صلاح الدين، ص ٤١٠.

المرحلة السادسة:

اتسمت المرحلة السادسة من المفاوضات بسمات عدة أهمها المدة الزمنية التي قاربت الخمسة أشهر وكانت معقدة، ومن أبرز أحداثها عودة صلاح الدين إلى القدس بعد معركة (يافا) وتوافد العساكر الإسلامية إليه من الموصل ومصر إلى النطرون، بالإضافة إلى تقدم قواته.

ولما رأى صلاح الدين اجتماع العساكر إليه، جمع أصحاب الرأي وقال لهم:

"إن ملك انكلترا قد حل به مرض شديد، وإن القوات الفرنسية عازمة على الإبحار إلى أوروبا خصوصاً وأن أموالهم قد قلت"[١].

فكان رأي صلاح الدين أن يسيروا إلى يافا ويستولوا عليها قبل وصول النجدات الصليبية إليها ولاسيما أن العسكر المرابط لا يزيد عدده عن ثلاثمائة فارس.

وفي هذه المرحلة كان ملك الإنكليز يعاني من مرض شهوة الكمثرى والخوخ فكانت رسل ريتشارد لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج له، وكان السلطان يمده بذلك[٢].

كما أرسل ريتشارد لأبي بكر العادل بطلب يدعوه فيه لمجالسته لأنه كان يحب ذلك وأرسل معه رسول ليشكر صلاح الدين على إرسال الفاكهة والثلج.

وطلب منه أن يوصل للعادل بأن يسعى لاتفاق بينه وبين صلاح الدين، بما يخص (عسقلان) فيتنازل صلاح الدين عنها أو يدفع تعويضاً عن عمارة سورها.

فلما علم صلاح الدين بذلك رد رسل الملك الإنكليزي إلى أخيه العادل وأبلغه بأنه يوافق على مصالحة الفرنج مقابل تنازلهم عن عسقلان لأن العساكر قد ضجرت من القتال.[٣]

وهنا سؤال يمكن طرحه لماذا أصر الملك ريتشارد على طلب الصلح؟

من الممكن تسويغ ذلك حتى يعلو شأنه بين الصليبيين وملوك أوروبا والبابوية، وأن صلاح الدين كان راغباً في الصلح أيضاً بعدما استمر القتال بينه وبين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة حوالي خمسة عشر شهراً.

وبعد هذه المفاوضات والحروب التي وقعت بين صلاح الدين ورجال الحملة الثالثة تم الاتفاق على عقد صلح الرملة والذي اضطر فيه صلاح الدين للتنازل عن جزء من الساحل الشامي

---

(١) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٨٢، برجاوي: الحروب الصليبية.

(٢) – ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٩٣، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤٣، برجاوي: الحروب الصليبية،ص٤٣٧ .

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٥.

للصليبيين، ففي ٢١ شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٣م[١]. استجاب صلاح الدين لهذا الصلح من ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وتقتضي بنود المعاهدة:

١. بأن تكون مدة الصلح ثلاث سنين وخمسة أشهر.
٢. بقاء الشريط الساحلي الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين.
٣. أن تكون اللد والرملة مناصفة بين الصليبيين والمسلمين.
٤. إعادة عسقلان إلى صلاح الدين شريطة تخريب المدينة.
٥. احتفاظ صلاح الدين بالقدس.
٦. السماح للصليبيين في حرية الذهاب إلى بيت المقدس للحج.
٧. حرية انتقال الأمراء والتجار بين البلدين.
٨. السماح لكل من أنطاكية وطرابلس والداوية والاسبتارية بأن يدخلوا الاتفاق إذا رغبوا بذلك[٢].و نادى المنادى بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية و الفرنجية واحدة في الأمن والمسالمة ، فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف أو حذر ، و بعد انتظام الصلح أعطى صلاح الدين دساتير العساكر الوافدة عليه (أي الإذن لهم بالعودة إلى بلادهم) فأمن الناس وتردد المسلمون إلى بلاد الفرنج دون وجل و بالعكس ، و حملت البضائع والتجارات إلى البلاد فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة لصلاح الدين[٣] .

---

(١) – سيولف الأنكلوسوني : حملة الملك ريتشارد من خلال الموسوعة الشامية،جـ٣١،ص٢٠٧-٢١١ ،العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص٣٤٢، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٦٣، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٤٠٣-٤٠٤، الذهبي: العبر، جـ٤، ص٢٦٥، المطوي: الحروب الصليبية، ص٩١، العسلي: صلاح الدين، ص٧٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٠.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢١٨-٢١٩، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤-٣٢٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٤٠٣-٤٠٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٥٨٣، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٠، قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٢٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٨٤، غوانمة: معاهدات الصلح والسلام، ص٤١، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٦.

(٣) –العماد الأصفهاني: الفتح القسي،ص٦٠٥ ، أبوشامة : الروضتين،جـ٤،ص٢٧٤ ، ابن الأثير،جـ١٠،ص٢١٨ ، برجاوي الحروب الصليبية، ص٤٣٩-٤٤٠ ، عمران: تاريخ الحروب الصليبية،ص١٨٤ ،المطوي: الحروب الصليبية، ص٩١

مما تقدم يمكن القول:

إن سقوط عكا كان نتيجة أسباب سياسية وعسكرية منها ضعف قوة المسلمين البحرية، وفقدانهم الروح المعنوية إضافة إلى اختلاف قادة صلاح الدين معه في الرأي، وعدم إنجاد الخليفة العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية أو مادية كبيرة كما أن معركة أرسوف كانت الانتصار الثاني الذي حققته الحملة الثالثة بعد انتزاع عكا من أيدي المسلمين مما أدى إلى رفع معنويات الصليبيين إلى درجة كبيرة، فقد كان لهذه المعركة نتائجها السيئة على المستوى المعنوي لدى المسلمين وعلى نحو خاص لدى قياداتهم السياسية والعسكرية، فعمدوا إلى تغيير خططهم العسكرية لذلك اتجهت القيادة الأيوبية بعد هذه المعركة إلى إتباع سياسة تدمير بعض المواقع الإستراتيجية الخاضعة لسيادتها حتى لا تقع في قبضة الصليبيين، ولا أدل على ذلك من تدمير عسقلان قبل أن يصل إليها الصليبيون، وأخيراً يمكن القول كان صلح الرملة الجزء الأخير من أعمال الحملة الصليبية الثالثة، إذ رحل بعده ريتشارد إلى بلاده، ومما لا شك فيه أن الصلح قوبل بالارتياح من الجانبين الإسلامي والصليبي، بعد أن مل الطرفان القتال الذي طال أمده دون الوصول إلى نتائج حاسمة، كما كان لهذا الصلح أهميته لأنه لم ينص على إعادة بيت المقدس للصليبيين على الرغم من كافة مجهوداتهم الحربية السابقة.

الفصل الثالث

علاقات مدن الساحل الشامي الداخلية والخارجية وأثر ذلك على الصراع الصليبي– الإسلامي

أولاً: علاقات مدن الساحل الشامي مع بعضها بعضاً.

١.الصراع على وراثة العرش (مملكة بيت المقدس)

٢.الصراع على وراثة حكم أنطاكية

ثانياً: علاقة مدن الساحل الشامي مع الدول والإمارات الخارجية.

١. العلاقة مع قبرص ودورها في الحملات الصليبية.

٢. العلاقة مع دولة أرمينية الصغرى.

٣. العلاقة مع الأيوبيين والمماليك والمغول

أولاً:علاقات مدن الساحل الشامي مع بعضها بعضاً:

غلبت الانقسامات الداخلية والخلافات الحادة على العلاقات الصليبية– الصليبية وخاصة بين الإمارات في الشام، وتمحورت هذه الخلافات حول الوصاية ووراثة السلطة وخير دليل على ذلك

١. **الصراع على وراثة العرش(مملكة بيت المقدس) :**

توفيت المملكة سيبيلا Sebella زوجة ملك القدس غي لوزنيان في شوال ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م [(١)].و كانت في ريعان شبابها و أناقتها، وكانت قد سبقتها ابنتاها نتيجة الأمراض التي اجتاحت المنطقة، بموتهن فقد الملك لوزنينان المسوّغات الشرعية للمطالبة بالملك ، الأمر الذي سبب له ضربة قاسية أفقدته توازنه. [(٢)]

و هكذا بدأ الصراع من جديد على ولاية العرش . حيث انتقلت المملكة بحق الميراث إلى إيزابيلا ابنه(الملك عموري والملكة آناكومينوس)، وأخت سيبيلا و زوجه همفري صاحب تيرون تبنين[(٣)]، إضافة لذلك طموح كونراد في الاستيلاء على عرش مملكة القدس ، و ذلك عندما جاء ملك القدس غي لوزنيان إلى صور ليدخلها لأنها جزء من مملكته، قام كونراد بإغلاق الأبواب في وجهه و لم يسمح له بالدخول ، و قال له : إن مملكتك انتهت مع حطين عندما لم تستطع أن تدافع عنها و تحميها و إني أخذت صور باسم ملوك أوروبا الذين فيما وراء البحار، وأنا نائبهم في هذه البلاد[(٤)].

و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عمل على شراء النفوس، و بذل الأموال ، و تدبير الدسائس مع بعض البارونات و الفرسان الذين أضعفتهم شهوة المال و غيرتهم أساليب المناورة والغش والخداع .[(٥)] وقد جاءته الآن الفرصة المناسبة لتحقيق طموحاته الكبيرة ، حيث فكر مليّاً في كل الاتجاهات لكيفية الوصول إلى ذلك ، لكن إيزابيلا التي شكّلت الطريق الأسهل كانت

(١) – هناك اختلاف في المصادر التاريخية حول تاريخ وفاة سيبيلا ، فقد جاءت عند أرنول في ذيل تاريخ وليم الصوري في تشرين الأول٥٨٦/ ١١٩٠م ، أرنول، اذيل تاريخ وليم الصوري ،ج٣٢ ، ص٣٧١ ، وعند أمبرويز في صليبية ريتشارد قلب الأسد ، حصل موت سيبيلا فيما بين ١٧–٢٤ رجب ٥٨٦ هـ/الموافق ١٣–٢٠ آب ١١٩٠ م . انظر أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ ٣٢، ص٢٥٦

(٢) – أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ ٣٢، ص٢٥٦، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢،ص٦٤

(٣) – دي فيتري: تاريخ القدس ، جـ٣٣ ، ص٢٣٨ ، عاشور:الحركة الصليبية،ص٢٥٦ ،رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ص٦٥٠ .

(٤)– ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٠٦ ، باركر: الحروب الصليبية ، ص ٩٠ .

(٥)–العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص٣٣٣ ، أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد،جـ٣٢ ، ص ٢٥٦ .

متزوجة من همفري و تحت زوجها ، **إذاً ما هو العمل ؟ هل التخلص من هذا الزواج ؟** والحقيقة أن التي مهدت لهذا الطريق هي والدة إيزابيلا التي تكره همفري ، فعمل معها كونراد من أجل إقناع ابنتها بالطلاق ، ووضع خطة من أجل إقناع إيزابيلا Isabella لتوافق على الانفصال عن زوجها ، فعملت الأم مراراً و تكراراً وذكّرتها بأن السبب الذي يحول بينها و بين أن تكون سيدة المملكة هو زوجها همفري، و قالت لها إنه ما دام زوجاً لها لن تصل إلى هذه المكانة ، كما أنّها ذكّرتها بأخطاء همفري خاصة عندما أراد كونت طرابلس ريموند الثالثRaymond III مع مجموعة من البارونات الذين كانوا مجتمعين في نابلس لتتويجها ملكة على القدس وتتويج همفري ملكاً رداً على تتويج سيبيلا، وغي لوزنيان بعد موت الملك الطفل بلدوين الخامس لكن همفري هرب إلى القدس، ووضع نفسه في خدمة سيبيلا التي قامت بتوبيخه، وإهانته لتأخره عن الحضور، ولوجوده مع البارونات المعارضين في نابلس[١].وعلى الرغم من ذلك قام بطلب المغفرة، وقدّم الولاء إلى الملكة والملك، ووضع نفسه تحت تصرفهما وشرح أسباب مجيئه، وكيف أن البارونات أرادوا تتويجه ملكاً بالقوة، فهرب إليهم. [٢]

ووضحت لها أنها ما دامت زوجته لن تستطيع الحصول على المكانة والتشريف، ولن تنال مملكة أبيها، وزادت على كل ما تقدم أن زواجها من همفري، هو زواج غير قانوني وغير شرعي، وأنها عندما تزوجت منه لم تكن في سن الزواج، ولهذا يمكن الإدعاء ضد هذا الزواج أمام القضاء، **ويتساءل الباحث ما هو سبب كره والدة ايزابيلا لهمفري زوج ابنتها؟**

تقول بعض المصادر إن همفري كان مخنثاً ضعيفاً، وهناك إشارة إلى أنه شاذ. لكن يشك في هذا الأمر، فهو أحد الفرسان الأقوياء، وصاحب إقطاعات كبيرة، وقد شغل دوراً مهماً في المفاوضات بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين، والأهم من كل ذلك أن زوجته تحبه ولا ترغب بالانفصال عنه، فلو كان مخنثاً حقيقة لما رغبت به امرأة، كما أن بعض المصادر أشارت إلى أن همفري من بداية زواجه من إيزابيلا رفض أن تقوم زوجته بزيارة أمها أو أن تقوم أمها بزيارتها، وكان يفعل ذلك بمشورة أمه التي كانت سيدة قلعة الكرك (زوجة أرناط)، ومن هنا بدأت قضية الكره بين آنا كومينوس وبين همفري.

ولإحكام طوق الحصار وتشديده على ايزابيلا وتمهيداً للزواج منها تحدث المركيز مع فيليب أسقف بوفياس طالباً منه ومن رئيس أساقفة بيزا المساعدة والمشورة للحصول على الزواج الذي يوصله إلى عرش مملكة القدس، حيث أغدق عليهم الهدايا والرشاوي وعمل مع غيرهم من

---

(١)– أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري، جـ ٨ ، ص ٢٦٩ والتي تليها ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ، ص ٦٥ .

(٢)- أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري، جـ ٨ ، ص ٣٧٠ .

أصحاب التأثير، وبهذا يكون المركيز قد رتب كل شيء، وهيّأ أجواء مناسبة توصله إلى هدفه، ولا سيّما أن البطريرك هرقل اشتد عليه المرض، ولم يحضر الاجتماع وعين رئيس أساقفة كانتبري ليمثله فيه ، غير أن هذا الأخير رفض إلغاء الزواج لأنه يدرك أن سيده الملك ريتشارد على علاقة ممتازة بأسرة لوزينان، فهم من أتباعه وأتباع والده قبله لذلك أشار إلى أن زواج كونراد من إيزابيلا يعدّ من الزنا الصريح، أما موقف ريتشارد من كونراد فكان مغايراً تماماً فقد أنّب الذين طالبوا بالمركيز ملكاً وكره تقلب مواقفهم ، وذكرهم بما كانوا يقولون عنه، لكنه قبل بذلك مكرهاً، ونزولاً عند رغبة قادة جيشه [١] .

وما إن أقامت الملكة الأم ماريا كومينوس Maria comneny دعواها ضد زواج ابنتها ايزابيلا من همفري حتى تم كل شيء كما تريد، وتم الانفصال بدون عقبات وكانت مسوغات الدعوى التي رفعتها آنا أمام المحكمة التي ترأسها رئيس أساقفة بيزا (هيوبرت) ممثل روما مدّعية أن عمر ابنتها عند الزواج لم يكن يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وثماني سنوات عند الخطبة، وهي بهذا لم تكن في سن الزواج ، وبناء عليه تم استدعاء همفري لسماع مرافعاته على الدعوى المقامة ضد زواجه فنفى كل هذه الادعاءات، وقال إن الزواج تم بموافقة السيدة، وإن هناك شهوداً لكن هؤلاء الشهود وقفوا ضده وتحدّوه وكذّبوه، وقالوا: إن السيدة لم توافق، وإن الملك بلدوين زوّج ابنة أخيه ايزابيلا ضد إرادة السيدة أمها [٢] فشعر همفري أنه طعن في الصميم ومع هذا تراجع، ولم يجرؤ على التحدث، وقام رجل الدين البيزاوي المخول بفسخ هذا الزواج، وفصَل بين الزوجين **لكن السؤال المهم، ما هو موقف البارونات من هذا العمل؟ وهل كانوا راضين عما قام به كونراد؟**

تقول بعض المصادر إن هذا العمل المهين قد أغضب الكثير من البارونات، وجميع الحجاج لكنهم أخفوا غضبهم لأنهم كانوا بحاجة إلى كونراد الذي كان يسيطر بشكل كامل على مدينة صور، والتي تشكل المصدر الأساسي لإمداداتهم وأقواتهم[٣] .

لكن هل استطاع كونراد أن يحصد قمحاً بعدما قام بزرع الرشاوي والمؤامرات والدسائس؟

لقد أكدت المصادر التاريخية أن الملكة آنا كومينا أحضرت ابنتها إلى المحكمة لتسمع رأيها ولتسمع هي قرار الحكم، وفعلاً جرت الأمور بما يشتهي كونراد وأخبرها رجل الدين البيزاوي أنها

---

(١)–أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد ، جـ ٣٢، ص ٢٥٩، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ١٦٧ .

(٢)- أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري، جـ ٨، ص ٣٧٣ .

(٣)–فابري: حولات الراهب فيليكس فابري، جـ٣٨، ص ١٥٢، أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري ، جـ ٨،ص٣٧٣ ، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ١٦ .

تستطيع الزواج من أي شخص تريده، وبأن هذا القرار قد صدر وفقاً لأحكام الديانة المسيحية، وخدمة لها، وبعدها قام البارونات بتقديم الولاء لها في الوقت الذي قامت هي بالمطالبة بحقوقها في الميراث[١] وتحدثت بحضور الجميع قائلة: إنني استرد جميع الممتلكات التي منحها لي أخي بلدوين الرابع عندما تزوج مني همفري. إن هذا ما يجب أخذ العلم به [٢] ويقال إنه بعد هذا الخطاب تزوج المركيز من إيزابيلا، وانطلق معها للحاق بالحشود التي تحاصر عكا [٣] وغضب مؤيدوغي لوزنيان لعقد هذا الزواج، وعدّوه باطلاً شرعاً، حيث ألغى حق غي في العرش، ولقي هؤلاء المؤيدين كل عطف من أتباع ريتشارد قلب الأسد القادمين من انكلترا، ونورمانديا، وقام بلدوين رئيس أساقفة كانتروبري بقطع كل من له علاقة بهذا الزواج من الكنيسة، وبذل الكثير من المؤرخين جهوداً كبيرة لتشويه كل ما تحقق لكونراد من شهرة [٤] بل إن غي لوزنيان نفسه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فدعا كونراد إلى المبارزة ولكنه لم يقبل ورفض مناقشة هذه المسألة لأنه أدرك أن الحق الشرعي قد أصبح إلى جانبه ، بينما عدّ مؤيدو غي لوزنيان عدم استجابة المركيز المبارزة أنه رجل غير كفء وجبان إضافة إلى كل ذلك فقد رفض هذا الزواج من قبل رئيس أساقفة كانتربري، بل أيضاً من أسقف بوفياس الذي أيده في البداية وقام بكل إجراءات الزواج ، بسبب أن المركيز تزوج قبل هذه المرة ، لذلك عدّ هذا الزواج مخالفاً لتعاليم الدين المسيحي، وبالتالي فهوغير شرعي، وعندها عملوا على حرمان المركيز كنسياً ووقفوا ضده بكل صراحة واعتبروه مقترف للزنا المضاعف ثلاث مرات، وهذا مخالف لكل الأعراف والقوانين، وعلى الرغم من كل الأبهة والاحتفالات التي قامت والولائم التي أولمت، حيث أشار إلى ذلك أمبرويز قائلاً : فمن الزوجات الأحياء بات لديه ثلاث ، واحدة في الحشد ، وواحدة في البلاد، وثالثة جاهزة في متناول اليد[٥]، وكانت هذه التي عدها كونراد أقرب الطرق إلى الوصول إلى العرش قد جلبت الكثير من التشتت و التمزق والأذى على الصليبيين، والذي ظهر في اليوم نفسه، لأن الذين شربوا في ذلك الاحتفال قد خرجوا جميعاً وتوجهوا للمثاقفات والمبارزات التي قسمتهم إلى قسمين: قسم مع الماركيز ، وقسم آخر مع غي لوزنيان ، الأمر الذي هيّأ كل الظروف الموائمة لإضعاف الصليبين ولتقوية المسلمين الذين أغاروا على الصليبيين فأوقعوا بهم خسائر كبيرة، هنا شعر الحكماء من الصليبيين بأنهم خدعوا، وأن المركيز بدهائه ومراوغاته ومناوراته استطاع تضليلهم

---

(١) –أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري جـ٨، ص ٣٧٣ ،أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد،ج٣٢،ص٢٥٧–٢٦٠ ،رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص١١–٢٠.

(٢)– أرنول : ذيل تاريخ وليم الصوري ،جـ٨ ، ص ٣٧٤ .

(٣)– أمبرويز : صليبة ريتشارد قلب الأسد ج٣٢ ، ص ٢٥٩ .

(٤)– رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٦ .

(٥) – أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ٣٢، ص ٢٧

عندما غادر مصطحباً معه إيزابيلا وفرقته المسلحة عائداً إلى صور، لأنه استشعر أنه إذا بقي في عكا قبضوا عليه وحاكموه، وأعطوا صوراً للملك العتيد غي لوزنيان عما عاناه في الأسر عند السلطان صلاح الدين من أجل نصرة المسيح، ومن أجل خدمة الأرض المقدسة، لذلك هرب المركيز إلى صور ومعه زوجته وريثة العرش إيزابيلا [١]، وحاول الملك غي لوزنيان والملك الفرنسي فيليب التحدث إلى كونراد وإقناعه بالعودة عن قراره ، وأرسلوا خلفه الوفد لكن دون جدوى، الأمر الذي أدّى إلى سوء أحوال المعسكر الصليبي الذي يحاصر عكا [٢] ولم يقبل بالعودة إليها ، ومساعدة الصليبيين الذين يحاصرونها ، لأن غي لوزنيان رفض التنازل عن أي شيء من حقوقه .

والسؤال المهم بعد هذا العرض ، هل بقي الصراع بين غي لوزنيان والمركيز دون حل ؟ لقد عقد اجتماع بين البارونات والقادة لتدارس الأوضاع العامة بين الصليبيين ، وخاصة ما جرى بين المركيز كونراد مونتيفيرات والملك غي لوزنيان حول وراثة العرش ، والحقيقة هي: إنها قد توفرت الرغبة والإرادة عند جميع الحاضرين لحل هذا الإشكال الذي أضعف المعسكر الصليبي وقسمه إلى قسمين متناحرين، معسكر مركيز الذي دعمه فيليب أغسطس ملك فرنسا، في حين وقف ريتشارد قلب الأسد إلى جانب معسكر غي لوزنيان معتبراً إياه الملك الحقيقي للبلاد، أما عن سبب دعم ريتشارد لغي لوزنيان، فربما يعود إلى أن لوردات لوزنيان كانوا أتباعاً لملك انكلترا ابتداءاً من سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م وهي صلة يمكن الاعتماد عليها في تفسير هذا الدعم، [٣]ولكن وفي نتيجة النقاشات التي دارت في هذا الاجتماع خرج البارونات بالنتائج التالية:

١– يبقى الملك غي ملكاً للبلاد.

٢– اقتسام كل شيء بين الطرفين بمثابة موارد.

٣– تعويضاً للمركيز عما قدمه في مساعدة صور، يعطى بيروت وصيدا وصور ولقب كونت، وضرورة الاعتراف بزواج المركيز من وريثة عرش مملكة بيت المقدس.

٤– ينال غودفري لوزنيان كونتية يافا (عسقلان) لأنه أخو الملك .

٥– في حال وفاة الملك غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي.

---

(١)ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ٤ ، ص ١٤٧ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣،ص١٤٣–١٤٤.

(٢) أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد ، جـ ٣٢ ،ص ٢٧١ ، عمران / تاريخ الحروب الصليبية ١٥٦–١٦٠، رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ص ١٣٦–١٤٥ .

(٣) أديوري : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٣٩ .

٦– إلا إذا حدث وتوفي المركيز، وزوجته أثناء إقامة الملك ريتشارد في هذه المناطق عندها يترك للملك ريتشارد التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف[١]

٢- الصراع على وراثة حكم انطاكية :

حيث تولى بوهيموند الرابع Bohemond IVحكم طرابلس شرعياً منذ سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م بعد وفاة والده بوهيموند الثالث متحدياً بذلك حقوق ابن أخيه ريموند روبين Remond Roupen في وراثة إمارة أنطاكية، الذي وقف إلى جانبه خاله الملك ليو الثاني ملك أرمينية، وبذلك انشقت الجبهة الشمالية الصليبية إلى قسمين وزاد الأمر سوءاً رفض ليو إعادة قلعة بغراس إلى الفرسان الداوية التي أخذها من المسلمين بعد الحملة الصليبية الثالثة في سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[٢]. مما جعل الداوية يقفون بصف بوهيموند وينحاز إليه في الوقت الذي انضم فيه الاسبتارية إلى ليو الأرمني.

حينها أدرك الفرنج ضرورة تسوية هذه المشاكل الداخلية، وتوحيد الجبهة الصليبية من أجل إنجاح الحركة الصليبية نفسها، كما شعر البابا أنوسنت الثالث (٥٩٥-٦١٣هـ/ ١١٩٨-١٢١٦م) أن من واجبه التدخل لفض هذا النزاع، فأرسل مندوباً عنه للقيام بهذه المهمة يدعى سوفريد دي سانت براكسيد[٣]. Sofred of saint praxed، ثم أوفد مندوباً ثانياً إلى أرمينية وأنطاكية هو بطرس أف سانت ماريل وسعى كل منهما على حدة، ثم كلاهما مجتمعين، لإيجاد حل لمشكلة قلعة بغراس والوراثة في أنطاكية، وقد اظهر ليو ملك أرمينية التجاوب مع المندوبين، ولكنه رفض إعادة القلعة إلى الداوية[٤]، بالمقابل أنكر بوهيموند حق البابوية في التدخل بالمشكلة التي تعد إقطاعية بحته، ولذا أخفق المندوبان في مهمتهما.

لكن خلافات بوهيموند مع أرمينية لم تكن الوحيدة التي تعاني منها إمارته، بل عانت أيضاً من الاضطرابات الداخلية ذلك أن سلطانه لم يكن كاملاً على كل من إمارة أنطاكية وطرابلس خاصة في الريف، ويتضح ذلك من حركة التمرد التي قام بها رينوارت Renoart صاحب أنفه، عندما تزوج وريثة حصن عكا وبدون إذن منه وذلك في نهاية سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وقد تصاعد هذا

---

(١) – رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣،ص١٣٦-١٤٦ ، أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ ٣٢ ، ص ٢٧٠

(٢) – الصوري (وليم): ذيل تاريخ وليم الصوري من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، جـ٨، ص٣٥٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥١، برجاوي، الحروب الصليبية، ص٤١٧-٤١٨.

(٣) – الصوري: ذيل تاريخ وليم الصوري من خلال الموسوعة الشامية، جـ٨، ص٣٥٨-٣٥٩.

(٤) – الصوري: ذيل تاريخ وليم الصوري من خلال الموسوعة الشامية، جـ٨، ص٣٥٨-٣٥٩.

التمرد عندما انحاز كثير من الصليبيين إلى جانب رينوارت، وزاد من تعقيد المشكلة أن هذا التمرد لقي التأييد من الملك عموري ملك قبرص، والملك الأسمى لمملكة بيت المقدس آنذاك، وبذلك تحرج مركز بوهيموند في الداخل مع أمراء الصليبيين، وفي الخارج مع كل من البابا وليو وعموري والاسبتارية، ولم يقف معه سوى الداوية.

واستغل ملك أرمينية ليو هذه الحوادث فقام بحملات عدة حاصر من خلالها أنطاكية[١]، فاضطر بوهيموند وقتها مرغماً للاستنجاد بقوى أخرى غير صليبية، هي قوى إسلامية، عندما وقف جميع الأمراء الصليبيين ضده، فاستنجد بوهيموند بالملك الظاهر غازي[٢] صاحب حلب الذي لبى دعوته وخرج سريعاً من حلب متجهاً إلى حارم[٣]، وسرعان ما انسحب ليو مسرعاً إلى بلاده [٤] عندما وصل إلى مسامعه نبأ قدوم الملك الظاهر غازي ، عندها عاد الظاهر أيضاً إلى حلب لانتهاء الأسباب الدافعة لخروجه وهي الحرب والمساعدة ولكن ليو أعاد الكرة مرة أخرى على أنطاكية وهاجمها فجأة عندما راسله أهلها وضمنوا له تمليكها وذلك في السابع عشر من ربيع الثاني من العام نفسه فعمد بوهيموند إلى اتخاذ الإجراءات الداخلية التي تساعده على صد الهجوم وإفشاله وتحصّن في قلعة أنطاكية، عندها عاود بوهيموند الكرّة و استنجد بالظاهر غازي مرة أخرى الذي لبّى النداء مسرعاً، وخرج بعساكره قاصداً أنطاكية، وعندما علم ليو بقدومه فك الحصار، وعاد مسرعاً إلى بلاده للمرة الثانية دون أن يشتبك مع قوات بوهيموند أو الظاهر وذلك لما وجده من حشود عسكرية كبيرة ضده، وكان من الطبيعي أن يبادر الظاهر غازي إلى تلبية نداء بوهيموند لعله يحقق من وراء ذلك نصراً إسلامياً على حساب الفريقين الصليبيين المتخاصمين[٥]، فانتهز بوهيموند هذه الفرصة وفرض سيطرته الكاملة على أنطاكية وطرابلس،

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٠٥، عاشور (سعيد عبد الفتاح): بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م، ص٢٤٠، المدور مروان: الأرمن عبر التاريخ بيروت منشورات دار مكتبة الحياة ،ط١٩٨٢،١ م، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٢) – الظاهر غازي: أبو منصور غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف ولد بالقاهرة في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م في سلطنة والده، ونشأ تحت كنف والده وولاه أبوه سلطة حلب في حياته وكان ملكاً مهيباً وله سياسة وفطنة ودولة معمورة بالعلماء والأمراء والفضلاء، وكان محسناً للرعية والوافدين عليه وحضر معظم غزوات والده صلاح الدين توفي سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٩٢

(٣) – حارم: حصن حصين، وكورة جليلة تجاه أنطاكية، من أعمال حلب. البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٣٧١.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٠٥.

(٥) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٠٥، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٠-٢٤١، المدور :الأرمن، ص٢٣٢-٢٣٤.

ولم يبق أمامه سوى ليو وحلفائه من الاسبتارية وفي هذا الوقت كان بوهيموند يبحث عن مساندة خارجية ضد ليو ولذلك سارع لاستقبال ماري Marie كونتيسة شامبانيا زوجة بلدوين Baldwin الإمبراطور اللاتيني بالقسطنطينية في عكا وهي في طريقها إلى زوجها حيث قدم لها يمين الولاء تأكيداً لما أعلنه من قبل عن تبعية أنطاكية إلى إمبراطور القسطنطينية وقد زادت السياسة التي اتبعها بوهيموند من غضب البابوية التي كانت غير راضية عن حكام القسطنطينية اللاتين بالحملة الصليبية الرابعة[١].

وإثر نجاح بوهيموند في إنهاء حركة التمرد التي قام بها رينوارت صاحب أنفه، وتمتين العلاقات مع إمبراطور القسطنطينية بعد إعلان ولائه للإمبراطورية عمد إلى اتخاذ سلسلة من الإجراءات التي قضت برسم سياسته المستقبلية التي كان أولها عزل بطرس بطريرك أنطاكية بسبب انحيازه للملك ليو واستبداله بسيمون البطريرك اليوناني، لكن بطرس لم يقبل بالأمر الواقع، ولم يأل جهداً في البحث عن سبل من أجل العودة إلى المدينة– أنطاكية– فقد استطاع سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م أن يُدخل إليها بعض الفرسان الموالين له الذين حاولوا الاستيلاء على جنوب المدينة، ولكن محاولته باءت بالإخفاق بعد تمكن بوهيموند من رد المعتدين إلى خارج أنطاكية، والقبض عليه إذ ألقى به في السجن دون طعام أو شراب فشرب بطرس زيت مصباحه، ومات بعد عذاب أليم.

وتجددت الحرب بين ليو وبوهيموند مرة أخرى سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م[٢] إذ قام ليو بتخريب ضواحي أنطاكية، كما قام الاسبتارية بشن غارة على طرابلس، ولم يلجأ بوهيموند إلى الاستنجاد بالملك الظاهر غازي، وربما يكون ذلك بسبب حرصه على عدم إغضاب العادل الذي وقع معه الصلح في أواخر سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦ لاختلافه مع الظاهر غازي لذلك لجأ بوهيموند إلى السلاجقة الروم لمساندته ضد ليو. فغضب بابا روما من ذلك، واستنجد بالظاهر غازي صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من تدخل السلاجقة، ومما تجدر الإشارة إليه أن أمر استنجاد البابا بالملك الظاهر لم يرد في المصادر العربية على الإطلاق، ويبدو أن البابا فضل أن يستنجد بالظاهر غازي لحماية أنطاكية على دخول السلاجقة فيها حتى تبقى المملكة الصليبية على حالها أملاً

---

(١) – فلهاردين: الاستيلاء على القسطنطينية من خلال الموسوعة الشامية ، جـ١٠، ص٨١–٩٥، بينز (نورمان): الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: حسين مؤنس، محمد يوسف زايد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م، ص٣٨٧.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٨٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ص١٦٠–١٦٣، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٠–٢٤١، المدور: الأرمن، ص٢٣٣، حافظ (فؤاد حسن): تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٥٧.

في الوصول إلى حل بين ليو وبوهيموند تمهيداً لحملة صليبية أخرى[١]، وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد، وقد زادت الخلافات بين ليو وبوهيموند من قلق البابا فعاد إلى التدخل لفض هذا النزاع، وطلب من ألبرت بطريرك بيت المقدس الأسمى في رمضان ٦٠٥هـ/ أذار ١٢٠٨م التوسط لحل المشكلة، في الوقت الذي سعى فيه بوهيموند للتقرب من البابوية، وقبل تعيين بطريرك لاتيني على الإمارة من قبل البابا، حيث أدى التقارب بين البابا وبوهيموند إلى غضب ليو، وتفاخره بأنه عقد محالفة مع إمبراطور نيقية Nicee البيزنطية في المنفى، كما تقرب من هيو ملك قبرص ٦٠٢- ٦١٥هـ/ ١٢٠٥-١٢١٨م.

و كان قد تزوج ريموند بن بوهيموند الرابع المطالب بعرش أنطاكية من هلفيس Helvis أخت هيو، ولعل ليو هدف من ذلك ضمان مساندة قبرص له ولابن أخته ريموند بن بوهيموند الرابع[٢] في المطالبة بعرش أنطاكية، كما منح ليو طائفة التيوتون بعض القلاع في قليقية، وتعقد الموقف أكثر من ذي قبل، فتجمعت القوات الصليبية من قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية وأرمينية لقصد بلاد المسلمين ولم يتراجعوا إلا بعد خروج الظاهر لملاقاتهم. وزاد التقارب بين كل من مملكة بيت المقدس وأرمينية وقبرص عندما تزوج جان دي برين من ستيفاني ابنة ليو الذي ظل يتحين الفرص لتنصيب ابن أخيه ريموند أميراً على أنطاكية، وتمكن الملك ليو في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م من احتلال أنطاكية بالتآمر مع بطريرك المدينة أثناء غياب بوهيموند في طرابلس ونصب عليها ريموند بن بوهيموند الرابع في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م وأعاد قلعة بغراس إلى الداوية، وتصالح مع البابا ((وأطلق جماعة من أسرى المسلمين)) وطلب الصلح من الملك الظاهر في الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات قائمة على قدم وساق في أوروبا لإرسال الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر[٣].

---

(١) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٥٤-١٥٥، المدور: الأرمن، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٢١٩، عمران (محمود سعيد): الحملة الصليبية الخامسة، د.م، دار المعارف، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٦م، ص١٠٨-١١٠، المدور: الأرمن، ص٢٣٣-٢٣٤،

(٣) – أولفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة، سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، جـ٣٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٩-٣١، عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص١١٠-١١٣، المدور: الأرمن، ص٢٣٤، الترك (عثمان): صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية، د.م، ط١، ١٩٦٠م، ص١٤٨-١٤٩.

ثانياً: علاقة مدن الساحل الشامي مع الدول والإمارات الخارجية:

١- العلاقة مع قبرص ودورها في الحملات الصليبية.

انتزع ريتشارد الأول ملك انكلترا، جزيرة قبرص[١] من حاكمها البيزنطي اسحق كومينوس سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[٢] خلال الحملة الصليبية الثالثة. وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي شكلت قبرص جسراً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً داعماً للحملات الصليبية عندما كانت تمد الصليبيين في المشرق العربي بقوافل آتية من أوروبا محملة بالرجال والمؤن والبضائع وغيرها. وكانت روابطها قوية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً مع مملكة بيت المقدس.

وهنا يمكن التساؤل عن دور قبرص الاقتصادي في الحروب الصليبية؟

في البداية يمكن القول بأن قبرص كان لها أولويات أهمها الدفاع عن الممتلكات المسيحية لذلك عمدت إلى إنفاق بعض من مواردها الاقتصادية، وبعد أن سمح ملوك قبرص بإنفاق ثروة جزيرتهم المادية وقدراتها العسكرية لاستعادة الأماكن المقدسة وحمايتها من جهة وخصوصاً وأن قبرص كانت محطة توقف طبيعية لرجال الحملات الصليبية أو الحجاج الذين يسافرون إلى الأرض المقدسة من جهة ثانية، فأصبحت قبرص بذلك مرسى مناسب للفرنجة للتزود بالمؤونة، وللتجمع، أو التلاقي، ولإعادة التجهيز[٣]، وبعد ذلك ظهرت حقبة جديدة من الحكم اللاتيني فيها، فدخلت قبرص في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وأصبحت بذلك محوراً لكثير من الحركات الصليبية، ومركزاً دائماً لتموين الحملات والبقايا الصليبية الموجودة في الشرق

والسؤال هنا ما هي سياسة ريتشارد في الجزيرة؟

اختلفت قبرص عن البلاد التي احتلها الفرنج الصليبيون من عدة نواحي منها أنها كانت تابعة لبيزنطة وهي بذلك لم تنتزع من المسلمين بل من البيزنطيين المسيحيين والمجتمع القبرصي الذي خضع للسيطرة الغربية بعد ذلك

استيلاء الصليبيين على أرض مأهولة من قبل المسيحيين أدى لخضوع هذه الأرض لحكم

---

(١) – لقد كانت قبرص ورودوس وجزر أخرى في غالب الأحيان تمد الصليبيين بموارد تجارية كثيرة ذات فائدة للصليبيين، فقد كانت تمدهم بالجند والمال كما كانت قبرص تصدر للصليبيين الخضروات والحبوب والخمرة والمواشي الصغيرة والكبيرة والملح أيضاً. سانوتو: الأسرار، جـ٣٦، ص١٨٠، بادربورن: الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة الشامية، ، جـ٣٣، ص١٨٦.

(٢) – أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٢، ص١٣٤-١٣٥.

(٣) – إديوري (بيتر): قبرص والحروب الصليبية، بيروت- لبنان، دار الملتقى للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م، ص١-٣.

مسيحي جديد من نوعه، جذب إليه المزيد من الأجناس كاللاتين والموارنة والأرمن والإنجليز وغيرهم...[١].

ومع هذه التغيرات بدأت حقبة جديدة ومريرة من تاريخ هذه الجزيرة، فتحولت إلى ورقة رابحة بيد ريتشارد في معترك السياسة وميادين القتال، وبذلك أصبحت قبرص ولاسيما بعد احتلال ريتشارد لها قاعدة للحروب الصليبية ضد صلاح الدين والمسلمين، وبالتالي برزت أهميتها واتجهت أنظار الفرنجة إليها لتهديد الأرض المقدسة. لكن الغريب في ذلك بيع ريتشارد الجزيرة كلها لفرسان الرهبانية الداوية قبل سقوط عكا بيد الفرنجة.

فما هي الأسباب التي دفعت الملك للتخلي عن قبرص وبيعها وخصوصاً بعد أن أدرك اهميتها بالنسبة له لإنجاح حملته؟

في الحقيقة لم يرد ريتشارد البقاء طويلاً في الجزيرة بعد أن أصبح سيدها بلا منازع لعدة أسباب من أهمها: إتمام مهمته الأساسية وواجبه الصليبي الذي جاء من أجله فاضطر للرحيل ووافق على بيعها لرجال الهيكل الداوية، كما أنه كان بحاجة للنقود ليسخر كل إمكانياته للحملة ضد صلاح الدين الأيوبي، وعندما وجد من يشتري البلد الذي احتله حديثاً لم يتوان عن بيعه أو التخلي عنه[٢]. وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على أن الملك الانكليزي لم يكن معنياً إلا بأمور الحملة ونفقاتها دون أي شيء آخر، وما إن اشترى رجال الداوية الجزيرة حتى مارسوا فور توليهم شتى أنواع الابتزاز والتكبر ضد أحبار الكنيسة اليونانية، وفرضوا الضرائب ولم يستطيعوا ممارسة سلطتهم إلا بالقوة، حيث أرهقت هذه السياسة أهل قبرص فرفضوا دفع الضرائب الأمر الذي لم يتقبله رجال الداوية، ولم يستطيعوا الصمود فغادروا قبرص سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م قسراً خوفاً من الثأر، وأعادوا ملكية الجزيرة إلى ريتشارد من جديد، الذي بدوره منحها إلى غي لوزينيان و في العام نفسه قام الصليبيون والمسلمون بالاتفاق على هدنة في سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م[٣]، و إثر منح جزيرة قبرص لغي لوزينيان توجه إليها، وأخذ معه أنصاره الذين أرادوا مرافقته، ثم عين غي لوزينان شقيقه جفري خلفاً له في قبرص، لكن الأخير والذي كان أحد أبطال الحملة الثالثة لم يبد أي اهتمام بذلك لأنه فضل أراضيه في بواتو عن قبرص، وعن كونتية يافا، وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، ولذلك تم اختيار شقيقه الأكبر عموري الذي كان قد حقق إنجازاً هاماً،

(١) – أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٢، ص١٣٤–١٣٥.

(٢) – عثمان (أحمد): تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم وإلى اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٤٨، زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٦٧، عاشور: سعيد عبد الفتاح، قبرص والحروب الصليبية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، طـ٢، ٢٠٠٢م، ص٣١.

(٣) – الأصفهاني: الفتح القسي، ص٣٤٢، أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤، العسلي :صلاح الدين الأيوبي، ص٧٥.

وهو رفع قبرص إلى مرتبة مملكة هو أول ملوكها، وقد حصل عموري لوزينيان على لقبه الملكي من الإمبراطور الغربي هنري السادس(١)، الذي رأى أن جعل قبرص مملكة تحت السيادة الإمبراطورية أمراً ملائماً لمخططاته، وكان على عموري أن يحقق مكاسب كثيرة من جراء رفع ملكه في الجزيرة إلى مرتبة مملكة، حتى لو اضطر إلى القبول بسيادة هنري السادس، لأن ملكية التاج تعزز مكانته الخاصة، وتسهم في ضمان استمرار أبنائه في حكم قبرص، وقد وجد عموري في هنري حليفاً معادياً للقسطنطينية، وتوج عموري ملكاً على قبرص سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م، وكان على قبرص إتباع الممارسات الإقطاعية التي كانت سائدة في مملكة القدس، بوجود محكمة عليا على غرار محكمة القدس العليا على أن تسري قوانين القدس، بما فيها من تعديل على جزيرة قبرص، وحكم عموري لوزينيان قبرص ومملكة القدس حتى وفاته سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م(٢). وبذلك يكون غي وعموري لوزينيان أول من أسسا حكماً غربياً في قبرص، وقد خلف عموري في حكم قبرص ابنه هيوHugue الذي حكم قبرص من ٦٠٢-٦١٥هـ/ ١٢٠٥-١٢١٨م، وخلف هيو ابنه هنري الأول ٦١٥-٦٥١هـ/ ١٢١٨-١٢٥٣م ثم هيو الثانيHugueII ٦٥١-٦٦٦هـ/ ١٢٥٣-١٢٦٧م، تلاه هيو الثالثHugueIII ٦٦٧-٦٨٣هـ/ ١٢٦٨-١٢٨٤م ثم خلفه ابنه الأكبر جون الذي توفي في السنة التالية ليخلفه ابنه الثاني هنري الثانيHenryII الذي حكم حتى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م وكما ذكر آنفاً إن قبرص قد أدت دوراً سياسياً بالنسبة للغرب الأوروبي وللمشرق العربي **ولكن ألم تشغل قبرص دوراً عسكرياً بالنسبة للحملات الصليبية؟**

يمكن القول إن الفرسان القبارصة إضافة إلى حكامهم ساهموا في عمليات عسكرية متعددة إلى جانب الفرنجة في الشام ومصر، حيث شاركت قوات قبرص إلى جانب قوات الفرنجة اللاتين المتواجدين في سوريا في غارة بحرية على ساحل مصر، كما شارك ملك قبرص أماليك بقواته إلى جانب الفرنجة الألمان في عملية الاستيلاء على بيروت سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م. وبعد سنوات عديدة وتحديداً سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م انضم القبارصة إلى حملة عسكرية متجهة إلى حماة وحمص، وهذه المشاركات كان لها غايات سياسية وعسكرية تعود بالنفع العام على قبرص اقتصادياً وسياسياً، وقد اشترك القبارصة بزعامة هيو الأول سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م في حصار عكا في الحملة الصليبية الخامسة، وفي حصار دمياط سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م.

---

(١) – إديوري: قبرص، ص٤٩، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٤١.

(٢) – جروسيه (رينيه): الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمة: أحمد أبيش، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٢، ص٥٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٤١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٠٤، إديوري: قبرص، ص٤٩-٥٠، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٢٠٤-٢٠٥.

غير أن هؤلاء ما انفكوا يقدمون يد المساعدة للحملات الفرنجية التي قدمت إلى المنطقة العربية الإسلامية. وقد ترقبوا الحملة الصليبية السادسة بزعامة فردريك الثاني سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م للانضمام إليها، وقدموا المساعدة إلى الملك لويس سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م في حملته إلى دمياط، كما عززوا روابطهم مع الفرنجة سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م[١] وفي أثناء حصار عكا، أرسل هنري تعزيزات عسكرية تراوحت ما بين ١٠٠-٢٠٠ فارس، و ٢٠٠-٥٠٠ جندي من المشاة.

٢- العلاقة مع دولة إرمينيا الصغرى.

سميت أرمينية الصغرى بهذا الاسم للتمييز بينها وبين أرمينية القديمة. حيث كانت أرمينية قديماً تقع في المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود أي بين بلاد فارس والعراق شرقاً وبلاد الروم غرباً، وقد أكسبها هذا الموقع أرباحاً طائلة نتيجة لمرور طريق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها، غير أن هذا الطريق لم يلبث أن تحول نحو الجنوب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مروراً بحلب وأنطاكية في شمال الشام نظراً لصعوبة الطريق القديم الذي كان يمر بجبال أرمينيا إلى البحر الأسود.

ولا شك أن هذا التحول قد أضعف تدريجياً أهمية أرمينية الاقتصادية إلى أن استولت عليها الدولة البيزنطية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فغادر الأرمن بلادهم، باتجاه الجنوب نتيجة انتقال الطرق التجارية من ناحية وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية أخرى، واستقروا في جنوب الأناضول وقيليقية و جنوب أسيا الصغرى أسسوا مملكة أرمينية الصغرى، واتخذوا من مدينة سيس عاصمة لهم وقد شغلت هذه المملكة المسيحية دوراً خطيراً ضد دولة المماليك في مصر والشام. إذ أنها لم تكتف بمساعدة الإمارات الصليبية في الشام، بل تحالفت مع مغول فارس، وأخذت تحرض هولاكو وابنه أبغا على غزو الشام ومصر، وعند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي رحب بهم الأرمن في قيليقية وقدموا لهم المساعدات الفعالة[٢]، وأرشدوهم إلى الطريق

---

(١) - سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩-٣١٠، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠-١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٧٨-١٧٩، ابن حبيب(الحسن ابن عمرت ٧٧٩هـ/١٣٧٧ م): تذكرة النبية في أيام المنصور و بنيه ،د.م، دار لكتب.١٩٧٦ م، جـ١، ص١٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦-٧، عاشور (فايد حماد): العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، قدم له وراجعه:جوزيف نسيم، مصر، دار المعارف، د.ت، ص٢٢٠-٢٢١، إديوري: قبرص، ص٧١-٩٥.

(٢) - المؤرخ الرهاوي المجهول: روايات عن الحملتين الأولى والثانية من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، جـ١، ص٢١-٢٥، عاشور (سعيد عبد=

المؤدي إلى الجزيرة والرها من ناحية، وإلى الشام وأنطاكية من ناحية أخرى، وظل الأرمن يقدمون إلى الصليبيين إمدادات ضخمة من المؤن أثناء حصارهم أنطاكية، كما أن الصليبيين فرحوا بلقاء الأرمن في جنوب شرق أسيا الصغرى، ووجدوا فيهم عوناً قوياً بينما وجد الأرمن في الصليبيين حليفاً كبيراً[١].

وهنا لا بد من التساؤل حول هدف هذه الصداقة التي قامت بين الأرمن والصليبيين؟

من الواضح أنه كان لكل من الأرمن والفرنجة عدوٌ مشتركٌ ممثلٌ بالقوى الإسلامية وبالتالي فإن الصداقة ستشكل سداً منيعاً في وجه أعدائهم. لقد مكن وجود الصليبيين على مسرح الشرق العربي قسطنطين الأول ٤٨٩-٤٩٣هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٩م من تدعيم إمارته وتوسيع رقعتها في قيليقية على حساب البيزنطيين فضلاً عن المسلمين، ولكن لم يكد الصليبيون يستقرون في أنطاكية حتى بدأ الاحتكاك بينهم وبين جيرانهم الأرمن في قيليقية. خاصة بسبب السياسة العدوانية التوسعية التي دأب أمراء أنطاكية من النورمان على إتباعها ضد القوى المجاورة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وقد استطاع الصليبيون في مدة قصيرة من الاستيلاء على ممتلكات الأرمن شرقي آسيا الصغرى. وفي ذلك الوقت انتقلت ملكية الرها إلى الأمير الصليبي بلدوين البولوني الأول بعد مقتل أميرها ثوروس الأرمني سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[٢].

ولم تلبث أن دخلت العلاقات بين الأرمن في قيليقية من جهة والقوى الصليبية في الشرق وخاصة إمارة أنطاكية من جهة أخرى في دور من العداء المتبادل زاد من وقعه عداء الدولة البيزنطية لأمراء قيليقية والصليبيين جميعاً، ولكن طموح بعض أمراء الأرمن في قيليقية مثل ليو الأول Lio I ٥٢٤-٥٣١هـ/ ١١٢٩-١١٣٦م، ونشاطهم على حدود إمارة أنطاكية الصليبية أثار مخاوف أمراء أنطاكية الصليبيين[٣]، في الوقت الذي كان هؤلاء الأمراء النورمان بدورهم لا يقلون طمعاً ورغبة في التوسع حتى على حساب القوى المسيحية. ومن ناحية أخرى فإن الدولة البيزنطية لم يكن من السهل عليها التنازل عن قيليقية ليستقل بها الأرمن حيث قام بعض الأباطرة البيزنطيين مثل حنا الثاني ٥١٢-٥٣٨هـ/ ١١١٨-١١٤٣م بغزو قيليقية، لكن النفوذ البيزنطي لم

=الفتاح): بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٧م، ص٢٣٣-٢٣٤، الترك (عثمان): صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية، د.م، ط١، ١٩٦٠، ص١٤٣.

(١) – المؤرخ الرهاوي المجهول: روايات عن الحملتين الأولى والثانية من خلال الموسوعة الشامية، جـ٢، ص٢٣-٢٤، حافظ تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥١.

(٢) – المؤرخ الرهاوي المجهول: روايات عن الحملتين الأول والثانية من خلال الموسوعة الشامية، جـ٥، ص٥٤-٦٠، عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص٢٣٦.

(٣) – ميخائيل السوري: روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، جـ٥، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٩١-٩٢، حافظ: تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥٢- ١٥٣.

يلبث أن ينكمش وينحسر عنها، فيعود تحت سيطرة الأرمن بعد انسحاب الجيوش الإمبراطورية، كما لم تنقطع هجمات المسلمين ممثلين في سلاجقة الروم من ناحية وبني الدانشمند من ناحية أخرى على قيليقية، الأمر الذي جعل تلك الإمارة الأرمنية تعيش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في ظروف بالغة الحرج والصعوبة، ولم يكد يقترب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي من نهايته حتى كان أمراء قيليقية من الأرمن قد أظهروا مهارة في الاحتفاظ بكيانهم وقد دفع ذلك ليو الثاني أمير أرمينية الصغرى للتطلع إلى التاج ليكون ملكاً متوجاً عليها ليتمتع مما للملوك من مكانة وهيبة، وهذا ما جعله يتجه نحو الغرب لتحقيق غرضه، وذلك حتى لا يبدو في صورة أقل من مكانة الأمراء الصليبيين بالشرق من ناحية، وحتى يتجنب أطماع أباطرة القسطنطينية من ناحية أخرى. وهكذا واصل ليو الثاني جهوده عند أقوى رجلين في الغرب، وهما البابا كالستين الثالث ٥٨٧–٥٩٥هـ/١١٩١–١١٩٨م، والإمبراطور فردريك بربروسا ٥٤٧–٥٨٦هـ/ ١١٥٢–١١٩٠م. ويقال إن فردريك وعد بإعطاء ليو لقب الملكية، وجاء هذا الوعد في رسالة مدموغة بخاتم الإمبراطورية الذهبي. وما كادت تقترب حملة فردريك بربروسا الصليبية من قيليقية سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م حتى أحس ليو الثاني الأرمني بقرب تحقيق آماله، فرحب بالإمبراطور ورجاله وبادر إلى تقديم الهدايا والميرة، ولكن غرق فردريك بربروسا في أحد أنهار قيليقية جاء مخيباً لآماله حيث هزت هذه الحادثة كيان الحملة الصليبية الثالثة[1].

على أن ليو الثاني Lio II لم ييأس، بل واصل جهوده في مساعدة الحملة الصليبية الثالثة، فشاركت قواته في حصار عكا، كما ساعد ريتشارد ملك إنجلترا في غزو جزيرة قبرص، وكان ذلك النشاط في حد ذاته كفيلاً بإعلاء مكانة الأمير ليو الثاني الأرمني، وإظهار إخلاصه وتجاوبه مع أهداف المسيحية الأمر الذي مكنه من مواصلة جهوده للحصول على التاج الملكي[2]، ويقال إنه أرسل سفراء إلى كل من البابا كالستين الثالث والإمبراطور الغربي هنري السادس لهذا الغرض، ونجح السفراء في مهمتهم بالغرب، فأرسل الإمبراطور هنري السادس سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م كبيري أمنائه– واسمه كونراد– إلى الشرق ومعه تاجان، أحدهما لعموري لوزجنان صاحب قبرص، والأخر للأمير ليو الثاني صاحب قيليقية مما أدى إلى ولادة مملكتين

---

(١) – ويندوفر: ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٩، ص٣٦٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢٠٠–٢١٠، ٢١٣–٢٢١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٥٥، حافظ: تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥٦–١٥٧، عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص٢٣٦–٢٣٧، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩.

(٢) – الترك: صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية، ص١٤٦، المدور: الأرمن، ص٢٣٣.

مسيحيتين صغيرتين على مسرح الشرق العربي الإسلامي[١]، هما مملكة قبرص ومملكة أرمينية الصغرى. في الوقت الذي أرسل فيه الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث تاجاً إلى ليو الثاني، ولكن الأخير كان يفضل تتويجه ملكاً عن طريق إمبراطور الغرب، وذلك حتى يقف على قدم المساواة مع الأمراء الصليبيين بالشرق.

ولا شك في أن ظهور قبرص وإرمينيا الصغرى على مسرح الشرق العربي الإسلامي في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في صورة مملكتين مسيحيتين، أضفى عليهما هيبة كبيرة من جهة، وألقى عليهما مسؤولية ضخمة في متابعة السياسة الصليبية ضد المسلمين من جهة أخرى. وإذا كان ظهور حكام أرمينية الصغرى في صورة ملوك قد جعل منهم قوة مسيحية جديدة واضحة في الشرق الأدنى، لكنه ألقى عليهم مسؤوليات كبيرة تجاه المشاركة في السياسة الصليبية منذ أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ولكن شاءت الظروف أن يتم تتويج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، في وقت كان عصيباً على المسلمين، فقد توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م وأعقب وفاته تقسيم دولته بين أبنائه وإخوته وبقية أبناء بيته[٢].

وهكذا اقتصر الصدام في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على مملكة أرمينية الصغرى من ناحية، والقوى الإسلامية المجاورة من ناحية أخرى.
وكان هناك اشتباكات متكررة مع سلاجقة الروم، بسبب دأب هؤلاء على غزو قيليقية بين حين وآخر، وبناء على ذلك فإن قوات ركن الدين سليمان شاه الثاني بن قليج أرسلان ٥٩٧–٦٠٠هـ/ ١٢٠٠–١٢٠٣م، غزت أرمينية الصغرى سنة ٥٩٨هـ/ ١١٩٣م[٣]، لكن الملك ليو الثاني استطاع دفعهم و ردهم وفي سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م غزا كيقباذ الأول سلطان سلاجقة الروم قيليقية وفرض جزية على الأرمن[٤]. و هذه لم تكن المرة الأولى و لا الأخيرة للغزو السلجوقي لأرمينية فقد تكرر غزو السلاجقة لقيليقية سنة ٦٤٣–٦٤٤هـ/ ١٢٤٥–١٢٤٦م وفي تلك الأثناء لم تحدث

(١) – سيولف الأنكلوسكوني: حملة الملك ريتشارد، جـ٣١، ص٣٢–٣٤، سمباط الأرمني: تاريخ سمباط الأرمني، جـ٣٥، ص٢٩٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٨، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩.

(٢) – سمباط : تاريخ سمباط،جـ٣٥ ،ص٣٠٥ ،ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧٨–٣٧٩، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٨، عاشور: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢١٩، الترك: صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية، ص١٤٦–١٤٧.

(٣) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٤٨، عاشور: بحوث ودراسات من تاريخ العصور الوسطى، ص٢٤٠.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٤٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ص١٦٠–١٦٣، حافظ: تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥٧.

اشتباكات بين أرمينية الصغرى من ناحية، والمسلمين في شمال الشام من ناحية أخرى، إلا الاشتباك الذي وقع بين الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين مع ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى بسبب إمارة أنطاكية. حيث نشأ خلاف بين أرمينية الصغرى وأنطاكية بعد وفاة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية سنة ٥٨٩هـ/ ١٢٠١م[١] بسب طمع الملك ليو الثاني الأرمني في بسط سيادته على إمارة أنطاكية الصليبية عن طريق الوراثة. وكان أن هاجم ليو الثاني إمارة أنطاكية سنة٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، ولكن الظاهر غازي الأيوبي صاحب حلب أسرع لنجدة حلفائه في أنطاكية[٢].

ولم يلبث أن تجدد الصدام بين ليو الثاني والظاهر غازي صاحب حلب عندما قام الأول بهجوم مباغت على دربساك، على الرغم من إخفاقه في الاستيلاء على قلعتها إلا أنه أنزل بالمسلمين خسائر كبيرة، كما خرب الجهات المجاورة لها[٣]، فخرج الظاهر غازي بنفسه على رأس قوات جديدة سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م للانتقام من ليو الأرمني، وشاركت قوات أنطاكية الجيوش الحلبية في حملتها هذه، الأمر الذي جعل ليو الثاني يتراجع بسرعة أمام تفوق أعدائه عليه، ووافق على عقد هدنة لمدة ثماني سنوات، وعلى الرغم من أن إمارة حلب انفردت بمواجهة قوة أرمينية الصغرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فإن الموقف اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن، وذلك لأن قيام دولة المماليك سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م جاء مصحوباً بتوحيد مصر والشام تحت قيادة سياسية واحدة ممثلة في سلطنة المماليك بالقاهرة. كما أنه كان على مملكة أرمينية الصغرى أن تواجه السياسة القوية التي رسمتها لنفسها سلطنة المماليك، والتي استهدفت الجهاد ضد المغول و الصليبيين جميعاً، واقتلاع جذور البقايا الصليبية تماماً من منطقة الشرق العربي الإسلامي، وقد تمكن السلاطين المماليك مدعومين بقوة من الجيش والظهير الشعبي في كلا القطرين- الشام ومصر- في القضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[٤]، فكان من غير المعقول أن يغفل المماليك عن أمر أرمينية الصغرى وقبرص، وهما المملكتان اللتان ساندتا الحركة الصليبية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً ولم يظهرا في صورة مملكتين إلا نتيجة للتيار

---

(١) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١ ، ص١٦٠-١٦٣.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٤٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٦٠-١٦١، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٠-٢٤١، المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٣) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٧، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤١.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٨٧، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧-١٥٨، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٨، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: أضواء على الحروب الصليبية، ص٤٤-٤٨.

الصليبي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فضلاً عن جهودهما التي لم ينساها المسلمون في تدعيم مركز القوى الصليبية في بلاد الشام منذ بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وكلما ضعف أمر الصليبيين بالشام، وانكمش سلطانهم كلما ازداد العبء الملقى على كاهل هاتين المملكتين للنهوض برسالة الحركة الصليبية ومشروعها السياسي الأمر الذي جعل الصدام لا مفر منه بين سلطنة المماليك من ناحية ومملكتي أرمينية الصغرى وقبرص من ناحية أخرى، فهو الصدام الذي لم ينته إلا بسقوط مملكة أرمينية الصغرى في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وخضوع مملكة قبرص لسلطنة المماليك في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[١]. وبعد وفاة ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. خلفه هيثوم الأول فوضع دعائم سياسة خارجية لمملكته، تقوم على إحلال التحالف مع المغول بدلاً من التحالف مع الغرب الأوروبي، بعد أن ثبت انشغال الغرب بمشاكله الخاصة عن المساهمة الجدية في الحروب الصليبية.

ولم يكتف هيثوم الأول باسترضاء هولاكو ورجاله لأن طموحه كان أكثر من ذلك، وإنما فقد الأمل في الزج بالمغول في تيار الحروب الصليبية، واتخاذهم حليفاً للمسيحيين في حركتهم الكبرى لطرد المسلمين من الشام[٢]، وعلى الرغم من استحالة تحقيق هذا الأمر باعتبار معظم سكان بلاد الشام من المسلمين ومهما يكن من أمر، فإن الملك هيثوم لم ينس أصله الأرمني حيث شرع في تنفيذ خطته الأساسية الخاصة بتكوين جبهته من المسيحيين والمغول ضد المسلمين، فاتصل بأمراء الصليبيين بالشام يدعوهم للمشاركة في مشروعه الكبير، ولكنه لم يجد استجابة سوى من بوهيموند السادس صاحب أنطاكية ومن الواضح أن الصليبيين في بلاد الشام كانوا عندئذ قد بلغوا درجة من الضعف والجمود، بعد أن ذبلت الحماسة الصليبية في غرب أوروبا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عندما تضاءلت الإمدادات البشرية والمادية التي كانت تصل من الغرب، وهي الإمدادات التي كانت تستثير حماستهم بين حين وآخر وتجدد نشاطهم، وتحيي فيهم الروح الصليبية بكل معانيها، لكن مظاهر الضعف والانهيار بدت أوضح حينما اعتلى هيثوم الثاني (٦٨٨–٧٠٥هـ/ ١٢٨٩–١٣٠٥م) العرش عندها كانت حالة الصليبيين في الشرق قد ضعفت فاستولى السلطان المملوكي المنصور قلاوون على الرها وأنطاكية، وزاد في عداء هيثوم الثاني

---

(١) – عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٢، المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٣٥–٢٣٦.

(٢) – سمباط : تاريخ سمباط من خلال الموسوعة الشاميّة،،جـ٣٥،ص٣٢٤ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٧٠، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٤، حافظ: تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥٩.

طلب المنصور قلاوون أن يتنازل عن موقعي مرعش[١] وبهسنا[٢] متجاهلاً المعاهدة التي وقعت مع سلفه ليون الثالث سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م[٣]، وما كان من هيثوم الثاني إلا أن طلب المساعدة من البابا نقولا الرابع والملك الفرنسي فيليب الرابع Phileb IV ، ولكن محاولاته باءت بالإخفاق لأن شمعة الصليبيين في الشرق انطفأت في ذلك الحين..

تسابق ملوك أوروبا بتوقيع معاهدة مع سلطان مصر، ومنهم الفونسو الثالث ملك الأرغون الواقعة شمالي شرق إسبانيا والدوق جيم ملك نابولي ومعنى ذلك أن القسم الأكبر من أوروبا خضع للأمر الواقع، وأصبح السلطان المملوكي من أكبر زعماء العالم في ذلك الوقت. وقد تعرضت مصر في تلك المرحلة للاضطراب بسبب وفاة السلطان المنصور قلاوون في جمادى الآخرة من سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م[٤]. وسرعان ما تولى على الفور ابنه الأشرف خليل عرش مصر الذي تابع نهج والده سياسياً وعسكرياً، وثأر لوالده المنصور قلاوون بطرد الصليبيين من عكا ومن مدن ساحلية أخرى، عندها شعر هيثوم الثاني بخطورة الأمر وأن هناك مصيبة ستحل بمملكته، فحاول استرضاء السلطان المملوكي الأشرف خليل، وذلك بإرسال الأموال الطائلة إليه، والواضح أن تلك السياسة أو هذا الميل لاسترضاء الأشرف خليل من قبل هيثوم قد لاقى قبولاً مؤقتاً على الأقل أرجأ الأشرف غزو أرمينيا إلى ما بعد إتمام الاستيلاء على الممتلكات الصليبية.

مما تقدم يتبين: أن الأرمن قد شغلوا دوراً في دخول الصليبين إلى السهل الكيليكي ولولا الخدمات الجليلة والمساعدة الكبيرة التي قدمها الأرمن للصليبيين لما استطاع هؤلاء تحقيق الانتصار في الحملة الصليبية الأولى، وتأسيس إمارتي الرها وأنطاكية ومن بعدها طرابلس وبيت المقدس.

---

(١) – مرعش: بلدة من الشام، وهي مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم، أحدثها الرشيد لها سوران، فيها مياه وزرع وأشجار كثيرة، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وسبعون ميلاً.

الحموي: معجم البلدان، جـ ٣، ص١٢٥٩، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٤.

(٢) – بهنسا: قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كيسوم، وهي من عمل حلب.

الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص٢٣٤.

(٣) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٧٠، المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٣٦، عاشور: بحوث ودراسات، ص٢٤٤، حافظ: تاريخ الشعب الأرمني، ص١٥٩.

(٤) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٣، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣، عوض: الحروب الصليبية، ص١٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٩٥.

ومن الواضح أن الأرمن لم يكن لديهم سياسة ومواقف ثابتة تجاه أي بلد من البلدان، أو قوة من القوى، فقد تحالفوا مع المغول على الرغم من الإختلاف في الدين معهم، فهؤلاء وثنيون وذلك للحصول على مكاسب سياسية في المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية في قيليقية إلى جانب وقوفهم مع أبناء جلدتهم في الدين وهم الفرنجة إذا اقتضت مصالحهم السياسية، ولكن بمجرد هزيمة تلك القوى كانوا يلجؤون إلى عقد معاهدات وأحلاف مع العرب المسلمين لضمان وجودهم وما أن يجدوا حليفاً جديداً حتى كانوا ينقضون المعاهدات ويغيرون على المناطق الإسلامية إلا أن الواقع السياسي والتاريخي أثبت فعلياً الخطأ الذي ارتكبه ملوك أرمينيا بتحالفهم مع كلا الطرفين المغولي والصليبي، إن تعاون الأرمن مع أعداء العرب المسلمين في مصر والشام جعلهم بين فكي كماشة المسلمين من جهة، والحلف المغولي الصليبي من جهة أخرى، فلا نالوا من المسلمين إلا العقوبة على مواقفهم المعادية لهم، ولا نالوا من الحلف الآخر الدفاع عنهم، فكان وضعهم مرتبكاً جداً وهذا ما دفع السلاطين المماليك فيما بعد إلى وضع الخطط للسيطرة على أراضي سيس عاصمة الأرمن وإزالتها من الخارطة السياسية، وذلك لإخضاع الأرمن بشكل نهائي والقضاء على سياستهم المتذبذبة.

٣- العلاقة مع الأيوبيين والمماليك والمغول.

أ- العلاقة مع الأيوبيين.

لم تتخذ العلاقات بين الناصر صلاح الدين الأيوبي والصليبيين شكلاً سليماً ،فهناك معارك أو مناوشات بين الطرفين لم تكن حاسمة بسبب انشغال السلطان بتوحيد الجبهة الإسلامية، فكان يتجنب أي مواجهة كبرى مع الصليبيين، لذلك عقد هدنة مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، واضطر إلى القيام بعدة غارات تأديبية على كل من ريموند الثالث صاحب طرابلس، ورينالد دي شايتون (أرناط) صاحب الكرك لتأمين طريق التجارة العالمية ، والتي كانت مورداً بالغ الأهمية من موارد المسلمين في مصر والشام، ولكن دخول الموصل في الجبهة العربية الإسلامية جعل صلاح الدين يستعد للمواجهة الكبرى ضد الصليبيين، فبدأت مرحلة حاسمة جديدة[١] تمتد من ٥٨٣-٥٨٩هـ/ ١١٨٧-١١٩٣م، بالنسبة لكل من الطرفين العربي الإسلامي والصليبي فكل نجاح للعرب المسلمين كان يقابله تقهقر وخزي وتراجع للصليبيين لم يشهد له مثيل من قبل.
فعندها بدأت عملية الاسترداد العربي الإسلامي المنظم ، وتقليص الوجود الصليبي على أرض فلسطين فاتحدت الأمة العربية الإسلامية تحت هدف واحد وهو القضاء على الصليبيين

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٠-٧١، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٨، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٥٧.

واجتمعت عوامل سياسية واقتصادية وعسكرية عدة مهدت السبيل أمام هذه المعركة[(١)]، فعلى المستوى السياسي كانت الجبهة الداخلية للمسلمين قد أصبحت قوية ،على عكس المعسكر الصليبي الذي كان الموقف السياسي فيه مفككاً ولم يكن استرداد بيت المقدس هو نهاية المطاف في المواجهة الإسلامية الصليبية، فقد تجمعت فلول الصليبيين في صور المكتظة بالسكان، ولم يسمح بدخولها إلا لمن يقدر على القتال من الصليبيين. في الوقت الذي فيه كان الجيش العربي الإسلامي يتحرك باتجاه طرابلس وأنطاكية، حيث أحرز بعض الانتصارات الصغيرة، مما دفع بوهيموند أمير أنطاكية إلى التوصل لعقد هدنة مع صلاح الدين أعطاها له على مضض. وهكذا لم تبق بأيدي الصليبيين في بلاد الشام سوى صور وأنطاكية وطرابلس في الشمال وبعض القلاع المتناثرة.

في ظل هذه الظروف المضطربة والضغط العسكري المتواصل أرسل البابا جريجوري الثامن رسائل إلى كافة الملوك والأمراء في الغرب يحثهم على إرسال حملة صليبية جديدة لإنقاذ ما تبقى من الأملاك الصليبية[(٢)]، فكانت وجهة الحملة الثالثة هي بلاد الشام والوجهة الأساسية هي عكا، التي تقع على شبه جزيرة صغيرة يحميها البحر من الجنوب والغرب، وكانت مدينة محصنة ذات حامية قوية فمع توافد الجيوش الصليبية القادمة من غرب أوروبا بدأ صلاح الدين ينتبه لخطورة الموقف ويجمع قواته مرة أخرى.

ووصلت إمدادات جديدة إلى الصليبيين من كل أنحاء العالم فضيقوا الحصار حول عكا من جهة البر والبحر، بالرغم من جهود المسلمين لدخول المدينة وبسالة القوات المدافعة عنها، إلا أن الضغط الصليبي، كان أعنف من أن تتحمله حامية المدينة الإسلامية، فبدأت مفاوضات لتسليم المدينة، وتم الاتفاق على :

١. تسليم المدينة بما فيها من أسلحة ومعدات للصليبيين.
٢. تدفع فدية مائتي ألف دينار عن المسلمين في المدينة[(٣)].

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧١–٧٧، ابن الوردي : تتمة المختصر،جـ٢،ص٩٤ ، بشور: أضواء على حروب الفرنج والتركمان، ص١٩٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٦٨، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٥٧–٥٩.

(٢) – ابن أبي الدم (شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم ت٥٨٣هـ/ ١١٨٧م): التاريخ المظفري من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، جـ٢١، ص٣٤٠، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص٧٥–٧٦، المطوي: الحروب الصليبية، ص٩٠، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٩.

(٣) – العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٨١، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٧٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٩–٣٦٠، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٦٦–٦٨.

٣. يطلق سراح ألف وستمائة أسير من الفرسان الصليبيين.

٤. يسترد الصليبيون الصليب المقدس.

٥. يخرج المسلمون سالمين من المدينة.

وقد تم بالفعل تسليم المدينة في ١٧ جمادى سنة ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز ١١٩١م، ولكن الفرنجة حنثوا بوعدهم، وفوجئ المسلمون بجثث الأسرى وقد ذبحهم الصليبيون لكن القيادة الإسلامية والصليبية كانت على درجة من الكفاءة والذكاء في ذلك الوقت ولم تشأ أن تجر الجيوش إلى مزيد من القتال الذي سيؤدي إلى مزيد من الضعف والتقهقر لاسيما أن الأمور آنذاك ازدادت سوءاً بسبب وطأة النفقات الباهظة للحرب من ناحية، وتدهور الموارد البشرية والمالية من ناحية أخرى.

كما ساهمت الأخبار الواردة من الغرب الأوروبي وخصوصاً انكلترا بإنهاء الوضع السياسي والحربي القائم ولم يتمكن ريتشارد من البقاء في الأرض المقدسة بسبب تطلع شقيقه رتشارد يوحنا إلى تولي السلطة والسيطرة، لذلك أقلقت هذه الأخبار ريتشارد وكان عليه إنهاء الحرب والعودة إلى بلاده كما كانت موارد صلاح الدين المالية والبشرية آخذة في التدهور والضعف وتململت قواته من طول مدة الحرب، وكان هذا هو السبب الحقيقي لعقد صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م[١]. وعُدَّ صلح الرملة نهاية للحملة الصليبية الثالثة بالنسبة للصليبيين أما بالنسبة للمسلمين فقد توفي صلاح الدين في الرابعة والخمسين من عمره بعد صراع طويل ضد الصليبيين كان قد أرهقه، وكان من أبرز الشخصيات في عصر الحروب الصليبية والشخصية الأكثر جاذبية، فلم يحدث أن نقض صلاح هدنة أو معاهدة فكانت إنجازاته عظيمة، وتمكن من طرد الفرنجة وحصرهم في شريط ضيق على ساحل بلاد الشام.

أ- علاقة خلفاء صلاح الدين مع الصليبيين:

أحدثت وفاة صلاح الدين فراغاً سياسياً كبيراً في المنطقة، حيث أدت وفاته إلى تقسيم دولته بين أولاده وإخوته وكانت نتائج هذا التقسيم مريرة[٢]، فقد تولى الملك الأفضل نور الدين

---

(١) – العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٣٤٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٩٩،أبوالفداء: المختصر ،جـ٢،ص١٦٩، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢، ص١٠٣ ، العسلي: صلاح الدين الأيوبي، ص٧٥، عاشور (سعيد عبد الفتاح): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٣م، ص٧٠، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٦٦-٦٨

(٢) – الأصفهاني: الفتح القسي ، ص ٦٣٠-٦٣٤ ، ابن الأثير : الكامل،جـ١٠،ص٢٢٥-٢٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧٨-٣٧٩،أبو الفداء : المختصر ، جـ٢،ص١٧٤-١٧٥ عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩١٢، الأمين (حسن): صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، د.ط،

أكبر أبناء صلاح الدين حكم دمشق والساحل وبيت المقدس حتى الداروم جنوباً بالقرب من الحدود المصرية ، أما حكم مصر فكان من نصيب العزيز عثمان وابنه الثالث الملك الظاهر غياث الدين غازي كان من نصيبه حكم حلب والمناطق المتاخمة لها. بينما تولى أخوه سيف الإسلام طغتكين حكم بلاد اليمن واحتفظ أخوه العادل[١] بالكرك والشوبك[٢].

وكانت النتيجة لهذا التفكك السياسي أن أصبحت كل الولايات تقريباً إمارات منفصلة ومستقلة. وهكذا عادت الفوضى والتشرذم السياسي الذي فرض نفسه من جديد على بلاد الشام بسبب المنازعات بين هذه الإمارات المنفصلة المستقلة التي يحكمها خلفاء صلاح الدين من أبنائه وإخوته لكن الوضع السياسي شهد تغيراً كبيراً بعد تسلم إخوة صلاح الدين للحكم وعلى الأخص العادل فقد أعاد لمصر والشام الاستقرار السياسي والاقتصادي ، وتجلت مظاهر هذا الاستقرار من خلال النمو السريع في الإمكانيات المادية لكل من مصر والشام وازدهرت التجارة نتيجة رعاية التجارة والتجار، كما وجه الحكام الأيوبيين اهتمامهم إلى رعاية وتشجيع العلاقات التجارية مع جمهوريات المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوه والبندقية[٣]، فكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة السلمية أن انتهج بعض سلاطين بني أيوب سياسة المهادنة تجاه الكيانات الصليبية على أرض الشام فلم يبادروا بشن الهجوم تجاه الصليبيين طوال المدة التي تولوا فيها حكم الشام ومصر تقريباً[٤].

كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس من الأيوبيين ما تزال تشغل بال الصليبيين، وذلك بعد استرداد صلاح الدين الأيوبي للمدينة المقدسة سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م والذي خلق شعوراً بالدهشة والمرارة لدى الغرب الأوروبي في وقت كانت فيه الفكرة الصليبية ما تزال حية نابضة.

ص١٣١، كردعلي: خطط الشام، جـ١٠، ص٦٩، الغامدي (علي): بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٤٠ ، طقوش :تاريخ سلاجقة الروم ، ص٢١٤

(١) – الملك العادل هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد ابن الأمير أبي الشكر نجم الدين أيوب ولد ببعلبك وأبوه نائب عليها للأتابك عماد الدين زنكي فنشأ في خدمة نور الدين مع أبيه وأخوته وحضر مع أخيه صلاح الدين فتوحاته وكان صلاح الدين يعتمد عليه كثيراً استنابه بمصر مدة ثم أعطاه حلب ثم أخذها منه وأعطاها لولده الظاهر غازي وأعطاه الكرك عوضاً عنها ثم حران.ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٧٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٤٥.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧٨–٣٧٩، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٨٧، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٤–٧٥، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص٨٣–٨٥.

(٣) – المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٠١–١٠٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٦–٩٠.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٦٢–١٦٣، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٦٦، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨١–٩٠.

وحين لمس الصليبيون تفكك عرى الوحدة التي بناها صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته عادت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس تفرض نفسها من جديد على مجرى الأحداث، ولكن عندما وجدوا أن الملك العادل قد متن أواصر الوحدة بين أبناء البيت الأيوبي، أدركوا أن مصر سوف تغدو مركز التموين المادي والروحي كما كانت أيام صلاح الدين. وقد أدى هذا إلى إدراكهم بأن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية لضمان وجودهم في بلا د الشام. وهكذا أخذ البابا أنوسنت الثالث على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر. وكان هذا البابا قد اعتلى العرش البابوي منذ مدة وجيزة فكان تواقاً إلى تأسيس سلطة دينية قوية[١].

كان الموقف في الشرق يزعج البابا أنوسنت الثالثInnocent III (٥٩٥-٦١٣ هـ /١١٩٨-١٢١٦م) كثيراً، فنادى بخروج حملة جديدة، لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين الأيوبي حيث بدأت الاستعدادات لإرسال حملة جديدة، غير أنه برزت مشكلة نقل قوات وعتاد الحملة إلى الشرق العربي، فلم يكن من حل أمام هؤلاء إلا المفاوضات مع إحدى الجمهوريات الإيطالية، وكانت البندقية هي المحطة الأولى لبدء هذه المفاوضات، حيث كانت هذه المدينة تملك أسطولاً بحرياً من أقوى أساطيل ذلك الزمان، لكي تقوم سفنها بنقل الجنود الصليبيين. وأخيراً بدأت أحداث الحملة الصليبية الرابعة[٢].

كانت أحداث هذه الحملة التي قامت سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م مزيجاً ما بين المأساة والملهاة وحققت نجاحاً على حساب بيزنطة لا ضد العالم العربي الإسلامي، فقد كان الهدف المباشر لها هو مصر، ولكنها انحرفت نحو القسطنطينية بدلاً من القاهرة بسبب مواصلة بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على القسطنطينية السير إلى بلاد الشام وبالتعاون مع القوات الصليبية المحلية شنوا هجوماً ضئيل الأثر على ثغر رشيد، وسرعان ما سعى ملك عكا عموري الثاني إلى المطالبة بعقد هدنة مع السلطان العادل في سنة ٦٠١هـ/ أيلول ١٢٠٤م لمدة ست سنوات[٣]. كان جنوح الطرفين للسلم واضحاً حيث أن عموري الثاني لم يكن يأمل في قدوم نجدة أو معونة

---

(١) – الأصفهاني: الفتح القسي، ص٦٣٠-٦٣٤، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٢٥-٢٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٢٣، ١٣٦، ٢٥٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨٤-٨٧، علي (وفاء): دراسات في تاريخ الدولة الأيوبية، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ط، ص٩٠.

(٢) – فيلهاردين: الاستيلاء على القسطنطينية، من خلال الموسوعة الشامية، جـ١٠، ص٩٠-٩١، فشر (هـ. ا. ل): تاريخ أوروبا العصور الوسطى، نقله إلى العربية: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، دار المعارف، ١٩٦٩م، ص٢٤١-٢٤٣، باركر : الحروب الصليبية، ص٩٤-٩٩.

(٣) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٦٠-١٦١، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٠٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨٣-٨٦.

حربية من غرب أوروبا. وكان السلطان العادل الأيوبي يفضل عدم القتال لأن حالة السلم تحقق ازدهار التجارة والعلاقات الاقتصادية الرابحة(١).

وفي ذلك الوقت. ظهرت على مسرح الأحداث شخصية جديدة. هي الملكة ماريا ابنة عموري الثاني التي خلفت أباها على عرش مملكة عكا الصليبية. وكانت هذه الملكة الشابة قد تزوجت من رجل في الستين من العمر هو ((حنا برين)) الذي كان بطل الحملة الصليبية الخامسة، وكانت أول أعمال الملك حنا هو تجديد الهدنة مع السلطان العادل الأيوبي لمدة خمس سنوات جديدة تبدأ من ٦٠٩هـ/ تموز ١٢١٢م، ولكن هذا الملك استغل سريان الهدنة، وأرسل إلى غرب أوروبا يطالب بإعداد حملة صليبية جديدة بحيث تصل إلى فلسطين بعد انتهاء مدة الهدنة، ولكن ما حصل هو انقضاء مدة السنوات الخمس دون أن يحدث ما يعكر صفو الهدنة بين السلطان العادل الأيوبي والصليبيين(٢)، لكن مشاريع الصليبيين في المنطقة لم تنقطع وحلمهم لم يخبو فقد توافدت بعض قوات الحملة الصليبية في الوصول إلى عكا في سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وعندما تجمعت القوات الصليبية في عكا بأعداد ضخمة أوصى الملك حنا برين بشن هجوم سريع أملاً في مباغتة وشل حركة الجيش الأيوبي الذي كان قليل العدد، وهذا ما أدى إلى تقهقره أمام الصليبيين عندما تقدموا في بيسان وقد اضطر هذا الهجوم السلطان العادل إلى إرسال ابنه المعظم عيسى لحماية مدينة بيت المقدس، على حين بقي هو بجيشه في عجلون(٣) استعداداً لصد أي هجوم صليبي على دمشق(٤).

وبدأ حنا برين يتشاور مع رفاقه وبقية القادة فيما يجب عمله مستقبلاً ،°في الوقت ذاته كان مجمع اللاتيران الكنسي قد أوصى بالاستيلاء على مصر. وكان من رأي الصليبيين إنه إذا تم الاستيلاء على مصر. فإنهم بذلك خسروا أغنى أقاليمهم فيصبح من الصعب عليهم بناء أسطول

---

(١) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٧٢-١٧٤، سعداوي (نظير حسان): الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٦٧-٦٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨٤.

(٢) – المقريزي: السلوك، جـ١، ص١٦٤، سعداوي: الحرب والسلام، ص٨٤.

(٣) –عجلون: حصن منيع يقع شرقي بيسان و هو حصن محدث بناه عز الدين أسامة أكبر أمراء السلطان صلاح الدين –أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٤٤

(٤) – ابن الجوزي (سبط بن الجوزي ت٦٥٤هـ/١٢٩٧ م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الشروق،ط١,١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،جـ١،ص٦١٩ ،ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسين محمد ربيع، دار الكتب، ١٩٧٢م، جـ٤، ص١٥، سعداوي: الحروب والسلام، ص٧١-٧٤، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ،جـ٣،ص٢٦٤-٢٦٥ ، كردعلي: خطط الشام ،جـ١، ص٧٩-٨٠ ، المطوي: الحروب الصليبية ،ص ١٠٦،برجاوي : الحروب الصليبية ، ص ٤٨٠ .

إسلامي قوي في شرق البحر المتوسط وبناءً على ذلك قرر الصليبيون أن يكون هدفهم الأول في الحملة الخامسة، بعد وصول التعزيزات الجديدة هو ميناء دمياط، مفتاح الطريق للسيطرة على وادي النيل[١].

وحين سمع السلطان العادل بتلك الأخبار وهو في دمشق أخذته المفاجأة وأسرع بتجهيز قواته في دمشق للدفاع عن مصر ضد الهجوم الصليبي... وتمكن الصليبيون من الوصول إلى أسوار دمياط[٢].

وفي تلك الأثناء توفي السلطان العادل بدمشق في سنة ٦١٥هـ/ آب ١٢١٨م وخلفه في حكم مصر ابنه السلطان الكامل محمد، وفي حكم الشام ابنه المعظم عيسى وقد ورث السلطان الكامل معظم صفات أبيه ووسائله في السياسة والحكم[٣].
وقد بذل كل ما بوسعه لإعاقة تقدم القوات الصليبية باتجاه دمياط[٤]. وفي تلك الأثناء وصلت بعض القوات الفرنسية والإنجليزية وانضمت إلى جيوش الصليبيين[٥]، فاضطر السلطان الكامل لترك معسكره، وعاد إلى القاهرة مسرعاً ليواجه مؤامرة ضده وهكذا احكم الصليبيون الحصار حول مدينة دمياط[٦].

وكانت قد حدثت مؤامرة داخلية ضد الكامل استطاع القضاء عليها، فسار بعدها إلى فارسكور ولحق به جيش كبير أرسله أخوه المعظم عيسى من الشام لنجدته، ولكنه لم يكن في وضع يسمح له بتحقيق انتصار كبير على الصليبيين. وثبت الموقف على ما هو عليه بسبب عدم قدرة المسلمين والصليبيين على حسم الصراع مما جعل الموقف يتجمد على ما كان عليه

---

(١) –ابن واصل–مفرج الكروب، جـ٤، ص١٥، سعداوي: الحروب والسلام، ص٧١–٧٤، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ،جـ٣،ص٢٦٤–٢٦٥ ، المطوي: الحروب الصليبية ،ص ١٠٦،برجاوي : الحروب الصليبية ، ص ٤٨٠ .

(٢) –ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص ٣٧٥، ويندوفر: ورود التاريخ،جـ٣٩،ص ٧٥٢، ابن سباط (حمزة ت ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م): صدق الأخبار ، تاريخ ابن سبط، حققه: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دون طبعة،جـ١، ص ٦٠، رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٦٩–٢٧٠، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٧١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨٧–٨٨.

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص١٤٨، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٦٧٢، سعداوي: الحروب والسلام، ص٧٦–٧٨.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٣٠، المقريزي: السلوك، جـ ١.، ق١، ص١٨٩ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٢٢٢–٢٢٧ ، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٨٧–٨٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٢.

(٥) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٣٢–٣٣، ٩٣، سعداوي: الحرب والسلام، ص٧٤–٧٥.

(٦) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٩٥–١٩٧.

مدة من الزمن[١] على الرغم من أن البحرية المصرية قامت بدور حاسم في المعركة ضد الصليبيين عندما استولت على عدد من السفن الصليبية الكبيرة المحملة بالمؤن وأدوات القتال، وأسر رجالها غالبية البحارة الصليبيين[٢]، ثم انتاب اليأس السلطان الكامل وقرر أن يفاوض الصليبيين من أجل الجلاء عن دمياط، حيث عرض جلاء القوات الصليبية عن الأرض المصرية مقابل حصول الصليبيين على الصليب الأكبر (صليب الصلبوت)، الذي استولى عليه صلاح الدين أثناء استيلائه على القدس، ومعظم المناطق التي حررها صلاح الدين الأيوبي من الفرنج في فلسطين مثل عسقلان، طبرية، اللاذقية، جبلة، وجميع ما فتحه الملك الناصر صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك[٣].

وعلى الرغم من التخاذل الواضح في العرض الذي قدمه السلطان الكامل إلا أنه أصيب بخيبة أمل[٤] بسبب رفض الصليبيين لمقترحاته، فسقطت مدينة دمياط بأيديهم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م لكل الأسباب المذكورة سابقاً يضاف إليها انتشار الأوبئة وطول مدة الحصار، وكان لسقوط دمياط بعض النتائج الإيجابية إذ خفف هذا السقوط من حدة التوتر في العلاقات بين حكام العالم العربي الإسلامي وبسبب التطورات العسكرية المتسارعة اضطر السلطان الكامل لنقل معسكره من فارسكور إلى منطقة جديدة قبالة طلخا في المنصورة[٥].

وعلى الجانب الآخر ظل الصليبيون في حالة جمود وعدم الحركة لمدة ثمانية عشر شهراً، بسبب الخلافات والمنازعات التي نشبت بين قادتهم.

لقد شكلت الحملة الصليبية الخامسة منعطفاً جديداً في تاريخ الفرنجة في الشرق وأهم ما يميزها أن هدفها كان مصر. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يقصد الفرنج فيها غزو مصر، وحين زال الخطر الصليبي عاد النزاع والتنافس في العلاقات بين الملوك من أبناء البيت الأيوبي[٦].

---

(١) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص١٧–٣٢، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٩٧– ٢٠١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٣٠–٢٣١.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص١٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٩١–٩٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٩٥– ٢٠١.

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٣٢٩–٣٦١، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٢٩، المقريزي: السلوك. جـ١، ص٢٠٦–٢٠٧.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٩٥، سعداوي: الحرب والسلام، ص٧٣–٧٤.

(٥) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص١٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٩١–٩٥، المقريزي: السلوك، السلوك، جـ١، ق١، ص١٩٥–٢٠١.

(٦) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٩٠–٩٥.

لم تكن هذه المتاعب وحدها هي التي أزعجت الكامل الأيوبي. فوصول أنباء قدوم حملة صليبية جديدة تريد أن تنتقم للمهانة التي جرت على الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة زاد من غضبه، وكانت هذه هي الحملة السادسة بقيادة الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الذي خضع لعقوبة الحرمان البابوي[١]، ولم تشهد هذه الحملة قتالاً والتزاماً مباشراً من الجانبين الإسلامي والصليبي، فحققت هدفاً صليبياً كبيراً باستعادة بيت المقدس. في تلك الأثناء بدأت المراسلات الودية بين الإمبراطور الألماني فردريك، والسلطان الكامل وانتظمت السفارات بين الجانبين منذ سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م بغية الوصول إلى اتفاق ودي، ثم جاء الإمبراطور إلى الشرق سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م بعد أن حدثت عدة تقلبات على الواقع السياسي، وكان برفقته أسطول صغير وجيش بري من ستمئة فارس فقط.

لم يحاول الصليبيون أبداً الاستجابة لسياسة المهادنة التي سار عليها السلطان الكامل الأيوبي، هذا لم يكن ممكناً في ضوء فهمهم لحقائق الصراع الإسلامي/ الصليبي الذي كان لا بد أن ينتهي بالقضاء على أحد الطرفين. ولكن الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا، أبدى استعداداً واضحاً للإفادة من هذه الروح السلمية البادية في موقف السلطان[٢]، وتم عقد هدنة بين الكامل محمد وفردريك الثاني وقد عرفت هذه الهدنة أو الاتفاقية باسم اتفاقية يافا، وكان من بنودها:

١. يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.
٢. تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحرية في ممارسة شعائرهم هناك دون إعاقة.
٣. للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديارهم.
٤. يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة بشرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.
٥. يمتلك المسلمون محكمتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.

---

(١) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٨٢–٤٨٣، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٤١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٢٩، باركر: الحروب الصليبية، ص١١١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٤–٢٨٥، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٥٣، معلوف: الحروب الصليبية، ص٢٨٣،رنسيمان :تاريخ الحروب الصليبية،جـ٣،ص٣١٨ .

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٣٤، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٣٢، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٥٢، شبارو :السلاطين في المشرق،ص١٨٤ .

٦. وعد الإمبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان وأن لا يساعد أحداً ضده.
٧. سوف يمنع الإمبراطور أي أحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان ويعيق أي إنسان قد يقترح مثل ذلك.
٨. تعهد الإمبراطور شخصياً بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للهدنة.
٩. تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس قلاع: صافيتا والمرقب والكرك (قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاستبارية) كما هي، حسبما كانت (أي هي غير مشمولة بالمعاهدة) وينبغي على الإمبراطور أن يمنع أي من رعاياه من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان الكامل [١] .
١٠. ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الإمبراطور.
١١. ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الإمبراطور.
١٢. ينبغي إعادة تبنين مع أراضيها وقراها.
١٣. ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.
١٤. ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.
١٥. يسمح بإعادة بناء أسوار القدس ويافا وقيسارية والقرين من قبل المسيحيين.
١٦. لا يسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.
١٧. سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حملة دمياط.

و كان أجل الهدنة لمدة عشر سنوات شريطة أن يمنع الإمبراطور نزول أية حملة صليبية جديدة على شواطئ مصر والشام[٢].

---

(١)– ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٤٨١، أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٤٠،ابن الوردي : تتمة المختصر ،ج٢،ص١٤٧ ، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١ ،ص٣٢٠،الحنبلي (أحمد ابراهيم ت٨٧٦ هـ/١٤٧١ م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد ، دون طبعة ،ص ٣١١ ، برجاوي : الحروب الصليبية ،ص٥٠٩ ، معلوف: الحروب الصليبية ص ٢٨٦ ، ب باركر: الحروب الصليبية، ص١١٣،المطوي : الحروب الصليبية، ص ١١٥–١١٦ ، شبارو : السلاطين في المشرق ، ص ١١٤.

(٢) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٢٥–٢٢٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٧١–٢٧٢، باركر: الحروب الصليبية، ص١١٤–١١٥، عاشور: بحوث ودراسات، ص١١١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١٠٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٦–٢٨٧، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٥٠٦–٥٠٨.

وهكذا حقق الإمبراطور ما لم تستطع الحملات الكبرى تحقيقه. وفي كنيسة القيامة توج فردريك الثاني نفسه ملكاً على مملكة بيت المقدس وعلى الرغم من تأكيد أغلب المؤرخين على أن الصداقة بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك كانت السبب في الوصول إلى هذه الاتفاقية إلا أن في ذلك نوعاً من المبالغة والابتعاد عن الحقيقة.

والقول بأن الصداقة كانت السبب فيما تم الاتفاق عليه فهو كلام غير واقعي، ويحمل كثيراً من المغالطة والانجرار وراء العواطف التي لا توصل إلى الحقيقة.

وعلى وقع تلك المكتسبات من الاتفاقية تمكنت الحملة الصليبية السادسة ، رغم طابعها السلمي، من النجاح وهذا يعادل ما منيت به الحملة الصليبية الخامسة من إخفاق رغم طابعها العسكري والعدواني. أما العالم الإسلامي، فقد رأى في هذه الهدنة أو الاتفاقية التي عقدها السلطان الكامل كارثة حقيقية ولم يستطع أحد في العالم الإسلامي أن يوافق على ما ادعاه السلطان من أن الهدنة التي كان ثمنها بيت المقدس كانت خدمة للمسلمين(١).

وقد حققت هذه الهدنة السلام الذي استمر لمدة عشر سنوات ،تمكن الصليبيون خلالها من تدعيم مركزهم وتوطيد وجودهم بينما لقيت هذه الاتفاقية المعارضة من الجانب الإسلامي وخصوصاً الناصر داود بن المعظم عيسى الذي استطاع أن يستقطب بعض الناس والحكام إلى جانبه لكن الأمور لم تجر بما يشتهي بعض حكام المسلمين وهؤلاء الفرنجة، إذ توفي السلطان الكامل موقع الاتفاقية، وتوفي أخوه المعظم عيسى صاحب دمشق، وبالتالي تغيرت موازين القوى السياسية وانقلبت الأمور رأساً على عقب، إذ حصل صراع على الحكم بين أفراد البيت الأيوبي انتهى بتولي الصالح نجم الدين أيوب حكم دمشق(٢)، بينما تقاسم ما بقي من أفراد البيت الأيوبي بقية المناطق في مصر والشام.

وفي تلك الأثناء كانت أوروبا تستعد لحملة صليبية جديدة عندما تنتهي الهدنة التي عقدها الكامل مع فردريك الثاني، وبدأ البابا يطلب من ملوك إنجلترا وفرنسا وألمانيا إعداد حملة صليبية جديدة هدفها الاستيلاء على مصر، فوصلت هذه القوات الصليبية إلى عكا في وقت كان النزاع فيه محتدماً بين أبناء البيت الأيوبي. وآثر فريق من الصليبيين أن يبدأ الهجوم على مصر، على

---

(١) – دي نوفار: حروب فردريك من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص٤٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤٤-٢٤٥، مصطفى (شاكر): من ذكريات الغزو الفرنجي،دمشق ، دار طلاس ، ط١٩٩٦،١ م ص٩٨-٩٩، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص١٠٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣١.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤٦-٢٤٧، باركر: الحروب الصليبية، ص١١٨-١١٩، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١١٥، شبارو(عصام): السلاطين في المشرق العربي معالمهم دورهم السياسي والحضاري (السلاجقة – الأيوبيون)، ص١٨٣-١٨٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٥-٢٨٦.

حين رأى فريق أخر أن دمشق هي مصدر الخطر المباشر. ويبدو أن شدة النزاع بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام جعلت الصليبيين يبالغون في تفاؤلهم بشن هجوم على الجانبين[١].
ففي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وصلت إلى عكا حملة إنجليزية سلمية بقيادة ريتشارد كورنول أخ الملك الإنجليزي هنري الثالث، وكانت أخته زوجة للإمبراطور فردريك الثاني الذي أرسل ريتشارد لإصلاح الحال بين الأمراء الصليبيين المتنازعين في عكا من ناحية، وإعادة ترتيب العلاقات مع الأيوبيين في مصر والشام من ناحية ثانية. أما غاية ريتشارد من هذه الحملة كانت عقد هدنة جديدة مع الأيوبيين وبالفعل تم تبادل السفراء والمبعوثين بين الصالح نجم الدين أيوب وريتشارد كورنول، وجرت المفاوضات، ونجحت بين الجانبين ،فحققت للصليبيين أكثر مما كانوا يحلمون به[٢].

وعاد كورونول إلى إنجلترا وبرحيله حل الانقسام من جديد بين الحكام في الكيان الصليبي، وانقسموا إلى فريقين: أحدهما يحبذ مواصلة الحرب والعدوان ضد المسلمين، والقسم الثاني يجنح إلى السلم والهدنة ولما كان فرسان الداوية يميلون إلى الحرب والعدوان فقد بدؤوا يغيرون على المناطق التي يحكمها المسلمون، وبدأت الحرب تفرض نفسها من جديد على العلاقات بين الجانبين في الوقت الذي كان فيه النزاع والتخاصم يمزق الجبهة الإسلامية[٣]، ووصلت أنباء للصالح نجم الدين أيوب عندما كان مرضه قد تغلب عليه عن الحشود الصليبية التي تتجمع في قبرص من أجل الاستيلاء على مصر، فاتخذ عدداً من الإجراءات ونظم الدفاع عن دمياط ومصر ضد الهجوم الصليبي المرتقب، حيث عقد صلحاً مع الناصر يوسف ملك حلب توسط فيه الخليفة العباسي في بغداد آنذاك عندها أرسل الإمبراطور فردريك الثاني واحداً من رجاله متخفياً في زي تاجر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في الشام يخبره بأنباء استعدادات الغرب الأوروبي المعاديين له في بلاد الشام من جهة، وترميم حصون البلاد الشامية والمصرية تحسباً للهجوم الصليبي المنتظر من جهة أخرى، وظل السلطان رغم مرضه يواصل استعداداته للقاء الحملة الصليبية.

كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي بالتنسيق بين البابا أنوسنت الرابع والملك الفرنسي لويس التاسعLouis IX. ولم يكن هدف هذه الحملة استرجاع بيت المقدس فقط وإنما

---

(١) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢١٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢١١، باركر: الحروب الصليبية، ص١٢٠–١٢١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١١٥–١١٦، محمود: الغزو الصليبي، =ص١٩٣، شبارو(عصام): تاريخ المشرق العربي الاسلامي من دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين ، القاهرة ، دار الفكر ، ط١، ١٩٩٩ م، ص١٨٠، قاسم: ماهية الحروب الصليبية.

(٢) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢١٩، باركر: الحروب الصليبية، ص١٢٠–١٢١.

(٣) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١١٥–١١٦.

تكوين حلف وثني/ مسيحي بين المغول و الصليبين لهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام[١]، وقد اعتقد البابا أنوسنت الرابع أن الحملة التي يقودها لويس قادرة على مهاجمة سواحل بلاد الشام على حين تقوم القوات بالهجوم على المنطقة من الناحية الشرقية، وبذلك تخلو المنطقة من الإسلام والمسيحيين، ويصفو الجو للبابوية وأحلامها.

إن الحملة الصليبية السابعة تختلف عن غيرها من الحملات الصليبية من حيث تركيبتها، فقد كان قائدها وغالبية جنودها من الفرنسيين، والحقيقة إن الزعماء الأوروبيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لم يتحمسوا لشن حروب جديدة ضد المسلمين بسبب مشاكلهم الداخلية العديدة. وكانت الفكرة السائدة في أوروبا منذ منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أنه ما دامت مصر محتفظة بقوتها فإن أي مشروع صليبي لا بد وأن ينتهي بالإخفاق.

ففي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبي من ميناء مرسيليا إلى جزيرة قبرص التي كانت خاضعة آنذاك لحكم آل لوزينيان، وبعد عام من هذه الأحداث أقلعت السفن تقل جنود الحملة الصليبية السابعة وقائدهم لويس التاسع متجهة إلى مصر. أما عددهم فلم يتجاوز الخمسين ومع ذلك نزلوا الشواطئ المصرية قبالة دمياط بنجاح في ٢٠ صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٤ حزيران ١٢٤٩م، فانسحبت الحامية المصرية بقيادة الأمير فخر الدين إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح، وانسحب المدافعون عن المدينة، وفر الجنود تتبعهم جموع أهل دمياط، واستشاط السلطان الصالح نجم الدين غضباً لما وقع[٢]، وبعدها توفي الصالح أيوب وتولّت القيادة زوجته شجر الدّر وانتهت الحملة بتوقيع هدنة، وهكذا يمكن الملاحظة بأن الحملة الصليبية السابعة كانت هي الحدث التاريخي المهم الذي مهد الطريق لسقوط دولة الأيوبيين، وقيام دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز، فقد تخلى الأيوبيون عن دورهم التاريخي في التصدي للصليبيين وآثروا الالتزام بسياسة المهادنة حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية.

---

(١) – سعداوي: الحرب والسلام، ص١١٥-١١٦، باركر: الحروب الصليبية، ص١٢٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٤٥، طقوش: تاريخ الأيوبيين، ص٣٨٠، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٥٤٧.

(٢) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٥٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٧٨-١٧٩، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٣٣٥، باركر: الحروب الصليبية، ص١٢١-١٢٢، سعداوي: الحرب والسلام، ص١١٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١٢٧، طقوش (محمد سهيل): تاريخ الأيوبيون، ص٣٧٩-٣٨٠، أبو عليان (عزمي عبد محمد): مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين من عهد المماليك، الأردن، دار النفائس، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٢، محمود: الغزو الصليبي، ص١٩٣، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٦٣، يوسف (جوزيف): العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١م، ص١٤٩-١٥٠.

مما تقدم **يمكن القول:** إن علاقة الأيوبيين مع الصليبيين كانت متأرجحة ما بين الحرب والسلم، والعداء السافر، والتحالف، والشيء الثابت في هذه العلاقة هو سعي كل طرف لتأمين مصالحه بأي طريقة كانت، فقد كانت العلاقات مع فرنج الساحل الشامي تحتل الصدارة في المرحلة الأولى من الحكم الأيوبي واتسمت بالعدائية بشكل عام، ويغلب عليها طابع الصراع العسكري.

أما في المرحلة الثانية فقد نشطت العلاقات السياسية بين الطرفين، حتى أنها غدت في بعض الأحيان- علاقات سلمية في بعضها الآخر ودية تصل إلى درجة التحالف والقتال المشترك.

وبالنتيجة يتبين أن معظم العلاقات السياسية بين المسلمين وأوروبا في العصر الأيوبي تمحورت حول قضية الصراع على مدينة القدس، وتجلى تفاعل هذه العلاقات بين طرفين الأول: الحملات الفرنجية العسكرية التي وجهتها أوروبا إلى بلاد الشام ومصر، والثاني: الأيوبيون الذين حملوا راية التصدي للفرنج نيابة عن كل المسلمين، إضافة إلى ذلك كانت التحركات السياسية لم تنقطع، والسفارات بين الجانبين لم تتوقف والمعاهدات كانت كثيرة، وقيام الحرب بينهما لم يمنع من مراسلات المجاملة، والتعزية، أو التهنئة، كما لم يمنع تبادلاً تجارياً واسعاً بينهما(١).

ب- العلاقة مع المماليك:

إن دولة سلاطين المماليك جاءت استمراراً لدولة بني أيوب، باعتبارها إفرازاً سياسياً عسكرياً للواقع التاريخي الذي كان يعيشه العالم العربي الإسلامي آنذاك، فقد كان العالم الإسلامي يتعرض لضربات موجعة حيث كانت الخيول المغولية تقترب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، أما في فلسطين فقد كانت بقايا الفرنج ما تزال قائمة تهدد المنطقة العربية، كما كانت شراذم الحملة الصليبية السابقة على أرض الدلتا تجسد إخفاق مشروعات الغرب الكاثوليكي ضد العرب والمسلمين.

كانت تلك الظروف تستوجب قيام دولة موحدة، على غرار دولة صلاح الدين التي تقود الأمة العربية الإسلامية في مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والغرب ولم يكن هناك بين الأيوبيين الذين انغمسوا في منازعاتهم ومنافساتهم، من يستطيع أن يقوم بهذا الدور التاريخي. وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ضد مصر سنة

---

(١) – جوانفيل: القديس لويس، ص١١٥-١٢٠، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٦، المقريزي: السلوك،جـ١، ق١، ص٣٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٧١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص١٣٠-١٣٦، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٥٤٧.

٦٤٧هـ/١٢٤٩[١]م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك العسكرية، إذ أن المماليك، بقيادة بيبرس أنزلوا ضربة قاصمة بالحملة وأسروا الملك وكبار مساعديه في معركة واحدة. وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية يستطيع كبح جماحهم ويخضعهم لقيادته، قرروا حل المشكلة المتعلقة بالعرش الأيوبي على طريقتهم. وهكذا ظهر في الأفق السياسي مرة أخرى المبدأ الذي قال به العادل الأيوبي ذات مرة ((الحكم لمن غلب)).

كانت الخطوة الأولى خطوة انتقالية، إذ اختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأميرة شجر الدر[٢] لتولي عرش السلطنة[٣].

ومن جديد أثبت الأيوبيون الأواخر أنهم تخلوا عن الدور التاريخي الذي كان سبباً في ظهور دولتهم فقد حاول الناصر يوسف الأيوبي التحالف مع لويس التاسع، الذي كان ما يزال مقيماً بالشام، ضد سلطنة المماليك الوليدة، ومرة أخرى كان ثمن التحالف المطلوب مع الملك الصليبي هو مدينة بيت المقدس. ولكن هذه المحاولة باءت بالإخفاق.

لقد كان المسوغ لقيام دولة سلاطين المماليك واستمرارها هو قيامها بدور القوة المدافعة عن دار الإسلام، لقد ولدت هذه الدولة من الصراع ضد الصليبيين الذين كانوا ما يزالون يحتلون بعض أجزاء من الأرض العربية في بلاد الشام. وعلى الرغم من كافة الجهود المضنية التي بذلها السلطان الظاهر بيبرس على الصعيد السياسي والديني والاجتماعي لتوطيد سلطته في الداخل فإن بقاء هذه الدولة الذي كان يجلس على عرشها ظل رهيناً بأدائها للدور التاريخي المنوط بها، أي القضاء على الأخطار الخارجية وحماية العالم الإسلامي وإذا كان الخطر المغولي هو الأعلى صوتاً والأكثر ضجيجاً في صفحات المدونات التاريخية، فقد كان الخطر الصليبي هو الأعمق أثراً والأكثر خطورة.

---

(١)– ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٦،ص ٣٣٠–٣٣٩، طقوش:تاريخ المماليك،ص١١٩، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٦٠٨/ قاسم : عصر سلاطين المماليك ،ص ١١

(٢) – شجر الدر هي الملكة شجر الدر بنت عبد الله، جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل كانت حظية عنده إلى الغاية، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك ومعها ولدها خليل أيضاً، وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمحن ثم قدمت معه مصر لما تسلطها، وإليها يعود غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد وفاته كانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦١.

(٣) – أبو الفداء : المختصر ،جـ٣ ،ص ١٨٠ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٣٥–٣٣٧، طقوش: تاريخ المماليك، ص١١٩، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٦٥–٢٦٧، قاسم : عصر سلاطين المماليك ،ص١٧ .

وقد تميز بيبرس بحذاقة وبعد نظر سياسي ويتبين ذلك من خلال دراسة سياسة المماليك في عهد بيبرس:

• سياسة المماليك في عهد بيبرس:

استولى الظاهر بيبرس على الحكم في مصر[١] بعد قتل قطز، وحدد إستراتيجية جديدة لتلك الدولة في سياستها الخارجية، والتي تتلخص في مواصلة الجهاد، ولإفشال خطط مغول فارس من ناحية ومواصلة الضغط على القوى الصليبية في بلاد الشام، ومحاولة تصفيتهم من ناحية أخرى.

أعقب إخفاق الحملة الفرنجية السابعة، وطرد لويس التاسع من مصر، فترة هدوء ومسالمة بين الفرنجة والدولة المملوكية الناشئة، فرضتها واقعية الظروف المحيطة بالطرفين فبالنسبة للمماليك كانت دولتهم في مرحلة التأسيس وتوطيد أركان الحكم إضافة لانشغالها بصد الاجتياح المغولي عن مصر، مما منعها من الالتفات نحو الفرنجة، أما بالنسبة للفرنجة فقد شهدت الإمارات الفرنجية، بدءاً من النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حالة من الضعف مما منعها من الالتفات نحو المسلمين. ولعل أهم أسباب هذا الضعف تعود إلى:

- انعدام الروح الدينية بين الأمراء الفرنجة، وكثرة المنازعات فيما بينهم.
- إحجام الأوربيين عن إرسال الإمدادات إلى الإمارات الفرنجية في الشرق.
- عدم وجود سلطة فرنجية مركزية تربط الإمارات بعضها ببعض.

غير أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير تماماً بوصول الظاهر بيبرس إلى الحكم، إذا اتسمت سياسة الدولة المملوكية تجاه الفرنجة في عهده بالعدائية والعنف والشدة، فقد أدرك بيبرس أنه من غير الممكن الاستمرار بسياسة المهادنة والمسالمة تجاه الفرنجة، وإلا فقدت دولته مسوغ وجودها. فهم العدو الأشد خطراً على العالم العربي والإسلامي وبخاصة بعد تعاونهم السياسي والعسكري مع مغول فارس ضد الدولة المملوكية[٢].

وبناءً على ذلك، قرر بيبرس متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وحلفائه في طرد الفرنجة، وإجلائهم عن بلاد الشام. ولم يكن ذلك بالأمر السهل فقد كان عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الفرنجية وهي إمارة أنطاكية، وطرابلس، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس لاسيما أن بيبرس أدرك مدى اختلاف الأسلوب العسكري في مواجهة الفرنجة عما كان عليه مع المغول

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٨٥، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٦٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٧–٥٦٨، قاسم عصر سلاطين المماليك ، ص٨٤.

(٢) – طقوش: تاريخ المماليك، ص١١٩، العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص٢٠٧–٢٠٨.

الذين تم قتالهم وجهاً لوجه، إذ تحصن الفرنجة داخل القلاع والحصون المنيعة، وحتى يحقق بيبرس هدفه اتبع خطة إستراتيجية سياسية عسكرية قائمة على:

١. ضرب الإمارات الفرنجية الواحدة تلو الأخرى. إذ لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (٦٥٩-٦٦٩هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٠م)، دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة كان الانتصار حليفها دائماً.

٢. التقرب من بعض الدول المحيطة بدولته وعقد التحالفات السياسية معها ليكون بمأمن منها، عندما يواجه الفرنجة، لذا عقد تحالفاً سياسياً مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية، كما عقد معاهدة مع ميخائيل باليولوجس إمبراطور الدولة البيزنطية وكذلك مع منفرد ملك صقلية(١).

٣. عقد المهادنات مع الفرنجة على أساس عدم مهادنتهم جميعاً في وقت واحد، بهدف ضمان نجاح عملياته العسكرية ضد البعض الآخر. وقد بدأ بيبرس بمناوأة الفرنجة منذ ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، فقام بغزوات صغيرة على إمارة أنطاكية وجهات عكا، وانتهت أعماله العسكرية بتضييق الحصار عليهم واستخلاص البلاد منهم، حتى إنه لم يبق في قبضتهم أكثر من بضعة مدن ساحلية هي عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس، بالإضافة إلى مدينة اللاذقية المعزولة، وقلعتي عثليث والمرقب ولم يعش بيبرس ليشهد سقوطهم التام، غير أنه جعل ذلك أمراً لا مفر منه بسبب نجاح عملياته العسكرية ومناوراته السياسية التي استمرت طيلة حكمه الذي دام سبع عشرة سنة. بداية قرر بيبرس معاقبة أمير أنطاكية وطرابلس بوهيموند السادس بسبب تحالفه مع المغول ضد المسلمين فأرسل إليه قوة عسكرية سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي نفذت غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية، ثم تجددت الغارات في العام التالي، وتعرض ميناء السويدية للتهديد، كما جرى تهديد أنطاكية نفسها حين حاصر الجيش المملوكي المدينة التي كادت تسقط لولا النجدة المغولية- الأرمينية المشتركة التي قادها هيثوم، فاضطر الجيش المملوكي إلى فك الحصار والعودة بصحبة أكثر من مائتين وخمسين أسيراً من الفرنجة(٢)، هذه الإستراتيجية أجبرت حكام الفرنجة، على طلب الهدنة

---

(١) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣١١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٦٤-٢٦٥، أبو عليان: مسيرة الجهاد، ص٢٨، سرور (محمد جمال الدين): دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، دار إحياء الفكر العربي، د.ط، ١٩٨٥م، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٦٠٨، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٣٣، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٢.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٣، أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٣٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٦٧-٥٦٨، أبو عليان: مسيرة الجهاد، ص٣، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٦٠٨، رنسيمان:

مع الدولة المملوكية، وبالفعل، عندما كان بيبرس في بلاد الشام يقوم كعادته بجولة تفقدية على أملاكه وقواته العسكرية وصل إليه كل من حاكم يافا سيراجون دبلين، وحاكم بيروت يوحنا الثاني دبلين وذلك سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، في محاولة منهما لعقد الهدنة مع بيبرس والتفاوض بشأن قضية أسرى الفرنجة في أيدي المسلمين خلال السنوات العشر الأخيرة السابقة.

أبدى بيبرس موافقته على انعقاد الهدنة مع الفرنجة على الرغم من قوة موقفه سياسياً وعسكرياً من جانب وضعف الإمارات الفرنجية من جانب آخر، ولعل السبب في ذلك يعود إلى غلاء الأسعار في بلاد الشام تلك السنة، هذا في الوقت الذي كانت فيه معاقل الفرنجة مصدراً مهماً لجلب كثير من السلع.

وقد تم انعقاد الصلح سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م على أساس:

١. العودة إلى الوضع الذي كان قائماً في أواخر أيام الملك الناصر صلاح الدين أي منذ انعقاد صلح الرملة سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م بين صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد.
٢. إطلاق سراح الأسرى المسلمين مقابل إطلاق سراح أسرى الفرنجة.

وبدأ بيبرس، بجمع أسرى الفرنجة وإرسالهم إلى مدينة نابلس[١] تمهيداً لتطبيق مبادلتهم بالأسرى المسلمين، إن فرسان الداوية والاستبارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم لكونهم صناعاً مهرة، إذ أنهم يوفرون اليد العاملة بأقل كلفة من غيرهم لذا أمر بقطع المفاوضات، ونقل أسرى الفرنجة من نابلس إلى دمشق واستخدامهم في العمائر ومهاجمة أملاكهم[٢].

ولكن هل اتبع بيبرس سياسة جديدة في محاربة الصليبيين غير التي اتبعها السلاطين الأيوبيين، أم أنها شابهتها؟

استخدم الظاهر بيبرس في تنفيذ سياسته كل الوسائل المتاحة له عسكرياً وسياسياً، ونجح في ذلك نجاحاً ملحوظاً فعقد معاهدات عديدة مع القوى الأوروبية في الوقت الذي تمكن فيه من

تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٣، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١-١٢٢، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٣٩-٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٠.

(١) – نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، كثيرة الماء، نظيفة، بينها وبين بيت المقدس عشر فراسخ، البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ٣، ص١٣٤٧.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٧- ١١٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٦، ص٣٢٢-٣٢٣، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٧- ١١٩، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ٥٤٤- ٥٤٥، برجاوي: الحروب الصليبية، ص٦٠٩، أبو عليان: مسيرة الجهاد، ص٢٩-٣٠، سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص٦٧.

الاستيلاء على كثير من الحصون الصليبية في بلاد الشام، حيث زاد بيبرس من الضغط على الصليبيين لتقليل دورهم في الصراع بينه وبين المغول، وقام من أجل ذلك بإرسال الحملات العسكرية المتتابعة ضد المراكز الصليبية في بلاد الشام، فأرسل قواته للإغارة على أنطاكية سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م لمعاقبة أميرها بوهيموند السادس على تعاونه مع المغول مما جعل الصليبيين في يافا وبيروت يطلبون الهدنة، فتشدد الظاهر بيبرس في شروطه وهددهم قائلاً: ((فإن بقيتم على العهد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد))(١).

أعادت قوات المماليك هجومها على أنطاكية من جديد سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، وأحرقت الميناء بما فيه من السفن أما بيبرس فقاد بنفسه الهجوم على عكا في جمادى الأخرة سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، وهدم أبراجها وقتل وأسر عدداً من سكانها(٢).

وهنا لا بد من معرفة السبب الذي دفع أباطرة وملوك الشرق والغرب إلى خطب ود السلطان الظاهر بيبرس الذي عرف بعدائه لأبناء جلدتهم الصليبيين والمغول في بلاد الشام.

لم يجد بيبرس صعوبة كبيرة في جذب القوى الأوروبية ومحالفتها، ولم يكن هذا من منطلق سياسي فقط، وإنما يعود إلى أوضاع اقتصادية فرضت وجودها على أرض الواقع كون الطرق التجارية فيما وراء النهر لم تكن قد فتحت منذ الغزو المغولي، كما أن تجارة الفلفل بالخصوص كانت تصل إلى أوروبا عبر الموانئ المصرية، لذلك فإن كثيراً من القوى الأوروبية المهتمة بمثل تلك التجارة مثل البندقية وصقلية كان من مصلحتها إقامة علاقات طيبة مع مصر، ودعم دولة المماليك لما تحققه من ثروة هائلة من ورائها هذه القوى، وتدعيماً لتلك العلاقات أرسل بيبرس سفارة إلى مانفرد ملك صقلية سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م و بالوقت نفسه تحالف مع الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس وتبادل معه السفارات والهدايا سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م(٣).

وقد أثمرت هذه السياسة الودية مع الغرب، ومن أهم نتائجها المباشرة عدم قدوم أي حملة صليبية على مصر في عهده.

مما تقدم يتبين أن الظاهر بيبرس أقام علاقات صداقة مع بعض الفرنج، والإيطاليين خاصة، واستخدم سياسة فرق تسد في بعض الأحيان مع الصليبيين في بلاد الشام.

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٧–١١٩، توراو (بيتر): الظاهر بيبرس، ص٨٣٩، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٢٥.

(٢) – المقريزي: الخطط، جـ١٠، ق٢، ص٤٦٣–٤٦٤، ٢٧٢، ٤٨٨–٤٨٩، توارو (بيتر): الظاهر بيبرس، إسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر ، ترجمة : محمد جديد، مراجعة وتقديم: أحمد حطيط، بيروت ، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٣٩–١٤٢، غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص١٩٠–١٩١، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٢٤–٢٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٢٨.

(٣) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٩، المقريزي: الخطط، جـ١، ق٢، ص٤٧١، ص٢٩٣، سليمان: المغول والمماليك، ص٨٠، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٢٩–٣٠، توراو (بيتر): الظاهر بيبرس، ص١٥٥–١٥٦، عاشور: الظاهر بيبرس، ص٥٨.

• سياسة المماليك في عهد قلاوون:

سار قلاوون على نهج بيبرس في سياسته عندما تولى الحكم حيث عمل على مهادنة الصليبيين في أوائل عهده كي يتفرغ لقتال المغول، فأبرم معاهدة مع بوهيموند أمير طرابلس سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م[١]، وكان من بين شروطها:

١. تعقد لمدة عشر سنوات.
٢. يقيم نواب السلطان وصاحب طرابلس بمدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة.
٣. على صاحب طرابلس ألا يبني خارج مدينته أو في البلاد التي وقعت الهدنة، وكذلك يتعهد السلطان بألا ينشئ قلعة تجاوز البلاد التي وقعت هذه الهدنة.
٤. لا تنتهي هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين أو بانتقال الحكم إلى غيره. و لم تحظ طرابلس فقط باهتمام السلطان قلاوون بل شملت مدن ساحلية أخرى مثل عكا . كما جدد الهدنة التي عقدها بيبرس مع الفرسان الاستبارية بعكا سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م[٢]:
٥. تقررت الهدنة بمقتضاها بين الفريقين لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات.
٦. يكون جميع رعايا السلطان، وتجار بلاده آمنين على أنفسهم وأموالهم في مدينة عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة.
٧. لا يتعرض الفرنجة الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة بأي سوء لأراضي السلطان وولده، ولا لرعاياه على اختلاف أجناسهم، وكذلك تكون جميع بلاد عكا، وما عين في الهدنة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان وولده، ومن عساكره ورعاياه.
٨. لا يجدد الفرنجة في عكا وعثليث وصيدا حصناً أو سوراً.

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٠-٥٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٠٣، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٥٩-٢٦٠، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠-١٢١.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص٢٦٠، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥٤-٢٥٥.

٩. يلزم نائب المملكة بعكا إذا أقدم أحد ملوك الفرنجة أو المغول على المسير لمهاجمة بلاد السلطان بإخبار السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة[١] في الهدنة بمدة شهرين.

١٠. يتعهد السلطان بحماية البلاد التي عقد معها الهدنة بعدم اعتداء جنوده المفسدين، كما يلزم حاكم عكا بدرء خطر المفسدين الداخلين تحت حكمه عن بلاد المسلمين.

ويمكن أن تكون مخاوف السلطان من المغول قد دفعته إلى عقد تلك الاتفاقيات والمهادنات مع الصليبيين ولما زالت مخاوف السلطان من المغول، عول على إخضاع المدن الخاضعة للسيطرة الصليبية له فهاجم فجأة حصن الاسبتارية بالمرقب سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م[٢] رغم المعاهدة التي عقدها معهم لمدة عشر سنين، وذلك بسبب اعتراضهم قافلة من التجار المسلمين، وظل الحصن بيده حتى ورد إليه كتاب من نائبه ببلاد الشام ينبهه فيه بأن الفرنجة بطرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين رغم تعهدهم بعدم التعرض لهم أو قطع طريق المسافرين، فأعد قلاوون العدة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م للسيطرة على هذه المدينة[٣].

ولم يقنع قلاوون في فكرة الاستيلاء على طرابلس عسكرياً فقط، الأمر الذي يجعل أمورها السياسية في قبضة السلطة المملوكية بل استجدت معطيات جديدة جعلته يفكر في السيطرة على مدينة ساحلية أخرى هي عكا، ذلك أن بعض الحجاج الذين قدموا إلى عكا سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م قد انتهك حرمة المسلمين الذين كانوا يعيشون في أمان بمقتضى المعاهدة المبرمة بين السلطان والصليبيين، وقتلوا جماعة من تجارهم، فعجل هؤلاء بحضورهم وما قاموا به النكبة التي حلت بالصليبيين، ذلك أن قلاوون اتخذ من هذه الأعمال ذريعة لإعلان الحرب على هذه المدينة التي أصبحت في عهده ملجأ الصليبيين التي وقعت مدنهم في أيدي المسلمين، ولما أظهر أمراء المماليك تخوفهم من مهاجمة حصونها بسبب صلابتها ومنعتها، فقد دعا السلطان القضاة

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ،الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٤٦، الكتبي: فوات الوفيات، جـ٣، ص٢٠٣– ٢٠٤ ، ص٨٠–٨١، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٢–١١٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٦٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٤، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢١٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٣، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٠٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٧، عاشور (سعيد): أضواء جديدة على الحروب الصليبية، د.م، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ص٤٤، سرور: دولة بني قلاون، ص٢٣٨– ٢٣٩.

وأخبرهم باعتداء الفرنجة على التجار المسلمين بالقرب من عكا، فأفتوا بأن ما لحق بالتجار من الإهانات هو مسوغ كاف لإعلان الجهاد على الصليبيين، ثم شرع في إعداد المعدات لحصار عكا، ولكن مشروعه لم يتحقق إذ أنه ما لبث أن توفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م[١].

مما تقدم يتبين لنا أن سياسة قلاوون مع الصليبيين تفاوتت بين المهادنة حيناً والحرب حيناً آخر. ولم يكن الأشرف خليل أقل حماسة من والده في محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد، ذلك أنه وبعد أن تولى الحكم في ٧ ذي الحجة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، عمل على إتمام مشروع والده في الاستيلاء على عكا ولم يقبل اعتذار الصليبيين، وأخذ في الاستعداد للحرب بنشاط، كما عزم على إخراج الصليبيين من بلاد الشام كافة[٢]، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على تلازم المسارين السياسي والعسكري ، فلا يوجد مسار سياسي بدون عسكري والعكس صحيح لا سيما أن سلطة المماليك هي سلطة عسكرية بالدرجة الأولى و ليست سلطة مدنية خاصة أن هؤلاء عاشوا حياة شاقة من التدريب على القتال و تلقي العلوم العسكرية ، بينما كانوا أبعد عن ممارسة الحياة السياسية المدنية

ج- العلاقة مع المغول:

شغلت القوة العسكرية المغولية دوراً كبيراً في تاريخ آسيا الوسطى السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وكان لهذه القوة أثر كبير على الصراع الذي دار بين المسلمين والصليبيين، أما بالنسبة لظهور المغول على الساحة الآسيوية. فقد كانت تربطهم بالصليبيين علاقة قوية، حيث تزامن ظهورهم كقوة عسكرية خلال مدة الصراع بين المسلمين والصليبيين، وعندما تقدموا إلى بلاد الأناضول كان لكل من المسلمين والصليبيين ميزة تجعل إحدى القوتين تتفوق على الأخرى، وإن إمكانية التحالف مع القوى الخارجية زاد في أملهم بتفوق إحدى القوى على الأخرى[٣].

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٦- ٣١٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣- ٧٥٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٩.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧-١٥٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٨، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: أضواء على الحروب الصليبية، ص٤٤-٤٨، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢-٤٢٣، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٩٥، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٢٤-٢٥.

(٣) – جوانفيل: القديس لويس،من خلال الموسوعة الشاميّة، جـ٣٥ ، ص١٨، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٤، الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٧٩.

بدأت الاتصالات وتبادل السفارات بين المغول بزعامة هولاكو والصليبيين في عكا من ناحية وبينه وبين الغرب الأوروبي من ناحية أخرى، بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م لأنه كان بحاجة فعلية للتعاون معهم وفي سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، أرسل هولاكو خان سفارة تحمل رسائل للبابا ولملوك الغرب الأوروبي وذلك من أجل إقامة تحالف ضد المماليك، ولكن ملك صقلية ((مانفرد هو هنشتاوفن)) قبض على أفراد السفارة المغولية، وصادر الوثائق التي تحملها وربما فعل ذلك لأنه وجد فيها عروضاً بتحالف مغولي أوروبي ضد أصدقائه المسلمين، واستطاع أحد أفراد هذه السفارة أن يغافل ملك صقلية، ويصل إلى البابا أوربان الرابع (٦٦٠-٦٦٣هـ/ ١٢٦١- ١٢٦٤م)، وأوضح له هدف السفارة المغولية إضافة إلى أنه أرسل خطاباً إلى الملك الفرنسي لويس التاسع طلب فيه إقناع القوات الصليبية بأن تستعد على طول السواحل الشامية، وتستخدم السفن الحربية ضد المماليك حتى إذا ما هاجم المغول عدوهم المشترك فإن المسلمين لا يجدون مكاناً يتراجعون فيه أو يهربون إليه وبذلك يتم تدميرهم[١].

وقد ذكر هولاكو حبه للمسيحيين وإعفائه للكنائس ورجال الدين من الضرائب، وأن مدينة بيت المقدس سوف تعطى للبابوية بعد استردادها من المسلمين، وكل ذلك محاولة من الإيلخان[٢] المغولي لاستمالة الملك الفرنسي بقبول اقتراحه لكن هولاكو توفي سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م قبل استكمال مشروعه بالسيطرة على الشرق والأمر المؤكد أنه مات بوذياً، مع أن خطاباته السابقة للغرب الأوروبي عن نيته في اعتناق التنصر على المذهب الكاثوليكي لم تكن إلا طمعاً للغرب الأوروبي الذي كان يحلم بتنصر قادة المغول لجرهم للتحالف معه ضد المسلمين العدو المشترك للطرفين[٣].و بالتالي يمكن القول أن المنطقة العربية الإسلامية وخاصة بلاد الشام عانت الويلات نتيجة للسياسات الخاطئة لحكامها و هذا ما جعلها هدفاً للمساومة بين الأطراف الدولية المتصارعة آنذاك من مغول وفرنجة و غرب أوروبي و غيره ، وهكذا ظلت لقمة سائغة بأيدي المحتلين حتى استطاعت السلطة الحاكمة بمؤازرة شعبها من طرد المحتلين و رسم سياستهم بأنفسهم .

---

(١) – جوانفيل: القديس لويس، من خلال الموسوعة الشامية ، ج٣٥، ص١٧.

(٢) – الأيلخان: هو نائب الخان، وأيلخان لفظ فارسي معناه رئيس قبيلة أو عشيرة وأصبح فيما بعد لقباً ملوكياً لأمراء المغول في بلاد فارس الذين أسسوا دولة فعلية امتد سلطانها ما بين نهر جيحون والسند والعراق تعرف باسم الدولة الايلخانية ومن أشهر حكامها أولجاتيو وأبو سعيد بهادر، الخطيب (مصطفى عبد الكريم): معجم المصطلحات والألقاب التاريخية بيروت، مؤسسة الرسالة١٩٩٦، ط١، ص٥٨).

(٣) – جوانفيل: القديس لويس، من خلال الموسوعة الشاميّة، ج٣٥، ص١٧-١٨.

- **سياسة المغول في عهد آبغاخان[1] (٦٦٣-٦٨١هـ/١٢٦٤-١٢٨٢م):**

تعد المدة التي حكم فيها أبغاخان جزءاً من تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوروبي، وذلك لازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين عن ذي قبل، فلقد عاصر ذلك الإيلخان الظاهر بيبرس الذي كان رجلاً سياسياً بعيد النظر في التعامل مع أعدائه من الصليبيين والأرمن والمغول وبعد سلسلة إصلاحات داخلية وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه استطاع بيبرس أن يقود أكبر قوة عسكرية ضاربة في المنطقة والإنفراد بخصومه واحداً تلو الآخر لأن الانتصار العسكري يجعله هو السيد السياسي المطلق.

ولهذا كان الصليبيون في الشرق بحاجة للتحالف مع مغول فارس في ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية في جنوب أوروبا، وكذلك انشغال بقية قادة الغرب الأوروبي بمشاكلهم الإقليمية عن نجدة الصليبيين ضد المماليك.

أرسل بيبرس حملة عسكرية للإغارة على أملاك بوهيموند السادس في طرابلس لشغل قواته عن مساعدة صهره وحليفه ملك أرمينية الصغرى الذي تعرضت بلاده لهجوم من قوات المماليك في ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[2]، واستطاعت قوات المماليك هزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم، وقتل أحد أبناء هيثوم الأول، وأسر ابن ثان له مع عدد كبير من الأسرى والغنائم، وكانت هذه ضربة قاصمة لملك أرمينيا الصغرى.

فأسرع كل من هيثوم الأول وآبغاخان بإرسال السفراء للغرب الأوروبي لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك وذلك في نهاية سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م[3].

---

(١) – آبغاخان بن هولاكو: تولى العرش بعد وفاة أبيه واتخذ تبريز عاصمة له، ومن الأحداث المهمة في حياة هذا السلطان محاربته المصريين في الشام، إذ حاول أن يغسل الإهانة التي لحقت بالجيوش المغولية في موقعة عين جالوت . فأعد جيشاً كبيراً التحم به في عدة معارك مع جيوش المماليك. وكان من أبرز تلك المواقع وقعة أبلستين وشرقي قيسارية بين جبل طوروس والقسم العلوي من نهر جيحان، سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م إذ فقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب عن سبعة آلاف نفس حتى أن آبغا عندما زار ميدان القتال وشاهد أشلاء القتلى من المغول تأثر تأثراً شديداً ولم يكن في وسعه إلا أن يذرف الدمع. وقد عمر آبغا نحو خمسين سنة. الهمذاني (رشيد الدين فضل الله ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ (تاريخ أبناء هولاكو)ترجمة محمد نشأت، فؤاد عبد المعطي الصياد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والارشاد القومي،د.ت، مج٢،ج٢، ص ٨٦ وما بعدها.

(٢) – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٢٤– ١٢٥، الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص١٨٣، العريني: المغول، ص٢٩٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٧، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٩٥.

(٣) – المقريزي ، السلوك ،ج١ ، ق١ ، ص ٥٢٤ –٥٢٥،ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٢٦– ١٢٧، قاسم: عصر سلطان المماليك ، ص١١٠ .

وبناء على هذه السفارة أرسل كليمنت الرابع Clement IV (٦٦٤-٦٨١هـ/١٢٦٥-١٢٨٢ م)خطاباً لبطريرك بيت المقدس في عكا لمساعدة ملك أرمينيا الصغرى، وأمير أنطاكية حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك، كما أرسل أيضاً وعداً بالمساعدة لهيثوم الأول من قوات لويس التاسع عندما تصل للشرق، وأرسل البابا كذلك للإمبراطور البيزنطي يحثه على العودة لحظيرة كنيسة روما، والمشاركة مع الأيلخان المغولي في مساعدة الصليبيين وأخيراً فإنه أرسل لجيمي الأول ملك آراجون ولويس التاسع يشجعهما على الإسراع في إعداد قواتهما[١].

وبناء على المعطيات التي تجمعت لدى بيبرس فإنه أراد اتخاذ زمام المبادرة سياسياً بالسيطرة على المناطق الواحدة تلو الأخرى، ففي رمضان سنة ٦٦٧هـ/ أيار ١٢٦٨م قاد جيشاً ضخماً وحاصر أنطاكية من عدة جهات، ولم يتمكن أحد من نجدتها سواء من الأرمن أو المغول أو الصليبيين، وكان أميرها بوهيموند في طرابلس، فلم يستطع أن يفعل شيئاً لإنقاذ إمارته، وتظهر حنكة بيبرس الدبلوماسية في تأجيله تسليم ليون بن هيثوم الأول إلى ما بعد الانتهاء من الاستيلاء على أنطاكية بشهر واحد فقط.

وذلك حتى يضمن تماماً عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعدة صهره بوهيموند السادس، وهكذا وجهت القيادة العسكرية والسياسية المملوكية ضربة قاصمة للتحالف المغولي الأرمني الصليبي، بتحطيمهم أرمينية الصغرى والاستيلاء على أنطاكية[٢]، ولم يعد لبقية الصليبيين أي حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول فارس، ولهذا فإن آبغاخان كان يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبي للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط أنطاكية فأرسل سفارة، ولكن عند وصولها إلى روما سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، كان كليمنت الرابع قد توفي فذهبت السفارة إلى جيمني الأول ملك آراجون وبقية ملوك غرب أوروبا لكن السفارة خيبت أمل أبغا لأنه وفي هذه الأثناء وصلت أخبار سقوط أنطاكية إلى الغرب الأوروبي بينما كانت استعدادات لويس التاسع وعدد من أمراء الغرب لحملة صليبية جديدة على الشرق في مراحلها النهائية إضافة إلى أن آبغاخان كان وجيشه على أهبة الاستعداد للقدوم فور ظهور الجيوش الأوروبية على سواحل بلاد الشام، وانحراف الحملة الكبرى التي كانت تضم عدداً كبيراً من أمراء وبارونات الغرب الأوروبي وقواته تحت قيادة لويس التاسع، إلى تونس[٣] ضد الحفصيين ومات الملك الفرنسي

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٨، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٥٦٧، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١١، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٥١-٢٥٢، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٤٠-٤١.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٩-٣٤٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٠، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٥١- ٢٥٢، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٤٠-٤١.

(٣) – البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٢٨٢.

ومعظم قواته بالطاعون، وكان الأمير إدوارد[١] بن الملك هنري الثالث ملك إنجلترا قد قاد نحو ألف من قواته للحاق بحملة لويس التاسع. فوصل إدوارد بحملته الصغيرة إلى عكا في سنة ٦٧٠هـ/ ٩ أيار ١٢٧١م، وأنعش آمال الصليبيين في الشرق، وعلى الفور أرسل إدوارد ثلاثة من رفاقه إلى آبغاخان لطلب إرسال جيوشه ونظراً لانشغال قوات آبغاخان على الحدود الشرقية آنذاك فإن الأخير أبلغ الأمير الإنجليزي بأنه قد أرسل أوامره لقائده صمغار Samagar لغزو بلاد الشام واقترح على إدوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المماليك، وقاد صمغار قوة مغولية من عشرة آلاف فارس احتلت حلب ثم تقدمت في البقاع حتى وصلت إلى ٢٠٠ ميل من مدينة عكا، ولكن القوة المغولية ما لبثت أن انسحبت إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة.

كانت هذه الغارة على شمال بلاد الشام هي كل ما فعله آبغا لمساعدة حليفه الإنجليزي[٢]. لكن الورطة التي وقع فيها الأمير الإنكليزي خلصه منها شارل الانجوي بعد طرحه مبادرة سياسية بعقد هدنة مع السلطة المملوكية مدتها عشرة أعوام وعشرة شهور للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين. وبعد ذلك أسرعت المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس[٣] فلم ينجح هذا التحالف في أول تجربة عملية له.

ولم يكن الغرب الأوروبي غافلاً عن حقيقة أنه ما لم ترسل نجدات سريعة للصليبيين في الشرق فإن البقية الباقية سوف تنهار أمام المماليك، خاصة أن البابا الجديد جريجوري العاشر كان بطريركاً لمملكة بيت المقدس في عكا من قبل، وكما كان عضواً في حملة الأمير إدوارد. ولهذا دعا هذا البابا إلى عقد مجمع مسكوني في مدينة ليون الفرنسية.

وكعادة المغول في تأكيد حضورهم السياسي شرقاً و غرباً فقد أرسل أبغاخان سفارة لحضور هذا المجمع مكونة من ستة عشر عضواً من بينهم عدد من الرهبان اللاتين والمترجمين، وفي حركة بارعة من آبغاخان فإن ثلاثة من سفرائه المغول طلبوا من البابا تعميدهم على المذهب

---

(١) – إدوارد الأول (٦٧٠-٧٠٧هـ/ ١٢٧١-١٣٠٧م): كان رجلاً سياسياً محنكاً قوي الإرادة صبوراً في الحرب، ويعد عهده من أكثر العهود اضطراباً في تاريخ إنجلترا.

عمران (محمود سعيد): معالم تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص٢٦٩.

(٢) –ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣١، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١١، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٥١.

(٣) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر،ص٣٣١-٣٣٤ –ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٧، قاسم:عصر سلاطين المماليك ، ص ١٠٦ .

الكاثوليكي، وقام بذلك كاردينال أوسيتا وقوبل هذا التصرف بترحيب عام من ممثلي كنائس غرب أوروبا[١].

وبعد انتهاء جلسات مجمع ليون إلى العواصم الكبرى غادر سفراء المغول الى العواصم الكبرى وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها جريجوري العاشر لتهيئة المناخ في أوروبا للقيام بحملة صليبية للشرق، فإن الوعود التي تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها للتنفيذ، لإنشغال كل منهم بمشاكله الإقليمية لكن ما حدث إثر تلك الاستعدادات هو وفاة البابا جريجوري العاشر سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، فخبت بموته الحماسة الصليبية التي أذكتها شخصية هذا البابا الذي يعد من أكثر البابوات في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي اهتماماً بالكيان الصليبي في الشرق[٢]. **و لكن ألم تنعكس وفاة البابا سلباً على الوضع السياسي لحكام مدن الساحل الشامي الواقع تحت سيطرة الصليبيين؟ ألم تزدهم وهناً على وهن؟**

بالطبع هذا ما حصل بعد اكتمال صورة الأوضاع العسكرية العاكسة للأوضاع السياسية فهل يوجد سياسة قوية بوجود احتلال ، أو ضعف عسكري أو غيره؟!

عندما أخفقت جهود آبغاخان في التحالف مع الغرب، قرر الاعتماد على القوى المحلية في غرب آسيا لمواجهة المماليك خاصة بعد وفاة الظاهر بيبرس، وتمرد "سنقر الأشقر" على المنصور قلاوون ثم استقلاله ببلاد الشام ومراسلاته لقادة مغول فارس، ونتيجة لذلك أرسل آبغا مبعوثاً إلى عكا سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م لطلب التحالف مع الصليبيين، أما عن الأرمن فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى الإذعان لمشيئة آبغاخان في الانضمام لقواته ضد المماليك.

وكان للصليبيين موقفاً آخر، فمعظم القوى الصليبية اختارت موقف الحياد لأنهم تعلموا من الدروس المريرة التي تلقتها كل من مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية أن المغول غير قادرين على حماية حلفائهم وتوفي آبغاخان في سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م[٣] .

لقد أثبتت التجارب أن الشعب لا يقهر ما دام لديه إرادة بقتال المحتل و مادام هناك تكاتف ما بين الحكام والشعب فالانتصار هو النتيجة.

---

(١) – هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١٤–١١٥، عمران: المغول وأوربا، ص٢٥١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣١–٣٣٣.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٢، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١٥–١١٦، عمران: المغول وأوربا، ص٢٥١.

(٣)– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٦٢، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١١٨.

- **سياسة المغول في عهد أرغون خان ٦٨٣- ٦٩٠/ ١٢٨٤-١٢٩١م:**

تولى أرغون الملك بالقوة ووصل التقارب بين مغول فارس في عهد أرغون خان والغرب الأوروبي لمرحلة الذروة[١]، فالغرب الأوروبي كان في حاجة ماسة للتعاون العسكري مع المغول لأن قوات المماليك كانت تسقط في كل عام واحد من مواقع الصليبيين الهامة في بلاد الشام، ولذلك أرسل أرغون عدة سفارات إلى الغرب من أجل التحالف ضد المماليك ومن هذه السفارات:

- **سفارة رابان صاوما Rabban Sawma ٦٨٦-٦٨٧هـ/ ١٢٨٧- ١٢٨٨م:**

ازداد موقف الأرمن والصليبيين سوءاً في مواجهة المماليك في المدة من ٦٨٤- ٦٨٦هـ/ ١٢٨٥-١٢٨٧م[٢] فعزم المنصور قلاوون منذ انتصاره على المغول على الانتقام من حلفائهم، في الوقت الذي انتقى فيه أرغون بعناية بالغة سفيره الجديد ((رابان صاوما)) ومرافقيه[٣] للذهاب إلى الغرب الأوروبي، ويبدو أن أرغون اختار صاوما لأنه من بكين عاصمة قوبيلاي خان، فأراد إفهام الغرب الأوروبي أن سيّده الأعلى راض عن صلاته بهم. إضافة إلى كون ((صاوما)) أحد كبار رجال الكنيسة النسطورية في آسيا يعكس رغبة أرغون في كسب ثقة الأوروبين عندما يستمعون من سفير مسيحي عن حسن معاملة المغول لرعاياهم المسيحيين، وربما قصد أرغون من وراء ذلك أيضاً تحقيق ولاء الكنيسة النسطورية للبابوية، وهو هدف كانت تسعى له البابوية منذ نصف قرن وذلك ليضمن تحقيق الأهداف السياسية التي من أجلها أوفد رابان صاوما[٤].

إن أرغون طلب مساعدة الغربيين له ضد المماليك، ولكي يشجع البابوية ورعاياها على تنفيذ ذلك فإنه رفع شعار تحرير مدينة بيت المقدس من الكفرة، وزيادة في تحفيز الأوروبيين فإن سفراءه أعلنوا في العواصم الأوروبية أن أرغون سيعلن تنصره بعد استرداد هذه المدينة، وفي الواقع إن ملوك إنجلترا وفرنسا لم يفعلوا شيئاً سوى تقديم بعض الهدايا رداً على هدايا العاهل المغولي[٥] وبذلك أخفقت هذه السفارة في تحقيق هدفها السياسي.

---

(١)- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦-١٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٩٩-٣٠٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٠٧-٧٠٨، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٨٢، قاسم : عصر سلاطين المماليك ،ص١١٩.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص١٢، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٦، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٨٤-٨٥.

(٣) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٣٠-٣١، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٨٤-٨٥.

(٤) – العسلي: الظاهر بيبرس، ص٨٣.

(5) – Ryan: The In Terrelation of the oriental Mission and Crusde Activities of the papacy under Nicholas Iv, 1288-1292, P.P 22-24.

- سفارة سنة ٦٨٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٩-١٢٩٠م:

لم يعرف أرغون خان الكلل والملل من إرسال السفارات إلى الغرب الأوروربي خاطباً وده لمساعدته سياسياً و عسكرياً، فقد انتهز أرغون خان فرصة سقوط طرابلس في أيدي المماليك سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م[١] ليرسل سفارة إلى الغرب الأوروبي، وقد اختار بوسكاريللو الجنوي لينوب عنه في هذه السفارة لأسباب عديدة أولها أن الجنويين هم أكثر الذين خسروا بضياع طرابلس.

و ثانيها يستطيع هذا السفير إقناع الغربيين بخطورة الموقف في الشرق ،و ثالثها البعد عن مشاكل المترجمين، و تجلت مهمة هذا السفير بمناقشة تفاصيل العمليات الحربية المقترحة بين المغول والأوروبيين والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة، وربما كان غرض أرغون من هذا الاختيار، قطع الطريق على البابا في التغاضي عن الأهداف الحقيقية لسفاراته والحديث في الدين واللاهوت، فالايلخان المغولي كان وقتها بحاجة لقوات الأوروبيين أكثر من حاجته للكتب والقرابين المقدسة، والأهم أن بوسكاريللو وصل إلى باريس أولاً وقدم لملك فرنسا رسالة أرغون وتتضمن قرار أرغون بتحريك قواته في سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م، حتى يتمكن من النزول أمام دمشق، وذلك بشرط وجود القوات الأوروبية في مصر والشام[٢].

وقد قدم أرغون العديد من العروض للملك الفرنسي لتشجيعه على القدوم إلى الشرق منها:

١- ينوي أن يصطحب معه في حملته على الشام ملكي جورجيا وأرمينيا الصغرى لاسترداد بيت المقدس فهما قادران على حشد عشرين ألفاً من الفرسان.

٢- أبدى استعداده لإمداد ملك فرنسا بعشرين أو ثلاثين ألفاً من الخيول وبسعر رمزي.

٣- أمر رعاياه من سلاجقة الروم أن يوفروا للقوات الفرنسية ما تحتاجه من تموين ((دقيق وعلف للخيول)) وغير ذلك من الإمدادات التي تحتاجها .

٤- تعبيراً عن حسن نيته تجاه الأوروبيين فإن أرغون أعلن أن مذبحة طرابلس قد أحزنته، وأنه أعدم أربعة من الأمراء المسلمين في العراق لأنهم أبدوا سرورهم لانتصار المماليك كما أشار أن شقيقته تزوجت ملك جورجيا المسيحي، واعتنقت الدين المسيحي مثل كثير

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٥٦-٣٥٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٥، الكتبي: فوات الوفيات، جـ٣، ص٢٠٣-٢٠٤، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٧، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١٢٢، الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص١٨٣، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٥٧.

(2) – Heanisch, Erich, "Zuden Briefen der Mongolishen LL" Khane Argun und oljectu anden philipp den schonen von Fran kreich 1289u 1305, oriens, II 1949, P220.

من رجال بلاطه إلا أن الملك الفرنسي قد صم الآذان تماماً عن نداءات البابوية[١] له ولغيره لإرسال نجدات للصليبيين في الشرق.

والحقيقة أن البابا نيقولا الرابع كان عاجزاً عن تحريك ملوك الغرب الأوروبي وأمرائه وحشد الجيوش للتحالف مع الايلخان المغولي حتى لو كان هذا الأمر يعني أيضاً النجدة الحاسمة للصليبيين في الشرق، ولكن الفائدة من محاباة أرغون للبابوية خاصة و الغرب الأوروبي عامة ، ألم يدرك أن مصالح هؤلاء السياسية و الاقتصادية كانت فوق الجميع؟! من الواضح أنه أدرك ذلك و لكن ظن أن تكرار المحاولة يثني هؤلاء عن سياستهم و أهدافهم و دوافعهم

– سفارة سنة ٦٨٩– ٦٩٠هـ/ ١٢٩٠–١٢٩١م:

أقدم الصليبيون حكاماً وأفراداً في مدن الساحل الشامي على القيام بانتهاكات ضد السلطة السياسية الحاكمة في بلاد الشام ومن هذه الانتهاكات اعتداء مرتزقة على التجار المسلمين في عكا ففي أثناء وجود السفراء المغول في روما، وصلت للبابا نيقولا الرابع أنباء كارثة جديدة سببها المرتزقة[٢] الإيطاليون الذين وصلوا إلى عكا، فهؤلاء الدهماء اعتدوا على التجار المسلمين الذين كانوا يحملون رقيقاً للسلطان المملوكي، وقتلوا كل من قابلوه من المسلمين، ومن يرتدي زيهم في شوارع عكا. ولهذا أقسم قلاوون على الانتقام من عكا وسرعان ما وصلت الأنباء للبلاط البابوي بطلب النجدة العاجلة، وليس معروفاً على وجه التحديد عما إذا كان سفراء أرغون قد ذهبوا لمقابلة الملك الفرنسي، ولكن سواء ذهبت هذه السفارة إلى باريس أم لا، فالبابا كان يعلم أنه لا أمل يرجى من فيليب الرابع ملك فرنسا في الذهاب للشرق. ولذلك اعتمد على إدوارد الأول ملك الإنكليز لأن دولته الوحيدة لم تتورط بعد في حروب ومشاكل داخلية تعوق ذهابه للشرق خاصة أن المفاوضات كانت قد قطعت شوطاً طويلاً بين مندوبي هذا الملك ومندوبي البابوية بشأن إعداد حملة للمشرق، وقد تم الاتفاق بين الطرفين على أن يتحرك الملك الإنجليزي على رأس حملة صليبية أوروبية للمشرق، وطلب مزيداً من الوقت ليحصل على موارد إضافية من

(١) –أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٤، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٩، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١٢٤–١٢٥.

(٢) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣–٧٥٤، هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص١٢٥–١٢٦، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٥٨–٢٦٠، الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص١٨٤.

ضريبة العشور الصليبية تكفي الإنفاق على حملته من إعداد وتموين، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يتوقع هذا الانهيار السريع للمواقع الصليبية في بلاد الشام[1].

وعلى الجانب الآخر فإن أرغون كان يعلق آمالاً كبيرة على وصول قوات الأوروبيين في الموعد الذي حدده لهم ولهذا بدأ في تنفيذ فكرة جديدة بضرب المماليك ومحاصرتهم اقتصادياً من البحر الأحمر من خلال ضرب سفنهم التجارية من المحيط الهندي إلى طريق البحر الأحمر، وقد ساعد في ذلك الجنويين[2]، لكنهم أخفقوا في فرض حصار تجاري على المصريين، أو ضرب تجارة المماليك في المحيط الهندي وإخفاق وانهيار هذا المشروع إما بسبب القائمين على تنفيذه من الجنويه أنفسهم، أو لأن المشروع كان أكبر من إمكانيات مغول فارس والجنويه معاً، خاصة وأن التجار المسلمين كانوا القوة الضاربة في المحيط الهندي[3].

وبعد سقوط عكا أرسل البابا سفيراً إلى أرغون خان، وقد كانت هذه المرة الوحيدة التي تجيب فيها البابوية على مقترحات أرغون بعد سقوط آخر القلاع الصليبية في بلاد الشام، وكان على العلاقات المغولية الأوروبية أن تتخذ مساراً جديداً بعد سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على ضوء الظروف السياسية الجديدة.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣- ٧٥٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية' جـ٣، ص٨٩٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٩١، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٦٠.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢-٢٥، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٩١، عمران: المغول وأوروبا، ص٢٦٠.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢-٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٤-٧٦٤، الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص٢٧٨-٢٧٩.

الفصل الرابع

مرحلة المقاومة والاسترداد

أولاً :الأوضاع السياسية لمدن الساحل الشامي قبل بدء عملية الاسترداد

ثانياً:-استرداد المناطق الإسلامية أو المدن والقلاع الساحلية

١- في عهد بيبرس ٦٥٨-٦٧٦ هـ/١٢٥٩-١٢٧٧ م.

أ-تحرير قيسارية، وحيفا، وأرسوف، ويافا سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م والمعاهدات التي عُقدت مع الصليبيّين.

ب-تحرير أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧ م

ج- المعاهدات بين بيبرس و فرنجة، طرابلس و عكا.

٢-في عهد قلاوون ٦٧٦-٦٨٩هـ/ ١٢٧٧-١٢٩٠م.

أ- تحرير قلعة المرقب سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م.

ب- تحرير ميناء اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م.

ج- المهادنات بين قلاوون و فرنجة عكا و طرابلس

د- تحرير طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م.

٣-في عهد الأشرف بن قلاوون ٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٣م.

أ- معاهدة قلاوون مع فرنجة عكا سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣ م

ب- تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

ج- تحرير صور وبيروت وحيفا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م.

د- تحرير جزيرة أرواد وقلعة عثليث.

الفصل الرابع

مرحلة المقاومة والاسترداد

توزعت الإمارات الصليبية في اتجاهات متعددة من بلاد الشام؛ فالرها احتلت الموقع الشمالي الشرقي للبلاد بينما شغلت كل من أنطاكية، وطرابلس مكانة إستراتيجية على الشريط الساحلي للبلاد، أما القدس فتربعت في قلب البلاد الداخلية. وتميزت كمملكة لهؤلاء الفرنجة القادمين للبلاد، مع العلم أن هؤلاء كانوا مختلفي اللغة، ومختلفي الجنسيات. فقد استطاع بوهيموند الذي قاد نورمانديو صقلية بصحبة ابن أخته تانكرد الاستقلال بأنطاكية، بينما حاول كونت تولوز مركيز بروفانسيا ريموند الصنجيلي السيطرة على طرابلس، إلا أن محاولته باءت بالإخفاق. أما جودفري مع أخيه بلدوين كانوا أول المنطلقين نحو الرها بجيش يضم نخبة من فرسان ألمان، وفرنسيين، وفلاحين وغيرهم، وبعد بقاء بلدوين دي بوليون في الرها، استطاع جودفري انتزاع بيت المقدس إثر صراعات صليبية، صليبية وتأسيس بداية مملكة فيها.

أولاً: الأوضاع السياسية لمدن الساحل الشامي قبل بدء عملية الاسترداد :

اتسمت حياة الفرنج في المشرق بالاضطراب والفوضى، والهزائم المتكررة، الأمر الذي اضطرهم إلى طلب المعونة من أوروبا والكنيسة، أما بالنسبة للعرب المسلمين فقد حتمت الظروف السياسية والعسكرية في الشام وجود أمير قوي يتمكن من القضاء على تناحر الأمراء المحليين، وتوحيد إمارتهم المبعثرة في جبهة إسلامية واحدة، بمقدورها التصدي للصليبيين، وتطهير البلاد من رجسهم وقدر لعماد الدين زنكي[١] القيام بمثل هذا الدورو من بعده ، نور الدين محمود، وكذلك صلاح الدين.... الخ.

كانت الحروب الصليبية، التي أرهقت المنطقة العربية الإسلامية طوال قرنين من الزمان سبباً في تغيرات كثيرة في المنطقة العربية الإسلامية حيث أن التأثيرات السياسية للحروب الصليبية برزت واضحة في إسقاط الخلافة الفاطمية من الوجود، كنتيجة مباشرة للصراع الإسلامي/ الصليبي، على الرغم من أن عوامل التدهور والاضمحلال كانت تنخر في كيان هذه الخلافة قبل الحروب الصليبية، كما تتجلى هذه التأثيرات السياسية في تدهور الخلافة العباسية بالشكل

(١) – عماد الدين زنكي: هو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر التركي ولد سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م كان أبوه أقسنقر من قادة السلطان السلجوقي ملكشاه الذي ولاه حكم حلب سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م وتولى عماد الدين زنكي إمارة الموصل سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٧ م وبعد نجاحه في إقرار الأمور بها، بدأ يوجه جهوده لمواجهة الصليبيين. ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٢٧١-٢٩٥.

الذي قضى على أي دور فعال لهذه الخلافة حيث فقدت أي وجود حقيقي وفعال لها، كما أن حماتها من السلاجقة انشغلوا بأنفسهم وطموحاتهم السياسية ومنازعاتهم الداخلية[١].

وبذلك أفرزت الحروب الصليبية قدراً من الحقائق السياسية في العالم العربي الإسلامي، ما أنهى الخلافتين القائمتين. فلم يعد الناس بحاجة إلى خليفة يقوم بدور الرمز الديني، دون أن تكون له سلطات حقيقية (كما كان حال الخلافة العباسية المتأخرة والخلافة الفاطمية) وإنما أصبحوا بحاجة إلى زعيم سياسي، وقائد عسكري يقودهم في مواجهة العدوان الصليبي، وبرزت الدولة العسكرية الطابع والتي يقودها قائد عسكري محارب من طراز عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي... الخ.

وعلى الرغم من تخاذل حكام المنطقة العربيّة الإسلاميّة عن الاتحاد في مواجهة الخطر الصليبيّ منذ البداية فإنّ الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين، منذ وطأت أقدامهم الأرض العربية الإسلامية. ولكن الحكّام كانوا على حال من التنازع، والأنانية، وقصر النظر السياسي بحيث عجزوا عن وقف المد الصليبي الذي وصل إلى أقصى اتساع له بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى[٢]. وكانت تلك هي المدة التي شهدت عجز القوى العربيّة الإسلاميّة في التعاون على خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين. ولكن من حين لآخر كانت الإمارات والدول العربية الإسلامية تعقد بعض الاتفاقيات بقصد العمل المشترك ضد الصليبيين، بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت تنتهي بالسرعة نفسها التي تمت بها، وذلك نتيجة لميراث الشك المتبادل فيما بينها، و للحرص على المصالح الذاتية والقصور السياسي الذي جعل بعض أولئك الحكام يتحالفون مع العدو الصليبي ضد الحكام المسلمين. وعلى الرغم من الإخفاق السياسي في توحيد الجهود العربية إزاء الخطر الصليبي فقد أدّى بدوره إلى المزيد من الإخفاقات العسكرية، وبدأ الرأي العام الإسلامي يضغط بكل قواه على الحكام. فحين أخفق محور القاهرة– دمشق في التصدي للعدوان الصليبي نتيجة لتدهور أحوال الدولة الفاطمية، وتشرذم القوات العربية الإسلامية في بلاد الشام، بدأت الدعوة إلى الجهاد، وانتشرت في أرجاء العالم العربي الإسلامي.

---

(١) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٨٠–١٩٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٣٢–٢٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٣٨–٢٣٩، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص١٠–١٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٨–٦٤، المطوي: الحروب الصليبية، ص٣٥–٣٦، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩١٥–٩٢٠.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٨٠–١٩٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٣٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٨–٦٤، المطوي: الحروب الصليبية، ص٣٥–٣٦.

وفي ظل هذه الأوضاع، قاد عماد الدين زنكي(١) حركة المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين. واستطاع أن يُخضِع المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب لسلطانه، ثم تمكن من الاستيلاء على إمارة الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً فقط، وكان سقوطها صدمة للصليبيين وللغرب الأوروبي، وقد سار نور الدين محمود على سياسة أبيه في توحيد الجبهة العربية الإسلامية، والقضاء على الصليبيين.

وفي طيات الصراع الإسلامي– الصليبي برزت شخصية صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي أكمل مسلسل الإنجازات، والانتصارات العسكرية، وحظيت شخصيته بمكانة مهمة في التاريخ العربي الإسلامي، باعتبار الناصر صلاح الدين قائد الجبهة العربية الإسلامية، والذي تمكنت الجيوش الإسلامية تحت قيادته من تقليص المساحة الصليبية على خريطة المنطقة العربية فضلاً عن استرداد بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن وفاة صلاح الدين أغرت المتحمسين في الغرب الأوروبي على القيام بحملات صليبية جديدة على المشرق الإسلامي، بهدف استعادة بيت المقدس من المسلمين، ولاسيّما وأن صلح الرملة الذي عقده ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م كان محدداً بثلاث سنوات وثلاثة أشهر(٢). إن تلك الحملات الصليبية التي استهدفت الأراضي المصرية والشامية التي كانت تعد مركز المقاومة الإسلامية في العصور الوسطى، لم تحقق ولو جزءاً بسيطاً من أهدافها، باستثناء ما حققه الإمبراطور فردريك الثاني Fredrek II من استعادة بيت المقدس لبعض الوقت بالطرق السلمية من الملك الكامل الأيوبي بمقتضى صلح يافا سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م(٣)، فقد اضطربت أحوال الصليبيين في جنوب الشام وشماله، ففي الجنوب شهدت مملكة بيت المقدس صراعاً مريراً مع مملكة قبرص، هذا فضلاً عن أنّ قبرص قد

---

(١) – ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢٥٣–٢٥٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٣٨–٢٣٩، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥، قاسم: الأيوبيون والمماليك، ص١٧، حسن (إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، جـ٤، ص٧٤–٧٦.

(٢) – العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٣٤٢،أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٣٢٤، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣٢–٢٣٤، ابن واصل: مفرج الكروب: جـ٢، ص٤٠٤، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩١٧، المطوي: الحروب الصليبية، ص٩١، العسلي: صلاح الدين الأيوبي، ص٧٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٧٠.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص١٧٥–١٧٦ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٣٠، ، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٠٩– ١٠١٧، الغامدي: جهاد المماليك، ص٣٧–٤١

استطاعت سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م أن تخلص نفسها من سيطرة الإمبراطورية المقدسة، بينما مملكة بيت المقدس في بلاد الشام ظلت حتى سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م تابعة من الناحية القانونية على الأقل للإمبراطورية وطوال هذه المدة كان أباطرة الغرب مشغولين عن ممتلكاتهم في الشرق. الأمر الذي جعل مملكة بيت المقدس طوال تلك السنين الطويلة دون ملك مقيم فيها يرعى شؤونها، وينظم أمورها ويدافع عن حقوقها. وخصوصاً أنّ المدة بين سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣– و ٦٦٦هـ/١٢٦٧م كانت حاسمة في تاريخ الشرق نظراً لما شهدته من أحداث جسام كان من الممكن أن يستغلها الصليبيون لقلب الموقف في بلاد الشام لصالحهم، إذ أن تلك المدة وافقت سقوط الدولة الأيوبية، واستيلاء المغول على الدول العربية والإسلامية في إيران والعراق والشام، هذا بالإضافة إلى ما حدث في مملكة بيت المقدس في ذلك الحين من خلاف حول ولاية العرش والذي ترتب عليه تدخل الإمبراطورية بإرسال حملة عسكرية إلى قبرص والشام إلا أن هذه الحملة انتهت بالإخفاق، الأمر الذي ترك الصليبيين في بلاد الشام في حالة شديدة من التفكك والانقسام.

ولم تكن أحوال الصليبيين في شمال الشام في تلك المدة أحسن منها في جنوبه، فالمعروف أن صلح يافا الذي عقد بين السلطان الكامل محمد الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[١] لم يتعرض في بنوده لأحوال إمارتي أنطاكية وطرابلس، أو لأملاك الداوية والاسبتارية في تلك الجهات.

أما بالنسبة لإمارتي أنطاكية وطرابلس، فقد توفي صاحبهما بوهيموند الرابع في سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وخلفه ابنه بوهيموند الخامس، الذي شارك بدوره في نزاع الاسبتارية مع الملك المظفر صاحب حماه، بعد أن تجددت الحرب بين الطرفين بسبب مطالبة الاسبتارية للملك المظفر بأموال فرضوها عليه[٢]، حيث هاجمت قوات الصليبيين مدينة بعرين، وبعض المناطق القريبة منها، إلا أن هذه القوات الصليبية عادت من تلك المناطق بعد أسبوع واحد، وذلك لخوفها من الاصطدام مع قوات الأيوبيين الذين تنبهوا للخطر الصليبي، وكونوا حلفاً للمواجهة ضم

---

(١) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٧٥–١٧٦، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٣٠، الغامدي: جهاد المماليك، ص٣٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٩٤–٢٩٥، المطوي: الحروب الصليبية، ص١١٥–١١٦.

(٢) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٢٦٧، أبو الفداء: المختصر: جـ٣، ص١٦٠–١٦٢، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٤٧، الغامدي: جهاد المماليك، ص٤٠–٤١، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٢٤.

الملك الكامل صاحب مصر، والأشرف موسى صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الأردن، والمجاهد شيركوه صاحب حمص[١].

كما كان لتجدد النزاع بين بوهيموند الخامس (أمير أنطاكية وطرابلس)، وملك أرمينية هيثوم الأول. أثره البالغ في إضعاف كلتا الإمارتين في ذلك الوقت، ذلك أن هيثوم الأول لم يصل إلى حكم أرمينية الصغرى، إلا بعد أن تخلص من أحد أفراد البيت الحاكم في أنطاكية، ((فيليب أخو بوهيموند الخامس)) الأمر الذي أثار غضب بوهيموند ضد الأرمن، ودخل معهم في صراع مرير، واستغل أيضاً ذلك الصراع الدائم بين الداوية وأرمينية الصغرى حول حصن بغراس، فنظم مع الداوية حملة كبيرة على أرمينية الصغرى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، ولكن ذلك المشروع لم يؤتِ ثماره كاملة لاختلاف الداوية مع بوهيموند حوله[٢].

أما العامل الأخير الذي كان له الأثر البالغ في إضعاف الوجود الصليبي، فهو تجدد الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام، فمن المعروف أن صلح يافا انتهى أمده سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[٣] الأمر الذي تحدد معه الصراع بين المسلمين والصليبيين، حيث أخذ الأيوبيون يعملون جاهدين على استعادة بيت المقدس من الصليبيين، وبالفعل تمكن الملك الصالح أيوب[٤] من استعادته، الأمر الذي أثار غضب الغرب، فأرسل حملة صليبية جديدة، تزعمها الملك الفرنسي لويس التاسع، إلا أن هذه الحملة منيت بإخفاق ذريع أمام ذلك الصمود الهائل الذي أظهره المسلمون في الأراضي المصرية. وهكذا غدا وضع الصليبيين في بلاد الشام سيئاً للغاية نتيجة للهزائم المتلاحقة التي حلت بهم، الأمر الذي سهل على دولة المماليك الغنية طردهم نهائياً من بلاد الشام.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص١٦٠-١٦٢، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٤٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٢٤- ١٠٢٥.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٧٠، الغامدي: جهاد المماليك، ص٤٠-٤١، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٢٥- ١٠٢٦، المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٢٣٦.

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٦٢٧، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٥٠-١٥٣، الغامدي: جهاد المماليك، ص٤٠-٤١، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٢٤.

(٤) – الصالح أيوب: ولد أيوب بن الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م في القاهرة، كان نائباً عن أبيه في حكم المشرق وإقليم ديار بكر خلع أخاه عن الحكم وتولى الحكم بدلاً عنه سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م، هو الذي أنشأ طائفة المماليك التي حكمت مصر فيما بعد توفي سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٨٢-٢٨٥.

ثانياً: استرداد المناطق الإسلامية (المدن والقلاع الساحلية) :

سار سلاطين المماليك على النهج الذي سارت عليه السلطة الأيوبية أيام صلاح الدين في قتال الصليبيين، ولكن لم يكونوا وحدهم في ساحات القتال، وإنما قاتلوا بمؤازرة فئات المجتمع كافة سواء الشامي أو المصري، من مدنيين وعسكريين؛ فالمدنيين تحملوا وزرَ وعبءَ الخراب، والدمار، والضرائب، والاشتراك بالقتال، فكانت لهم الصدارة في تخليص بلادهم من آثار الاحتلال الصليبي، لكن السياسة التي انتهجها المماليك تجاه قتال الصليبيين اتّسمت بكونها أكثر عنفاً، وقسوة، ودموية، إضافة إلى طول سنواتها، إذ كانت البداية مع حروب الظاهر بيبرس[١] فإنها انطبق عليها ما ذكر من قبل، إضافة إلى أن حروبه امتازت برجحان كفته وانتصاره على خصومه. **ولكن ما هي أهم الأعمال السياسية والعسكرية التي أقدم عليها الظاهر بيبرس؟**

ترجع عداوة الظاهر بيبرس للصليبيين إلى أيام خدمته للملك الصالح أيوب، لتحالفهم أكثر من مرة مع بعض الأمراء الأيوبيين ضد سيده الصالح أيوب في مصر، وزاد من عدائه لهم الحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس التاسع على مصر، بعد ذلك والتي ساهم بيبرس بنفسه مساهمة فعالة في عدم نجاحها، ولاشك أن هذه الحملة الصليبية جعلت الظاهر بيبرس يدرك نوايا الصليبيين، وطموحاتهم في فرض سيطرتهم على المراكز الإسلامية الهامة في الشام ومصر، الأمر الذي جعله حين أصبح رأساً للدولة المملوكية ((التي خلفت الدولة الأيوبية في مصر والشام)) يبدأ منذ اللحظة الأولى لتوليه مقاليد السلطة في الدولة المملوكية[٢] بمحاربة الصليبيين وبذلك لم يكن قرار تطهير البلاد من الفرنجة وليد الصدفة، وإنّما كان حصيلة تجارب، وخبرات وجهود مضنية، وقد كانت الظروف مهيئة لذلك، فقد أعقب إخفاق الحملة الصليبية السابعة، ورحيل لويس التاسع عن مصر مرحلة هدوء حتمتها الظروف المحيطة

---

(١) – بيبرس العلائي البنقداري الصالحي ركن الدين الملك الظاهر ولد بأرض القبجاق سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، وتولى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م كان ملكاً جليلاً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه له الوقائع الهائلة مع المغول والصليبيين وله الفتوحات العظيمة منها بلاد النوبة ودنقلة، ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء لها، وفي أيامه انتقلت الخلافة العباسية إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وتوفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م أبو الفداء : المختصر، جـ٤، ص٢٢.

(٢) أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٦٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٧–٥٦٩.

بالمسلمين والصليبيين[١].فالدولة المملوكية كانت في أشد الحاجة إلى تثبيت أقدامها، إضافة إلى معاناة الإمارات الصليبية في الشام من الفتن الداخلية، والفوضى، والانحلال السياسي، ولم يلبث الموقف أن تغير تماماً في أيام بيبرس، وخلفائه إذ أن سياسة المماليك نحو الصليبيين اتسمت بطابع العنف والقسوة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل فقد كان على بيبرس أن يناضل من أجل تحرير أنطاكية، وطرابلس، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس، وطرد الصليبيين[٢].

بدأت الحرب بين المماليك بقيادة بيبرس والصليبين، على شكل مناوشات متقطعة، ومع هذا فقد رأى أن عليه الذهاب إلى بلاد الشام، لتفقد قواته العسكرية، وهذا بدوره دفع الصليبيين ليسارعوا في عقد الصلح معه، إلا أن بيبرس قيدهم بجملة من الشروط الصعبة التي لم يرتضوها[٣].وفي تلك المرحلة لم يشأ بيبرس أن يقوم بهجوم كبير على الصليبين، وذلك لسببين رئيسيين، أولهما: إنّه لم يكن قد وطد حكمه بعد في مصر، فكان من الواجب عليه تثبيت هذا الحكم.أما السبب الثاني: فهو مشكلة اقتصادية تمثلت بالغلاء في بلاد الشام إلا أنّه استطاع أخيراً التخلص من المشكلات الداخلية التي اعترضت قيام سلطنته، وانتهى أيضاً من مشكلة الخلافة العباسية التي نجح في إحيائها بالقاهرة[٤] كما أنه اتجه إلى إبرام العديد من المعاهدات مع القوى السياسة المعاصرة له ومن بينها بركة خان زعيم مغول القفجاق، وكذلك الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليوغوس، وأيضاً مانفرد هوهشتان ملك جزيرة صقلية، وكذلك سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ومن الواضح أن الغرض من تلك المعاهدات السياسية والدبلوماسية، إحكام الحصار حول الصليبيين في الشام، وحرمانهم من أيّ معونة يمكن أن تصلهم وهذا يدل على حنكته السياسية[٥] وبراعته في إدارة الصراع الإسلامي– الصليبي.

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢–٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٧–١٤٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٧–٥٦٨.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٦٧، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٣–١٠٤.

(٣) – توراو: الظاهر بيبرس ، ص١٥١–١٥٥، حمدي (عبد المنعم محمد حسين): دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، د.م، ٢٠٠٠م، ص١٧٤.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٢١٢–٢١٣، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٣– ١٠٥.

(٥) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٨–١١٩، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٦٣–٤٦٤، قاسم (قاسم عبده): عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٢–١٠٣.

لم يشأ بيبرس أن تكون أعماله العسكرية والسياسية عبثية، وإنما أراد أن تكون منظمة، ووفق خطط محكمة ومدروسة وتاريخية، وبدأ أعماله في جنوب بلاد الشام الملاصقة للحدود مع مصر، و كان تحرير قيسارية وأرسوف وحيفا ويافا هي البداية.

أ- تحرير قيسارية وحيفا وأرسوف سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م و المعاهدات التي عقدت مع الصليبيين :

أراد بيبرس توجيه ضربات للكيان الصليبي في هذه المناطق لما لها من أهمية مادية ومعنوية خاصّة لهذا الكيان[١] بالإضافة إلى استغلال وجود منازعات وخلافات داخليّة بين بعضهم البعض **ولكن هل اتبع بيبرس خطة عسكرية أو إستراتيجية موحدة طيلة حروبه ضد الصليبيين، أم تعددت الخطط والإستراتيجية حسب مقتضيات الظروف؟**

لم يتبع بيبرس خطة واحدة في عملياته العسكرية، وإنّما تعددت خططه حسب مقتضيات الظروف، فتارة كان يلجأ إلى مهادنة بعض أمراء الصليبيين دون بعضهم الآخر حتى تتوفر له حريّة الحركة، وتارة أخرى كان يلجأ إلى حصار المدن مستخدماً مختلف أدوات الحصار، وغالباً ما كان يقوم بهدم المدن بعد الاستيلاء عليها.

لقد كانت حروب الظاهر بيبرس طويلة، وعنيفة، امتازت برجحان كفته وانتصاره على خصومه ذلك أنه لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩- ٦٦٩هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٠م إلا وزحف إلى قلب الممتلكات الصليبية، إلا أن عملياته العسكرية الفعلية ضد الصليبيين بدأت في مهاجمة المدن الصليبية فسار في البداية إلى قيسارية[٢]، والتي كانت حجرة عثرة في الطريق بين مصر والشام[٣]، وفرض عليها حصاراً شديداً، وتقدّم الجيش المملوكي إلى السور الشرقي للمدينة، حيث كانت توجد البوابة الرئيسية واستماتت الجيوش الإسلامية في تطويق المدينة، فألقى المقاتلون أنفسهم في خنادقها، وبعد حصارها ستة أيام، استطاعوا

---

(١) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٦٤-٢٦٥، عوض (محمد مؤنس أحمد): الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والعرب في القرنين ٦-٧هـ/ ١٢-١٣م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩م- ٢٠٠٠م، ص ٣٣٣. زكار (سهيل) : فلسطين في عهد المماليك، د.م ،د.ت،ص٥٤٦-٥٤٧

(٢) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣١١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٥٤١، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٢، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢١١.

(٣) – ابن كثير، جـ١٣، ص٢٧٢، الدجاني (زاهية): الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، دار الكتاب العربي، د.م، د.ت، ص٦٤، حسين (عبد الوهاب حسن): تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، تقديم: محمد محمد مرسي الشيخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م، ص٢٢-٢٢٣.

اقتحامها، وفرّ أهلها إلى قلعتها، ثم اضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام ثم هدمت أسوارها بالرغم من تحصيناتها القوية، ولم يكن بيبرس يحث الجند على القتال فحسب بل كان يشاركهم في هدم الأسوار بنفسه[١]، لأنه كان يدرك مناعتها وقوتها ولذلك بادر بتخريبها كي لا تستخدم ضدّهم إذا ما نجح الصليبيون في استردادها. كرأس جسر لمهاجمة المدن الداخلية العربية الإسلامية. و لاسيما بيت المقدس[٢]. وكان المقاتلون قد أحرقوا الأبواب، ودخلوا القلعة من أعلاها وأسفلها، كما استخدم بيبرس الكنيسة المواجهة للقلعة لتوجيه قواته من أعلاها، ولكي يمنع الفرنج من الصعود إلى أعلى القلعة بعد أن يئست الحامية الصليبية من المقاومة، و بالرغم من عدم تلقيها النجدات من صليبيي عكا أو قبرص، وغيرهم. إضافة إلى أن المماليك أصبح بوسعهم التحرك في سهولة ويسر بعد استيلائهم على قيسارية، نتيجة سيطرتهم على هذه المنطقة الجغرافية الاستراتيجية الهامة، بعد ذلك صعد السلطان بيبرس إلى القلعة كما قام بتسليم المدينة إلى أمرائه وخواصه، كما أنّه عمد إلى تصفية الممتلكات الصليبية فيما بين قيسارية وغزة[٣] لقد كان فتح قيسارية نجاحاً عسكرياً ملحوظاً على جانب كبير من الأهمية ، فقد حرم الفرنجة من حصن منيع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، كان يشكل تهديداً للمواصلات بين مصر والشام ، ويعيق حركة القوات المملوكيّة في المنطقة . وبينما كانت عمليات الهدم مستمرة في قيسارية، قرر بيبرس أن يرسل مجموعة من عساكره باتجاه حيفا[٤] سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، فاستطاع الاستيلاء عليها، وهدمها أيضاً، وهرب الكثير من أهلها عن طريق السفن الراسية بمينائها ، وقُتِلَ مَنْ بقي منهم ، ولم تسلم عثليث من خطط بيبرس وعملياته العسكرية[٥]، فقد هاجمها، وخرب أبنيتها، وقطع الأشجار، والكروم العائدة إليها ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، و لم يشأ بيبرس أن يضيع وقته في حصار قد يطول، ففضّل متابعة هجماته

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٤٤-٢٤٥، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٥.

(٢) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٢٧.

(٣) – غزة: بلدة متوسطة ذات بساتين على ساحل البحر وبها قليل من النخيل والكروم ولها قلعة صغيرة. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩.

(٤) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص٥٨، حسن: تاريخ قيسارية، ص٢٢٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١١٣-١١٤، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦.

(٥) – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٩، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢١١، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٥.

العسكرية ، واتّجه نحو أرسوف[١] التي تقع جنوب قيسارية، وفرض حصاراً عليها[٢] ،إلا أن جنود الاسبتارية دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً لمدة أربعين يوماً، ولم يتوقف القصف خلالها ولم يستطع المماليك بالرّغم من حماسة جنودهم، وعنفهم الهجوم على قلعة أرسوف والاستيلاء عليها، ففاوض بيبرس فرسانها الاسبتارية على أن يسلموها له مقابل تأمينهم على أرواحهم وأموالهم[٣] ، فقبلوا ذلك، ولكن من غير الواضح سبب قبول قلعتهم بالرغم من إخفاق الجيش المملوكي باقتحامها، وبالتالي يمكن القول بأنّ لهؤلاء الفرسان حساباتهم السياسية، والعسكرية الخاصة ، غير أنه يقال بأن بيبرس غدر بهم، وحملهم أسرى إلى القاهرة، ولا بدّ من مسوغات لدى بيبرس للإقدام على نقض الاتفاق، ومن المرجح أن ذلك يعود إلى سياسة المماليك التي تقوم على القضاء على الكيانات الصليبية في بلاد الشام، وعدم وجود فائدة من نقلهم من مكان لآخر لأنهم أولاً وأخيراً هم محتلون للبلاد، وأينما استوطنوا فإنهم سيثيرون المشاكل، و القلاقل للدولة المملوكية ، وسيظلّ هؤلاء يناضلون من أجل تحقيق الهدف الذي جاؤوا لأجله ، **ولكن لماذا لم يلتزم بيبرس بالاتفاقات السلمية مع الصليبيين ولماذا أقدم على هدم الحصون الساحلية والمدن التي استولى عليها؟**

من الواضح أنّه كان لهذه السياسة دوافع وأهداف ربما تكون خفية أو ظاهرة، فقد اتبع بيبرس هذه السياسة خشية عودة الفرنجة إلى ترميمها، والتحصن بها من جديد، خشية استقدام الصليبيين لإمدادات من أوروبا عن طريق البحر، وبالتالي كان هذا ما يؤثر على قدرة المماليك العسكرية، وحالف النجاح بيبرس في عملياته العسكرية ضد الصليبيين، وهذا يعود إلى ثقة

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٣٣-٣٣٤، غوانمة (يوسف حسن درويش): دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، عمان، دار الفكر للنشر، ١٩٨٣م، ص١٩٢-١٩٣.

(٢) – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٥٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٢٤٢، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٥، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٣)ابن عبد الظاهر،الروض الزاهر،ص٢٣٠-٢٣٥ ، المنصوري(ركن الدين بيبرس،الدوادار ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م) : التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة ،ط١ ،١٩٨٧ ،ص٥٣-٥٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ،ص ٥٤٦ -٥٤٧

جنوده به حيث أنه عمد إلى مكافأتهم مادياً، كما أنه أقطعهم إقطاعات عديدة، ومنحهم هدايا ثمينة(١).

رسمت النجاحات العسكرية للمماليك في بلاد الشام ومصر خريطة للأوضاع السياسية، وجعلت السلطة السياسية سلطة قوية، فرضت هيبتها على معظم القوى الموجودة في المنطقة، سواء أكانت قوى داخلية أم خارجية .

وكانت يافا هي المحطة التالية بعد أرسوف، فتوجّه بيبرس إليها لأهمية موقعها كميناء هام لبيت المقدس، فهاجمها بذرائع مختلفة منها: أن أهلها يحملون الميرة إلى عكا، إضافة إلى أن أهلها استحدثوا حانه فيها، واستخدموا فيها بعض النساء المسلمات، فأرسل إليه صاحب يافا، رسل وذلك من أجل استمرار الهدنة مع ولد صاحب يافا، ولكن السلطان رفض ذلك، وقال له: ((الذي كان عقد معي صلحاً قد مات)) فاعتقلهم، وأمر جنده بالتوجه نحو يافا على حين غفلة من أهلها، فأحاط بها من كل جانب، وهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها، فدخل السلطان المدينة(٢) ولما اطلع أهل القلعة على مجريات الأمور، طلبوا من السلطان الأمان، فأمنهم ولكنّه صادرهم فأخذ منهم أربعين ألف درهم، بعدها غادروا بحراً في المراكب باتجاه عكا، وفي النهاية تم إسقاطها سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م ولم تنج يافا من الهدم، والخراب، شأنها في ذلك شأن العديد من المراكز الساحلية الشامية خشية أن تكون مطمعاً للصليبيين من جديد، وهكذا فإن سياسة التخريب المتبعة حينذاك أملتها ظروف المواجهة الحربية بين المسلمين وأعدائهم(٣).

و ذكرت المصادر بأن يافا قد هُدِمت سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، ولكن الهدم جزئياً وليس كلياً، والدليل هو بقاء القلعة ومباني أخرى قائمة، أو ربّما تمّ إعادة إعمارها من جديد، إثر ذلك أمر السلطان بجمع أخشاب القلعة، ورخامها، ونقله عن طريق البحر إلى القاهرة حيث استعمل الخشب في بناء مقصورة الجامع الظاهري بالحسينية، والرخام لمحرابه، بعد ذلك أمر بيبرس

---

(١) – جوزيف دي كانس: رسائل صليبية من الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٥، ص٣٦٣، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص٥٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، حمدي: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٧٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢١١.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٢–٢٩٣ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٥٥، ، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٢٤٢، جـ٧، ص٢٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٥٤١، الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص١٨٤.

(٣) – المقريزي: السلوك، جـ١، ق٦، ص٥٥٩، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٣٣– ٣٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١١٧–١١٨.

ببناء الجوامع بيافا، وإظهار شعائر الإسلام فيها، وإزالة المنارات منها، ورتب الخفراء على سواحلها وألزمهم بحمايتها، و أمر بصرف المال الذي حصله لصالحها ثم قسّم المدينة، وأقطعها لعدد من أمرائه(١)، أقلقت انتصارات بيبرس الإمارات الصليبية، حتى رغب فرسان الداوية في عقد صلح مع السلطان الظاهر بيبرس، ولهذا فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس من تحقيق إنجازات عملية عظيمة ضد الصليبيين تمثلت في تحرير أجزاء مهمة من البلاد العربية الإسلامية التي كانت تحت أيديهم، ولكن هذا المسار ما لبث أن اختلف بعض الشيء في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م إذ أن طابع العنف والقتال قل في هذه السنة حيث هدأت حدة الصراع، وواكب ذلك الكثير من المفاوضات، والمهادنات التي كان من الطبيعي أن تبدأ من جانب الصليبيين الذين ذاقوا مرارة الهزائم المتلاحقة ، إضافةً إلى أن السلطان بيبرس قد سمع بنية المغول في الإغارة على حلب (وهذا ما حدث بالفعل أوائل سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م(٢)) تفادياً من الاشتباك مع عدوين قويين في وقت واحد هذا ما دفعه إلى الموافقة على عقد الصلح مع كل من :

١-ملكة بيروت إيزابيلا دي إبلين Ezabella de Eblin ، مقابل إطلاق سراح جماعة من التجار مع أموالهم كانوا قد أسروا في وقت سابق، و هم أهل لأحد قادته .

٢-أمير صور فيليب دي مونتفورت Philip de Montfort، مقابل دفع مبلغ كبير من المال، وإطلاق سراح عدد من الأسرى المسلمين .

٣-طائفة الاسبتارية بحصن الأكراد والمرقب ، مقابل امتناعهم عن أخذ الأتاوات من بلاد الدعوة، وحماه، وشيزر، وأفاميا .

ابتدأت تلك المهادنات سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م، والتي كانت مدتها عشر سنين، وعشرة أيام و عشر ساعات، وهي المدة التي جرت العادة تحديدها في تلك الحقبة من التاريخ (٣).

من خلال استقراء نصوص تلك الهدنات يُلاحظ اختلاف موازيين القوى العسكرية والسياسية لكل من الفرنجة و السلطة السياسية لدولة المماليك، وبناءً على ذلك الاختلاف تعامل الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسياستين مختلفتين: فبينما هادن الاسبتارية وأمن جانبها في وقت من الأوقات رفض مهادنة الداوية(٤) مما جعله مطلق اليدين في مهاجمة الداوية وربما هدف من

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١-١٢٢.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥-٦.

(٣)-ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر،ص٢٨١-٢٨٣ ، المقريزي : السلوك ، جـ١، ق٢، ص ٥٥٩-٥٦٠ ، ابو عليان ، مسيرة الجهاد ، ص ٤٦

(٤) – قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٢-١٠٣.

وراء ذلك إدخال التفرقة والانقسام داخل صفوف الصليبيين في الشام. ولم تكن تلك المرة الوحيدة بالنسبة لسياسة الكيل بمكيالين بل تكررت مراراً، فقد هادن بيروت وصور، بينما رفض مهادنة عكا وطرابلس، وأنطاكية ويافا، مما أتاح له فرص استئناف العمليات العسكرية ضد الصليبيين وتحرير تلك المناطق في سواحل بلاد الشام الشمالية، والجنوبية[1]. بعدها تابع الظاهر مسيره باتجاه حصن الأكراد- قلعة الحصن، وذلك لأنها تحتل موقعاً إستراتيجياً هاماً على الطرق المؤدية إلى إمارة طرابلس، وباعتباره كان قد خطط لاسترجاع جميع الممتلكات الموجودة بيد الصليبيين، فإنّ هذه القلعة شغلت جُلّ اهتماماته في مشروعه وهو طرابلس، لأنها نقطة ارتكاز رئيسية، وكانت تحكمها طائفة الاسبتارية فعلى الرغم من حصانتها، وضعفها، إلا أن قواته استطاعت أن تجد لها طريقاً للوصول إلى باب السور الخارجي بعد قصف شديد، وعنيف، ثمّ شقّت هذه القوات طريقاً باتجاه السور الداخلي، فقتلت كل من صادفها من الفرسان المدافعين عن البرج، واستمرّ عدد من الجند المدافعين في محاولة الاحتفاظ بالبرج الكبير، الذي يقع في الجنوب من السور، وأخيراً أعلنوا استسلامهم. وتقرّر إرسالهم بأمان من السلطان بيبرس إلى طرابلس، وكان استيلاء بيبرس على حصن الأكراد حدثاً مهماً، وعاملاً ضَمِنَ له السيطرةِ على الطرق المؤدية إلى طرابلس، ولم تكن باقي القلاع ذات المركز العسكري، أو التجاري الهام، بمنأى عن طريق ومسير بيبرس، فلقد لحقت عكار بالحصن، حيث كانت تحكمها الاسبتارية، وكان سقوطها إثر حصار استمر أسبوعين[2].

٢-تحرير أنطاكية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧ م :

كانت أنطاكية إحدى المدن الساحلية الموضوعة في مخطط الدولة المملوكية، وكانت تعد من أكثر مدن الشام تحصيناً، فالمرتفعات تحيط بها من جهتي الجنوب، والشرق، ويحرسها سور بالغ التحصين مما جعل اقتحام المدينة أمراً في غاية الصعوبة.

ولكن هل كانت إمارة أنطاكية في شمال الشام بمأمن من غارات وهجوم بيبرس، أم أنّها كانت ضمن الخطة الموضوعة لإسقاط ما بقي للصليبيين من ممتلكات ومناطق؟

قصد بيبرس من الهجوم على أنطاكية معاقبة الأمير الصليبي بوهيموند السادس، الذي انضمّ إلى صهره هيثوم الأول، ملك أرمينية الصغرى، وتحالفا مع المغول، وساعدهم في اكتساح

(١) – عوض: الحروب الصليبية، ص٣٣٣- ٣٣٤.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤-٥، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١-١٢٢، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٨٧-١٨٨.

بلاد الشام[١] هذا بالإضافة إلى أنّ بيبرس كان العمل كان قد قطع كل أمل للقوى الصليبية في الساحل، وبالأخص بوهيموند نفسه الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في طرابلس في محاولة الحصول على أية مساعدة ممكنة خارجية من أرمينية الصغرى، كما أنّ السلطان الظاهر بيبرس بعد أن لمس تخاذل الصليبيين، واستكانتهم، وضعفهم، أراد أن يقضي على تلك الإمارات الصليبية في المشرق الإسلامي الواحدة تلو الأخرى.

دفعت الحصانة التي تمتعت بها أنطاكية بالسلطان بيبرس بتطبيق خطة عسكرية متقنة للاستيلاء عليها، مُقسّماً جيشه إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : توجه لفتح السويدية ، حتى يقطع الاتصال بين أنطاكية والبحر .

القسم الثاني : تحرك باتجاه دروب الشام لسد ممرات بلاد الشام ، ولمنع وصول إمدادات من مملكة أرمينية الصغرى لنجدة المدينة .

القسم الثالث : توجه بقيادته نحو أنطاكيّة لإطباق الحصار عليها .

ولكن الصليبيين أبدوا تصميمهم في الدفاع عن أنطاكية، وحينئذ أنذر السلطان الظاهر بيبرس المدينة ثلاثة أيام، ثم أمر قواته بالزحف ضد المدينة من كل جانب، وذلك في ٤ رمضان سنة ٦٦٦هـ/ ٨ أيار ١٢٦٧م وقد تولّى أمر الدفاع عن مدينة أنطاكية الكندسطبل سيمون فانسل، وعندما وصل الظاهر ومن معه من القوات إلى أنطاكية قام بالخطوة الثانية، وهي الاستيلاء على ميناء السويدية من جهة، ومن جهة أخرى قام بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى المدينة ليمنع وصول أية نجدات برية ،بينما قاد بيبرس شخصياً الجيش المملوكي الرئيسي، وبدأ في تطويق المدينة، وفي هذه الآونة كان بوهيموند موجوداً في طرابلس فتسرع سيمون قائد القوات في أنطاكية، وخرج لملاقاة القوات المملوكية، ولكنه أخفق في مهمته، ووقع في الأسر[٢]، فطالبوه بإعطاء الأوامر بتسليم المدينة، ولكن رجال الحامية رفضوا هذا الطلب، وبدأت القوات المملوكية في مهاجمة المدينة من جميع الجهات، ونجحت في فتح ثغرة في سور المدينة، فتدفقت القوات المملوكية إلى داخل المدينة، وتمكنت من فتح الأبواب لدخول بقية

---

(١) – الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص١٢٧، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٢٩– ١٣٠، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٣٩– ٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٠.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٢٩–١٣٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٦٧–٥٦٨، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٨٩– ١٩٢، العسلي: الظاهر بيبرس، =ص٣٩–٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٣٣، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص٢٠٦–٢٠٧.

القوات، وأعقب دخول الجيش[١] إغلاق الأبواب حتى لا يهرب السكان، فلجأ بعضهم إلى القلعة الواقعة أعلى الجبل، وأنزل المماليك القتل بأهل المدينة، ومن نجا من القتل وقع بالأسر .
اجتمع بالقلعة عدد كبير من الصليبيين المقاتلين غير النساء والأطفال ، وكانت القلعة ضيقة، فتزاحم الصليبيون وشح عندهم الماء، و قلت الأزواد ، فبعثوا إلى السلطان بيبرس يعلنون استسلامهم، و يطلبون منه الأمان من القتل ، على أن يؤخذوا أسرى ، فقبل السلطان ذلك وأخليت القلعة من الصليبيين ، وتسلم كل أمير جماعة منهم، و تسلم السلطان القلعة بنفسه، وأمر بحصر الغنائم. و قسّمها بين أفراد جيشه.

وكان استيلاء السلطان الظاهر بيبرس على انطاكية أعظم فتح حققه على حساب الصليبيين في بلاد الشام، بعد انتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين، و استرداد بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م . لذلك كان لهذا النصر العظيم رنّة فرح عظيمة بين المسلمين حيث أقيمت الزينات، والأفراح ابتهاجاً بذلك النصر ، أما بالنسبة للصليبيين فقد كانت استعادة أنطاكية منهم أعظم من مجرد كارثة حربية، فبصرف النظر عمّا كان لهذه المدينة من مكانة كبرى في تاريخ المسلمين بصفة عامة، فقد كانت أولى الإمارات التي أسّسها الصليبيون في الشام الإسلامي إبّان الحملة الصليبية الأولى، و هي من ذلك بقيت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين في بلاد الشام، لذلك جاء سقوطها على يد بيبرس بمثابة إنذار بانهيار البناء الصليبي بالشام .

وبذلك سقطت أنطاكية بعد مئة وسبعين عاماً، عانى فيها الصليبيون نتيجة الخلافات مع الإمبراطورية البيزنطية من جهة، والخلافات بين الأمراء الصليبيين من جهة أخرى، وشكل سقوطها صدمة كبيرة للصليبيين من جهة، وللغرب الأوروبي من جهة أخرى، و بعد سقوطها تمكن السلطان الظاهر بيبرس من كبح جماح الغرب الأوروبي الذي كان حكامه ينظرون بين آونة وأخرى بعين العطف للصليبيين الموجودين في ساحل بلاد الشام، وذلك بإرسال المدد والنجدات إليهم لتقوية الروح الصليبية في نفوسهم.

ج- المعاهدات بين بيبرس و فرنجة طرابلس وعكا :

ومهما يكن من أمر فإن الانتصار العظيم الذي أحرزه بيبرس ضد الصليبيين الوافدين إلى عكا، جعله يسير نحو تحقيق هدفه الأسمى، وهو تصفية ممتلكات بوهيموند السادس الذي لجأ إلى طرابلس عقب استيلاء المسلمين على أنطاكية، فبعد أن اطمأن السلطان الظاهر بيبرس على حدود مصر الغربية بعد إخفاق حملة لويس التاسع على تونس ، غادر القاهرة في جمادى

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٢٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧،ص ١٢٩-١٣٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٠، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٩١-١٩٣.

الآخرة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م قاصداً بلاد الشام حيث دخل دمشق في رجب من السنة نفسها، وخرج للإغارة على طرابلس[١]، ولعل هدف بيبرس من هذه الغارة كان هو إشغال صاحبها بوهيموند السادس بالدفاع عنها، وصرفه عن مساعدة الحصون القريبة منها التي كان بيبرس ينوي السيطرة عليها ليسهل عليه بعد ذلك إحكام الحصار حول طرابلس نفسها وشن عليها الغارات فخرب قراها، وقطع أشجارها، وغور أنهارها، ثم توجه إلى حصنها ولم يجرؤ حاكمها بوهيموند السادس على منازلته، فعمد بيبرس إلى مهاجمة القرى المحيطة بها، وغنم منها غنائم ويبدو أن تلك الغارة السريعة التي نفذها السلطان الظاهر بيبرس على ممتلكات بوهيموند السادس في طرابلس وما حولها، والتي لم يبد بوهيموند أي مقاومة ضدها، أظهرت ما كان عليه الأمير الصليبي من الاستكانة والضعف، فسارع حاكمها بوهيموند السادس إلى طلب الهدنة مع بيبرس ، لأنه خشي أن يحل بطرابلس ما حل بإمارة أنطاكية فعقدت الهدنة بين الطرفين سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١ م و قد تضمنت :

١-يكون ساحل طرطوس، والمرقب، و بانياس، وبلاد هذه النواحي مناصفة بين بيبرس و بين فرقتي الداوية والاسبتارية .

٢-تكون عرقة وجبلة وأعمالها للأمير بوهيموند ، مع التأكيد بأن عرقة و أعمالها و هي عبارة عن ٥٦ قرية صدقة من السلطان. و بعد عقد هدنة مع أمير طرابلس عاد بيبرس بجيشه إلى حمص ونزل عليها في ٢٧ شعبان سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م[٢] وتفقد أحوالها، ومن الواضح أن بيبرس كان ما يكاد ينته من إخضاع مدينة أو منطقة حتى يظهر له خطر منطقة أخرى، فبعد انتهائه من طرابلس استشعرت عكا خطر قدومه فبدأت المساعدات تتدفق عليها من قبرص وأوروبا، كما عمد الصليبيون إلى تحصينها، لأن سقوطها كان يعني نهاية وجودهم في المشرق،

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٦٣– ٣٦٤، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥١– ٢٥٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٧– ١٤٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٧– ٥٦٨، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٩٥–١٩٦.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٧– ٣٨٩،ابن عباس (شافع بن علي ت .٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م) حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط٢,١٩٨٩ م ، ص ٢٨٢ أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٩٦– ١٩٧، العسلي: الظاهر بيبرس، ص٣٨– ٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٢٩– ٣٣٠، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢١–١٢٣، العسلي (بسام):فن الحرب الإسلامي (أيام الحروب الصليبية)، دمشق ،دار الفكر،ط١ ،١٩٨٨م، ج٤ ، ص ٢٤٥ .

كما أنّ وصول نجدات أوروبية إليها أشعرتهم بالقوة، لكن الظاهر بيبرس استبق تحصيناتهم، وخططهم، وأمر قواته في صفد بالإغارة على عكا[١] واستدراج قواتها إلى كمين أعدّه لهم، وقاده شخصياً، ونُفِّذَتْ الخطة بإحكام، وأنزل بيبرس ضربة شديدة بالصليبيين، ويبدو أن بيبرس أدرك عدم قدرته على الاستيلاء على عكا ولاسيّما وأنّ الدولة مهدّدة بين خطرين، خطر المغول الذين يقومون بغارات سريعة أو اجتياحات لمدن عديدة من جهة، وخطر الصليبيين من جهة أخرى .

من الجدير ذكره أن الانتصارات العسكرية للدولة المملوكية فرضت على الصليبيين سياسة الأمر الواقع ، فالسياسة يرسمها الأقوى، و الأقدر عسكرياً، واقتصادياً، و اجتماعياً. و هذه السمات اجتمعت في سلطة المماليك باعتبار أن هؤلاء وإن كانوا غرباء الأصل إلا أنهم اندمجوا مع العامة، و الناس سواء أكانوا حكاماً، أم غير حكام فإنّهم سارعوا للدفاع عن أرضهم، و ممتلكاتهم، و تصدوا للمحتلين، والغاصبين لأرضهم المستوطنين في بعض ممتلكات الدولة.

من جهة أخرى ونتيجة لإخفاق تحالف الصليبيين مع المغول، وإثباته عدم جدواه، ولشراء سلامتهم اضطر فرنجة عكا إلى توقيع اتفاق، أو هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات، وعشرة أشهر تبدأ من رمضان سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م وتتضمن:

١- احتفاظ مملكة عكا بممتلكاتها الحالية المؤلفة من السهل الساحلي الضيق الممتد من عكا إلى صيدا.

٢- منح حكومة عكا حق استخدام طريق الحجاج إلى الناصرة إضافة إلى الوفاء من كلا الطرفين[٢].

٣- تستمر الهدنة عشر سنوات، و عشرة أشهر، و عشر ساعات[٣]

و الواقع أن هذه الهدنة جاءت بمثابة فصل ختام مؤقت في العلاقات السياسية والعسكرية بين كل من الدولة المملوكية و القوى الفرنجية في الساحل الشامي ، فقد توقف القتال بين الطرفين و استمر الوضع على هذه الحال حتى وفاة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م

---

(١) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٧– ٣٨٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٥–٦، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠–١٢٢، الغامدي: جهاد المماليك، ص١٩٦– ١٩٩.

(٢) – زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، اسماعيل (اكتمال): حروب الفرنجة الصليبية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٥–١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٤–٢٠٠٥م، ص٣٨٦.

(٣)– ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص ٣٨٩ ، اليونيني(قطب الدين موسى بن محمد ٧٢٦ هـ/١٣٢٥ م): ذيل مرآة الزمان ، تحقيق وزارة التحقيقات والأمور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر باد، دار الكتاب الإسلامي ، ط١ ،١٩٦٠م ، جـ٢، ص٤٧١، المقريزي: السلوك،ج١، ص٦٠٢ ، العيني(بدر الدين محمود ت= ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، د.ط ، ١٩٨٧م ، ج٢ ، ص ٤٧١ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٥٧٨

ب- استرداد المناطق الإسلامية أو المدن والقلاع الساحلية

١- في عهد قلاوون ٦٧٦ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٩٠ م.

عمد سلاطين المماليك إلى إتباع سياسة خارجية معتدلة، تتمثل بعدم معاداة الإمارات والممالك المجاورة، أو حتى بعض ملوك الغرب الأوروبي في بعض الأحيان، فقد توصل الظاهر بيبرس إلى مصادقة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليوغس الثامن Mikael Baleiogs VIII، و تابع المنصور قلاوون هذه السياسة من بعده، وذلك ليستعين به على الصليبيين، فبعث: رسالة إلى الإمبراطور يُعلِمُه فيها بتوليه السلطنة المملوكية، ويمد إليه يد الصداقة والتعاون، فأرسل إليه كتاباً يطلب فيه مودته، وُيظهِر استعداده لتسهيل السفر على رسله التي تمر ببلاده.

واستمرت سياسة قلاوون الودية تجاه الدولة، أو الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة ميخائيل وتحديداً في عهد ولده الإمبراطور أندرونيكس الثانيAndronex II (٦٨١-٧٢٩هـ/ ١٢٨٢-١٣٢٨م)، الذي سار على سياسة أبيه في التماس ود السلطان المملوكي[١]. ولم ينفرد البيزنطيون بخطب ود السلطنة المملوكية لأغراض متعددة عسكرية، تجارية وغيرها، بل سارع إلى خطب ودّها بعض الإمارات المسيحية بإسبانيا مثل قشتالة، وأرغونة، إضافة إلى ملك فرنسا وإمبراطور النمسا وغيرهم من الأمراء والملوك.

ففي سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م أرسل ألفونس صاحب قشتالة رسولين إلى السلطان قلاوون الذي أحسن ضيافتهما، وأجزل لهم العطايا، ولم تقتصر تلك العلاقات على إرسال الرسل بل استمرت بينهما معاهدة دفاعية في السنة نفسها.

كما ارتبطت مملكة أرغونة بعلاقات الود والصداقة مع السلطنة المملوكية، فقد عقد ملكها وملك صقلية اللذين كانا أخوين معاهدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أي حرب صليبية، كما حرص جيمس الثانيJames II ملك أرغونة على تكوين صداقة قوية مع السلطان المنصور قلاوون من أجل رعاية شؤون المسيحيين في الشرق، وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها في مصر.

ووفقاً لسياسة الدولة المملوكية الخارجية فقد لجأ السلاطين المماليك إلى الدبلوماسية، وذلك بعقد اتفاقيات صداقة مع بعض الملوك منها معاهدة الصداقة بين السلطان المنصور قلاوون،

---

(١) - ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٠-٥٤، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٠٣، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٥٩-٢٦٠، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠- ١٢١، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥٤- ٢٥٥، عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص٢٦٠.

وفيليب الرابع (٦٨٤- ٧١٤هـ/ ١٢٨٥- ١٣١٤م) ملك فرنسا، و الامبراطور رودلف إمبراطور النمسا[١]، أما على الصعيد الداخلي فكان الأمر يختلف تماماً، فقد رفضت التسويات ورفضت الاتفاقيات مع الكيانات الصليبية في الشام، وذلك انطلاقاً من خطط التحرير والاسترداد. لذلك تابع المنصور قلاوون سياسة بيبرس في تحرير المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية، وفي القضاء على ما تبقى من كيانات لهم في بلاد الشام، وذلك بالاستيلاء على طرابلس، ومناطق عدة كقلعة المرقب وميناء اللاذقية، وغيرها، ليكمل ابنه الأشرف خليل من بعده استيلائه على عكا سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م[٢].

أ- تحرير قلعة المرقب سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م.

قبل الخوض في تفاصيل سياسة المنصور قلاوون تجاه البلاد عامة ، والمناطق الساحلية الشامية خاصة، لا بدَّ من رسم الصورة الحقيقية للأحداث العسكرية آنذاك ، لأن العلاقة تشاركية بين السياسة، والوقائع العسكرية باعتبار الأخيرة هي التي فرضت رسم تلك الصورة السياسية في ذلك الوقت .

لكن هل اختلفت استراتيجية المنصور قلاوون وخططه العسكرية عن الظاهر بيبرس في تحرير ما تبقى من أراضي، ومناطق، وكيانات من أيدي الصليبيين، أم أنّها بقيت على حالها؟

كانت بداية التحرير، والاسترداد في عهد قلاوون لقلعة المرقب التي تعد من أكبر، وأضخم القلاع الصليبية في بلاد الشام بصفة عامة، ويقال بأنّها بلدة، وقلعة تشرف على ساحل المتوسط[٣]. وتؤكد المصادر أن فرسان الاسبتارية سيطروا على ذلك الحصن المنيع[٤]. وبناءً على المعطيات المتوفرة عند قلاوون فقد اضطرّ إلى اتّخاذ إجراءات تناسب الوضع الميداني للصليبيين في تلك القلعة، فكانت استعداداته ضخمة، لكنّه اتجه في البداية إلى عقد هدنة مع الاسبتارية في الحصن سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، وذلك بسبب انهماكه في محاربة المغول من جهة، وتعاون الاسبتارية مع أعداء المسلمين من جهة أخرى، غير أنّ هذه السياسة تغيرت بعد

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٤، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥٤- ٢٥٦، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٧.

(٢) – اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٤٤، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٢٢٠-٢٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠٠، سليمان، ص٩-١٠.

(٣) – أثناسيو: سوريا الشمالية، ، ص٥٧٧.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٠٥، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٤٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٧.

ذلك، فاتّجه إلى إسقاط المرقب عسكرياً، ومن الواضح أن إسقاط هذا الحصن الذي اشتهر بالمنعة والحصانة جاء دليلاً على تمسّك أسرة قلاوون بتحرير ما أخذه الصليبيون منها، وكذلك أثبتت تلك الحادثة أن الكيان الصليبي بدأ يظهر عليه الوهن، والضعف، وأنّه آخذ في الانهيار على أيدي قادة الجهاد العربي الإسلامي، ويكفي أن يذكر أن تلك القلعة المنيعة كثيراً ما شكلت تهديداً في مراحل قوة الصليبيين على أملاك المسلمين المجاورة لها[١].

كانت القلعة في غاية العلو، والارتفاع، ولم ينجح أحد من الملوك السابقين في فتحها[٢] وعلى الرغم من هذا فقد صمم قلاوون على مهاجمة القلعة ففي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، فوصل بجيش كبير إلى أسفل الجبل الذي تقع عليه القلعة، ونصب عليها المجانيق العديدة على جانب التل، وبدأ في دك أسوار القلعة بشكل متواصل، ومع استمرار الضرب الكثيف فإنه تعذر السيطرة عليها طوال شهر كامل، لأنّها كانت في غاية المناعة[٣]، فعمدت القوات المملوكية إلى إحداث فتحة أسفل أحد الأبراج، وهو البرج المعروف باسم برج الأمل الذي يقع في الزاوية الشمالية للقلعة، ثم وُضِعَتْ الأخشاب سريعة الاشتعال في هذه الفتحة وأُشْعِلَتْ فيها النار، فبدأ البرج بالتداعي، مما أثّر في بقية استحكامات القلعة، ولم يسع الحامية إلّا طلب الأمان[٤] فوافق السلطان المملوكي المنصور قلاوون على طلب الحامية، وخرج فرسان الاسبتارية في كامل عدتهم العسكرية، أمّا بقية الحامية فخرجوا دون أن يحملوا معهم شيئاً، ودخل قلاوون القلعة في ربيع الأول ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م[٥].

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٤، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٢–١١٥، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٤٥، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠–١٢١.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٠–٨١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٣–٣٣٤، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥٥.

(٣) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب: ص١١٢–١١٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٦٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٤.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٦٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦.

(٥) – الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٤٦، الكتبي: فوات الوفيات، جـ٣، ص٢٠٣– ٢٠٤، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٨٠– ٨١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٧٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣، عميري (إبراهيم): سلسلة الجبال الساحلية، دمشق، دار الأقصى، ط١، ١٩٩٥م، ص٢١٤.

وقال في ذلك أحد المؤرخين الذي حضر هذه الأحداث ((وكان يوماً مشهوداً أخذ فيه [السلطان] الثأر من بيت الاسبتار)) [(١)] وممّا لا شك فيه أن ضياع هذا الحصن البالغ المناعة قد أضعف الصليبيين عسكرياً، لأنّه يشكل بالنسبة لهم مكاناً إستراتيجياً مهمّاً. ولهذا فقد عُدَّ سقوطه هزيمة وخسارة للصليبيين، ليس عسكرياً فقط بل سياسياً، فالقوة أو الضعف العسكري يقود إلى القوة أو الضعف السياسي. والقوة على الأرض هي التي تتحكم بقيادة دفة السلطة السياسة لأي دولة من الدول، أو أي إمارة، أو مقاطعة، وقد أثار سقوط هذه القلعة وتوابعها ذعر أمراء الصليبيين، فسارعوا إلى طلب السلام من المنصور قلاوون، وكان على رأس هؤلاء بوهيموند السابع أمير طرابلس الذي باتت حدوده الشمالية تحت تهديد الجيش المملوكي فقبل المنصور قلاوون طلبه ومنحه السلام[(٢)].

كان لظهور المماليك على هذه الصورة من القوة أثر كبير على قوة كانت تنظر إلى المنطقة نظرة ترقب وحذر، وهذه القوة هي المغول الذين أزعجهم الأمر أكثر مما أزعج الصليبيين فبادر إيلخان المغول أرغون بإرسال رسائل إلى الغرب يطلب فيها الاتفاق معهم على إرسال حملة صليبية، مقابل توجهه إلى الشام سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م، ويطلب من الصليبيين في الشام مطالبة الغرب الأوروبي بإعداد قواتهم، ولكن المراسلات بين الصليبيين في الشام والغرب الأوروبي استغرقت وقتاً طويلاً، ولم يكتب لمثل هذه الحملة أن تدخل حيز التنفيذ في الوقت الذي تلاحقت فيه الأحداث في بلاد الشام[(٣)].

ب-تحرير ميناء اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م.

كانت المحطة الثانية التي سيتم تحريرها من قبل المنصور قلاوون هي اللاذقية، ففي الوقت الذي كان فيه السلاطين المماليك يتأهبون للإجهاز نهائياً على الكيان الصليبي في بلاد الشام، لم ينتبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذي يتهددهم فاستمرّوا غارقين في منازعاتهم الداخلية، التي ميزت تاريخ الصليبيين في الشام في النصف الأخير من القرن السابع الهجري/

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١.

(٢) – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٨، عمران: الحروب الصليبية، ص٣٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٠، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨.

(٣) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٨٠-٨١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١-٢٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٥، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١١٩-١٢١.

الثالث عشر الميلادي. وقد انتهز السلطان قلاوون فرصة انشغال الصليبيين بتلك المنازعات، وأرسل حملة إلى اللاذقية للاستيلاء عليها[١].

ولقد تجمعت عوامل كثيرة دفعت قلاوون لمحاولة السيطرة على المدينة بمينائها. وهي أولاً: أن الميناء كان تابعاً لإمارة أنطاكية. وهو بذلك لم يدخل في الهدنة ، ثانياً شكوى التجار المسلمين للسلطان لعدم ارتياحهم إلى إرسال بضائعهم إلى الميناء الصليبي ثانياً، والسبب الثالث أن الزلزال الذي وقع في سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م[٢] دمر جانباً من سور المدينة، فأصبحت مكشوفة فضلاً عن كونها معزولة في الشمال عن بقية الممتلكات الصليبية، لذلك كانت الأوضاع السياسية ملائمة للبدء باستكمال ضم المناطق المحتلة من قبل الصليبيين إلى جسد الدولة، فقد بدأ قلاوون بتنفيذ الخطة الموضوعة بالنسبة للاذقية فقد أرسل في البداية نائب السلطنة حسام الدين طرنطاي[٣] بمن معه من العساكر المصرية، والشامية إلى قلعة صهيون[٤] الواقعة أقصى الشمال فحاصروها، وكان يقيم فيها سنقر الأشقر[٥]الذي امتنع عن الحضور لمساعدة السلطان قلاوون عند حصاره قلعة المرقب، الأمر الذي أثار حفيظة السلطان قلاوون، و بالرغم من أن سنقر الأشقر حاول إرضاء السلطان بإرسال ابنه ناصر الدين صمغار إلى خدمته، إلّا أنّ السلطان منعه من العودة إلى أبيه و أرسله إلى الديار المصرية و من ثم أصدر

---

(١) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٣٣، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٦.

(٣) – حسام الدين طرنطاي: هو طرنطاي بن عبد الله المنصوري، الأمير حسام الدين، ولاه المنصور قلاوون نيابة السلطنة بالديار المصرية في ١٤ رمضان ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، وكان هو المتصرف في مملكته وكان سديد الرأي، مفرط الذكاء، غزير العقل، فلما استقر الأشرف في السلطة أمسكه وبسط عليه العذاب إلى أن مات سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. ابن حبيب، جـ١، ص٤٩.

(٤) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٥١–١٥٢، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ٣٣٦.

(٥) – سنقر الأشقر: ولاه المنصور قلاوون نيابة السلطنة بدمشق، فدخلها في ٣ جمادى الآخرة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، وتسلطن وتلقب بالملك الكامل، وخرج عن طاعة الملك المنصور قلاوون، فاتجه الأخير إلى الشام، وترددت الرسل بين الملك المنصور قلاوون وبين سنقر الأشقر في تقرير قواعد الصلح سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م وفي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م جهز السلطان عدد من العسكر بالديار المصرية لحصار صهيون وعاد إلى الديار المصرية ثم قتل سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ٢٨٧م.

أوامره إلى الامير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بمصر لمهاجمة سنقر بحصن صهيون حيث نازلها طرنطاي، وراسل سنقر في تسليمها وأخبره بوعود السلطان له، فامتنع سنقر عن إجابته، فنصب طرنطاي المنجنيقات على الحصن حتى أشرف على أخذه بالقوة، وعندما شعر بعجز موقفه أرسل في طلب الأمان وسلم الحصن إلى الأمير حسام الدين طرنطاي الذي تابع أعماله المخطط لها سابقاً فسار إلى اللاذقية، و كانت مدينة حصينة، ولكن حدث في تلك الأونة أن وقع زلزال عظيم في جهة اللاذقية، فهدم الكثير من برجها الذي وسط البحر فاستغل عسكر حسام الدين طرنطاي ذلك و أخذوا في عمل الثغور من جهة الأمكنة التي هدمت و كشفت المدينة من جهة البحر ، فخاف من في داخلها وسلموا المدينة .

وبذاك استولى قلاوون على ميناء اللاذقية الذي كان آخر ما تبقى من ممتلكات أنطاكية الصليبية التي حررها الظاهر بيبرس من قبل(١)

وهنا سؤال يمكن طرحه كيف سيطرت القوات العسكرية والمملوكية والحليفة عليها بهذه السهولة؟

ربما يعود ذلك إلى أن الكيان الصليبي في بلاد الشام دخل مرحلة الانهيار ولم يكن بالإمكان إرسال النجدة من أوروبا لمساندة الفرنج، نظراً لانشغال ملوك أوروبا وأمرائها بمنازعاتهم، ومشكلاتهم الداخلية مما أدى إلى ضعف الفرنج وتسليم مواقعهم، يضاف إلى هذا ضخامة الاستعدادات، وتخطيط القيادة الحكيمة، بالنسبة للمماليك، وبالتالي فإنّ الإنجازات كانت توازي الاستعدادات، سواء بالمعدات أو بالرجال، ولا يمكن القول بمعارك ضخمة أدت إلى تحرير المناطق عسكرياً، أو إسقاطها سلمياً دون مؤازرة الناس في كل المناطق الشامية، التي حررت، فلا بدّ من وجود مؤيدين ساعدوها على معرفة نقاط الضعف لدى الأعداء.

ج- المهادنات بين قلاوون و فرنجة عكا وطرابلس:

عاشت مدن الساحل الشامي وضعاً مماثلاً لبعضها البعض في ظل الصليبيين فقد كانت موضوعة تحت مهادنات أو اتفاقيات مؤقتة ، أو سلام تنقضه بعض الخروقات العسكرية، بين الفينة والأخرى، من قبل السلطة السياسية المملوكية، و بناء على ذلك كان السلطان المنصور سيف الدين قلاوون قد عقد هدنة مدتها عشر سنوات مع الصليبيين في عكا، وهدنة أخرى مع بوهيموند السابع أمير طرابلس كان من شروطها:

---

(١) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٦، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧١.

١- تعقد هدنة بين بلاد السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح علي، وبين بلاد صاحب طرابلس لمدة عشر سنين.
٢- يقيم نواب السلطان، وصاحب طرابلس بمدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات، وتقسيمها مناصفة.
٣- على صاحب طرابلس ألّا يبني خارج مدينته، ولا في البلاد التي وقعت الهدنة حصناً، أو قلعة وكذلك يتعهد السلطان بألّا ينشئ قلعة تجاور البلاد التي وقعت هذه الهدنة.
٤- لا تنقض هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين، أو بانتقال الحكم إلى غيره.

إلّا أن قلاوون لم يلبث بنقض المعاهدة التي سعى بنفسه لعقدها عندما واتته الفرصة، فقد كان يرى في الفرنج عدواً احتل أرض الإسلام، وكانت بقايا الوجود الصليبي تتركز في إمارة طرابلس التي يحكمها أمراء النورمان، وبقايا حكام مملكة بيت المقدس التي اتخذت عكا عاصمة لها[1]. كرَّت مسبحة سقوط الكيانات الصليبية في الشام الواحدة تلو الأخرى، وإذا كان المماليك قد بدأوا بالهجوم على إمارة أنطاكية من الشمال، فإن طرابلس لن تنج من السقوط عاجلاً أم آجلاً.

د-تحرير طرابلس سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م :

وبعد سنتين من الاستيلاء على ميناء اللاذقية، خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم ((فتجهز لأخذ طرابلس))[2] وفرض حصاراً عليها. وشاء سوء حظ الصليبيين أن يموت بوهيموند السابع أمير طرابلس دون أن يترك وريثاً للعرش من بعده ، ليضع بذلك المسمار الأخير في نعش الصليبيين بطرابلس، وما حولها حيث أعلن فرسان طرابلس و تجارها قيام كومونه – أي حكم بلد مستقل – في طرابلس في الوقت الذي وصلت فيه الأميرة لوسي أخت بوهيموند السابع أمير طرابلس ووريثته، فاستنجدت بالاسبتارية حلفاء أخيها في محاولة لاستعادة حقها الشرعي في حكم طرابلس، و رد كومون طرابلس على ذلك بالاستنجاد بالجنوية ، بل إنّ صاحب جبيل ((بارثلميوا أمير باتشوا)) و رئيس الكومون الجديد لم يتردد في الاستنجاد

---

(١) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١١٨، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٢، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣١٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٦، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧١، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٣.

(٢) – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٧٣، قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص١١٩، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٣-٢٣٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٦-٣٣٧.

بالسلطان المملوكي المنصور قلاوون ، وأعطاه وعداً بأن يقتسم معه طرابلس بحال تمكّن من تحقيق مطامعه. فاستجابت جنوده لنداء أهل طرابلس بإرسال بعض سفنها لمساعدتهم. وذلك طعماً في تحقيق مكاسب تجارية من جرّاء السيطرة على مدينة طرابلس ، فضلاً عمّا في ذلك من أهمية في النزاع، و التنافس بينها، و بين البندقية، و لم يلبث أن عقد بارتيموا أمير باتشوا اتفاقية مع جنوه، أصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حماية الجنوية الذين حصلوا على كثير من الشوارع و الأسواق في المدينة، و كتب أهل طرابلس ما حصل إلى الأميرة لوسي التي كانت في عكا و لم يعلم الجنوية بهذا الاتصال الذي تم بين أهل طرابلس و لوسي إلا عن طريق لوسي نفسها ، التي أدركت أنه لا فائدة من عمل اتفاقية مع أهل طرابلس دون موافقة الجنوية ، و في المقابلة التي تمت بين رئيس الجنوية و الأميرة لوسي في صور أبرمت اتفاقية بين الطرفين وافقت لوسي بمقتضاها على جميع ما حصل عليه الجنوية من امتيازات في طرابلس ، كما أقرت الحقوق التي حصل عليها الكومون مقابل موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس . و كان أن أحس بارتلميوا صاحب جبيل أنه خرج من الصفقة خاسراً، وأنّ الغنيمة قسمت بين الجنوية، و الأميرة لوسي دون أن يكون له نصيب منها، خاصة و أنّه كان يطمع في الحصول على إمارة طرابلس ، بوصفه صاحب جبيل ، الأمر الذي دفعه إلى الاتصال بالسلطان قلاوون طالباً التأييد منه لتحقيق أطماعه في طرابلس .

ومن جانب آخر، فإنّ اتفاق الأميرة لوسي، و الجنوية، و ما أدى إليه من توطيد أقدام الجنوية في طرابلس، و هو ما لا يمكن أن يرضى عنه البيازنة والبنادقة فضلاً عن مقدمي الداوية، و الاسبتارية يؤيد ما أشارت إليه بعض المراجع الصليبية المعاصرة من ذهاب اثنين من الصليبيين – يرجح كونهما من البنادقة – إلى القاهرة حيث قابلا السلطان المنصور قلاوون، و حذراه من أن بقاء الجنوية في طرابلس يهدد تجارة الاسكندرية .

و هكذا أثبت الواقع مرة أخرى بأن تاريخ الصليبيين في بلاد الشام في القرن السابع الهجري ، و الثالث عشر الميلادي ، لم يكن سوى عملية انتحارية طائشة ، حيث غدت إمارة طرابلس بعد وفاة بوهيموند السابع في وضع يرثى له، فأمرُها أصبح في يد امرأة بسيطة تحيط بها طوائف صليبية متنافرة كل همّها تحقيق مكاسب اقتصادية حتى لو كان ذلك على حساب استقرار ما تبقى لهم من وجود داخل بلاد الشام .، في حين كان السلطان المنصور قلاوون يترقب أي عمل عدائي من جهة الصليبيين ليصبح حجة له بمهاجمتهم، وفي هذه الأثناء، وصلته رسالة من الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، تفيد بأنّ الصليبيين بطرابلس نقضوا الهدنة، واعتدوا على التجار المسلمين، وقطعوا الطريق على المسافرين، وأسروا عدداً من

المسلمين الأمر الذي أعطاه الحق في مهاجمة مدينة طرابلس[١]، وعندما علم الصليبيون بنيّة السلطان قلاوون بمهاجمتهم، تناسوا خلافاتهم، وتكتلوا للدفاع عن طرابلس، واستصرخوا إخوانهم الصليبيين في كل مكان لينجدوهم، فأرسل لهم هنري الثاني ملك قبرص أخاه عموري بصحبة نجدة عاجلة من فرسان الجزيرة على ظهر أربع سفن حربية، كما أسرع الاسبتارية رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس إلى تقديم المساعدة، والمشاركة في الدفاع عن طرابلس، وكذلك تناسى الجنوية، والبيازنة، والبنادقة خصوماتهم مع بعضهم، حيث أرسل الجنوية أربع سفن حربية، والبنادقة سفينتين، والبيازنة بعض السفن الصغيرة لحماية طرابلس من ناحية البحر، وازدحمت المدينة بالصليبيين والوافدين إليها من كل جهة، وباللاجئين من سكان القرى التابعة لها، ومن المدن والقرى التي كان قد استولى عليها السلطان قلاوون من أيدي الصليبيين.

ولم يأبه المنصور قلاوون بتلك الاستعدادات الصليبية داخل طرابلس، إلّا أنّه قرّر أن ينهي أمرها، فخرج بالجيوش المصرية من قلعة الجبل ، وخيم بظاهر القاهرة يوم الخميس العاشر من محرم سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م ، ثم وصل بعد أن استكمل استعداداته ، يوم الثلاثاء في الخامس عشر من محرم قاصداً بلاد الشام، و في الوقت نفسه كتب إلى جميع النواب في الممالك الشامية، و الحصون الإسلامية يأمرهم بتجهيز العساكر، و إرسال المنجنيقات، و آلات الحصار إلى طرابلس ، ثم وصل السلطان بالجيوش إلى دمشق في يوم الاثنين الثالث عشر من صفر من السنة نفسها ، وبعد أن استراح بها أسبوعاً، تكامل خلاله وصول الجيوش الشامية إليه ، رحل منها يوم الاثنين العشرين من صفر على رأس جيوشه متوجهاً إلى طرابلس .

وصل السلطان قلاوون بقواته إلى مشارف طرابلس، و لم يلق في طريقه أي مقاومة تُذْكَر ، فقد آثر الصليبيون التحصن داخل أسوار المدينة ،و بالرغم من أن المدينة كانت في غاية الحصانة إلّا أن القوات المملوكية، بكثرتها واستعداداتها الضخمة تفوقت عليها[٢]، فضلاً عمّا تمتلك من أدوات الحصار، و البحر يحيط بالمدينة، فلا وجود لقتال برّي إلّا من الجهة الشرقية، وهو جزء

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، المقريزي : السلوك ،جـ١، ق١، ص٧٥٣-٧٥٤ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢٠-٣٢١، عاشور: الحركة الصليبية، ص١٧٢، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، قاسم: عصر سلاطين المماليك ، ص١٢١ .

(٢) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧-٣٠، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣-٢٤ ،المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٢٧- ٧٢٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨٥، عاشور الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٣- ١١٧٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٥٥-٢٦٠.

قليل لذلك بدأ قلاوون بنصب المجانيق الكبار، والصغار، ولازمها بالحصار[١] و بدأ الرمي على المدينة في حين واصل النقابون و الحجارون والزراقون عملهم و تمكنوا من فتح ثغرات في سور المدينة الشرقي، وشدد عليها الهجوم فانهار برج الأسقف القائم في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية ثم انهار أيضاً برج الاسبتارية عندئذ أحس البعض أنه لا سبيل إلى المقاومة فبادروا بشحن أمتعتهم، وأقلعوا بحراً خارج الميناء مما أدى إلى فزع السكان، فهرب بعضهم عن طريق البحر، خاصة البنادقة، والجنويون، وأمام ما شاهده السلطان قلاوون من هذه الصور المخزية للصليبيين، والباعثة لآمال المسلمين في التحرير والانتصار، وبعد انهيار جانب من السور أمر باقتحام المدينة[٢]، وعلى الرغم من الذعر الذي ساد المدينة فقد حاول من فيها الوصول إلى بعض السفن الراسية في الميناء، ولكنّهم أخفقوا في المحاولة، وأنزلت القوات المملوكية القتل بكل رجل وجدوه في المدينة، وتم سبي النساء والأطفال.

ويروي أحد المؤرخين الذي شاهد هذه الأحداث ((أنّه لما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة، وإلى الكنيسة التي فيها، عالم عظيم، واقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا النساء والصغار))[٣] وأخيراً سقطت طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م[٤].

---

(١) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٣، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٠٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٧.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٣، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٠٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٧–٢٣٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧–٢٧٨.

(٣) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٢٠–١٢٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧.

(٤) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٢٠–١٢٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٥، الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٥٦– ٣٥٧، الكتبي: فوات الوفيات: جـ٣، ص٢٠٣– ٢٠٤، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢٠–٣٢١، عاشور (سعيد): أضواء جديدة على الحروب الصليبية، د.م، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ص٤٤، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨.

وكان ذلك من خلال إشراك المماليك بجيش ضخم العدد قدّره البعض بأربعين ألفاً من الفرسان، ومئة ألف من المشاة، وقد يكون هنالك مبالغة في مثل تلك التقديرات الرقمية، لأنّها عادة عند بعض المؤرخين الذين كتبوا عن الحروب، والحوادث، هادفين لإظهار عظمة الجانب العربي الإسلامي الذي يؤرخون له ، ولكن يمكن القول أنه إذا وجدت القيادة العسكرية الحكيمة، والإرادة والتصميم للتحرير، وطرد المحتل فلا بدّ من الانتصار، وقد أورد المؤرخون أن تلك الإمارة الصليبية حوصرت مدة تسعة وثلاثين يوماً، ولا مراء في أن سقوط تلك الإمارة يعد متأخراً بالمقارنة مع الإمارات الصليبية الأخرى التي سقط البعض منها في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كما حدث بالنسبة **لإمارة الرها وهنا يمكن التساؤل عن سبب تأخر سقوط إمارة طرابلس؟**

يقال أن هناك عوامل كثيرة أخرت سقوطها، وأول تلك العوامل موقعها الجغرافي الذي أكسبها حصانة طبيعية، فهي محاطة بالبحر من ثلاث جهات لذلك هي متصلة كما أنها مطلة على البر شرقاً، لذلك فهي تتلقى إمدادات برية وبحرية، يضاف إلى ما سبق وجود قلاع صليبية حصينة تدافع عنها كذلك لا يمكن إغفال الوجود المسيحي المحلي (الموارنة) المتمثل في تقديم المساعدات للصليبيين كل ذلك دعم تلك الإمارة وأطال أمد سقوطها. و الجدير بالذكر أن كل المصادر و ليس بعضها تركز على التواجد الصليبي في المدن الداخلية، والساحلية الشامية، إلّا أنّها أغفلت ذكر مصير السكان المقيمين بها قبل وجود الفرنجة، **و ماذا كان مصيرهم هل بقوا فيها ؟ هل التجأوا إلى مناطق أخرى أكثر أمناً و استقراراً؟**

على مر العصور تبقى أقلام المؤرخين مقصرة في تقديم معلومات عن أعمال، و مصير الأسر المحلية التي هي بالأساس جديرة بتأريخ ما قدمته لمدنها، و بلادها .

بعد استعادة السيطرة على طرابلس، أمر السلطان قلاوون بهدم المدينة وتسويتها بالأرض حتى لا يحاول الصليبيون الاستيلاء عليها مرة أخرى، بفضل قوتهم البحرية. وهكذا استعاد المسلمون المدينة التي سقطت سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م بيد الصليبيين أي بعد مئة عام [(١)].تلا سقوط المدينة إصرار السلطان قلاوون ببناء مدينة جديدة في سفح تل الحجاج على بضعة كيلومترات إلى الداخل، وبسقوط طرابلس أدرك الصليبيون أنهم في انتظار المصير نفسه

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٣، ص٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢١، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٤، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨٧، الغامدي: جهاد المماليك، ص٢٦٤– ٢٧٠، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨–٢٣٩.

في بقية المناطق التي يسيطرون عليها، وعلى أيّة حال فبعد سقوط طرابلس هاجمت القوات المملوكية البترون، وصالحت جبيل على أن تظل تابعة للسلطان عشر سنوات، و كعادة المهزومين فقد أخلى الصليبيون في بلاد الشام مدينتي بيروت، وجبيل، فاستولى عليها السلطان المنصور قلاوون، وإن كان قد أقر بارتليمو على بلدة جبيل على سبيل الإقطاع، فإن ذلك جاء مشروطاً بتبعيتها وخضوعها لسلطنة المماليك كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع معظم أموالها للسلطان قلاوون[١] كما أن السلطان قلاوون قد أبقى للأميرة لوسي أخت بوهيموند السابع صاحبة طرابلس قريتين من قرى طرابلس .

والجدير ذكره أن سقوط طرابلس في أيدي المماليك لم يحدث ردود فعل عكسية بشكل قوي لدى الغرب الأوروبي كما كان متوقعاً. ففي الوقت الذي كان يأمل فيه بقايا الصليبيين في بلاد الشام أن تلبي أوروبا نداء البابا في الإسراع لإنجادهم، غير أنّ هذا الأمل ذهب سدى فقد تنصل ملك فرنسا من كل مسؤولية، كما أن ملك أرغونة، وصقلية، وقعا معاهدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م تعهدا فيها بمساعدة السلطان المنصور قلاوون ضد أي حملة صليبية جديدة، وضد الصليبيين في الشام بحال قاموا بخرق الهدنة التي أبرموها مع السلطان قلاوون ، ويعدّ استيلاء السلطان المملوكي على طرابلس إنجازاً عظيماً في تصفية الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي، يضاف إلى تلك الإنجازات التي حققها زعماء الجهاد الإسلامي من قبله فلقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية، و عاصمة لإمارة صليبية في الشرق الإسلامي، أقام بها الصليبيون قرابة قرنين من الزمان ، لذا فقد خفقت قلوب المسلمين فزينت المدن ، و سر الناس بهذا النصر سروراً عظيماً .

٢- في عهد الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٣م.

توفي السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م قبل تحقيق مشروعه في تحرير باقي المناطق، والمدن الشامية، وغيرها، فتولى ابنه الأشرف خليل سدة السلطة من بعده، ولم يجد صعوبة في المناداة به سلطاناً، لأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التي كان السلطان قلاوون قد أعدها للثأر من الصليبيين في عكا، وكانت عكا آخر مدينة كبرى باقية للصليبيين بالشام فضلاً عن أنها غدت مركز مملكة بيت المقدس الصليبية عند استيلاء المسلمين على بيت المقدس ولذلك أدرك الصليبيون أن ضياعها يعني نهاية عهدهم بالشام.

---

(١) – ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١٠، ص١٢٢- ١٢٤ ،الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٥٦- ٣٥٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٢١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٤٧- ٧٤٨، ، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٥، سرور: دولة بني قلاوون، ص٣٢٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٧.

أ- معاهدة قلاوون مع فرنجة عكا سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م .

كان السلطان المنصور قلاوون قد عقد هدنة مع الصليبيين سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م[١] لمدة عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشر ساعات، وقد أقر السلطان للصليبيين في تلك الهدنة بحقهم في نصف اسكندورنة في شمال الشام، وكامل عكا بالإضافة إلى حيفا، وعثليث القلعة، والمدينة، والبساتين، والكروم التابعة لهذه المدن جميعاً، يضاف إلى ذلك مدينة صيدا و قلعتها، وقد أقسم الجميع على الالتزام بتلك المعاهدة، وأهم ما في المعاهدة أنها تحدد بدقة، ووضوح، حجم الأراضي العربية الإسلامية التي كانت واقعة تحت الحكم الصليبي. وقد التزم الصليبيون والمنصور ببنود المعاهدة إلى أن كانت سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م[٢] عندما وفد على عكا بعض الجموع من إيطاليا لتفسد الجو بين المسلمين، والصليبيين، وذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا إلى عكا، وهم يفيضون حماسة.

وفي الوقت نفسه ينقصهم النظام، والخبرة، وضبط النفس، وكانوا أن بدأوا فور وصولهم بالعدوان على المسلمين خارج أسوار عكا حيث قتلوا بعض المسلمين ولطخوا جدران المسجد بدمائهم، مما أنذر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين فاستشاط السلطان قلاوون غضباً، وعندما علم بهذه الأحداث. اعتبر ما حدث نقضاً للهدنة، وأعلن أن الهدنة قد انتهت، وعندئذ سارع حكام عكا بتقديم الاعتذار إلى السلطان، ولكنه أصر على تسليم الجناة للسلطات الإسلامية، ولما كانت الأعراف المسيحية تقضي بعدم تسليم المسيحيين للمسلمين لقتلهم فلم يعد أمام السلطان إلا الاحتكام للسلاح[٣] ، كما أن أحوال الصليبيين داخل عكا ذاتها كانت سيئة إذ تجمعت بها

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٠٠، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٠- ٢٤٢، العلبي (أكرم حسن): الملك الأشرف خليل بن قلاوون، دمشق ، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٤-٢٥.

(٢) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٣، أبو الفداء: المختصر، ج٤.، ص٢٤-٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣، عوض: الحروب الصليبية، ص١٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٩٥، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٢٤- ٢٥.

(٣) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية،جـ٣٧، ص٣٠٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٩٥،غوانمة : دراسات في تاريخ الأردن و فلسطين ، ص ١٧٢

فلول الصليبيين المشتته التي هربت من أنطاكية، و طرابلس، و غيرها من المراكز و المدن الصليبية التي استردها المسلمون من الصليبيين، وأضحت عكا تعج بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين ، حتى صار بداخلها سبع عشر جالية كل منها تؤلف قوموناً مستقلاً بذاته فضلاً عما فيها من ممثلين لمنظمات الفرسان، و ملوك انكلترا، و فرنسا، و قبرص، و المدن الإيطالية والتجارية، و كذلك البابوية، و كل من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص و يفكر بطريقته الخاصة ، و ينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذي يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد الجهود ضد الخطر المنتظر بل ظلت المدينة ملجأ تتخذ جميع مساوئ المسيحية طريقاً إليها بعد أن أهملت بها فروض الدين، و القانون، و الفضيلة حتى أصبحت في أواخر أيامها محطة لمن أراد من المسيحيين الانغماس في الترف و الرذيلة .

ولم يكن يشفع لبقايا الصليبيين في عكا سوى ما كانت عليه من الحصانة العالية ، إذ كانت دفاعاتها تتألف من اثني عشر برجاً ، وقد شيدت هذه الأبراج على أبعاد متساوية ، عند زاوية الانحراف على خليج عكا .

ب–تحرير عكا سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م :

بدأ قلاوون بإعداد قواته في مصر، وصدرت الأوامر بإعداد القوات الشامية وعندما سمع الصليبيون بذلك حاول بعض قادتهم استرضاء قلاوون بالمال، بينما رفض البعض الآخر هذا العرض، واستمر قلاوون في إعداد القوات للقتال، ولكن المنية وافته خارج مدينة القاهرة[١] عندما بدأ في الزحف إلى بلاد الشام فارتاح سكان عكا لهذا الخبر، ولكن إلى حين فقد تولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطة بعده في ٧ ذي الحجة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٨٩م وجلس على عرش السلطنة دون أن تمر البلاد بالاضطرابات المعتادة التي كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل وولاية سلطان جديد[٢] ومن ثم تفرغ السلطان الجديد لاستكمال المهمة التي كان والده قد عزم على تنفيذها وهي القضاء على بقايا الفرنج في عكا، حيث أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس كان قد شن العديد من الغارات عليها مستهدفاً إسقاطها سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٦٩م غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح. أما السلطان المنصور قلاوون الذي راوده ذلك الحلم وعمل على

---

(١) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٦، الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٦٣، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٠٢، الزركلي: الأعلام، ص٢٠٣، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٠، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٢٤–٢٨، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢.

(٢) – الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، قاسم: عصر سلاطين المماليك: ص١٢٢، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤١– ٢٤٢.

تحقيقه فقد وقع معاهدة مع الصليبيين مدتها عشر سنوات نقضوها بالاعتداء على إحدى قوافل المسلمين، ومن ثم اتجه إلى مقاتلتهم، لكنّه ما كان يفرغ من كافة استعداداته لتحقيق ذلك حتى وافته المنية[١]، وواصل الأشرف خليل مسيرة والده في الجهاد، وحاولت القيادة الصليبية مرة أخرى باللجوء إلى الدبلوماسية، والابتعاد عن الحرب، فأرسلت سفارة إلى القاهرة لاسترضاء السلطان، الذي رفض مجرد مقابلة السفارة، وأخذ في إكمال الاستعدادات التي كان والده قد بدأها لحربهم فأصدر أوامره إلى نوابه ببلاد الشام باتخاذ الأهبة ، وتجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر، و آلات الحصار إلى أسوار عكا وتحرك الأشرف خليل في ثالث شهر ربيع الأول ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م[٢] بعد أن أعد الجيش إعداداً دقيقاً وزوده بآلات الحصار اللازمة التي كان لها أثرها في تحطيم أسوار المدينة. وقد اجتمع على عكا من المجانيق الكبار والصغار، ما لم يجتمع على غيرها، وبلغ عدد المجانيق نحو اثنتين وخمسين منجنيقاً، حيث تمّ تجهيزها خلال أربعة أيام، وكان مع هذه الآلات عرادة ضخمة اسمها المصورة، وعرادة أخرى اسمها الغاصبة، كما كان هناك آلة اسمها الجمال السود، و هي عبارة عن آلة صغيرة تعمل باليد ، وهي اختراع تركي مع درجة عالية من الرمايات أوقعت أضراراً كبيرة بالصليبيين .وبلغ تعداد قوات الأشرف خليل ستين ألف فارس ومئة وستون ألفاً من المشاة[٣]، وصلت هذه القوات العربية الإسلامية إلى عكا، حيث أقاموا حواجز دفاعية كبيرة، وستائر حاجبة، وكانوا يقصفون الأسوار من خلالهم في الليلة الأولى ،و حركوهم في الليلة الثانية و تقدموا كثيراً إلى الأمام ، وزاد من تقديمهم في الليلة الثالثة ، و ظلوا يدفعونهم نحو الأمام إلى أن أصبحوا على حافة الخندق تقريباً و كان خلف هذه السواتر رجال مسلحين ترجلوا من على خيولهم و هكذا زحف المسلمون حتى حافة الخندق . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى قادة حكام عكا الصليبيين، أدركوا مصيرهم، وأرسلوا يستصرخون الغرب الأوروبي لإمدادهم بالنجدات، جنَّدَ داخلياً كل من هو قادر على

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٥–٣٠٧، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧–١٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٦–٣١٧، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢، الزركلي: الأعلام، ص٢٠٣، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٩.

(٢)– أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧–١٥٨، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٨، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: أضواء على الحروب الصليبية، ص٤٤–٤٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٩.

(٣) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٦–٣٣٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٦٣–٧٦٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٨، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢– ٢٤٣.

حمل السلاح في عكا، للدفاع عن المدينة، وهنا لا بد من معرفة مدى استجابة الغرب الأوروبي لإنقاذ عكا.

ومن الجدير ذكره، أن استجابة الغرب الأوروبي، لم تكن بالقدر الذي يسمح بإنقاذ المدينة، هذا ما أوقع حكام عكا الصليبيين في ورطة كبيرة نتيجة عدم التكافؤ ما بين المقاتلين الصليبيين، وفي مواجهتهم المقاتلين العرب المسلمين، ولم يكن أمام هؤلاء القواد إلّا الاعتماد على ما تبقى من القوات الصليبية المتواجدة بالمدينة، والتي بلغ عددها حوالي ألفي فارس وأربعة عشر ألف من المشاة، كما اعتمدوا أيضاً على مناعة المدينة وحصانتها المزودة من الناحية البرية بسورين حيث قام عليهما العديد من الأبراج المزدوجة[١].

وعلى الرغم من كافة الاستعدادات التي اتخذها القادة داخل عكا، إلّا أنّ عناصر الضعف والانهيار الداخلي، وُجدت فيها ،كتعدّد الجنسيات فيها، واختلافهم في المصالح، والأهداف، إضافةً إلى الانحلال الخلقي الذي اشتهرت به هذه المدينة على نحو خاص ناهيك عن الخلافات بين أمرائهم، وحكامهم، ممّا أدى إلى الصدام بشكل متواصل بينهم، وهذا التصادم هو الذي عجل في سقوط وانهيار هذه المدينة، وبينما كان جانب البحر للمدينة آمناً، بدأت العمليات العسكرية على عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٢] وانهالت قذائف المنجنيق على المدينة، وكذلك القدور المليئة بالمواد المشتعلة، وكانت سهام المماليك تتجاوز الأسوار لتستقر داخل المدينة أيضاً، وبدأ النقابون في نقب الأسوار و كان أول الأبراج انهياراً هو البرج الذي أقامه الملك هيو و بعده دمر المسلمون البرج الانجليزي ، و برج كونية بلوك كما أخذت تنهار أمامهم الأسوار القائمة عند برج القديس أنطون ، وعند برج القديس نيقولا، و كان آخر الأبراج سقوطاً هو البرج (الملعون) الواقع في زاوية الحصن، و قد استطاع الصليبيون التزود بالمؤن عن طريق البحر، فاستغلوا إحدى سفنهم وجهزوها بعرادة أخذت تقذف معسكر السلطان خليل، فأحدثت به بعض الأضرار، ولا ريب في أن تجهيزات الجيش المملوكي في حملته على عكا أظهرت إمكانيات حربية ضخمة تتفق مع الوزن الحربي، والسياسي لدولة سلاطين المماليك، كما أنّها عكست مدى الاهتمام الكبير الذي أظهره السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في مواجهة عكا، وتحقيق

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٣– ٣٠٧، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٩، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢–٢٤٤.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠–١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبي، ص٣٣٩، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٣٨–٤٠.

الحلم الذي طالما راود المسلمين بشأن إسقاطها في قبضتهم[١].وقد أظهر مسرح العمليات العسكرية دور التنظيمات الدينية الحربية الصليبية خلال حصار عكا.

إلّا أنّ سكان مدن عكا الجنوية، والداوية والاسبتارية. لم يشتركوا جميعهم في قتال المسلمين، فالجنوية غابوا عن المعركة، لإبرامهم معاهدة سلام مع السلطان بينما اشترك الداوية والاسبتارية والتيوتون في القتال. حيث شنّ الداوية هجوماً عنيفاً على حامية حماه للتخفيف عن المدينة، وفي الوقت نفسه شارك الاسبتارية، إخوانهم في التنظيمات القتالية، غير أن المسلمين أشعلوا المشاعل من فورهم وأحبطوا الهجوم وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من المهاجمين[٢]، ولما أيقن هؤلاء خسائرهم الفادحة اتجهوا إلى إتباع سياسة دفاعيّة. أمّا التيوتون فقد كان دورهم يعتمد على الدفاع عن عكا، واستمر التنظيم بعملياته الحربية ضد المماليك، حيث أن تلك العناصر الصليبية أظهرت دفاعاً مستميتاً في مواجهة المسلمين، لم تنكره المصادر التاريخية العربية واللاتينية على حد سواء[٣].

قال أحد المؤرخين ممن شاهدوا وعاصروا سقوط عكا على أيدي المماليك: ((إن الفرنجة تحصنوا في الأبراج الشواهق التي كان فيها الاسبتارية والداوية، والذين كانوا يقاتلون قتالاً مستميتاً))[٤] كما ذكر أحدهم أن الاسبتارية، والداوية قد تحصنوا في أبراج شواهق في وسط المدينة[٥] وذكر آخر عن أن عدداً من الأجزاء الحصينة في داخل المدينة تحصن بها بعض الفرنج ولم يذكر هويتهم أو صفتهم[٦].

---

(١) – ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٦–٣٣٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣–٧٥٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٩، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٠.

(٢) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٣–٧٥٥، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٤٩، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٧٧، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٩.

(٣) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٤٨.

(٤) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩–٣١٠.

(٥) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣١٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٢٤–٢٥، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٤١.

(٦) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥.

فيمكننا القول إن الاسبتارية والداوية وغيرهم من عناصر الرهبان هم الذين حملوا لواء المقاومة العنيفة ضد المماليك، حيث أن المصادر اللاتينية سلطت الضوء على تلك الحقبة. فذكرت الظروف العصيبة التي أحاطت بالتنظيم خلال حصار جيش الأشرف خليل للمدينة، ووضحت المجهودات التي بذلها أفراد تلك التنظيمات، ومدى استبسالهم في القتال ضد أعدائهم دون جدوى، وذكرت أيضاً الدور الحربي الذي شغلته تلك العناصر الصليبية حيث تحدثوا عن قتل مقدم الداوية، وهو يدافع مع رجاله عن الأسوار التي عهد إليه بأمر الدفاع عنها هو ورجال التنظيم(١).

مضى شهر على القتال بين الصليبيين والمماليك دون الوصول إلى نتائج حاسمة، وفي هذه الأثناء وصل هنري الثاني ملك قبرص إلى المدينة لمساعدتها في فك حصار الجيش العربي الإسلامي وقتالهم، فاشتد أزر المدافعين عنها، ولكن الملك أيقن أن ما حضر معه من قوات هي حوالي مئة فارس وألفين من المشاة، بالإضافة إلى القوات المدافعة عن المدينة لم تغير من الأمر شيئاً، وأنّه من الأفضل استخدام الوسائل الدبلوماسية بالرّغم من أنّها ليست المحاولة الأولى من قبل الصليبيين، حيث أرسل هنري الثاني سفارة إلى السلطان الأشرف خليل تكونت من وليم فيلاري، و كان فارساً، ووليم كافران و كان رجلاً من بطانة مقدم الداوية، و خرج السلطان من دهليزه ، ووصل إلى أمام باب المدينة الذي اسمه باب النائب البابوي و كان هناك وقف للقتال من على الجانبين و خرج الرسولان و هما من دون سلاح و مثلا أمام السلطان الذي كان في خيمة صغيرة . و بعدما حياه الرسولان ثلاث مرات ، بالجثو على ركبهم ، قربهم منه و سألهم إنْ جلبوا له مفاتيح المدينة، فكان جواب الرسولان أنّه لا يمكن للمدينة أن تستسلم بسهولة، لكنّهما قدما يرجوان منح بعض الرحمة للناس الفقراء، لكنّ السلطان عقد العزم على إسقاط المدينة. في هذا الوقت بدأت بعض دفاعات المدينة، وخاصة الأبراج تتداعى وتسقط، تلاها سقوط بعض جوانب من أسوارها، وفي صباح يوم السادس من أيار من السنة نفسها، اقتربت القوات المملوكية من الأسوار(٢) وأجبرت المدافعين عن المدينة على التراجع، وواصلت الضغط على المدينة، ولم يمض وقت طويل حتى تمكنت قوات السلطان خليل من

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٥١، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٤١-٤٢.

(٢) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩-٣١٠، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٤، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٣٩-٤٠، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٨-٢٤٠.

شق طريقها إلى الأسوار وسيطرت على أحد الأبراج، وتمكنت من الوصول إلى داخل المدينة، حيث دار قتال عنيف في شوارع المدينة وأزقتها بَعدَما هَرِبَ هنري الثاني ملك قبرص، وحاول بعضهم الفرار بواسطة السفن من القلعة، لكنّهم أخفقوا في الفرار، فقتل الكثير منهم، وأُسِر عدد كبير أيضاً منهم بعض فرسان الداوية، بالإضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال الذين دخلوا في حريم المماليك، أو ذهب بهم إلى سوق الرقيق فبيعوا هناك بأقل الأثمان حتى بلغ ثمن الفتاة درهم واحد، ومع قدوم ليل الثامن عشر من أيار كانت القوات المملوكية تسيطر على المدينة بكاملها ما عدا الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة التي تطل على البحر التي يتمركز فيها فرسان الداوية[1]. وظل الأشرف خليل يحاصرها لمدة أسبوع. ولما رأى السلطان الأشرف خليل حصانة موقعهم، عرض عليهم اتفاقاً مشرفاً يقضي بالسماح لهم بالإبحار إلى جزيرة قبرص بكل أمتعتهم، بشرط أن يستسلموا له، و بعث أميراً من عنده إلى الذين كانوا في مجمع الداوية، و جلب معه أربعمئة خيال إلى داخل المجمع، فرأى هؤلاء عدداً كبيراً من اللاجئين و رغبوا بأسر النساء، لكن الصليبيين، وجدوا أن هذا التصرف لا يمكن تحمله، فحملوا أسلحتهم، وألقوا بأنفسهم على المسلمين فقتلوهم جميعاً، و قطّعوا رؤوسهم، وبذلك لم ينج منهم أحد، ثم عقد الصليبيون العزم، و قرروا الدفاع عن أنفسهم حتى الموت، و كان السلطان غاضباً كثيراً بسبب ما حدث لكنه لم يظهر ذلك، و بعث مرة أخرى يقول: أنّه عرف حماقة رجاله التي اقترفوها و أنّه لهذا السبب لم يتخذ موقفاً ضد الصليبيين، و أنّه بإمكانهم الخروج آمنين، و أن يثقوا بكلمته، ووثق مارشال الداوية الذي كان رجلاً عجوزاً من بيرغندي اسمه بطرس اوف سيفري بالسلطان، و خرج إليه و بقي بعض الرهبان الفرسان الجرحى في البرج و عندما صار المارشال و رجال الداوية تحت قبضة السلطان أمر بقطع رؤوسهم جميعاً و عندما سمع الرهبان الفرسان الذين كانوا لا يزالون في داخل البرج أعدو أنفسهم للمقاومة .

وهنا ظنّ الداوية أن القوات العربية الإسلامية لن تستطيع الوصول إلى موقعهم مهما كان الأمر، فأصدر السلطان أوامره إلى قواته، بمهاجمتهم في موقعهم، وأحاطت القوات الإسلامية ببرجهم، وتمكن النقابون من نقبه، وبعد قتال ضار بين الطرفين انهار البناء وسقط البرج،

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩–٣١٠، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤–٢٥، ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص١٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦–٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٩–٣٤٠، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٤.

وبانهياره سقط آخر معقل من معاقل المقاومة الصليبية بعكا[١]، وبعدها استباح المماليك المدينة، قرر السلطان تدميرها، فتم هدم جميع الاستحكامات، حتى لا يفكر الصليبيون في العودة إليها مرة أخرى وتهديد المسلمين[٢].

و يستدل من دراسة معركة سقوط عكا، أن البحرية العربية الإسلامية لم تحاول قطع الطريق على الصليبيين الفارين من عكا عن طريق البحر على غرار ما حدث تماماً في طرابلس، و أنطاكية من قبل ممّا يؤكّد بأنّ دور البحرية العربية الإسلامية في هذه الفتوحات الشامية كان مساعداً بالنسبة لضخامة العمليات العسكرية البرية، التي قام بها كل من بيبرس، و قلاوون، و الأشرف خليل .

ولكن ألم يترتب على سقوط عكا نتائج على الوجود الصليبي في الشام؟

لقد تلقى الوجود الصليبي في بلاد الشام ضربة قاصمة، وأمكن طرد آخر بقايا الصليبيين من الأرض العربية الإسلامية، مقابل ارتفاع شأن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذي سجل التاريخ اسمه كأحد القادة البارزين الذين أسقطوا الكيانات السياسية الصليبية الكبيرة، سواء الإمارات، أو المدن، وبسقوط عكا انتهت المرحلة الشامية من الحروب الصليبية، وعادت بلاد الساحل بالجملة إلى المسلمين بعد أن تكررت صورة الاسترداد للمناطق المحتلة على الساحل من الشمال إلى الجنوب.

ج- تحرير صور وبيروت وحيفا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م.

بدأت المدن التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام بالتداعي لتسقط الواحدة تلو الخرى، فعندما سقطت عكا عاجل الأشرف بتوجيه الضربات المتلاحقة إلى هذه المدن مبتدئاً بمدينة صور، فأرسل فريقاً من جنده لحراسة الطرق المؤدية إليها، و التضييق عليها حتى لا يتكرر ما حدث عقب معركة حطين، و سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣١١-٣١٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٦-٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٠٩، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٤٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٣-٢٣٤، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣٨-٢٤٠، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٤٢-٢٤٦.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب: ص١٤٠-١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٣٦، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧-١٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣١٩، القلقشندي: مأثر الإنافة ، ص١٢٢، المقريزي: السلوك، جـ١ق١، ص٧٦٢، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٢٢.

م[١] و بالفعل فقد تمكنت تلك القوة الإسلامية من الحيلولة دون دخول المراكب المحملة بالصليبيين المنهزمين من عكا إلى صور، والتي كانت معروفة بتحصيناتها فهي تعد أقوى مدن الساحل مناعة، وكان من الصعب على المسلمين اقتحامها طالما لم تتوافر لهم القدرة البحرية، ولكن حاميتها كانت قليلة العدد، فعندما اقتربت منها القوات المملوكية هرب قائدها آدم أوف كافران إلى قبرص، الذي يعمل لصالح الملك فعندما شاهد السفن المحملة تغادر عكا، قام و جمع الفرسان الآخرين، و الناس الأثرياء للمهاجرة ، تركوا مدينة صور و بقي الناس الفقراء في المدينة، و قد أخذوا أسرى من رجال، و نساء، و أطفال لأنّهم لا يمتلكون سفناً يمكنهم الانسحاب عليها. وحاول الداوية داخل المدينة المقاومة، فلجؤوا إلى قلعة البحر المشيدة على جزيرة صخرية تبعد عن الساحل ثلاثين متراً، وبدأت القوات في إقامة جسر في البحر يصلون بواسطته إليها، ولما أدرك من في الجزيرة عدم قدرتهم على الصمود أبحروا إلى أنطرطوس، وتم تدمير القلعة[٢]. وإذا كانت صور ((وهي المدينة المحصنة)) قد استسلمت بهذه السهولة وظهرت كأنها أوهن من بيت العنكبوت فما بال صيدا المدينة المجاورة التي كانت بيد الداوية بعد أن اشتروها من جوليان سنة ٦٥٩/١٢٦٠م. لقد عزم الداوية فيها على المقاومة، و كان اسم قائدهم ثيو بولدغودين، و قد تعرض مكان تمركزه للهجوم فعقد اجتماعاً مع رهبانه الفرسان، و قام بناء على موافقتهم بالذهاب إلى قبرص واعداً إياهم بأنه سوف يرسل إليهم نجدة، و لكن عندما وصل إلى قبرص شرع في العمل من أجل إعداد نجدة لهم بشكل ليس فيه حماس، و لذلك قام أفراد الداوية الذين كانوا في قبرص و أصدقاء الرهبان الفرسان الذين كانوا لا يزالون في صيدا بإرسال رسالة إليهم بأن عليهم التخلي عنها تماماً لأن المقدم لم يظهر أية علامة على أنه سيرسل إليهم أي معونة على الإطلاق، و عندما سمع الرهبان الفرسان الذين كانوا في القلعة ارتعبوا كثيراً، و من الجانب الآخر طاردهم المسلمون، ورموا النشاب حولهم، ووصلوا عبر الرمال التي شكّلت أرضاً من شاطئ البحر إلى أسوار القلعة، و عند ذلك عقد الرهبان الفرسان مشاورات بينهم من أجل مغادرة المكان، و الذهاب إلى قبرص، ولكن فاجأهم الأمير علم الدين الشجاعي فهربوا مع سكان المدينة إلى قلعة البحر التي تبعد تسعين متراً عن صيدا بعد أن

---

(١) سوخم : وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية ، جـ٣٧، ص ٣٩، الحريري: الحروب الصليبية، ص ٢٧٩.

(٢) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٣٠٩، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧– ١٥٨، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٩.

يئسوا من وصول الإمدادات، وبدأ المسلمون يشيدون جسراً نحو تلك القلعة في عرض البحر، فاضطر من فيها الهرب إلى طرطوس. ودخل الامير علم الدين الشجاعي قلعة صيدا[١]
بعد الاستيلاء على صيدا دارت الدائرة على بيروت، التي اعتقد أهلها أن الهدنة مع السلطان سوف تحميهم، ولكن القيادة المملوكية قد وضعت كل الهدن جانباً، ولم تتمكن المدينة من المقاومة فهرع سكانها إلى السفن ولاذوا بالفرار، فدخلتها القوات المملوكية نهاية سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٢] وتم هدم استحكاماتها، وحولت كاتدرائيتها إلى جامع، وفي اليوم نفسه حرر حيفا بدون مقاومة تذكر. و هنا تشابهت هذه المدن في سقوطها وهذا دليل على أنّ الضعف والانهيار كان ينخر جسم الكيانات الصليبية كما أن الحراك السياسي، و العسكري سواء في الغرب الأوروبي أو في المشرق العربي، و خصوصاً بلاد الشام أو مصر لم ينج الفرنجة من الضعف ثم السقوط، و الانهيار .

د- تحرير جزيرة أرواد وقلعة عثليث.

بعد تحرير عكا وصيدا، وبيروت لم يبق بأيدي الصليبيين سوى قلعة أنطرطوس، وقلعة عثليث الواقعة جنوبي الكرمل والتي تعرف باسم قلعة الحجاج. ولم تكن الحامية في كل من أنطرطوس وعثليث كافية للدفاع عنهما، فرحلت حامية أنطرطوس في الثالث من آب، وتبعتها حامية عثليث في الرابع عشر من الشهر نفسه[٣] إلى جزيرة أرواد التي تقع في مواجهة طرطوس، ولم يغادروها حتى سنة ٧٠٣هت/ ١٣٠٣م، وقد علق أبو الفداء على تسليم هذه المدن بقوله: **((واتفق لها السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة**

(١) – الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٧، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٢، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٣٥-٩٣٦، شبارو (عصام محمد): تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، بيروت- لبنان، دار مصباح الفكر، ١٩٨٧م، ص٩١-٩٣.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٥، الكتبي: فوات الوفيات، جـ١، ص٤٠٩، العلبي: الملك الأشرف، ص٤٥-٤٦، العسلي: الظاهر بيبرس، ص١٢٤، سالم (السيد عبد العزيز): تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م، ص١٥٢- ١٥٣.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٣-٢٦، اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص١٥٧-١٥٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٢، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٣٥-٩٣٦، غوانمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ص١٩٥، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٤٥-٤٦.

الحصينة بغير قتال ولا تعب... وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام...))[١].

و بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية، وهي بلا شك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها فسقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي الإسلامي في أيدي المماليك وتحررت تماماً بعد قرنين من الزمن ٤٩٢– ٦٩٠هـ/ ١٠٩٨– ١٢٩١م.

و إذا كان الغزاة قد انهزموا ، ثم رحلوا فإنّ كافة مدن الساحل الشامي قد تابعت أعمالها سواء القتالية منها، أو الاقتصادية، أو الثقافية، و غيرها. فالتاريخ يشهد أنّه إذا كان للباطل جولة فللحق جولات، و صولات كثيرة .

يُعدُّ القضاء على الكيان الفرنجي الصليبي ببلاد الشام ضربة قاصمة حلّت بالغرب الأوروبي، حيث إن الملوك، والحكام في الغرب الأوروبي كانوا مشغولين بمشكلاتهم السياسية داخل أوروبا نفسها، ومنصرفين عن مملكة بيت المقدس اللاتينية، وعلى الرغم من كل المساعدات التي حاول البابوات، والمتحمسون من الأوروبيين إرسالها إلى الفرنج الصليبيين في فلسطين، فإن السياسة التي انتهجها سلاطين المماليك منذ عهد الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل كانت خير ضمان للنصر الإسلامي، فالانتصارات الحاسمة التي أحرزها المسلمون لم تكن نتيجة ضعف الفرنج، وتخاذلهم، بقدر ما كانت نتيجة لتعاظم قدرة المسلمين، وحماستهم، وتصميمهم على اقتلاع آخر مواقع الفرنج، ولم ينجح المسلمون من طرد الصليبيين إلا بوحدة الصف تحت قيادة حكيمة، احترمها الجميع وعملوا تحت لوائها.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٥.

الفصل الخامس

دور القلاع والحصون الساحلية في الحروب الصليبية

(٥٨٥-٦٩٠هـ/ ١١٨٩- ١٢٩١م)

أولاً: البارونيات الصليبية

ثانياً: عرض موجز حول بناء القلاع والحصون حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي

ثالثاً: أهم وأشهر القلاع والحصون الساحلية ودورها في الحروب الصليبية:

١. قلعة صهيون (صلاح الدين).
٢. قلعة المرقب.
٣. قلعة مرقية.
٤. قلعة يحمور.
٥. قلعة العريمة.
٦. قلعة أرواد.
٧. قلعة صافيتا.
٨. حصن الفرسان (حصن الأكراد).
٩. قلعة صيدا.
١٠. قلعة عكار.
١١. قلعة أرسوف.
١٢. قلعة قيسارية.
١٣. قلعة عكا.

الفصل الخامس: دور القلاع والحصون الساحلية في الحروب الصليبية (٥٨٥-٦٩٠هـ/ ١١٨٩- ١٢٩١م)

أولاً: البارونيات الصليبية :

كان الساسة الصليبيون في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يعانون نوعا من الفراغ المخيف ، في وقتٍ كانت فيه الامتيازات قد تقلصت، و السلطة المركزية فقدت هيبتها وقوتها، و هذا قد أفسح المجال واسعاً أمام النبلاء للتحرك، وملء هذا الفراغ السياسي حيث باتت السلطة المركزية للملوك الصليبيين ضعيفة، وغير فعاله، و لهذا فقد بدأت الحكومة تواصل عملها على المستوى المحلي في الإمارات الإقطاعية الصغيرة.

كان التطور التاريخي لهذه الإمارات الإقطاعية الصليبية في المنطقة العربية الإسلامية غامضاً، يشوبه الإبهام، ومتابعة هذا التطور ليس بالأمر اليسير.

فقد كان العامل الاساسي في خلق كيانات، وإمارات صليبية هو الشعور بحالة العجز، والضعف الذي آلت إليه المملكة الصليبية، تلك الحالة التي تأصَّلت في كل التنظيمات الإقطاعية[1].

ولهذا السبب لم تفصح المصادر التاريخية عن طبيعة عملية تقسيم، ومنح الإقطاعات الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي، ولا يُعرَف لماذا أصبحت بعض الاقطاعات إمارات تابعه للدومين الملكي، فمن الجائز أنّ حجم الإقطاع ، أو رتبة النبيل ، ومكانته ، أو درجة قرابتة من الملك الصليبي هي بشكل عام ، بمثابة المعايير التي كانت تحدد موقعه ، ووضعه في الهيراركية الإقطاعية (الدرجة الإقطاعية) وربما كان هذا من الناحية الموضوعية لمجرد إجراء يذكر في المملكة الصليبية إلا أن وجود إقطاعات صغيرة، مستقله، تتكون من فصلين . حكماً يؤكد ويبرهن على وجهة النظر هذه ومهما كان التفسير، فإن عمليه تقسيم الأقطاعات الباكرة قد حددت مستقبل، وضع القانون الإقطاعي في الامارة الإقطاعية، وكان هذا التقسيم الاقطاعي يتطلب مبدئيا تقديم يمين الولاء، والتعبئة الإقطاعية، ففي البداية كانت المنح

(١)- سميث (جوناثان ريلي) : فرسان القديس يوحنا في القدس و قبرص من خلال الموسوعة الشامية ، تأليف و تحقيق و ترجمة:سهيل زكار ،١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م، جـ٥٢ ، ص ١١٨-١٢٥ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢،ص٣٤٦ ، براور: الاستيطان الصليبي ، ص١٥٣ .

الإقطاعية من الارض الزراعية بسيطة، ثم تحولت هذه المنح الى امارات اقطاعيه مستقله وفي الغالب كانت القلعة أو المدينة هي مركز الإقطاعية

و الملاحظ أن الإمارات الإقطاعية الصغيرة، لم ترتق إلى درجة من الحكم الذاتي ، إلا في وقت متأخر عندما حدد القانون الاقطاعي الصليبي أن هذه الإمارات الإقطاعية تتمتع بحقوق قضائية ، وحق سك النقود ، وإقامة العدالة... الخ ولأميرها الحق في إنشاء محكمة وحق البيع، وحق النظر في القضايا الجنائية الكبرى.

و على هذا الأساس فقد أصبح السيد الاقطاعي للبارونية ملزماً بتزويد المحكمة بعدد من أتباعه، وحاشيته . أما الامتياز الثاني الذي حصل عليه أمير الإقطاعية فهو امتلاكه للخاتم الذي يصادق به رسمياً على الوثائق. بينما كان الامتياز الثالث الذي حاز عليه أمير البارونية هو حق الفصل في القضايا، والمنازعات التي تنشب بين سكان إمارته، وذلك أمام المحكمة البرجوازية في المدن، أو في المحاكم الإقليمية الصغيرة في المناطق الريفية[١].

و الجدير بالذكر أيضاً أن أيّة إمارة إقطاعية قد تأسست في هذا السياق ،لا يمكن إلغاءها وإذا تغير شأنها، وانقرضت الأسرة الحاكمة، فإنّه ينبغي اتباعها بإمارة أخرى إتباعها لنفس السيد الإقطاعي لهذه الامارة، أو تلك من خلال الزواج، أو الميراث أو الاكتساب.

ولقد كان البارون الإقطاعي يدير كل المقاطعات العديدة المتجاورة التي يبسط سيطرته عليها كإمارة واحدة و لهذا فقد كانت المحكمة الاقطاعية تنعقد فقط في الإمارة الإقطاعية[٢] ويمكن تقسيم البارونيات الإقطاعية إلى:

١– مملكه القدس :

من الممكن تقسيم التاريخ المتأخر لمملكة القدس أربعة مراحل زمنيه، تقع الأولى ما بين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م و هي عام موقعة حطين، و ما بين عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، حيث افتتحت في فوضى، وانتهت مع الحملة الصليبية الثالثة، واسترداد محدود، واتسمت بالصراع من أجل العرش، وكانت المدة الزمنية الثانية ما بين سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م و ذلك عندما تمت تسوية الخلاف وسنة٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[٣] الذي شهد تولي سلسلة من الحكام القديرين، وأزواجا

---

(١)- سميث : فرسان القديس يوحنا من القدس و قبرص من خلال الموسوعة الشامية ، جـ٥٢ ، ص ١١٨-١٢٥ ،رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية،ج ٢ ، ٣٤٩

(٢)- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٣٤٦ ، براور : الاستيطان الصليبي ، ص١٥٤ -١٥٥

(٣) - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٩٩ ، غوانمة : معاهدات الصلح والسلام ، ص ٤٠-٤١ ، توفيق : الدبلوماسية الإسلامية ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ .

للملكات الوريثات، وانتقال التاج الى اباطرة أسرة هوهنستوفن، ومنذ ذلك التاريخ حتى ٦٦٧هـ/ ١٢٨٦م كان هؤلاء الملوك غير مقبولين لدى غالبية البارونات، وحكمت المملكة طيلة هذه المدة الزمنية بما يشبه حكومة الأقلية، الذين كان الاعظم بينهم تنظيميا، وقوة المحكمة العليا للبارونية، ففد جرى إعدام كونرادين هوهنستوفن في سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م وقد خلفه بعد ذلك ملوك قبرص حيث تسلموا العرش، علماً أن ادعائهم الشرعية قد نازعهم إياه الانجفيون Angevinsحتى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م لأنهم كانوا غير قادرين على التحكم بباروناتهم في وقت ظهرت فيه الرهبانية العسكرية أقوى مما كانت عليه من قبل و ذلك مقارنة بالمؤسسات الاخرى، وفي الحملة الصليبية الثالثة يمكن معرفة ما وصلوا إليه من مكانه بين قادة الفرنجة في الساحل الشامي، وفي الوقت نفسه تنازل غي لوزينان وكوانردأوف مونتفرات المتنازعان على العرش عن حقوقهما بالتاج مقابل الحصول على التأييد الايطالي، فقد كانت الجمهوريات التجاريه الكبيرة العائدة للبندقيه، وجنوى، وبيزه، قادرة على تأسيس كومونات شبه مستقله في موانئ الساحل الشامي. وكان الخلاف من أجل العرش في سنه ٥٨٧هـ/ ١١٩٢م[١] قد حُسِمَ لصالح كونراد وذلك من خلال ما أقرّه المجلس الذي عقده ريتشارد الاول ملك انكلترا إلّا أنّ كونراد قد قُتِلَ بعد مدة من الزمن على يد الحشيشية، وأمّا ايزابيلا فقد تزوجت من هنري اوف شامبين الذي ضمنت له براعته الشخصية، و اعتماده على مستشارين أكفاء، حكما شعبياً، حيث واجه الموت إثر حادث سنة ٥٩٢هـ/١١٩٧م، و بعد ذلك انتخب عموري الثاني صاحب قبرص ليكون الزوج الرابع لإيزابيلا، و بناء على ذلك فقد حكم المملكة حتى سنه٦٠١/١٢٠٥م وكان حاكماً متمكناً وفاعلاً في الأحداث، حيث استطاع أن يفرض القانون في المملكة الصغيرة بكل تماسك و ويحافظ على أراضيها، وخلال هذه المدة الزمنية بدأ الشعور بمؤثرات تأسيس اللاتين لمملكة قبرص، فقد أعطت العقارات في قبرص بارونات القدس بعض الحظ بالمعافة المالية.

وعند وفاة عموري الثاني انفصلت المملكتان ،حيث انتقلت ملكية قبرص إلى ولده ، والقدس الى ماريا اوف مونتفرات، الابنة الكبرى لإيزابيلا، والتي كانت في الثالثة عشرة من عمرها . وفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م جرى اختيار جون دي برينJhon de Brain، الذي كان فارساً فرنسياً مسناً ليكون ملكاً وصيّاً وكان ذلك من قبل فيليب اوغسطس ملك فرنسا حيث كان يتمتع بشعبية واسعة، مع ان الحملة الصليبية الخامسة ،التي ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً، قد انتهت

(١)- سميث : فرسان القديس يوحنا من خلال الموسوعة الشامية ، جـ ٥٢ ، ص ١١٨-١٢٣

نهاية مأساوية في سنة ٦١٩هـ/١٢٢١م، بعد ذلك قرر جون في العام التالي أن يزور الغرب في سبيل أن يجد زوجاً مناسباً لابنته الصغيرة يولاندي Youlandi التي تزوجت من الامبراطور فردريك الثاني في سنه ٦٣٢هـ/١٢٢٥م ولكن يولاندي نفسها ماتت سنه ٦٣٦هـ/١٢٢٨م لدى ولادتها لصبيّ، دُعي كونراد فكان وريث الإمبراطورية الغربية، وملك القدس مستقبلاً. وبعد علاقات مضطربة بين البابا فردريك من جهة، وجون بريين ملك بيت المقدس من جهة أخرى غادر فردريك أوروبا على رأس حملة صليبية تأخّرت كثيراً على الرغم من الخطر البابوي والحرمان الكنسي، وقد بدأ أولاً بمملكة قبرص، فكان يعدّها إقطاعية إمبراطورية ، لكنّ صراعاً حاداً نشب بينه وبين جون دي ابيلين صاحب بيروت الذي كان يحكمها نائباً عن ملكها هنري الأول الذي كان صغيراً، وكانت نتيجة الخلاف تسوية الأمر بين الطرفين باعتبار أن الصراع ليس شخصيّاً، وإنّما صراع بين نظامين مختلفين متعارضين هما القانون الروماني والامتيازات، والقانون الإقطاعي وحقوق الأفراد . بعد التسوية توجّه فريدريك إلى بلاد الشام بعد أن أمضى ثلاث وأربعين يوماً في قبرص، وأخذ الملك هنري معه. ولمّا وصل إلى سوريا بدأت مفاوضات بينه وبين السلطان كامل محمد. فكان على الإمبراطور العودة إلى أوروبا مع ثمار النصر، فأصرّ على تسليمه القدس، وبلدات فلسطينيّة أخرى، وقد نجح في الحصول على القدس والمنطقة الغربية من الجليل بعد اتفاقيّة سميّت باتفاقيّة يافا وقّعت سنة ٦٢٧ هـ /١٢٢٩م، لكنّ هذا الاتفاق أغضب كلّاً من المسلمين ورجال الدّين المسيحي ،إضافة إلى معارضة البارونات والتي كانت الأكثر قانونيّة تفصيلاً وتدقيقاً. لكنه كإمبراطور للغرب وصاحب السلطة على قبرص لم يكن ليتصور أنه مجرد نائب لابنه، وإثرها نشبت حرب أهليه في ثلاثينات القرن السادس الهجري /القرن الثاني عشر الميلادي كذلك اندلعت في قبرص والقدس بين ممثليه ونبلاء كل من المملكتين، وتشكلت في عكا كومونة، حيث تألفت من البارونات والفرسان وتجار المدينه[١].

ومما لاشك فيه أنّها كانت متأثرة بنفوذ سياسات[٢]المدن الايطالية، وقد كتب قانون المملكة اللاتينيه الاولى من قبل البارونات هذا القانون الذي منح الحق الى الملك القيام بحرمان رجل

(١) - ابن الأثير: الكامل،جـ٢،ص٢١٥، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص٩٧، المقريزي: الخطط، جـ١، ق١، ص٣٠٧، عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص٢٣٩,٢٢٥

(١)- سميث : فرسان القديس يوحنا في القدس وقبرص من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢ ، ص ١١٨- ١٢١

مدان بالخيانة، أو بعدم الطاعة غير المسوغة من املاكه الإقطاعية الموروثة، وهي تحتوي على تصريح بسيط حول الواجبات المتبادلة فيما بين الملك، والاقطاعي التابع له، وقائمة الامتيازات الملكية. وكانت صلاحيات الأتباع الاقطاعين محصورة بالموافقة على مراسيم الملك، وبإعطاء الموافقة على اي حرمان من الممتلكات الملكية حتى يتم بذلك المحافظة على الامتيازات الملكية. وبعد مضي خمسين عاماً جرى تدوين اثني عشر واجباً مفروضاً على الملك من قبل فيليب اوف نوفارا، وجون دي ايبلين وذلك في تسعة وعشرين فصلاً مختلفاً، ورسم هذا الكاتبان دولة يكون الملك فيها اقطاعياً رئيسياً او نبيلاً رئيسياً مربوطاً بعقد إقطاعي دقيق مع اتباعه الاقطاعيين وكانت السلطة عندها بأيدي البارونات.

وكانت هذه الملكية قد ضعفت عندما انتقل الخط الملكي فيها بين أعوام ٥٨٢هـ/١١٨٦م و٦٢٣هـ/١٢٢٥م من خلال نساء: سيبيلا، ايزيبلا [١] ماريا، يولاندي وفي هذه الظروف مارست المحكمة العليا للبارونات حقها اللامشكوك فيه في المساعدة على اختيار أزواج للملكات، حيث كان هناك خلاف حول التاج فيما بين العام ٥٨٢هـ/١١٨٦م وسنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م و لهذا فقد كان لزاماً على المتنافسين التخلي عن الكثير من امتيازاتهم، في سبيل نيل التأييد لمطالبهم فبعد حطين كانت الملكية والكنيسة وكذلك البارونات جميعاً، فقد ألمّ بهم الفقر وازدادت موارد التاج نقصاً ، أما فيما بعد ولاسيّما بين عامي ٦٢٣هـ/١٢٢٥م و ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فقد كان الملوك من أسرة هوهنستوفن، وكانت علاقتهم غير شعبيه مع البارونات، الذين أصبحوا متورطين في الخصومات فيما بين حزبي:الغولف Gulf والغيبلين.

غير أنّ الفكر الباروني لم يبقَ على حاله، فقد بدأ بالتطوّر وهذا ما دلّت عليه الأحداث بعد ٥٨٣هـ/١١٨٧م عندما غدت عقاراتهم في أيدي المسلمين، و قد عاشوا حياة بائسة[٢] إلى أن تمكنوا من استرداد ثرواتهم في قبرص، وكثر وجودهم في المدن القائمة على الساحل، حيث كانت عكار مقر أسرة بارونية، وهي أسرة بويلورين puylaurens ، أما قيساريه فكانت من ممتلكات أسرة غارينر CERNIER بينما حكمت عائله جرنييه Grenier صيدا، وهي احدى العائلات الصليبية القديمة في المملكة، و بعض أفراد هذه العائلة كانوا سادة على قيسارية، وإلى الشرق من صيدا كانت توجد امارة بانياس، وتلك الإمارة التي منحت لأفراد عائلة بروسBruce

(١)- سميث: فرسان القديس يوحنا في قبرص من خلال الموسوعة الشامية، جـ ٣٥، ص١١٨-١٢٣
(٢)- سمباط :التاريخ المغرو لسمباط الارمني من خلال الموسوعة الشامية، ج٣، ص٣٢٠-٣٢٤، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٠٦-٥٧٠

الانجليزية، ثم بعد ذلك خضعت لسيادة، وحكام تورون إلّا أنّه وفي سنه ٥٥٢هـ/١١٥٧م امتلك فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) نصف هذه الامارة، وفي سنه ٥٦٠/١١٦٤م فقد الصليبيون هذه المدينة وخضعت للسيادة العربية الاسلامية، وعلى امتداد الساحل والى الجنوب من مدينه عكا الملكية، وإمارة حيفا كانت توجد إمارة وإقطاع قيسارية الغنية الخاضعة لسيادة أسرة جرينيه والتي يحدها من الجنوب مقاطعه أرسوف المتمتعة بالحكم الذاتي في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وفي بداية القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي انتقل حكم اقطاع ارسوف الى جان الابليني الشهير عن طريق الزواج، وفي سنه ٦٦٠هـ/١٢٦١م بيعت إلى فرسان (الاسبتارية) وبعد مضي أربع سنوات من هذا التاريخ خضعت هذه الاقطاعية للسيادة الاسلامية حيث استردها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وإلى الجنوب من أرسوف تقع كونتيه يافا وعسقلان الملكيتان، أمّا على امتداد ساحل البحر المتوسط، و إلى الجنوب من عسقلان تقع إقطاعية غزه التابعة للداوية (المدينة الحدودية للمملكة الصليبية)، وحصن الداروم[1]، وفي اقصى الشمال، فقد كان الملك الصليبي يسيطر على مينائين من الموانئ الكبيرة في المملكة الصليبية، هما مينائي عكا وصور، وقد بقيت مدينه عكا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عاصمة للمملكة الصليبية ، ومن ناحية اخرى ، فإنّ مدينه صور هي المدينه الوحيدة التي لم يستردها المسلمون إلّا بعد سقوط المملكة الصليبية، حيث أصبحت في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي اقطاعا مستقلا تحت حوزة أسرة مونتفرات ، وعلى الرغم من أنّ هذه الاقطاعات التي حازتها الهيئات الدينية العسكرية، في المملكة الصليبية، ونظرا لظروف الحروب المستمرة ضد المسلمين، و كذلك حاجة الصليبين الملحّة الى المال من أجل تمويل الحملات العسكرية، فإنّه ليس غريبا أن يتحمل فرسان الطوائف الرهبانية العسكرية أعباء الدفاع عن المملكة الصليبية[2]، و مع هذا فقد سيطر فرسان الطوائف الرهبانيّة العسكريّة على الحصون، والقلاع الواقعة على حدود المملكة الصليبية.

لقد كانت النافذة الوحيدة أمام البارونات للتعبير هي المحكمة العليا التي ازدادت سلطاتها مع وصول نساء الى العرش، وهنا من المتوجب إيجاد أزواج لهنّ، وكذلك النظر في الامور الضرورية العائدة للمملكة، وقد تبلور التفكير الباروني في ردّات الفعل نحو المطالب ذات الصيغ الحتمية لأسرة هوهنشتوفن، حيث عبرت عن نفسها في المحكمة العليا، وفي كومونة

(١) - سميث: فرسان القديس يوحنا في قبرص من خلال الموسوعة الشامية، جـ ٣٥، ص١٢٤-١٢٥

(٢) - رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٤٦، عمران تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٩-٣٥١.

عكا، وكان اللوردات الإقطاعيون الذين عرفوا الأعراف القديمة مثل رالف صاحب طبرية، ورينالد صاحب صيدا وجون دي ايبلين قد حافظوا بدقة على القوانين التي كانت لصالح الأتباع الاقطاعيين ونقلوها الى اولادهم وأتباعهم. ومع أن البارونات قد قبلوا بحق الوراثة بشكل عملي، لكنّهم كانوا يؤمنون بأن الملكية كانت بالأصل انتخابيه، واحتجّوا بأنّ جودفري دي بوليون، الذي كان الحاكم الأول للقدس قد انتخب من قبل الحملة الصليبية الأولى، وأنّه بعد انتخابه دوَّن مجموعه قانونية تمت الموافقة عليها من قبل رعيته وهو بدوره أقسم على طاعتها، وعلى هذا كان أساس قانون المقاومة نوعاً من العقد الاجتماعي بين الملكية، والمستوطنين الأوائل وكحدث تاريخي لم يكن هذا صحيحاً فجودفري لم يكن منتخباً، من قبل أتباعه الاقطاعيين، بل من قبل أمراء الحملة الصليبية الأولى، وقد جرى توزيع الاقطاعيات فيما بعد[١]. وكان الملك مرتبطاً بواجبات دقيقة نحو أتباعه الاقطاعين كما كان ملزماً بالقرارات، وعلى هذا من الممكن تتبع تطور التفكير الباروني بوضوح، فمع ضعف الملكية خاصة عندما حاولت ظلماً التجريد من الممتلكات من دون حكم في المحكمة جرى تقديم اقتراح مفهوم ملكية مرتبطة بدقة بواجبات والتزامات، ومنتخبة من حيث المبدأ، وكانت كومونة عكا هي التعبير الفعلي عن هذه النظرية. استمرت الحرب الاهلية حتى سنه ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م [٢]و ما إن بلغ كونراد ابن الامبراطور فردريك الثاني السن القانونية سنه٦٦٧هـ/١٢٦٨م حتى كانت السلطة في القدس قد مُورِسَتْ من قِبَل المحكمة العليا للبارونات التي عملت بالتوافق مع ممثلي المؤسسات الأخرى في المملكة، وفي بعض الأوقات بالتعاون مع الصليبيين الزائرين في الحكومة.وكذلك صليبيتا ثيوبولد أوف شامبيين، وريتشارد أوف كورنورل في سنه ٦٣٨هـ/ ١٢٣٩م وسنة ٦٣٩/١٢٤٠م[٣] قد تبعتها خلال مدة قريبة صليبية القديس لويس التاسع سنة ١٢٤٨/٦٤٧م حيث كانت محصلة الحملتين الأوليتين هي عقد معاهدة مع مصر مع أنها عاشت مدة قصيرة غير أنّها أعادت إلى الفرنجة جميع الأراضي التي وقعت غربي الأردن وامتدادا نحو الجنوب حتى غزّة باستثناء نابلس ، وانتهت حملة القديس لويس التي كانت أخر حملة صليبية على مستوى كبير بهزيمة مريعة حيث وقع قادتها أسرى للمماليك، ولم يتأخّر إطلاق سراح لويس، فبقي في فلسطين لقرابة الأربعة أعوام. لقد كان المماليك الأوائل مشغولين بقمع المنشقين الأيوبيين، كي يتفرغوا فيما بعد

(١)– سميث: فرسان القديس يوحنا من خلال الموسوعة الشامية، ج٥٢، ص١٢٣–١٢٤

(٢)– براور: الاستيطان الصليبي، ص١٢٣

(٣)– سميث فرسان القديس يوحنا من خلال الموسوعة الشامية، ج٥٢، ص١٢٤–١٢٩

لمهاجمة الفرنجة، وقد سمح الوقت إلى لويس لإعادة بناء دفاعات المملكة، و تحصيناتها ومع ذلك فقد سقطت الكثير من الدفاعات على يد المسلمين و في أواخر ستينيات القرن السابع الهجري/القرن الثالث عشر الميلادي كانت المملكة الصليبية محصورة بشريط ضيق على طول الساحل وفي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م سقطت أنطاكية[١] بأيدي المسلمين، لكن استمرت باقي الإمارات والممالیك الصليبية في ممارسة سلطانها فملوك قبرص ورثوا القدس بعد أن أعدم كونرادين في نابلس بناء على أوامر شارل أوف أنجو، وفي سنة ١٢٦٩/٦٦٧م جرى تتويج هيوج الثالث لوزينان صاحب أنطاكية ملكاً، فحقق بذلك شكلاً من أشكال الوحدة الداخلية ، لكنّه لم يكن قادراً على السيطرة على البارونات وعلى الرهبانيات العسكرية، وعلى الكومونات الإيطالية، وكذلك لم يتمكن ملوك قبرص في القدس تأسيس أي سلطة فعلية حيث قدمت الصليبيتان، صليبية أطفال أرغون سنة٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وصليبية أدوارد ولي عهد انكلترا في سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م قليلا من القوة للمملكة الصليبية، وفي سنة٦٧٤هـ/١٢٧٦م انسحب هيوج الى قبرص وهو شديد الانزعاج من سلوك البارونات في عكا مع الداوية، وفي العام التالي أكملت ماريا صاحبة أنطاكية المُطالبة بالعرش بيع حقوقها الى شارل صاحب أنجو الذي سارع إلى منح نفسه لقب ملك ثم أرسل روجر أوف سان سيفيرينو كممثّل له، وكان روجر هذا مؤيداً من قبل الداوية والبنادقة، حيث كان قادراً في تلك الآونة على الاستيلاء على عكا.وإذا كانت القدس تُحكم من قبل عدّة أمراء وملوك فإنّ عكا كانت محكومة من قبل الأنجيفيين سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، في حين اعترفت صور وبيروت بحكم هيوج لوزنيان صاحب قبرص وبحكم ابنه جون الذي عاش وقتاً قصيراً حيث توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وأثناء ذلك، وكذلك توفي شارل أوف نجو في سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م ، ولم تعد الأمور في عكا على حالها فقد نزل الملك الشاب هنري صاحب قبرص في عكا، وتسلم القلعة وجرى تتويجه في العام نفسه لكن في سنة٦٨٩هـ/١٢٩٠م[٢] وصل المدينة –عكا– مجموعه من رعاع الصليبين الإيطاليين الذين بدؤوا بإحداث اضطرابات، وفوضى قتل من خلالها بعض المسلمين، وعد السلطان المملوكي

---

(١)– جوانفيل: حياة القديس لويس من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٥، ص١٧٦–١٩٨.
(٢)- سوخم : وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية ، ج ٣٧ ، ٣٠٣ ، المقريزي : السلوك ، جـ١،ق١ ، ص ٧٥٣ ، عوض : الحروب الصليبية ، ص ٦٩٥

قلاوون أنّ الهدنة قد خرقت وقرر فتح عكا، وقد مات قبل انتهاء استعداداته لكن ابنه، وخليفته الأشرف خليل مضى قُدُماً متابعاً لخطط والده، وفي سنه ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م [١] فتحت عكا.

٢- **إمارة انطاكية وكونتية طرابلس:**

شهدت إمارة أنطاكيه اضطراباً في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وذلك من أجل الوصول إلى عرش الإمارة، فكان الصراع بين ريموند روبن Remond Robin مؤيداً من قبل الارمن والاسبتارية، و بين بوهيموند الرابع متحالفا مع الداوية، لكن النصر كان حليف بوهيموند الذي كان رجلاً نشيطاً وسياسياً مصقولاً، واستمر أفراد عائلته يدعون أنفسهم أمراء أنطاكيه لكن نادراً ما زاروا المدينة التي بقيت شبه مدارة ذاتياً. ومن الأمراء الذين شغلوا عرش أنطاكيه أيضاً كان بوهيموند الخامس الذي تمتع بشعبية لدى الاتباع الطرابلسيين، حيث كان على علاقات جيدة مع روما ، على الرغم من منحه اللجوء إلى ممثل الإمبراطور فردريك ، وإثر وفاته سنه ٦٥١هـ/١٢٥٢م أدارت زوجته الثانيه لوسيني إدارة الإمارة لكنها كنائبة لم يكن لها تلك الشعبية الواسعة، و لهذا فقد تدخل القديس لويس لينهي حكمها، حيث رتب الزواج فيما بين بوهيموند السادس وابنة هيثوم ملك أرمينيا الذي نجم عنه تحالف وثيق بين الدولتين وفي سنه ٦٥٧هـ/١٢٥٨م كان بوهيموند السادس يحاول الحصول على وراثة عرش القدس لحفيده الملك هيوج صاحب قبرص، لكن طرابلس كانت بحاجة لوجود الملك فيها، حيث حاولت أسرة امبرايكو الجنوية سادة جبيل تأسيس دوله مستقلة و قد تم تأييد ثورتهم من قبل البارونات الذين كانوا غير راضيين عن حكومة بوهيموند، وقد تم انقاذ الكونتييه فقط بواسطة تدخل مفرزة من الداوية، و قتلوا بيرتداند امبريكو، وفي الوقت نفسه تابع بوهيموند السعي لنيل التحالف مع المغول، فقد أصبح قادرا على معاودة الاستيلاء على اللاذقية مع أنّ المعاهدة مع المغول كانت غير شعبية لدى البارونات في عكا، وبعد سقوط قلعة حصن الفرسان في سنه ٦٧٠هـ/١٢٧١م [٢]عقد هدنه لمدة عشرة أعوام مع بيبرس غير أنّه توفي بعد مضي أربعة أعوام، تاركاً ولداً عمره أربع عشرة عاماً هو بوهيموند السابع وابنة اسمها لوسي، فأعطيت النيابة إلى الأرملة الأميرة سيبلا كما تسلم بوهيموند السابع الحكومة في سنه ٦٧٦هـ/١٢٧٧ م، فأقدم على تجديد الهدنة مع المماليك

---

(٢)-أبو الفداء : المختصر ، جـ٤ ، ص ٢١ ، المقريزي : السلوك ، جـ١، ق٣ ، ص٧٠٣ ، عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٣٤ ، سرور : دولة بني قلاوون ، ص ٣٥٩ -٣٦٠ ، قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ١٢٠-١٢١

(٢)- ابن واصل : فرج الكروب،ج٣،ص٧٤،أبو الفداء:المختصر،ج٤،ص٦،عوض:القلاع الصليبية،ص٤٢.

سنه ٦٨٠هـ/١٢٨١م لكنّه لم يكن يتمتع بالشعبية لدى أتباعه والإقطاعيين. ولهذا قام الداوية، وأسقف طرابلس، وأسرة امبرايكو بالثورة عليه لكن تمت مصالحة الفرقاء من قبل الإسبتارية، غير أنّ سياسته لم تعجب وتقنع كلاً من الداوية وأسرة امبرايكو، فثاروا عليه ثانية سنه ٦٨١هـ/١٢٨٢م[1] لكنّهم أخفقوا في احداث انقلاب في طرابلس، وهذا ما جعلهم يهربون إلى الاسبتارية، الذين سلموهم إلى الأمير بوهيموند السابع شرط عدم المساس بحياتهم لكن بوهيموند لم يكن وفيّاً، ولم يلتزم بهذا الشرط .

توفي بوهيموند السابع من دون أولاد، حيث خلفته على سدة السلطة أخته لوسي التي رغبت بإعطاء أسقف طرطوس غير الشعبي مكانا في الإدارة لكنّ النبلاء خلعوا الأسرة وأسسوا كومونه، كان أول رئيس لها من أسرة امبرايكو، ولمّا وصلت لوسي للسكن في المدينه في سنه٦٨٧هـ/١٢٨٨م تم الاعتراف بها ككونتيسة جزئيا، بسبب جهود الرهبانيات العسكرية، و لأن أعضاء من الكومونه أصبحوا خائفين من مطامح أسرة امبرايكو الجنويين، كما أهملت طرابلس دفاعاتها، لكنّ الأمور انقلبت رأساً على عقب إثر حصار قلاوون للمدينة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، حيث جرى الدفاع عنها بواسطة مفارز من الداوية، الاسبتارية، الطليان، القبارصة، وكانت آلات الحصار الاسلامية فعالة ممّا أدى إلى سقوط الأسوار، وهروب الإيطاليين مضعفين من معنويات المدافعين[2] .

أسلوب عمل الحكومة المحلية:

كانت الإمارة الإقطاعية في المملكة الصليبية، بمثابة الوحدة الأساسية للنظام السياسي والإجتماعي. أمّا الإمارة الإقطاعية الصغيرة فهي تضمّ في المقام الأوّل مجموعة الأفصال، وتشمل كذلك على مجموعة من الغُزاة، والغرض من وجود الإمارة الإقطاعية الصغيرة، هو بسط سيطرتها على رعاياها، والملاحظ أنّ الصليبيين كانوا يفتقرون إلى الخبرة الادارية. حيث كانت المؤسسات السياسية للإمارة الإقطاعية الصغيرة تتجسد في المحكمة الإقطاعية، والمحكمة البرجوازية. و الحقيقة أن قيام الصليبيين بتطبيق نظم المؤسسات الوطنية الأوربية ونقلها إلى المناطق الصليبية في بلاد الشام يُعدُّ أمراً جديراً بالملاحظة، أيضاً، وهذه سمة مميزة لهذا المجتمع الاستيطاني الصليبي، فقد استمرت المملكة الصليبية في ممارسة الأعراف والتقاليد

---

(١)سميث:فرسان القديس يوحنا من خلال الموسوعة الشامية ،ج٢،ص١١٨-١٢٤

(٢) الكتبي: فوات الوفيات، ج٣،ص٢٠٣-٢٠٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص٣٢١، عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص٤٤، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٧، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨.

التي جاء بها الصليبيون من أوروبا، ولاسيما الأعراف والقوانين التي كانت سائدة في فرنسا والتي كانت لها التفوق، والرجحان في مجال التطبيق في ربوع المملكة الصليبية، وعلى سبيل المثال كان التنظيم الإقطاعي باعتباره نظام حكم، وإدارة والذي كان يشمل كبار موظفي التاج الملكي مروراً بكبار السادة الإقطاعيين، والأفصال[١] وكذلك المحكمة البرجوازية كمحكمة للإمارة الاقطاعية الصغيرة، وليست محكمة مدنية. وخارج نطاق المهام الدقيقة للمؤسسات الصليبية كان يقع على عاتقها مهمة حكم المناطق المحتلة، وضمان حماية الغزاة الصليبيين[٢]. ولم يكن نمو المؤسسات السياسية الصليبية المختلفة، والمتعددة ينتمي إلى بلد واحد، بل كانت هذه المؤسسات تتألف من اجزاء تختلف في أصولها اختلافاً واضحاً حيث انصهرت هذه الأجزاء في شكل هيكل سياسي واحد وذاك وفقا لظروف الغزو والحاجة الملحة التي تطلبتها الظروف الجديدة للصليبيين، وأثبتت التجربة أن هذه الحكومة الادارية قد مارست عملها بشكل سلس، وتوائمت جيداً مع المهام المنوطة بها. بيد أن النازحين الصليبين الجدد إلى المملكة الصليبية كانوا يفتقرون الى الكفاءة الادارية حيث انهم انكبوا على تحقيق المصلحة الذاتية المباشرة دون اعتبار لمصلحة المملكة الصليبية الواسعة. لقد كانت الادارة الملكية وادارة النبلاء في الامارات الصغيرة متشابهة وأكثر تماثلاً وتطابقاً، و ربما يرجع ذلك الى أن بعض الاقطاعات كانت ملكية قبل أن تمنح للنبلاء في شكل إقطاعات، وأيضاً إلى تقليد إمارات النبلاء للنموذج الاداري الملكي. لقد كانت الإدارة الملكية او البارونية في المدن الرئيسية، وفي كل المدن البحرية الساحلية، معقدة، أو إنْ صح القول فقد كانت متممة وفقاً للأنظمة الإدارية الذاتية للكومونيات الأوروبية، وكانت اختصاصات الإدارة الذاتية للكوميونات الإستيطانية يماثل اختصاصات المحكمة الاقطاعية، أو المحكمة البرجوازية[٣]

---

(١)– سميث: فرسان القدس يوحنا من خلال الموسوعة الشامية، جـ٢،ص١٢٠–١٢٤، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٣٥٢

(٢)– رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبيةجـ٢،ص٣٥١–٣٥٤، براور :الاستيطان الصليبي ١٧٥– ١٩٠، غواتمة: دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص١٨٥.

(٣)– رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبيةجـ٢،ص٣٢٥–٣٥٤ ، براور :الاستيطان الصليبي ١٨٩–١٩٠

ثانياً:عرض موجز حول بناء القلاع والحصون حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي:

يُعدُّ تاريخ القلاع، والحصون، والدور، والكنائس جزءاً من التاريخ الحضاري، والسياسي، والعسكري لمدن الساحل الشامي في هذه الحقبة، و لا سيما المنشآت العسكريّة، والمدنيّة لبلاد الشام في المناطق التي أقام فيها الصليبيون إماراتهم، أو سيطروا عليها كطرابلس وصور وأنطاكية وعكا والقدس[١]، واتخاذ القلاع والحصون للإقامة بها، أو كمراكز عسكرية لا يعود لحقبة وجود الصليبيين وإنّما إلى عصور موغلة في القدم، حيث شاع في العصور الوسطى إقامة القلاع على المرتفعات لصد غارات الطامعين[٢]. حيث أقيمت عليها الأبراج الخشبية، وكان لاختيار القلعة شروط أهمها: العلو للتحكم بالأرض المحيطة بها ورصد العدو من مسافات بعيدة إضافة إلى صعوبة اقتحامها[٣]. كانت للأوضاع الجغرافية للشام أثرها في اختيار مواقع القلاع، والحصون التي بنيت فوقها، فجبال لبنان ترتفع ارتفاعاً شاهقاً، يصل في بعض الأحيان إلى عشرة آلاف قدم، أو جبال الساحل السوري الواقعة شمال لبنان على الرغم من أنها أقل ارتفاعاً من جبال لبنان إلّا أنّها وعرة تماماً. وعلى هذا الأساس فقد رأى الصليبيون ضرورة بناء القلاع من صيدا إلى أنطاكية، وعند الممرّات القليلة التي تربط الساحل، والداخل فعلى سبيل المثال قلعة صهيون والمرقب بنيت باتجاه سلسلة الجبال نحو الساحل مكوّنة ممرّاً ضيقاً بين الجبال والبحر، وكان حصن الأكراد وصافيتا وعكار وغيرها من القلاع كل منها يسيطر على مناطق حيوية وفيما يتعلق بسلسلة جبال لبنان نفسها، لم تكن هناك حاجة لبناء قلعة كبيرة، لأنّ قلعة شقيف أرنون، تحدّد نهاية تلك السلسلة، وتقوم بحراسة الممر الذي يخرج منه نهر الليطاني متجهاً نحو البحر. وقد شهد جنوب الشام وتحديداً في فلسطين تشييد عدد كبير من القلاع، باعتبار أن الدفاعات الصليبية فيها كانت أقل تأثيراً.

---

(١) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٣، كردعلي: خطط الشام، جـ٥، ص٢٧٨.

(٢) – فينير (فولفغانغ مولر): القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، مراجعة: سعيد طيان، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٨٢م، ص١٦، سميل (ر.ي): الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٢م، ص٢١١-٢١٢ .

(٣) – فولفغانغ: القلاع، ص١٠، سميل: الحروب الصليبية، ص٢١١-٢١٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٣.

مما تقدم يتبين أن متطلبات الموقف السياسي، و الموقع الجغرافي، والطرق، والمضائق الجبلية هي التي تفرض موقع كل قلعة من تلك القلاع[١] فوجود القلعة في مكان استراتيجي يعطيها أهمية فائقة[٢] **وهنا لا بد من معرفة إذا ما كانت القلاع والحصون وليدة عصر الحروب الصليبية أم أنّها أقيمت على بقايا قلاع بيزنطية أو عربية؟**

في الحقيقية لم تكن القلاع زمن الحروب الصليبية جديدة تماماً، فغالباً ما أنشأ الصليبيون الحصون والقلاع فوق تحصينات سالفة، وإنّ كانت كل قلعة من القلاع مرت بحقب تاريخية مختلفة كما تأثر بناؤها بالتقاليد المعمارية الراسخة، وفق مقتضيات كل مرحلة[٣]، فمنها التأثيرات الرومانية، أو البيزنطية، أو العربية، كما أنّ هذه التحصينات لم تحظ بالرعاية من قبل أصحابها بعد الفتوحات العربية الإسلامية، إضافةً إلى أنّه لم تُقِم دفاعات جديدة إلّا في عدد محدد من المدن الساحلية في سورية وفلسطين، أو في مناطق الثغور المتاخمة للحدود العربية الإسلامية مع بيزنطة، حيث كان خطرهم جاثماً باستمرار[٤]. وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شيّد البيزنطيون القلاع الجديدة التي تميزت بموقعها المنعزل فوق مرتفعات وعرة صعبة المسلك والتسلق، لارتفاع أسوارها المحيطة بها، وكانت هذه المعاقل تجمع بين مقر السيد الإقطاعي، والمستوطنة المحصنة، ومن أمثلة هذه القلاع (قلعة صهيون)[٥].وشهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قيام قلاع مماثلة كيفت ظروفها وطرازها بشكل أفضل من مثيلاتها لتكون معاقل محصنة، حتّى أنّ الأمراء المتنازعين في بلاد الشام كانوا يضطرون إلى إصلاح المعاقل القديمة، أو يقومون بتعديلها، وذلك لأغراض دفاعية[٦]. ولمّا قدم الصليبيون إلى المنطقة ازدادت أعداد القلاع، والحصون بشكل كبير من الجانبين العربي الإسلامي، والصليبي، إذ لم تترك مدينة دون أن يبني المدافعون عنها خارجها، أو على جبل مشرف عليها حصناً

---

(١) – فولفغانغ: القلاع، ص١٠.

(٢) – ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٢٨٦.

(٣) – حمصي (أحمد فايز): قلعة المرقب، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٢م، براور (براور): عالم الصليبيين، ص١٥١.

(٤) – الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص٦٥٢.

(٥) – رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٩، فولفغانغ: القلاع، ص١٧.

(٦) –فولفغانغ: القلاع، ص٢٠، براور: عالم الصليبين، سميل: الحروب الصليبية، ص٢١١-٢١٢.

منيعاً لها ولهذا قامت قلاع متنوعة على الساحل...[١]، وكانت هذه القلاع عبارة عن كيان سياسي، و هي مركز البارونيات .

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى تشييد هذه القلاع؟ هل لاتخاذها مراكز عسكرية فقط، أم ملاجئ للمدنيين أيضاً أم لكل تجميع هذه الأسباب؟

أدرك الصليبيون أهمية المواقع التي سيطروا عليها في بلاد الشام، فأولوا معابرها وقمم جبالها اهتمامهم. خصوصاً التي شيدت فوق شواطئها[٢]. يضاف إلى ما سبق نقص العنصر البشري، حيث عانى الصليبيون من هذه المشكلة على مدى تاريخ وجودهم في بلاد الشام طوال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، لأنّ قسماً كبيراً من الذين شاركوا في العمليات العسكرية (الحملة الصليبية الأولى) عادوا إلى الغرب الأوروبي، لاسيما بعد نجاحهم في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م[٣]. ولهذا فإنّه لم يكن أمامهم سوى تشييد العديد من القلاع، والحصون من أجل تثبيت أقدامهم في المنطقة[٤]، إلى جانب فرض سيادتهم على السكان الذين كانوا في حالة عداء دائم معهم، وخاصة بعدما أخفقوا في كسب محبة السكان الوطنيين[٥].ولا يمكن إغفال حاجة الصليبيين للقلاع من أجل إخضاع المدن التي استعصت عليهم. فعلى سبيل المثال: مدينة طرابلس التي لم تسقط إلا سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م وذلك عندما أقام الصليبيون قلعة صنجيل على يد ريموند دي سانت جيل كونت تولوز، فكان لهذه القلعة دور مهم في إسقاطها بأيديهم، ومدينة عسقلان التي صمدت ما يزيد على نصف قرن من الزمان، فلم تسقط إلّا في عهد الملك بلدوين الثالث سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م بعد

---

(١) – فوقاس (يوانس): رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ٣٤، ص٣٨٠.

(٢) – سانوتو: الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، جـ٣٦، ص٢٤٠، سميل: الحروب الصليبية، ص٢١١-٢١٢، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٩.

(٣) – الصوري (وليم): الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر، ط١، ١٩٩٨م، جـ٢، ص٦٨٢- ٦٨٤، فولفغانغ: القلاع، ص١٠-١٢.

(٤) – الصوري: الأعمال المنجزة، جـ٢، ص٦٨٢-٦٨٤، عوض (محمد مؤنس): القلاع الصليبية في بلاد الشام، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٦-٧، سميل: الحروب الصليبية، ص٣٧، زابوروف (ميخائيل): الصليبيون في الشرق، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م، ص١٥٧.

(٥) – الصوري: الأعمال المنجزة، جـ٢، ص٦٨٢-٦٨٣، براور: عالم الصليبيين، ص٣٤٠، عوض: القلاع، ص١٢-١٥، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٩.

أن شيد الصليبيون العديد من القلاع مثل غزة[١]، الداروم، تل الصافي[٢] وغيرها، وبفضل تلك القلاع الحربية تمكنوا من إخضاعها[٣]. ويعد تشييد تلك القلاع أمراً ضرورياً بالنسبة للصليبيين لأسباب عدة منها: تغيير معالم الأرض، وإشعار المسلمين أن واقعاً سياسياً جديداً يفرض أمام أعينهم، ومما لا شك فيه أن هذه القلاع الصليبية وفرت نوعاً من الأمن النفسي لهم، وأشعرتهم بقوتهم وسط ذلك المحيط المعادي لهم ومنها أنها ساعدتهم على الاستيطان باعتبار أنه كان من أهدافها تدعيم الاستيطان الصليبي وذلك لمواجهة الكثافة السكانية الإسلامية المتزايدة، إضافة إلى أنها كانت بمثابة الغطاء العسكري الحامي للوجود الصليبي لذلك، وصفت الممالك الصليبية أنها مملكة القلاع[٤].إن تميّز القلعة بعناصر متعددة كالموقع المهم، والحامية القوية جعلها تقوم بأدوار متعددة فقد كانت طريقاً للتوسع، وكانت قواعد دفاع في البداية ثم صححت لتكون قواعد للهجوم أو مراكز للقوات الصليبية التي تحاصر المدن الساحلية الحصينة، أو أن تكون نقطة انطلاق للحملات الجديدة والغارات السريعة وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت القلاع لا تزيد عن كونها برجاً مربعاً صلداً، وقد اقتبس الصليبيون من البيزنطيين الكثير فمنهم تعلموا استخدام الكوة[٥] لإطلاق القذائف على المهاجمين والاستفادة من تشييد الأبراج بطول الأسوار رغم أنهم سرعان ما أدخلوا تعديلاً في ذلك بعد أن اكتشفوا أن البرج المستدير يتيح نطاقاً أوسع من البرج القائم الزوايا، والذي كان البيزنطيون يفضلونه، كما أضاف الفرنج الأبواب الحديدية المدلّاة التي لم تكن مستعملة في الشرق منذ عصر الرومان، وكذلك المدخل الملتوي الذي بدأ العرب في تفضيله، وإن لم يكن البيزنطيون يستخدمونه إلا نادراً، ربما لأنه لم يكن مناسباً للآلات الثقيلة التي كانوا يحتفظون بها داخل القلاع.وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حدثت بعض التغييرات في تصميمات القلاع من حيث أن وضع البرج المركزي وهو أقوى جزء من القلعة أصبح في أضعف قسم من الحيز المركزي، وأصبح البرج

---

(١) – غزة: هي بلدة متوسطة ذات بساتين على ساحل البحر وبها كروم خصبة وبينها وبين البحر أكوام رمال تلي بساتينها ولها قلعة صغيرة. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩.

(٢) – تل الصافي: حصن من أعمال فلسطين معناه في اللاتينية (برج المراقبة الأبيض) يقع إلى الجنوب من قلعة يبنه على الطريق بين بيت لحم من ناحية، والرملة وعسقلان من ناحية أخرى. وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، جـ٣، ص٢١٠، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ١، ص٢٧١.

(٣) – سميل: الحروب الصليبية، ص٢١٣-٢١٤، عوض: القلاع، ص٨.

(٤) – سانوتو: الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٦، ص٢٤٠-٢٤١، براور: عالم الصليبيين، ص٣٤٠، عوض: القلاع، ص١٢-١٥، سميل: الحروب الصليبية، ص٢٢١، فولفغانغ: القلاع، ص٢٩-٣٠.

(٥) – فولفغانغ: القلاع، ص٣٠، سميل: الحروب الصليبية، ص٢٠٩-٢١٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٠.

المركزي نفسه مستديراً عادة، وليس مضلعاً لأنّ السطح المستدير يقاوم القصف بطريقة أكثر فعالية من السطح المضلع، وزيدت في البرج الأبواب، والأبواب السرية، وكان حجم القلعة يميل إلى الضخامة، ولاسيما عندما شيدت الرهبانيات الدينية العسكرية كالاسبتارية والداوية قلاعاً أو آلت إليها قلاع من طبقة النبلاء العلمانيين(١). ومن أهم القلاع التي حازتها الاسبتارية المرقب(٢) بينما امتلكت الداوية حصن صافيتا(٣) والعريمه(٤) وأرواد وغيرها حيث كانت هذه القلاع مراكز رئيسة للرهبانية العسكرية شاغلة دوراً هاماً في تقوية الدفاع عن الدولة الصليبية .وبسبب ما وصل إليه الفرنجة من الضعف السياسي والعسكري في المشرق العربي الإسلامي فقد شهد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ذروة التحصينات، فقد كانت المدن تحصن في البداية بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أيّ هجوم مباغت، ويدلّ الدّفاع عن طرطوس وجبيل على سبيل المثال على أنّ القلعة وحدها هي قويّة إلى درجة تكفي لمقاومة حصار فعلي، كما تمثلت القلاع بالنعومة الشديدة لواجهة الأسوار الخارجية التي تحول دون تثبيت السلالم، و الاستخدام الأوسع للفتحات لرماة السهام، وتعقيدات أكبر في بوابات المداخل(٥).ولم تقتصر تلك القلاع على دورها العسكري أو السياسي، بل كان لها قيمة جمالية، فكنائسها تُعدُّ من أروع أمثلة العمارة الكنسية في الشرق اللاتيني، وقاعاتها الضخمة، وتظهر أَحياؤُها السكنية الرقّة، والجمال(٦)، وبالتالي فقد برهنت القلاع على مناعتها، وتطورها التقني الكبير، الذي بلغته القوات المتحاربة في فن التحصين والبناء...

---

(١) – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٠، سميل: الحروب الصليبية، ص٢٢١، سميث (جوناثان رايلي): تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة وتقديم وتعليق: قاسم عبدة قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٥٦.

(٢) – فولفغانغ: القلاع، ص١٧–٢٠، سميل: الحروب الصليبية، ص١٦٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣١.

(٣) – بادربون: الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص٧٦–٧٧.

(٤) – العريمه: قلعة تقع جنوب غرب صافيتا على بعد ١٥كم، جنوب شرق طرطوس بحوالي ٢٥كم، وتتحكم القلعة ببوابة نهر الأبرش وفي أول المضيق على سهل عكار. ثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٤.

(٥) – فولفغانغ: القلاع، ص٢٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣١.

(٦) – بادربون: الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ص٧٦–٧٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٣، سميل، الحروب الصليبية، ص٢٢١، سميث: تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، ص٢٥٦.

ثالثاً: أهم القلاع والحصون الساحلية ودورها في الحروب الصليبية:

إن دراسة تاريخ القلاع كان لا غنى عنه في عصر الحروب الصليبية، لأنّ الطرفين المتحاربين وُجِدَا على أرض واحدة، فكان لا بدَّ من توفير أماكن حصينة للاعتصام بها، فظهرت أهمية القلاع على أشدها في عصر الحروب الصليبية، لأنَّ المدن الشامية التي لم تحتوِ قلاعاً بالأساس شيَّدَ المسلمون والصليبيون قلاعاً بها نتيجة أهميتها العسكرية، وستتم دراسة أهم القلاع في المدن الشامية:

١. قلعة صهيون (صلاح الدين):

قلعة صهيون تشمخ فوق جبال اللاذقية، وصهيون بلدة حصينة مكينة لا ترام، وهي على صخر أصمّ[١]، وبالقرب منها أودية وتقع على بعد ٣٣ كيلو متراً شرقي مدينة اللاذقية[٢]، وهي من أشهر القلاع وأكثرها منعة في الساحل الشامي، كثيرة الخصب والمياه تمتاز بموقعها الهام وبطرازها المعماري الفريد، وتجثم القلعة على رأس صخري مثلث الشكل، مرتبط من جهته الشرقية بالهضبة المجاورة، ويحيط بالقلعة من الجهتين الشمالية، والجنوبية واديان عميقان في مقريهما مجاري مياه[٣]، وهي على ارتفاع أربعمئة متر عن سطح البحر، يبلغ طولها ٧٤٠ متراً أما مساحتها فتنوف عن خمس هكتارات[٤]، وقد وصفها احد المؤرخين بأنها ((قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيق بها واد عميق)) .

ومن المهم الإقرار بأنّ موقع تلك القلعة حقق لها أهمية سياسية، وعسكرية، حيث تدعمّت الحصانة الطبيعيّة من خلال الحصانة الصناعيّة، إذ وقعت على طرف جبل له أودية واسعة عميقة، كذلك وصفت بأنّها شاهقة الارتفاع، كذلك تم تزويد القلعة بأدوات القتال المختلفة، وقد سميت هذه القلعة باسم صهيون؛ نسبة إلى قرية مجاورة عُرِفت بهذا الاسم، أو نسبة إلى روبير

---

(١) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٥٧.

(٢) – حيدر (جمال): قلعة صلاح الدين، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣، البهنسي (عفيف): سورية التاريخ والحضارة، وزارة السياحة، د.ت، ص٧٨–٧٩.

(٣) – شيخ الربوة(شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب ت ٧٢٧هـ/١٣٢١ م) : نخبة الدهر في عجائب البرو البحر ، بيروت لبنان ، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م/ص ٢٧٦، حيدر: قلعة صلاح الدين، ص٣، البهنسي: سورية التاريخ والحضارة، ص٧٨–٧٩.

(٤) – حيدر: قلعة صلاح الدين، ص٣، البهنسي: سورية التاريخ والحضارة، ص٧٨–٧٩.

سيد صون الصليبي؛ من أمراء أنطاكية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ثم عرفت باسم محررها قلعة صلاح الدين.

كانت هذه القلعة تابعة للدولة الحمدانية في حلب، في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى أن احتلها البيزنطيون أثناء غزوهم لبلاد الشام ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م[١] ،وبقيت بأيديهم حقبة دامت نحو مئة سنة، بنوا فيها تحصينات هامة، احتلت القسم المرتفع من القلعة فشيدوا في أعلى مكان منه برجاً ضخماً، وأحاطوه من الجهة الغربية بسور، أمّا مدخل القلعة فقد كان من الجهة الشرقيّة، كما يبدو في ذلك العصر، أما القسم المنخفض من القلعة[٢]، فيبدو أن البيزنطيين لم يستعملوه لأغراض عسكريّة، وإنّما تركوه خارج الأسوار وخصصوا القسم المنخفض لمنازل السكن، وبعدَ سيطرة الفرنج على هذه القلعة[٣]، كان لوردات صهيون بين أعظم بارونات إمارة أنطاكية، فجاؤوا بالمرتبة الثانية فقط بعد المارونيين أصحاب المرقب، وكان أوّل أصحابها ظهوراً في عام ٥٠٢هـ/١١٠٨ م روبرت بن فولك، الذي كان معروفاً أيضاً باسم روبرت الليبروس leprous ، و كان قائداً عسكرياً مهماً، و قد حافظ على علاقات شخصية جيدة مع طغتكين أتابك دمشق، و لكنّ هذا لم ينقذه عندما وقع بالأسر سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م م فقد أعدمه طغتكين، وكان الذين خلفوه أقل شهرة منه لكنّ القلعة بقيت في أيدي الأسرة إلى أن استولى عليها صلاح الدين في سنة٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م، و من المحتمل أن روبرت، أو ابنه وليم هو الذي بنى القلعة في صهيون حول الحصن البيزنطي، و هي قائمة على ذروة طولها ليس أقل من ٧٠٠ م و بخلاف غيرها من القلاع الكبيرة مثل المرقب، و قلعة حصن الفرسان لم تتحكم صهيون بالمنطقة المحيطة بها، وقد ورد ذكر سيد هذه القلعة روبير سيد صهيون سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م وبقيت في قبضة الصليبيين قرابة سبعين عاماً. ومن التحصينات التي بنوها الأبراج المربعة، والمستديرة التي تربط بينها الأسوار، وقد ركزوا على القسم الأوسط من المكان المرتفع، وتركوا حدود القلعة من الجهتين الشمالية، والجنوبية على حالها منذ عصر البيزنطيين

---

(١) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥١، حيدر: قلعة صلاح الدين، ص٣، فولفغانغ: القلاع، ص٥١، البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٨٧–٧٩.

(٢) – حبيب (مالك)– شعبان (إبراهيم): الموسوعة السياحية للساحل السوري، اللاذقية، دار المنارة للنشر، ١٩٩٨، ص٣٠.

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥١، فولفغانغ: القلاع، ص٥١، البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٧٨–٧٩، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٧–٥٩٠

لأن الوديان كانت تحميها. أمّا الجهة الشرقية فكانت أقل مناعة، بسبب ارتباطها بالهضبة المجاورة، لذلك حفروا فيها خندقاً كبيراً في الصخر، ليفصلوا بذلك القلعة عن الهضبة المذكورة تاركين في وسط الخندق عمود حجري يرتكز عليه جسر متحرك يصل الهضبة بالباب المفتوح من الواجهة الشرقية للقلعة[١].

ولأنّ الواجهة الغربية للقلعة كانت ضعيفة المناعة، فقد قرر الفرنج حفر خندق آخر، فاصلين بذلك تحصينات القسم الشرقي عن القسم الغربي تماماً، لكنّهم عدلوا عن فكرتهم هذه بعدما شرعوا بأعمال الحفر **ويمكن التساؤل عن سبب ذلك؟**

هو شعورهم بمشقة العمل، الذي دفعهم إلى إلغاء الفكرة فاستبدلوا الخندق برفع الأسوار، لتدعيم القسم الغربي من القلعة، لأنّه كان عُرضة للخطر، كما سكنت القلعة من قبل الملك، وحاشيته الخاصة به. أمّا شرقي القلعة فكان يسكنها عامة الناس[٢]، كما وجد في القلعة الجامع، والمئذنة، وحمامات، وبرج يطل على القسم المنخفض من القلعة.

تولّى فرسان الاسبتارية أمر قلعة صهيون، وليس هناك تاريخ محدد لارتباطهم بها، ومن المفترض حدوث ذلك قبل سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وهو عام معركة حطين. إذ عندما هاجمها الجيش الأيوبي كان فرسان الاسبتارية يسيطرون عليها، وعلى أيّة حال اتجه السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى إسقاط قلعة صهيون، وبعد الاستيلاء على ميناء اللاذقية اتجه مع ابنه الظاهر غازي لحصارها، ونصب المسلمين آلات الحصار عليها مثل المنجنيقات، قاومت حاميتها من عناصر الاسبتارية أشدّ مقاومة، حتّى سقطت أخيراً في حزيران سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ولا ريب في أن ذلك أثر على نفوذ هيئة الاسبتارية في تلك المنطقة، إذ نتج عنه فقدان الهيئة لأحد أحصن قلاعها في بلاد الشام، ثمّ منح صلاح الدين القلعة إلى الأمير ناصر الدين منكورس[٣] سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[٤] الذي يرجّح بأن المباني العربية تعود إلى عهده،

---

(١) – فولفغانغ: القلاع، ص٥١، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٧، حيدر: قلعة صلاح الدين، ص٣-٧.

(٢) – أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٧، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص٣٠٦، البهنسي: سورية التاريخ والحضارة، ص٧٨-٧٩.

(٣) – ناصر الدين منكورس: سيف الدين محمد بن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس، تملك صهيون وبرزية إحدى عشر سنة توفي سنة ٦٧١هت/ ١٢٧٢م فسلم ولداه سابق الدين وفخر الدين صهيون إلى الظاهر بيبرس، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٦٣.

(٤) – ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله ت٦٩٧خـ/ ١٢٩٧م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م، جـ٢، ٢٦٣، أبو الفداء: المختصر، جـ٤،

وظلّت بيد عائلته حتى سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م عندما اضطر ورثته لتسليم القلعة إلى السلطان بيبرس، و في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي جعل الأمير سنقر الأشقر من صهيون مركزاً لإمارة شبه مستقلة إلى أن جرى الاستيلاء عليها من قبل قادة قلاوون سنة٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م، ودمجت في نيابة طرابلس(١)، كما أُجريت فيها الترميمات اللازمة في عهد سنقر الأشقر، وقلاوون، وأضيفت لهم أبنية أخرى على ما كان موجوداً(٢).و من المرجح أنّ حكّام تلك القلعة شغلوا دوراً مهمّاً في الحياة السياسية، وذلك عن طريق الانخراط في الأعمال القتالية، سواء دفاعاً عن القلعة ، أو ضدّ الجيش الأيوبي، والذي استطاع استردادها، ثم انتقل الحكم فيها للمماليك، و من خلال التمحيص في بطون المصادر والمراجع، يُلاحظ أنّ تلك القلعة و غيرها أدّت دوراً هاماً تجاه الوجود الفرنجي .

٢. قلعة المرقب:

المرقب هو اسم الموضع الذي يُرقَبُ منه، وهو قلعة حصينة، حَسَنةُ البِناء تشرف على ساحل البحر المتوسط(٣)، وعلى مدينة بانياس(٤)، فبين حصن المرقب وطرطوس ثمانية أميال(٥)، فهذه القلعة تقع على الساحل السوري بين مدينتي بانياس وطرطوس الساحليتين فوق ذروة قمة جبل صخري متاخم للبحر(٦) عُرِفَ المرقب بأسماء عديدة منها. ماركابوس Markappos، وماركابان Marekapan، ودعيت من قبل اللاتين (الفرنج) باسم مارغت Margat ومارغاتوم Margthum ، ومارغانت Margant، وأُطلق عليها العرب اسم المرقب

=ص١٧، البهنسي: سورية التاريخ والحضارة، ص٧٨-٧٩، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٣٠٦، فولفغانغ: القلاع، ص٥١.

(١) كندي(هيوج) : القلاع الصليبية ، الموسوعة الشامية ، تأليف وتحقيق و ترجمة: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م ، ج ٥٢ ، ص ١٣٥

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٥، فولفغانغ: القلاع، ص٥١، حيدر: قلعة صلاح الدين، ص٣-٧، البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٧٨-٨٠.

(٣) – شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٧٦، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٥٥.

(٤) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٥٥، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٣، ص٢٥٩، ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٩٤، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٥٠.

(٥) – الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص٦٤٤.

(٦) – الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٧، الحمصي: قلعة المرقب، ص٤، حنا (زكية): القلاع والمواقع الأثرية، نشر كاتدرائية طرطوس، د.ت، ص٣٨-٣٩.

Margab[١]، والحصن المعروف بالمرقب هو حصن (يحدث كل من رآه أنه لم ير مثله أبداً)[٢]، وهو يشكل صلة وصل بالعين المجردة مع قلاع القدموس، والعليقة، وأرواد، ومرقية[٣].

كانت قلعة المرقب تحت الحكم البيزنطي سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م ثم عادت إلى سيطرة الدولة العربية الإسلاميّة. إلى أن احتلها روجر أمير أنطاكية، فبقيت بيد الصليبيين مئة وثمانية وستين عاماً ٥١١-٦٨٤هـ/ ١١١٧-١٢٨٥م، وضعت القلعة تحت أمرة أُسرة المازاوير الإقطاعية التابعة لإمارة أنطاكية، وفي سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م سُلِّمت إلى جماعة الاسبتارية[٤] التي أضافت أضافت عدداً من الأبنية الدفاعية، والمنشآت العسكرية الهامة للقلعة ممّا زاد في تحصينها.

وقد شغل موقع القلعة دوراً هاماً في الصراعات السياسية، والعسكرية، وتجلى ذلك الدور عندما أرسل ملك صقلية وليم الثاني حملة بحرية إلى أميرال البحر مارغريت، وذلك بهدف منع تقدم الجيوش الإسلامية بقيادة صلاح الدين باتجاه جبلة، بعد أن خرب طرطوس، غير أن صلاح الدين استطاع حماية جيشه ومتابعة مسيره للقلعة[٥]، لكن هذه القلعة لم تبق على حالها، بعد تعرضها إلى تدمير، وتخريب عدد من أبراجها الموجودة عند الأسوار الخارجية، عندما حوصرت سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م من قبل الظاهر غازي سلطان حلب. وفي منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عانت القلعة من صعوبات اقتصادية كثيرة نتيجة انتصارات الظاهر بيبرس، ولم يحصل أصحاب قلعة المرقب بعد سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م على هدنة إلّا بعد تنازلهم عن نصف أراضيهم وتعهدهم بعدم إقامة منشآت جديدة في القلعة.

وفي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م شنَّ أصحاب القلعة من فرسان الاسبتارية هجوماً على المسلمين، مستفيدين من الاضطرابات التي رافقت استلام السلطان قلاوون مقاليد الحكم وما أن انحسر خطر المغول لبعض الوقت، حتّى بدأ السلطان قلاوون يَعُدُّ العدَّة للإنقضاض على معاقل الصليبيين لاسيما منها قلعة المرقب معقل عناصر الاسبتارية[٦] وذلك لعدّة أسباب أولها:

---

(١) – الحمصي: قلعة المرقب، ص٤.

(٢) – الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٧.

(٣) – حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٤٢.

(٤) – كندي : القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢ ، ص ٢٣٨

(٥) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٤، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٦-٣٧، فولفغانغ: القلاع، ص٧٢. ص٧٢.

(٦) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٨٠، المقريزي: السلوك، جـ٢، ق١، ص٣٧، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٣٨-٣٩، الحمصي: قلعة المرقب، ص٤.

أولها: كونها أعظم المعاقل العسكرية الصليبية خطورة عليه، نظراً لمناعتها، وحصانتها(١). حتّى أنّ الصليبيين كانوا **((يعتقدون انه لا يدرك بحول ولا قوة وإن الحيلة فيه قليلة))**(٢) وثانيها: نقض الاسبتارية أصحاب قلعة المرقب شروط الهدنة التي عقدوها مع السلطان قلاوون في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ولم يكتفوا بذلك بل واصلوا اعتدائهم على المسلمين، ومضايقتهم، ومهاجمتهم مناطق نفوذ المسلمين من جميع الجهات(٣). لذا قرر الاستيلاء عليها بعد أن لحق الضرر بالمسلمين **((وكان بيت الاستبار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كانوا في حبس واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان وعملوا كل قبيح من الغدر والأسر والنهب))**(٤) وثالثها: تهديد الاسبتارية في قلعة المرقب لقوافل لقوافل التجار المسلمين عند مرورهم بطريق القلعة(٥) ورابعها: تصميم السلطان قلاوون على محاربة الاسبتارية في قلعة المرقب، والانتقام منهم خاصة بعد أن تعاملوا مع المغول، وتحالفوا معهم ضد المسلمين(٦)، وخامسها: رغبته في تحريره بعد أن **((كان قد أعجز الملوك، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه))**(٧). وسادسها: عد السلطان قلاوون الاستيلاء على قلعة المرقب خطوة كبيرة في تقويض الكيان الصليبي في بلاد الشام(٨). وعليه قدم السلطان قلاوون من مصر إلى بلاد الشام، وبعد وصوله دمشق استكمل تجهيزاته العسكرية وتحرك بالعساكر

---

(١) – سرور: دولة بني قلاوون، ص٣٧، الحمصي: قلعة المرقب، ص٤، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٦–٣٧، فولفغانغ: القلاع، ص٧٢.

(٢) – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣١٧.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٣٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٢٠–٢٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠٠، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٤٢، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٣٨–٤٠، الحمصي: قلعة المرقب، ص٤، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٧.

(٤) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧.

(5) – Lana– pool, AHistory of Egyptin the Middle Ages London, 1968, P281.

(٦) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣١٥، سرور: دولة بني بني قلاوون، ص٢٣٧، عوض: الحروب الصليبية، ص٣٤٥.

(٧) – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨٨، مقامي(نبيلة): فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، القاهرة ، ط١، ١٩٩٤ ، ص٨٤.

(٨) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٦٦، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦ .

المصرية والشامية بسرية تامة دون أن يعلم أحد بوجهته وآثر أن يفاجئ الحامية الصليبية في المرقب بالهجوم حتى لا يقوم بوهيموند السابع أمير أنطاكية (٦٧٤-٦٨٦هـ/ ١٢٧٥-١٢٨٧م) بنصرتها[١] وبوصوله قلعة المرقب يوم الأربعاء ١٠ من شهر صفر سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، فرض حصاراً عليها وأخذ السور كما نصبت عليها عدة مجانيق لقذف الحجارة الملتهبة وإرغام من بداخلها من الصليبيين على الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين، وعندما تمكن النقابون من إحداث ثغرات في جدار السور، أدرك الاسبتارية عدم جدوى المقاومة فاضطروا لطلب الأمان فأجابهم السلطان قلاوون إلى طلبهم، ويذكر أحد المؤرخين نَصَّاً هاماً يُبيّن الأسباب التي دعت السلطان قلاوون للموافقة على الصلح ((**فاقتضى الحال أن مولانا السلطان رأى اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل في حصاره، وأن التأخير له آفات، والأولى الاهتمام، بما هو آت**))[٢]. وفي الحقيقية كان سقوط قلعة المرقب، سقوطاً لهيئة الاسبتارية بأسرها، وذلك لأنّ الهيئة بعد ذلك لم يبق لها في بلاد الشام قلاع كبرى كقلعة المرقب، وبعد أن تحقق للسلطان قلاوون ما أراد غادر قلعة المرقب، وتوجه إلى دمشق فوصلها، وأقام بها أياماً، ثم خرج منها عائداً إلى مصر[٣].

وهنا لا بد من التساؤل إذا كانت قلعة المرقب قد شابهت بقية القلاع في أقسامها أو منشأتها الداخلية؟

تشير المصادر بأن قلعة المرقب كسائر قلاع القرون الوسطى طبعت منشآتها الدفاعية بطابع حكامها الذين توالوا عليها[٤]، فهي تتألف من مجموعة أبنية دفاعية يحيط بها سوران كبيران أحدهما خارجي والآخر داخلي لزيادة تحصين القلعة ومناعتها، والقلعة محصنة تحصيناً جيداً، وهي مؤلفة من قلعة داخلية قوية، وقلعة خارجية أكثر اتساعاً، يحيط بها سور خارجي

---

(١) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧-٧٩، الذهبي: العبر، جـ٥، ص٣٤٦، الكتبي: فوات الوفيات، جـ٣، ص٢٠٣-٢٠٤، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢١٤.

(٢) – ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٩.

(٣) – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣١٩، مقامي: فرق الرهبان، ص٨٢، عمران: الحروب الصليبية، ص٣٣٤، سرور: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢١٤.

(٤) – الحمصي: قلعة المرقب، ص١٥، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٧-٣٨، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢١٤.

مرتبط داخلياً بأبراج عديدة مختلفة القياسات، والأشكال، عددها أربعة عشر برجاً دائرياً، أو مربعاً يعلوها البرج الرئيسي، ويلقب ببرج الأمل(١).

والقلعة الداخلية عبارة عن قلعة صغيرة مستطيلة الشكل تقريباً، ويفصلها عن القناة الخارجية قناة مائية عريضة، وعُززت الأسوار الخارجية بحصون بارزة نصف دائرية معزولة.
يتألف قلب القلعة من برج متين البنيان مستدير الشكل يبلغ قطره حوالي ٧٢ قدم، ويواجه الجنوب، ويتصل هذا البرج من جانبيه بأبنية متعددة الطبقات ذات قاعات فسيحة مقنطرة السقف، وفي منتصفها توجد كنيسة كبيرة، يُقسم فناؤها إلى قسمين غير متساويين، وثمّة مستودعات تتجمع حول الفناء الشمالي الأكبر، مع مرابط الخيل(٢). ويتمّ الدخول إلى القلعة عبر برج باتجاه الغرب عند السور الخارجي، ومنه يتم الوصول إلى حصن البوابة عبر فناء أمامي ويتألف حصن البوابة من عدة غرف، كما شيّد الفرسان الأستبار بداخل القلعة كنيسة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، وقد كانت في البداية أسقفية ثمّ أصبحت كاتدرائية سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م(٣) إضافةً إلى برج يدعى برج الصبي، ويقع أسفل القلعة بجوار البحر، ويشكّل جزءاً من دفاعات القلعة، وقد صمّم هذا البرج بطوابقه الثلاثة لحماية مرفأ القلعة، وقطع الطريق الساحلي(٤) وقد عاشت القلعة عهد ازدهار، ورخاء في أيام الفرنجة الصليبيين.
و لم تكن وظائف القلعة عسكرية محصنة، فمع بداية القرن الثالث عشر الميلادي قام أسقف المدينة الساحلية الصغيرة بالتخلي عن المدينة، و نقل مقره إلى القلعة.
لقد كانت قلعة المرقب من أهمّ المعاقل الصليبية في بلاد الشام فكان لها الدور البارز في تثبيت الاحتلال الصليبي في المنطقة، رُغمَ المحاولات العديدة للقادة المسلمين، والتي أخفقت في الإستيلاء عليها لمدة تزيد على مئة وثمانين سنة، وذلك يعود إلى قوة القلعة، ومناعة تحصيناتها، فضلاً عن موقعها البحري المتميّز، الذي سهّل وصول الإمدادات إليها من الغرب الأوروبي، ممّا أطال ذلك في صمودها، حتّى نجح السلطان المملوكي المنصور قلاوون أخيراً

---

(١) – كندي : القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢ ، ص ٢٤٢-٢٥٤ حنا: القلاع الصليبية والمواقع الأثرية، ص٤١، مدفيدكو (سيرغي)، أوسييوف (ديمتري): سوريا تاريخ كبير لبلد عريق، ترجمة: عياد عيد، دمشق، دار الينابيع، ط١، ٢٠٠٢م، ص٤٠٤-٤٠٥.
(٢) – ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٩٤، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٤٢-٤٣.
(٣) – كندي : القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢ ، ص٢٨٣ حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٤٤، فولفغانغ: القلاع، ص٧٦، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٨-٣٩.
(٤) – حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٤٥، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٦٢.

من تحريرها، وانتزاعها من قبضة الاسبتارية، و دائماً حوادث التاريخ الذهبية تَغزِل للأجيال عِبَراً، و حكماً لا زالت تذكر في صفحات الكتب، و هو أن ما أُخِذَ بالقوة ، لا يسترد إلّا بالقوة .

٣. قلعة مرقية:

قلعة حصينة تبعد عن طرطوس ٢٠كم، بنيت القلعة على أنقاض قلعة رومانية قديمة، وكانت حصناً منيعاً يحمي المدينة من الغزاة، إضافةً إلى دورها الحربي فقد كان لها دور تجاري، تحتوي هذه القلعة على برج حربي، يعود إلى عهود متأخرة أيّام المماليك، وإذا كانت القلعة بنيت لحماية المدينة، فقد بني البرج لحماية القلعة، والمدينة معاً[(١)]. وهذه القلعة لا تقلّ أهمية عن بقية القلاع، استولى عليها البيزنطيون سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، إلى أن تمكّن الصليبيون من استعادتها سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، حيث تبعت لأسقفية طرطوس، وكانت تُحكَم من قبل كونتيسة طرابلس، وفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[(٢)]. أصاب حصن مرقية خراب، فعجز بارونه عن إصلاحه، فمنحه إلى الاسبتارية سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وعندما أعلن صلاح الدين الأيوبي الحرب على الصليبيين، تجمعت جيوشه في حطين، وجمع الصليبيون كامل قواتهم، ونظراً لدور القلاع السياسي، والعسكري، فقد أرسلت كل قلعة جيشاً من قبلها، وشارك الملوك في هذه الحرب لأنها كانت حرباً فاصلة، وهي التي ستقرر مصير الصليبيين، إنْ انتصروا أصبح الشرق تابعاً للغرب .

ولكن استرجعها الصليبيون عهد بوهيموند، حيثُ أمر ببنائها من جديد وتحصينها، ويعود سبب اهتمام الصليبيين بهذه القلعة إلى أهميتها العسكرية، والاقتصادية، فهي نافذة يطل منها الصليبيون على أوروبا، إضافةً إلى كون مينائها من أنشط الموانئ حركة حتى صور، كما كانت ملجأ للفرسان الصليبيين، القادمين من طرابلس، والمرقب، لأنّها القلعة الوحيدة على الساحل بعد البترون، ولذلك حصن الصليبيون أبراجها ،وعملوا على تعزيز حاميتها[(٣)]، ومن هذه الأبراج أبراج صغيرة تستوعب حوالي ألف محارب. أمّا الأبراج الجبلية فكانت نقطة إشارة أو إنذار

---

(١) – الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٨، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٣، ص١٢٦، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ١، ص٣٤٨، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٤٨، عوض: القلاع الصليبية، ص٢٤-٢٥.

(٢) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٦٠-٦١، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ١، ص٣٤٨، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٤٨.

(٣) – الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٢١، يعقوب (الياس): عكار الساحل (خراب مرقية)، حمص، طـ١، ١٩٩٠م، ص٢٩-٣٠، حبيب وآخرون: الموسوعة السياحية، ص١٤٨.

للأبراج الساحلية الأخرى(١)، وإذ كانت هذه القلعة قد شغلت دوراً عسكرياً هاماً، قبل وبعد قدوم الفرنجة، فإنّها شكلت حائطاً دفاعياً أمام هجمات المغول فيما بعد، وقد أحبطت محاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليها، ففي سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م عبر المغول الفرات، واحتلوا عين تاب(٢) فهرب العرب أمامهم حتّى سهل البقيعة، وواصل المغول زحفهم إلى حصن الأكراد، ثم تابعوا إلى الساحل فربض الأمير المغولي وجيشه تحت أسوار مدينة مرقية وأقام هناك عدة شهور، ولكن انتشار الأهالي والجيش الصليبي على أسوارها حال دون فتحها، نظراً إلى امتداد المدينة وتحصينها. وانتشارها على التلال. فقد كان كل تل حصناً، أو برجاً بحدّ ذاته، وبعد انقضاء بضعة شهور، حاول الأمير المغولي مداهمة المدينة فأخفق، لأنّ أهلها دافعوا عنها ببسالة، فارتد عنها إلى الفرات، وأرسل جيوشه لنشر الهلع في قلوب الاسبتارية، بعد أن حاصرها تسعين يوماً، ولم يفلح في الاستيلاء عليها ليجعلها نقطة ارتكاز لجيشه، ومركزاً حصيناً لقواته(٣).

وفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م احتلها بوهيموند السابع، وفي العام نفسه استطاع السلطان قلاوون من استرداده من الصليبيين، وقد تم هدم هذا الحصن حتى لا يُستغل من قبل الفرنجة بإعادة إخضاعهم لهم على نحو يُضعِف الوضع العسكري للمماليك(٤).

٤. قلعة يحمور

تسمى بالعربية يحمور ، وبالفرنجية القصر الأحمر، تقع في المنطقة الساحلية، تبعد مسافة ٢ كم غربي صافيتا ، وإلى الجنوب الشرقي من طرطوس بحوالي ١٨ كم و تشرف القلعة على السهل الساحلي من طرطوس إلى جبل لبنان، و هي مؤلفة من طابقين الطابق الأول (السفلي و الأرضي) مؤلف من غرف كبيرة (٥)، و الطابق العلوي، و فيه صالة ضخمة يطل مدخلها على سطح الطابق الأرضي ، يحيط بالقلعة سور مربع الشكل

---

(١) – يعقوب: خراب مرقية، ص٢٩–٣٠، عوض: القلاع الصليبية، ص٢٤–٢٥، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٧٢–٦٠٦.

(٤) فولفانغ: القلاع ،ص٦٤،حنا القلاع والمواقع الأثرية ص٦٠–٦٤

(٣) – ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٨٠٩، رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٧٢–٦٠٦، سميل: فن الحروب الصليبية، ص٦٧، يعقوب: خراب مرقية، ص٣٥–٣٦.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢١، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٤، الحريري: الحروب الصليبية، ص٢٧٦، عوض: القلاع الصليبية، ص٢٤–٢٥.

(٥) فولفانغ : القلاع ، ص٦٤ ، حنا : القلاع و المواقع الأثرية ، ص ٦٤

يتوسطه برج أيضاً ارتفاعه ١٥ م[١]، تقع في مركز قرية في السهول الواقعة إلى الشمال الشرقي من طرابلس ، وهي لا تمتلك دفاعات طبيعية ، بل كل ما فيها برج حفظ أساسي (١٦×١٤ م) منخفض، و كثيف، وفق الطرائق الصليبية، و هو محاط بإطار مربع ، و هناك أبنية حجرية منخفضة على الجوانب الثلاثة لهذه الساحة المغلقة الصغيرة . و يظهر أن قلعة يحمور قد بنيت في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشرالميلادي و ظلت ملكاً لأسرة مونتيلو Molntliou حتى العام ٥٧٢-٥٧٣ هـ /١١٧٦-١١٧٧ م عندما سلمها ريموند الثالث إلى الاسبتارية ، وتسلّمت الأسرة أربعمائة دينار بيزنطي كتعويض[٢]، و لم تسلم هذه القلعة من صليبيي أنطاكية، ثمّ انتقلت ملكيتها إلى كونتات طرابلس عن طريق المصاهرة، و كان هذا الحصن من الحصون التي حررها السلطان قلاوون سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ [٣].

٥. قلعة العريمة :

تقع جنوب شرق صافيتا ، وتطل على قرية العريمة ، ووادي نهر الأبرش ، وكانت هذه القلعة جزءاً من منظومة تحصينات تمتد من طرابلس حتى طرطوس[٤]

كانت هذه القلعة عائدة إلى كونتات طرابلس ، ومن الواضح أنها كانت قلعة لها بعض الأهمية ، عندما استخدمت من قبل بيرتداند الذي جاء مع الحملة الصليبية الثانية، و عزم على طرد ريموند الثاني ، وعزله من منصبه ككونت لطرابلس، و لسوء حظه كان ريموند أكثر خبرة بطرق الشرق ، حيث قام باتصالات مع القائد الملهم نور الدين محمود زنكي، الذي استولى على القلعة ، واقتاد بيرتداند إلى حياة الأسر، و لم يتمكن المسلمون من الاحتفاظ بالقلعة ، لذلك جرى تهديمها، و يبدو أن صلاح الدين لم يستول عليها سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨ م عندما فكر بمهاجمة قلعة حصن الفرسان ، و من المحتمل أنّها انتقلت إلى ملكية الداوية في القرن السابع للهجرة /الثالث عشر للميلاد، فقد ورد ذكرها في معاهدة بين المسلمين والداوية سنة

---

(١) عميري : سلسلة الجبال الساحلية ، ص ٢٨٤ ، حبيب و آخرون : الموسوعة السياحية ، ص ١٤٦ ، أثناسيو : سوريا الشمالية ، ص ٥٧٢

(٢) كندي : القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢ ، ص١٠٧-١٠٨

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٤،ص٢٣ ، مدفيدكو و آخرون : سوريا ، ص ٢٨٣ ، فولفانغ ، القلاع ، ص٦٥ ، حنا : القلاع و المواقع الأثرية ، ص ٤٨

(٤) فولفانغ : القلاع ، ص٦٥ ، حنا : القلاع و المواقع الأثرية ، ص ٤٨

٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م و يُرّجح أنّ الأعمال البازلتية السوداء الأولى يعود تاريخها إلى أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، عندما كانت القلعة مملوكة من قبل كونتات طرابلس ، وتمثلت المرحلة الثانية بعملية تمتين من قبل الداوية في نهاية القرن ، و من المرجح أنّهم عمروا سرداباً، و قاعة حسب نمط عمل الرهبانيات العسكرية[١]

٦. قلعة أرواد:

تقع جزيرة أرواد المأهولة بالسكان إلى الجنوب الغربي من مدينة طرطوس، وهي جزيرة صخرية يبلغ متوسط طولها ٨٠٠م، وعرضها حوالي ٢٥٠م، تمتاز بمبانيها المتلاصقة، وشوارعها الضيقة جدّاً والمخصصة للمشاة فقط، وتتجمع مبانيها حول الميناء[٢].

أقسامها:

- **القلعة الساحلية:**

تسمى بالبرج الأيوبي، وتقع هذه القلعة على الجانب الغربي من المرفأ، وعلى الشاطئ الشرقي في الجزيرة، وأقيمت القلعة مع البرجين في العصر الأيوبي، أمّا وسط القلعة فيعكس الفن المعماري الأيوبي، إذ يتخذ شكل بهو محاط من كافة الجهات بغرف استخدمت للسكن وكمستودعات وملاجئ في حالة الهجوم على الجزيرة من قبل الأعداء[٣].

- **القلعة المركزية:**

وتقع القلعة المركزية في وسط الجزيرة بنيت على صخرة طبيعية، ويتألف بناء القلعة المركزية من قسمين القسم الواقع على الشاطئ الشرقي ويشرف على الميناء يتألف من باحة مكشوفة تحيط بها مجموعة غُرف محصنة، ويتميز هذا القسم[٤] بأبراجه الأربعة، وقد حول أحدها إلى منارة، وإنّ جميع الأقسام الخارجية للبناء بما فيها أبراج القلعة الأربعة فهي عربية،

---

(١) كندي : القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، ج٥٢،ص١٠٢-١٠٦

(٢) – البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٩٤، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص١٩

(٣) – فولفغانغ: القلاع، ص٦١-٦٢، البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٩٤، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص١٩.

(٤) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٨٥-٢٩٠، فولفغانغ: القلاع، ص٦١-٦٢، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص١٩.

وتعود إلى عصر الحروب الصليبية[١]. كانت أرواد تتبع لـ بيزنطة وبقيت كذلك حتّى استعادها العرب المسلمون في عهد معاوية بن أبي سفيان، وخلال الحروب الصليبية تمكّن الصليبيون من احتلال الجزيرة حيث ظهر فيها الداوية، بعد أن استولى بلدوين الثالث على طرطوس سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م[٢]، وقد شغلت القلعة دوراً عسكرياً، وسياسياً نتيجة موقعها الجغرافي الهام الذي ساهم في توسيع نطاق علاقاتها مع الدول المجاورة، كجزيرة قبرص، وجزر بحر إيجه، إضافة إلى أنّها كانت مركزاً للقيادة الصليبية، فمن المعروف أنّ صلاح الدين الأيوبي قد استعاد معظم الموانئ على الساحل بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م باستثناء طرطوس وأرواد، وبقيت الداوية في جزيرة أرواد، وظلت متحصنة فيها، محافظة بذلك على موقعها اثني عشرة سنة، بعد طرد الفرنجة من عكا، وغيرها من المدن سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٣] ولم يغادر الداوية الجزيرة إلّا في سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م[٤].و من المرجح أن حكام القلعة من الفرنجة قد انجرفوا في تيارات السياسة صعوداً، و هبوطاً، و لكنهم لم يكن لهم الدور الفاعل في ميادين السياسة ولكن لماذا لم يهتم المؤرخون العرب المسلمون بما قامت به السلطة السياسية، من سلاطين، و حكام، وأمراء ، و أهملوا باقي فئات الناس ، فلماذا اهتموا بذكر الانتصارات العسكرية ، وأهملوا ذكر بقية الحوادث السياسية، والاقتصادية، و الاجتماعية، لمثل تلك المواقع الدفاعية الهامة، هذا السؤال برسم الإجابة عليه عند الكشف عن وثائق جديدة .

---

(١) – سوخم: وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص٢٨٥-٢٩٠، البهنسي: سوريا التاريخ والحضارة، ص٩٤، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص١٩.

(٢) – أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص١٧.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٥٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٩٢٧-٩٢٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٩، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٢، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٣٥-٩٣٦.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٥٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٥٩، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٩٢٧-٩٢٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٢٣، العلبي: الملك الأشرف خليل، ص٤٥-٤٦، عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٤٢.

٧. قلعة صافيتا (القصر الأبيض):

تقع وسط سورية بين طرطوس، وقلعة الحصن، في عمق المنطقة الساحلية على ارتفاع ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتبعد القلعة عن طرطوس ٢٧كم إلى الجنوب الشرقي، وتسيطر على حصون وقلاع جبال الساحل السوري(١).

تسميتها بالبيزنطية أرجير كاسترون، و يعني القلعة الفضية، والقصر الأبيض(٢).

لكنّ بعضهم يرى بأنّ هذه التسمية أطلقها الفرنج على البرج، وليس على القلعة، ويتوسط القلعة برج أثري يبلغ ارتفاعه ٢٨م، شيّده الصليبيون، يعلو مركز البلدة، ويرتفع عن سطح البحر ٤٠٠م يتألف البرج من طابقين الأول يتألف من قسمين: القسم الأول يتألف من كنيسة(٣)، أمّا القسم الثاني يدعى بالقاعة الكبرى فوق الكنيسة للبرج المحصن، ومهمته دفاعية وهو عبارة عن صالة مفتوحة منها منافذ، ومرام للسهام، بلغ عددها حوالي عشر مرامي في نهايتها قبة تستند على ركائز متصالبة شديدة الإنحناء. أمّا السور فقد تعرض للهدم على مر الأيام، ولم يَبقَ منه إلّا بعض الأجزاء(٤)، و قد خلت المصادر، والمراجع من الحديث عن الأوضاع السياسية مفصلة عن تلك القلاع ما خلا بعض الإشارات عند الحديث عن أعمال السلطان، أو حروبه ضد الصليبيين. وقد ورد أوّل ذكر للقلعة سنة ٥٦٢-٥٦٣هـ/ ١١٦٦-١١٦٧م عندما احتلها أتابك حلب نور الدين محمود زنكي، حيث بقيت هذه القلعة ما بين أخذ ورد، بين نور الدين محمود زنكي والصليبيين الذين استولوا عليها، وبعد ذلك انتقلت إلى فرسان الداوية الذين جددوا القلعة بعد الهزة الأرضية التي حدثت سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، لكنها خُرّبت مجدداً إثر الهجوم الذي شنه نور الدين عليها سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م(٥) ولم يأل الصليبيون جهداً في استرجاعها لأهميتها، وكانت هذه القلعة عائدة بملكيتها لكونتية طرابلس، ثم سلّمت إلى فرسان الداوية

---

(١) – فولفغانغ: القلاع، ص٦٣، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٢.

(٢) – دي فتري : المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، جـ٣٤، ص١٤١، فولفغانغ: القلاع، ص٦٣، حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٤٨.

(٣) – حنا: القلاع والمواقع الأثرية، ص٤٨، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢٨٥، أثناسيو: سوريا الشمالية، ص٥٧٢– ٥٧٤.

(٤) – الشهابي (قتيبة): هنا بدأت الحضارة، ط١، دمشق ،١٩٨٨م، ص٢٤٤، عميري: سلسلة الجبال الساحلية، ص٢٨٥.

(٥) – حاج مجهول قبل سنة ١١٧٨م: من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، جـ٣٧، ص٣٨، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٧، عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢٠، ص٦٩٢.

ينطلقون منها بغاراتهم على المناطق العربية الإسلامية، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م أثناء حملته على الساحل الشامي، إلّا أنّه لم يستطع تحريرها، لكن سطع نجمها مرة أخرى، ودخلت مرحلة مهمة عندما زارها الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م بعد عودته من مصر، حيث اتجه إلى الساحل الشامي، وطاف على أملاك الصليبيين وعمل على زيادة حجم قلعة صافيتا، وبقيت بيد الصليبيين حتّى حرّرها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م[١].و نصل إلى استنتاج من خلال تواريخ تلك القلاع أن فرسانها الداوية، أو الاسبتارية، أو التيوتون كان دورهم السياسي ، محدوداً جداً، و مرتبطاً فقط بالطلب منهم للمشاركة بحرب خارجية ، أو الدفاع عنها ضد القادمين لاحتلالها، ما عدا ذلك لم يرتبط اسم شاغليها بأي دور سياسي منوط بهم .

٨. قلعة حصن الفرسان (حصن الأكراد):

هي قلعة حصينة تجثم فوق جبل شامخ على ارتفاع يزيد عن ٦٥م[٢] تقع بين حمص وحماة من ناحية، وطرابلس وطرطوس من ناحية أخرى، وذلك في وادي النهر الكبير، تبعد عن دمشق مسافة ٢٤٠كم و١٤٠كم عن طرابلس و٤٠كم عن حمص، ومن هنا تأتي أهميتها العسكرية لأنّها أشرفت على كل الإقليم الواقع بين منطقة أنطرطوس وطرابلس من جهة، وحمص من جهة أخرى. وكانت أيضاً على اتصال بالنظر مع قلعة صافيتا المجاورة لها. والتي من خلالها يتم الإغارة على حمص وحماة ((وهو بمرأى العين منها))[٣].

سمّيت قلعة الحصن، لأنّ الحصن مأخوذ من الحصانة أي المنعة[٤]، كما سمّيت بحصن الأكراد نسبة إلى أمير حمصي ابتناها، ووضع فيها حامية من الجنود الأكراد سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، كما سمّي حصن الاسبتارية، عندما سكنوه فرسان الاسبتارية، أما التسمية الأجنبية الحديثة، فهي حصن الفرسان أو كراك دي شفاليه[٥].

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٦-٧.

(٢) – الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٠٤، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٥٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٤٦، فولفغانغ: القلاع، ص٧٦.

(٣) – ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٩.

(٤) – الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٤، فولفغانغ: القلاع، ص٧٦.

(٥) – فولفغانغ: القلاع، ص٧٦، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٨-٣٩.

تعد واحدة من أفضل نماذج التحصينات في المشرق، لضخامتها، واتساع المنطقة المسورة، وحصانتها التي ساهمت في صد الفرنج عن كثير من غاراتهم[١]، فهي تتحكم في معبر إستراتيجي يصل البحر بالسهول الساحلية السورية، تمتاز القلعة بموقعها، فتبدو وكأنّها مكتفية بذاتها وحاجاتها، شيّدت من الأحجار الكلسية فوق قاعدة صخرية بركانية بارزة، اتخذت شكل مضلع غير منتظم الطول تبلغ مساحاتها حوالي ثلاث هكتارات طول قطره الكبير ٢٠٠م، أما الصغير فيبلغ قطره ١٤٠.٥م وأجري عليها عدة توسعات وترميمات نتيجة للهزات الأرضية التي تعرضت لها المنطقة على مر الأزمان، فأعيد بناء أبراجها وسورها، وينتصب ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة تقع في الواجهة الجنوبية للقلعة العلوية تشرف على الدفاعات الخارجية للقلعة، وللقلعة حصنان داخلي وآخر خارجي[٢].

وقد جرى استيلاء الصليبيين على الحصن وهم في طريقهم إلى القدس ولكن سرعان ما استردته حاميته، بيد أنّ تنكريد أمير أنطاكية استطاع الاستيلاء عليه مرة أخرى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، كما تملكه ريموند الثاني كونت طرابلس سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، وبقي بأيديهم على الرغم من محاولات السلطان السلجوقي ألب أرسلان المتكررة للاستيلاء عليه، لكنه مُنِي بالهزيمة، والإخفاق، فعادت السيطرة عليه إلى الفرنجة وهذا ما دفع بالأمير ريموند الثاني إلى منح فرسان الاسبتارية الحصن مع ما يحيط به من أراض وإقطاعات في شمال، وشرق القلعة، فاتخذ الاسبتارية الحصن نقطة ارتكاز رئيسية وانطلاق لنشاطهم تحتشد فيه قواتهم عند التخطيط لعمل عسكري في المنطقة[٣].

قاد الصليبيون من قلعة المرقب هجوماً مشتركاً مع صليبي حصن الأكراد، وطرابلس سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م ضدّ المسلمين في منطقة بعرين، غير أنّ الملك المنصور حاكم حماة تصدى لهم وتمكن من هزيمتهم، وأسر عدداً من مقدميهم وخيالتهم، كما تعرّض الحصن لحصار مدة شهر سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[٤] من قِبَل القوات العربية الإسلامية بقيادة صلاح الدين، لكنّ الحصار آل إلى الإخفاق، غير أنّ انتقال السلطة السياسية إلى المماليك اضطرهم إلى وضع

---

(١) – الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٠٤، فولفغانغ: القلاع، ص٧٦.

(٢) – فولفغانغ: القلاع، ص٧٧–٧٨.

(٣) – بورتشارد: وصف بورتشارد من خلال الموسوعة الشامية، جـ٣٧، ص١٥٧، فولفغانغ: القلاع، ص٧٧–٧٨.

(٤) – ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٧٤، عوض: القلاع الصليبية، ص٤٢.

استراتيجية عسكرية جديدة تقوم على سياسة إخضاع كل مركز، أو قوة فرنجية على حدة ثم الانتقال لغيرها، و هكذا، و بناءً على هذه السياسة، فقد تتابعت المحاولات لاسترجاعه، حيث شنَّ السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م أوّل هجوم على منطقة الحصن ذاتها، واضطر فرسان الاسبتارية إلى الخضوع نتيجة لاستخدام آلات الحصار والمدفعية بأعداد كبيرة، فاستسلم الفرسان مقابل خروجهم إلى طرابلس(١)، فكان لتحرير حصن الأكراد في ١٦ شعبان سنة ٦٦٩هـ/ آذار ١٢٧٠م على يد السلطان المملوكي دوراً كبيراً في دعم مركز المسلمين السياسي والعسكري في مواجهة الصليبين، وبالتالي فإنّ السياسة التي انتهجها بيبرس حيال الحصن كانت ناجحة، لأنّها دعمت قوته، و جعلته في مركز القوة التي يَخاف منها معظم الحكام آنذاك ، حيث اتخذه السلطان الظاهر بيبرس قاعدة لعملياته العسكرية ضد الصليبيين في شمال الشام(٢). وبقيت القلعة محتفظة بمكانتها بعدما انتقلت إلى أيدي العرب المسلمين، وأصبحت مقراً لنائب السلطنة، ومركزاً لحامية كبيرة.

٩. قلعة صيدا:

قلعة على الساحل الجنوبي الشامي(٣)، وتقع صيدا فوق رقعة متسعة من الأرض تمتد قليلاً داخل البحر وللمدينة مرفأ يحميه حصن بحري من الهجمات الخارجية القادمة من البحر، وقد احتلت مكانة هامة على مر العصور. إضافةً إلى أنّها كانت مسورة بأسوار قوية، ولم يبق أي أثر من القلعة باستثناء برج واحد وأقسام منعزلة عن جدارها.

ويقال بأنّ المدينة أصيبت بهزة أرضية سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م(٤) ممّا أدى إلى أضرار بالغة في تحصيناتها، وقد تركها الفرنج بعد هزيمتهم في حطين، وأزيل قسم كبير من تحصيناتها، وفي سنة ٦٢٦- ٦٢٧هـ/ ١٢٢٨- ١٢٢٩م، استعاد الصليبيون القلعة، وأعادوا تحصينها، وبدأوا العمل في إقامة حصن البحر (قلعة البحر)، وفي سنة ٦٤٧-٦٥١هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٣م، استولى العرب المسلمون على القلعة لمدة قصيرة وخرب الحي السكني مرة أخرى، على الرغم أن حصن البحر ظل على ما يبدو في أيدي الفرنج.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٦.

(٢) – سالم (عبد العزيز): طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢٦٨، العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٢٦٦.

(٣) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩.

(٤) – أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٣١-٣٣، فولفغانغ: القلاع، ص٩٠-٩٢.

وفي سنة ٦٥١-٦٥٢هـ/ ١٢٥٣-١٢٥٤م، أُعيد بناء دفاعات المدينة، والقلعة، على مستوى كبير، على يد الملك لويس التاسع ملك فرنسا، و عندما اجتاح المغول بلاد الشام كانت صيدا من المدن التي هاجموها، ودمروا أجزاء منها سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م بعد خلاف بين جوليان دوساجيت سيد المدينة، والحاكم المغولي كتبغا[١] في دمشق، ثم امتلك فرسان الدواية صيدا بعد ذلك مباشرة وقد التجأ فرسان الداوية إليها بعد هروبهم من عكا إثر سقوطها سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م،و قاموا بانتخاب مقدم جديد هو ثيبوت غودين حل محل وليم أوف بيمو الذي قتل في عكا، ولكنهم لم يصمدوا في وجه الهجوم المملوكي، وفرّوا منها بحراً إلى قبرص، وسقطت المدينة بفرارهم وخربت جميع تحصيناتها[٢].

إن ما ذُكِرَ من اهتمام لويس التاسع ببناء دفاعات المدينة، ثمّ لجوء الداوية إليها بعد سقوط عكا، هو خير دليل على الدور السياسي الذي كانت تشغله هذه القلعة، فلماذا يقوم لويس بالاهتمام بها؟ و لماذا عدّوها آمنة و جاؤوا إليها ؟ يمكن استقراء ذلك من خلال الحوادث التاريخية و إذا لم يشر المؤرخون صراحة إلى هذا الدور ؟ فمن الواضح أن لويس أراد بعد هزيمته تحسين سمعته السياسية، والعسكرية، وذلك بتحصين مواقع جديدة، و اتخاذها مراكز عسكرية، و سياسية لاستعادة ماكان عليه سابقاً، لكنه أخفق في ذلك .

١٠. قلعة عكار:

سميّت بالعربية حصن عكار، وبالفرنجية أكار Akkar، وهي قلعة صغيرة في شمالي لبنان ٢٥ ميلاً[٣] تقريباً إلى الشمال الشرقي من طرابلس، تقع فوق جرف جبلي على السفوح الشمالية

---

(١) – كتبغا: هو نائب هولاكو على بلاد الشام، كان شديد السطوة مهيباً، قتل على يد الأمير جمال الدين آقوش الشمسي في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وكان يميل إلى دين النصارى، استخدم في أثناء معاركه أشياء كثيرة لم يسبقه إليها أحد منها: أنه عندما كان يلقي الحصار على أحد الحصون يبعث ويقول لهم: إن ماءكم قد قل، فافتحوا صلحاً قبل أن آخذه قسراً، فيقولون إن الماء عندنا كثير، وللتأكد يرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً، فيقيسوا الماء بتلك الرماح، فيكون ذلك سبب هلاكهم ولا يشعرون، الذهبي: العبر، جـ٥، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩.

(٣) – الميل: جمع أميال وميول، وقيل أميال لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل وكل ثلاثة أميال منها فرسخ.

ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، بيروت، دار صادر، مج١١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٦٣٩.

لجبل عكار، وهي جزء من دفاعات الحدود الشمالية لإمارة طرابلس، وكانت على اتصال بالنظر مع القصر الأبيض (صافيتا) وقلعة الحصن[١] كان موقعها اللامتناظر محمياً من الجهة التي تواجه الجبال ببرج محصن قوي مع قناة ماء عميقة[٢]، و قد شغلت هذه القلعة دوراً سياسياً مهماً تملكها الفاطميون سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، كما أصبحت مقراً للقضاء السلجوقي سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م،كما كانت في النصف الأول من القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي مقر أسرة بارونية، هي أسرة بويلورين، وبعد استيلاء الفرنجة على طرابلس كانت عكار تتبع لأتابكة دمشق السلاجقة، ثمّ حررها نور الدين سنة ٥٥٦–٥٦٦هـ/ ١١٦٠–١١٧٠م لمدة قصيرة، لكن الفرنجة استطاعوا إعادتها إلى سيطرتهم فمنحها ملك القدس عموري الأوّل إلى الاسبتارية بوصية أكدها أمير طرابلس ريموند الثالث بعد أن تحرر من الأسر و هذا ما يدلُّ على العلاقات السياسيّة التي كانت قائمة آنذاك بين إمارة طرابلس و مملكة بيت المقدس ، وذلك انطلاقاً من وحدة الصف الفرنجي في مواجهة العرب المسلمين ، وفي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م[٣] هاجم بيبرس عكار، وواجه صعوبة واضحة في نقل آلات الحصار نحو الأعلى داخل الهضاب الكثيفة الأشجار عندما بدأ القصف، وكانت المقاومة حادة، ولكن عكار استسلمت بعد حصار فرضه جيش السلطان الظاهر بيبرس لمدة شهر تقريباً، لأن السلطان نجح في جلب مجانيق يرمي بها القلعة بعدما بقيت لمدة قرن مع الاسبتارية، فاضطروا في النهاية إلى تسليمها، وانسحاب حاميتها إلى طرابلس[٤]. و مع بقائها لمدة مئة عام بيد الصليبيين **يمكن التساؤل هل شغل حكّام هذه القلعة فيما بعد دوراً سياسياً هاماً ؟** هذا ما ستجيب عنه الأبحاث اللاحقة

١١. قلعة أرسوف:

تقع هذه القلعة على ساحل فلسطين بين قيسارية ويافا[٥]، فهي تبعد مسافة ١٠ أميال إلى الشمال من يافا، و١٨ ميلاً عن قيسارية.

---

(١) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠–١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٦.

(٢) – الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص١١٢، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ١، ص٥٦.

(٣) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠–١٤١،

(٤) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠–١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٦.

(٥) – الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص١٨٢، البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ١، ص٥٦.

ظلت قلعة أرسوف تحت السيادة العربية الإسلامية إلى أن استولى عليها الصليبيون بقيادة جودفري بوايون[١]، حيث كانت خطة هؤلاء الاستيلاء على المراكز الهامة على الساحل، لخنق القوى الإسلاميّة، ولدعم اتصالهم بالغرب الأوروبي.

شغلت القلعة دوراً سياسياً، و عسكرياً هاماً، فهي كانت خط الدفاع الأوّل عن أرسوف ضد هجمات المسلمين، لكنّ قلعة المدينة ما لبثت أن سقطت عقب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، و لأهميّة موقعها الاستراتيجي على الساحل صمّم الفرنجة على إخضاعها خوفاً من تداعي قوتهم العسكرية، و انهيارها، و قد تمكن هؤلاء فيما بعد من استعادتها، إلى أن سقطت نهائياً في عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[٢] بعد حصار دام أربعين يوماً، دافع عنها فرسان الاسبتارية دفاعاً قوياً، وقد تم هدمها ضمن خطة هدم العديد من التحصينات الصليبية كي لا يكون لهم فيها مطمع[٣].

١٢. قلعة قيسارية:

حظيت قلعة قيسارية باهتمام الفرنجة من جهة ، والعرب المسلمين من جهة أخرى لأنّها عُدَّت المركز الهام الداعم بالسلاح و المال ، والنجدات البشرية، ولأنَّها مطلة على البحر مباشرة، فقد كانت قلعة قيسارية إحدى تلك القلاع، وتقع في خليج طبيعي، يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر ما بين حيفا ويافا، وتُعدُّ من أعمال فلسطين[٤] كانت قيسارية مرفأ هاماً من مرافئ فلسطين في العصور الوسطى.

وكان لقيسارية دور سياسي هام زمن الأيوبيين، والمماليك، فقد حرّرها صلاح الدين، ودمّر تحصيناتها القديمة. بعد هزيمته للفرنجة في حطين، لكنّ الفرنجة استطاعوا استعادتها سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، بقيادة ريتشارد قلب الأسد، وبقيت بأيديهم حتّى سقطت بيد جيش الملك

---

(١) – جودفري اوف بوايون: كان يعرف بدوق اللورين السفلى، ولد في جمادى الأول ٤٥٠هـ/ تموز ١٠٥٨م، وهو ابن الأمير يوستاش. وكانت والدته أودا Ioda تتمتع بشخصية بارزة، وتنتمي لعائلة عريقة النسب في الغرب الأوروبي وكان أمير اللورين، بدون اولاد، فتبنى ابن أخته جودفري ليكون ابناً له، وفي حالة وفاته يتولى جودفري عرش الإمارة. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، جـ٢، ص١٥١.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٤٣، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٢-٣٣.

(٣) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٤٣، عوض: القلاع الصليبية، ص٣٢-٣٣.

(٤) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٥٣٩.

المعظم عيسى[١] سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، بسبب إهمال الحامية، وقام الفرنجة بتحسين دفاعات المدينة بعد استعادتها سنة ٦٤٩هـ– ٦٥٠هـ/ ١٢٥١– ١٢٥٢م، وتضمنت هذه التحسينات إضافات إلى حصن البوابة، وشق القناة الكبيرة المسورة، والجدار المائل المتواصل لكن قيسارية استسلمت إلى جيش السلطان بيبرس بعد حصار لم يدم أكثر من ستة أيام سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[٢]، على الرغم من أن القلعة قاومت مدة أطول قليلاً، وقد دمرت سنة ٦٩٠هـ،/ ١٢٩١م في عهد السلطان الأشرف خليل، وذلك لمنع الفرنجة من استخدامها[٣].

١٣. قلعة عكا:

هي مرفأ بحري في شمالي فلسطين، ومدينة كبيرة من سواحل الشام[٤] توقف أول هجوم صليبي على أسوار عكا سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م لأن أميرها الفاطمي وعد بالخضوع إذا ما سقطت القدس، وفي سنة ٤٩٧–٤٩٨هـ/ ١١٠٣–١١٠٤م حاصر جيش الصليبيين المدينة بقيادة الملك بلدوين الأول يدعمه الأسطول الجنوي، واستولى عليها بعد عشرين يوماً، وبقيت معهم إلى أن تمكن صلاح الدين من تحقيق انتصاره في حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٥] حيث حرّرها دون مقاومة، وتبع ذلك اتخاذه لإجراءات عسكرية، منها تقوية الدفاعات، وكانت القلعة تتألف من جهة البر من سور واحد مع خندق مائي، لكن الفرنجة نجحوا مجدداً في الاستيلاء على عكا سنة ٥٨٥– ٥٨٧هـ/ ١١٨٩–١١٩١م بعدما حاصروها بقيادة غي دي لوزينان بادئ الأمر ثم حاصرتها قوات ريتشارد قلب الأسد، وفيليب ملك فرنسا بعد سلسلة من الهجمات الشديدة، وأصبحت مقراً للبطركية اللاتينية، ومملكة الفرنجة بدلاً عن القدس، وأصلحت الدفاعات المتداعية من قبل ريتشارد قلب الأسد، وفي سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، أصاب الزلزال المدينة

---

(١) – المعظم: شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي صاحب الشام ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، نشأ بالشام وقرأ القرآن وكان شجاعاً مقداماً كثير الحياء متواضعاً مليح الصورة ضحوكاً غيوراً جواداً حسن السيرة، وكان في غاية ما يكون من الكمال في عدة علوم وفنون، وهو رجل بني أيوب وعالمهم توفي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٣٦–٢٣٨.

(٢) – ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٣٠–٢٣٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٥٥، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢،ص٥٢٥–٥٢٦، فولفغانغ: القلاع، ص٩٧–٩٨.

(٣) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٥–٢٦، فولفغانغ: القلاع، ص٩٧–٩٨.

(٤) – أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٣، فولفغانغ: القلاع، ص٩٤–٩٥.

(٥) – ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص١٤٤، أبو الفداء: المختصر، جـ٣، ص٧٢، فولفغانغ: القلاع، ص٩٤–٩٥.

بأضرار كبيرة، وفي سنة ٦٤٨- ٦٥٢هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥٤م أدخلت تحسينات على الدفاعات الشمالية، والتحصينات خلال إقامة الملك لويس التاسع فيها، وأقام فيها أيضاً ممثلون عن جميع القوى التجارية (جنوه- البندقية- فلورنسا- بيزا) ولكل منهم حيّه السكني الخاص، و قد هاجمها السلطان بيبرس دون أن ينجح في تحريرها سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م و٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م[١].

و بالتالي فقد شهدت صراعات عديدة بعدما أصبحت مملكة، فعلى المستوى الدّاخلي شهدت صراع سياسي فرنجي و خارجياً أيضاً لأنّ الثقل السياسي انتقل من القدس إليها، ولكن هل كانت بمستوى مملكة القدس ، أم كانت أقل شأناً منها، هذا ما ستقوم بإيضاحه الدراسات اللاحقة، والمتخصصة بعكا الصليبية و لكن من الواضح أن الصليبين كانوا في حالة انهيار كبير بعد موقعة حطين التي قتل و أُسِرَ فيها الكثير من القيادات الصليبية إضافة إلى الفرسان، غير أنّ هذه القلعة لم تبق على حالها فقد جرت تقوية التحصينات في الزاوية الشمالية الشرقية سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م على يد الملك ادوارد الأول ملك انكلترا، والكونتيسة أليس دوبلوAlis Doblow[٢].

وبما أنّ الأشرف خليل كان قد وضع خططه لاستعادة المناطق المحتلة من قبل الصليبيين فقد باشر في الحصار أولاً، ثمّ الهجوم سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٣] حيث نقب أسوارها مما يعني التداعي، والضعف، والانهيار، فسقطت أخيراً بعد ستة أسابيع، وكان الفرسان المحاربون قد دافعوا عنها بشراسة غير أنّهم اضطروا في نهاية المطاف إلى الهروب وخربت المدينة.

---

(١) – أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، فولفغانغ: القلاع، ص٩٤-٩٥.

(٢) – ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص١٤٠-١٤١، أبو الفداء: المختصر، جـ٤، ص٢٤-٢٥، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٠٩، عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٣٤، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٣٢٢.

(٣)-أبو الفداء : المختصر،ج٤،ص٢٤-٢٥

مما تقدم يمكن القول:

ارتأت سياسة المماليك القيام بتوحيد المناطق في الشام، ومصر، فكان لا بدّ أولاً من تحريرها و هذا ما حصل فعلاً، و لم يكن هدفهم هذا فقط ، بل كان هدف القوّاد الذين سبقوهم كعماد الدين ، وابنه نور الدين ، و غيرهم ممن سلك فكراً سياسياً، و عسكرياً، استراتيجياً، كما أنّ القلاع الصليبية شغلت دوراً فعالاً في دعم الكيان الصليبي عسكرياً، وسياسياً، واقتصادياً، على مدى القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر، والثالث عشر للميلاد، حيث وُصِفت مملكة بيت المقدس الصليبية بأنها مملكة القلاع، وقام الصليبون بجهود واسعة لحماية الأراضي التي سيطروا عليها، وحماية الفرنجة المستوطنين، وذلك من خلال إقامة سلسلة من القلاع والحصون، يحرس بعضها بعضاً، حيث وضعت بطريقة مدروسة مستفيدين من المواقع التي اتخذها البيزنطيون، والعرب من قبل أماكن حصينة للدفاع، والهجوم، فالذي لا شكّ فيه أنّ الصليبيين كانوا على استعداد للتعلم من البيزنطيين، والعرب على حد سواء، لا سيما فنون القتال، والعمارة العسكرية، ولم تكن هذه القلاع، والمدن تحميهم، ومواشيهم فحسب، وإنّما كانت تمكّنهم من وضع خصومهم تحت رقابتهم المستمرة لذلك لا يمكن عدّ هذه القلاع مجرد منشآت عسكرية فحسب، بل كانت مراكز للسيادة الصليبية، حيث مارس الصليبيون فيها حكم البلاد التي سيطروا عليها إلى جانب وظيفة القلاع الدفاعية، فكانت بمثابة مستودعات لحشد الجنود من أجل أن يتحركوا في أسرع وقت لمواجهة الخطر المحدق بالمملكة ومن أجل شنّ الهجمات أيضاً، وفرض سيادتهم على السكان الذين كانوا في حالة عداء دائم معهم، و لاسيّما بعد إخفاقهم في كسب محبة السكان الوطنيين، إضافةً إلى تمزيق وحدة المسلمين، ومنع أيّة إمكانية للتعاون المشترك بينهم، ولا سيما بين مصر والشام، يُضاف إلى الأهمية العسكريّة والإستراتيجية لهذه القلاع بأن موقعها كان يناسب القيام بوظيفة الملاذ، والملجأ الذي يحتمي فيه الجنود وقت التقهقر، والانسحاب من المعركة أكثر من كونها مكاناً استراتيجياً.

خـاتمــة

كانت المدن الساحلية على مر الأزمان هدفاً للغزوات، والهجمات المباغتة ابتداءً من أنطاكية في الشمال حتى عسقلان في الجنوب، بسبب موقعها الجغرافي الممتاز، والإستراتيجي الهام بين القارات القديمة الثلاث، فكانت جسر عبور للمؤثرات الحضارية منها، وإليها عبر نافذتها المشرفة على البحر المتوسط، فهذا الموقع الإستراتيجي هو أحد الأسباب الرئيسية للاحتلال، والحروب فوق أرضها، مدّاً أو جزراً، إضافةً إلى أن احتلالها كان يؤمّن نوعين من الحماية: الحماية البعيدة عن طريق احتلال الجزر القريبة من السواحل (أرواد)، ووضع حامية فيها تقوم بواجبات الرصد، والإنذار، والتعرض للأساطيل المهاجمة لها، وذلك عن طريق أسطول يتحرك باستمرار على الشواطئ لحمايتها.

و الحماية القريبة تكون من خلال إقامة حاميات في المدن الساحلية تتمركز قريباً من الشواطئ، هذا إلى جانب غنى الإقليم بمظاهر الحياة الطبيعية.

إن الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي، حينما وصلوا إليه أوّل مرة أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لم يكن مردّها قوة خارقة بقدر ما كان ضعف القوى العربية الإسلامية في المنطقة، وهناك أسباب عديدة أدت إلى ضعف المسلمين، ووهنهم في منطقة المشرق العربي الإسلامي في ذلك الدور، فالسلاجقة، وهم أصحاب النفوذ في بلاد الشام كانوا منقسمين على أنفسهم، يتقاتلون فيما بينهم من أجل الظفر بعرش السلطنة، وشغلتهم أهواءهم الشخصية عن إدراك أبعاد الخطر الأجنبي، ممّا سهل للصليبيين إحراز النصر في حروبهم الأولى.

والواقع أنّ السلاجقة بعد وفاة السلطان ملك شاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م أصابهم التداعي والانهيار، بسبب الحرب الداخلية التي نشبت بين أبنائه، إضافة إلى تفاقم الخلاف بين الخلافة العباسية الممثلة للمذاهب السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الممثلة للمذهب الشيعي في مصر على الرغم من أنّ هذا الخلاف بظاهره كان عقائدياً و بباطنه كان سياسياً محضاً، يعتمد على التحكّم بمراكز النفوذ السياسي و العسكري ، حيث كان هذا الخلاف من الأسباب الرئيسية لضعف المسلمين في ذلك الدور، ممّا أدّى إلى إيجاد التفرقة بين المسلمين بعضهم بعض، حيث كانت تسود صراعات مذهبية (عقائدية) بوجود خلافتين عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر، فكان له الأثر الأكبر في ضعف القوى، وفتح الباب أمام الصليبيين للدخول إلى منطقة بلاد الشام، ولكن بعد ذلك كان للحروب الصليبية الأثر الكبير في توحيد الجبهة الإسلامية

لمناهضة الصليبيين وإخراجهم من البلاد، و هذا يتطلب توحيد القوى، والجهود، ونبذ الصراعات بين قادة المسلمين، كي يتمكنوا من استرداد حقوقهم، ويمكن أن يكون الحكام المسلمون الذين تناسوا خلافاتهم، ونبذوا صراعاتهم، وحققوا الوحدة بين بلدانهم قد استطاعوا من استرداد أغلب المناطق، ومن الطبيعي أن ينعكس الخلاف في الشام في صورة صدام عنيف بين الخلافتين، لأنّ بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي تُعدُّ حلقة الوصل بين مصر والعراق، وقد واكب ضعف الخلافة العباسية في بغداد انحسار نفوذها في كثير من البلاد، ومن جملتها الشام.

فانتهز الفاطميون الفرصة، ومدّوا نفوذهم إلى الشام، وظلّوا يضعون أيديهم على الأجزاء الجنوبية والساحلية حتّى مجيء الصليبيين .

ولم يقف الأمر على التنافس الشديد بين السنة والشيعة، بل أنّ الأمراء المحليين استغلوا ضعف السلطة المركزية في كل من بغداد والقاهرة، وأسّسوا إمارات لهم في أنحاء مختلفة من الشام، ومكنوا أنفسهم فيها، مثل بنو طيء في ما وراء نهر الأردن، وبنو عمار في طرابلس، وبنو الجراح في غزة والرملة، وبنو منقذ في شيرز، وبنو مرداس في حلب، وابن ملاعب في حمص وابن أبي عقيل في صور.

والحروب الصليبية دفعتها بواعث حقيقية، انبعثت من صميم المجتمع الأوروبي الغربي، والقول بأنّ الأباطرة البيزنطيين بسبب تعرضهم لضغط الأتراك السلاجقة، استنجدوا بالبابوية، أمر لم يكن ليلقى اهتماماً إذا لم يكن للغرب أسباب قوية فجعلته يتحرك استجابة لدعوة الإمبراطورية البيزنطية.

تعدُّ الحروب الصليبية من أهم الصراعات الكبرى التي أثرت إلى درجة كبيرة في تاريخ منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوروبي باعتباره المخطط والمنفذ لها، واتّخذت من الدين ستاراً لتخفي أطماعها الاستعمارية الرامية إلى الاستيلاء على أراضي وثروات المسلمين، والعبث بمقدساتهم في منطقة المشرق العربي الإسلامي.

برهنت الدراسة على أهمية الدور الذي مثلته مدن الساحل الشامي بالنسبة للصليبيين، ولمنطقة الشرق فكان لها الفضل في استمرار بقائهم لأطول مدة ممكنة، بما قدمته لهم من مساعدات شتى لكن ذلك ألحق بها الضرر، وجرَّ عليها كوارث عديدة (حروب– فوضى)،استنفذت خيراتها، وقواها وأصبحت مسرحاً للصراعات الصليبية المتكررة، ومنافسات الطوائف الدينية، والجاليات الإيطاليّة التي كثيراً ما أربكت الحياة السياسية، فقد أدرك الفرنج حقيقة أن من يستطيع فرض السيطرة على البحر المتوسط سيطرة تامة يستطيع فرض وجوده على المدن الواقعة على سواحله أو المطلة عليه، وبالتالي الانطلاق السريع للسيطرة على مراكز الثقل الأخرى. وكان

لاحتلال مدن الساحل الشامي مسوغاتها السياسية، فهي تؤمن حمايتها من خلال وضع حاميات عسكرية فيها، تقوم بواجبات الرصد، والإنذار، والتعرّض لأساطيل المسلمين، بإقامة أسطول قوي يتحرك بسرعة، وباستمرار على الشواطئ للتصدي لكل عدوان، وإحباطه، و إضافة إلى ذلك أثبتت سعي وتنافس كل من الصليبيين، والمسلمين، لاستقطاب بعض قوى المغول إلى جانبهم وذلك من أجل تحقيق مصالح كل جهة على العموم، وهذا ما أظهره تحالف بيبرس مع بركة خان من أجل إشغال المغول في الحروب الداخلية فيما بينهم، وحرمان الصليبيين من فرصة الاستعانة بأي مساعدة ضدّ بلاد الشام، الأمر الذي مكنه من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية، والمغولية.

و قد أشار البحث إلى أهمّ الأحداث التي شهدتها المنطقة، وما تمخض عنها من تحالفات سياسية وعسكرية متعددة ومنافسات اقتصادية، مما دفع الفرنج للتحالف مع أعداء الإسلام والمسلمين الأرمن والمغول وغيرهم.

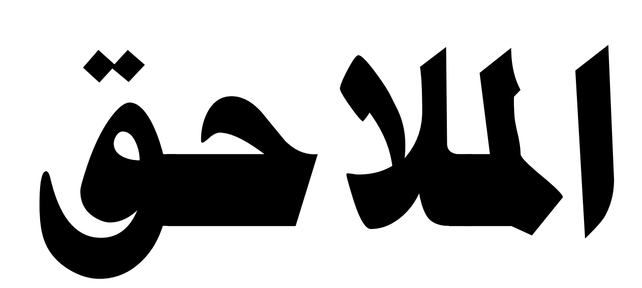
وعلى الرغم من أنّ توحيد أهداف المسلمين ضد الصليبيين هو الذي هزم الصليبيين إلّا أنّهم لم يستفيدوا من ذلك، فكانت العلاقات مع الصليبيين في أغلبها علاقات توتر ونزاع، فكان أغلبهم ممن تسمح له الظروف أن يستحوذ على خيرات الشرق لا يترك هذه الفرصة حتى لو كانت على حساب استقرار المملكة اللاتينية وأمنها وسلامتها فمنهم من كان يتحالف مع المسلمين ضد بني جنسهم، ويمكن عدّ أن بداية النهاية للفرنج في الشرق كانت بأيديهم وأتمها المسلمون بعد ذلك ويوضح ذلك أن الوحدة بين أهل المنطقة الواحدة هي كلمة القوة التي تساعدهم على حماية بلادهم، وتوطيد الأمن، والاستقرار بها.

أوضحت الدراسة أن الحروب الصليبية تعد إحدى حلقات الصراع التقليدي بين الشرق والغرب، هذا الصراع لم يكن جديداً وإنّما قديماً تخلّلته علاقات متناقضة تتراوح مابين علاقات المحبّة، المودّة، المنفعة المتبادلة، الرّعاية، التسامح، أو العلاقات العدائيّة من كراهية، قسوة، عنف، تآمر. كما أبرزت تلك العلاقات أن اقتراب الصليبين من المسلمين وتعاملهم معهم جعلهم يغيرون من نظرتهم، وأفكارهم تجاه المسلمين والتي كانت نابعة مما كان يصل إليهم على لسان من يأتي من الغربيين إلى الشرق للحج، ويمكن القول بأنّه كانّ للجوانب الاقتصادية أبلغ الأثر في تلك المنطقة، فهي من البواعث الأساسية على قيام هذه الحروب حيث الخيرات الكثيرة الموجودة في الشرق. والتي بمقتضى هذه الحروب التفتت أنظار الغربيين إلى خيرات الشرق، حيث ازدهرت النواحي الاقتصادية بعد تكوين المملكة اللاتينية لا سيما الجانب التجاري منها على يد المدن التجارية الإيطالية التي كانت لها اليد الطولى في نجاح الحملات الصليبية وكان

ذلك على حساب التجار المسلمين أصحاب البلاد الأصليين، والذين عانوا الأمرين من نير هذا النظام الذي أهدرت فيه معظم حقوقهم، فلم يكن عليهم إلا الواجبات، والطاعة لأصحاب الإقطاعات فقط.

تبين من هذه الدراسة أن القلاع التي وجدت في تلك الحقبة استمدت مناعتها ليس من حصانة عمارتها، ومتانة أسوارها وأبراجها فحسب. وإنما من طبيعة موقعها أيضاً، وقد امتازت معظم القلاع الشامية بالعزلة في مواقعها، وتموضعها على مرتفعات وعرة، وشاقة بتحكمها بممرات ومناطق استراتيجية وبتلاؤم أسوارها مع الواقع تضاريسياً، ولموقع القلاع الأهمية البالغة في مدى الاستفادة من قوتها وقيمتها، لذلك اهتم مشيدوها اهتماماً كبيراً في اختيار المواقع الحيوية، والأكثر استراتيجية، فأصبحت القلاع تستمد أهميتها من أهمية مواقعها، لا بل كان أحياناً الموقع الذي أقيمت عليه القلعة هو أهم منها ذاتها، و إذا لم تكن القلعة متينة البناء بحد ذاتها فإن الموقع الحصين كان يمنحها المناعة، فمثلاً قلعة أنطاكية لم تكن صالحة للدفاع الحربي والصمود الطويل تحت قصف راجمات الحجارة الثقيلة، ولكنها اكتسبت مناعتها من ارتفاع موقعها، فلا يمكن أن يصلها سوى الطيور الجارحة، راصدة مدينة أنطاكية بأكملها ونهر العاصي وواديه، والجبل الأحمر، وجبل موسى وسلسلة الأمانوس، وسهل البقاع. فالقلاع أنشئت لحماية الصليبيين، و كانت سبب إطالة مكوثهم في بلاد الشام.

و مهما شهدت أرض الشام بسهولها، و جبالها بساحلها، و صحرائها من حوادث، و مجازر مريعة ، و تصفيات سياسية و بشرية، فإنها صمدت، و ماتزال صامدة بقوة شعبها، و دمائهم الزّكيّة التي سالت على أرض الوطن وامتزجت بترابه، فروت كل ذرّة من ترابه قصّة شرف، وروح طاهرة ،وقلب آمن بأنّ البلد أهم من الولد والرّوح، ونفوس غالت في محبّة حكّام أوفياء فضّلوا مصالح بلادهم على مصالحهم الشّخصيّة.



نص الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإسبتارية في حصن الأكراد وحصن المرقب وعكا سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م.(١)

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالحي النجمي، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الإسبتار الفلاني بعكا وبلاد الشام، وبين فلان مقدم حصن الأكراد، وبين فلان مقدم حصن المرقب، وجميع الأخوة الإسبتار لمدة عشر سنوات متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيليب اليوناني على أن جميع المملكة الحمصية والشيرزية والحموية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة، وبلادها الموصوفة، وقراها وضياعها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها ومزروعها ومعطلها، وطرقاتها ومياهها، وقلاعها وحصونها، على ما يفضل في كل مملكة، ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها.

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات، عامراً وداثراً وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها، تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن كلا من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيره، أو القناة كان عليهم العداد كجاري العادة، ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر بيبرس بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، وممن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة، وكذلك مقدم بيت الإسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة.

(١) – القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣١-٣٩.

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه: سواء قام أو لم يقم، وكان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص، ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات كان عليه العداد.

وعلى أن يكون أمر فلاحي بلد المناصفات في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً على نائب مولانا السلطان باتفاق مع نائب بيت الإسبتار على أن يحكم فيه شريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد، وان يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين.

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفات المذكورة من تركمان ولا عبر ولا أكراد ولا غيرهم عداداً ولا حقاً من حقوق بلد المناصفات، إلا ويكون النصف منه للملك الظاهر، والنصف الآخر لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها، والسكن فيها إذا اختاروا العود، وكذلك بيت الإسبتار لا يمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود.

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحد من العربان والتركمان وغيرهم ممن يؤدي العداد، من الدخول إلى بلد المناصفات، إلا أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة، فله المنع من ذلك، وأن تكون خشارات (من الدواب) الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلدة ترعى في بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة.

وكذلك خشارات بيت الإسبتار وخشارات عسكرهم وغلمانهم وأهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات، وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها، لا يؤخذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض من الجهتين.

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، كذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، ويكون لبيت الإسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش، ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختياريهم، ويكون اللينوفر (نوع من الرياحين) مناصفة، النصف منه للملك الظاهر ولبيت الإسبتار، وتقرر أن الطاحون المتسجد المعروف بإنشاء بيت الإسبتار أيضاً يكون مناصفة.

وأن يكون متولي أمرها نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة الإسبتار، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما.

وتقرر أن مهما يجدده بيت الإسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الإسبتار.

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة، فهي شيزر، وأبو قبيس وأعماله، وعينتاب وأعمالها، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الإسبتار وأعمالها، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها، وسهلها وجبلها عامرها وغامرها.

وما استقر بمملكة الملك المنصور ناصر الدين (محمد) بن الملك المظفر أبي الفتح (محمود) بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

فهي: حماة المحروسة وقلاعها ومدنها، وقراها وسهلها وجبلها وأنهارها، ومنافعها وثمارها وعامرها، وبلاد رقيبة وبلاد بارين بحدودها وتخومها وعامرها وداثرها وجميع من فيها على أن الملك المنصور لا يرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبة وبارين سوى ثلاثين بيتاً يحملون الغلة لقلعة بارين، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الإسبتارية والاتفاق معهم على ذلك.

وعلى أنه تعدى أحد من أصحابه بأذية، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذية كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوماً، فإن انكشف الأخيذة أعيدت، وإلا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست، وكما لهم، كذلك عليهم.

والمستقر لمملكة الصاحبين: نجم الدين وجمال الدين، والأمير صارم الدين نائبي الدعوة المباركة، وولد الصاحب رضي الدين وهي: مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها وداثرها ومدنها وبلادها وضياعها وطرقاتها، ومياهها ومنابعها، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبلي بهرا واللكام كل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومها أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذي بشيزر إلى نهاية الأراضي بحصون الدعوة وبلادها، وحماية القرية المعروفة "بعرطمار" يكون له أسوة الإسماعيلية.

وإن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الإسبتار لأذية، أعلموا بيت الإسبتار قبل أن تجري أذية، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به، وأن لم يحلفوا يردوا الأذية التي تجري.

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الإسبتار رائحين وغادين ومنصرفين في بيعهم وشرائهم، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم.

وكذلك جميع فلاحي الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع البلاد الإستبارية، وإن يتعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار، تكون

المهلة خمسة عشر يوماً، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم، ومن توجهت عليه اليمين حلف، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية، وتكون الضيعة التي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الإسبتار، وهي المشرفية تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه المهادنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم، ويحمل الأمر في الحقوق.

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الإسبتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينا قومصية وخمسون مداً حنطة، وخمسون مداً شعيراً، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الإسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ولا منكر ولا ماض ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه.

وتقرر أن تكون جميع المباحثات من الجهتين مطلقة مما يختص بالمملكة الحمصية، يسترزق بها الصعاليك، وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن نواب بيت الإسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة.

ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة إلى بلاد الإسبتارية بأية ولا إغارة.

ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الإسبتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحد ممن يجب عليه العداد وامتنع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضراً: إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الإسبتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع من العداد أو الخارج من بلاد المناصفات رهناً بمقدار ما يجب عليه العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفات ويترك الرهن عن الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد.

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه: فإن دخل بلد الملك الظاهر، كان على النواب إيصال بيت الإسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد.

وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الإسبتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر مما يجب على الخارج من العداد، وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة.

وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين: الجهة الإسلامية، والجهة الفرنجية والنصرانية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها وعلى النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم، يحميهم السلطان ونوابه، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات، من جميع المسلمين، ويحميهم بيت الإسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات– من الفرنج والنصارى كافة.

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، وبلاد معاهديه، وبلاد المناصفات، وخاص بيت الإسبتار والمناصفات، يكون الساكنون والمترددين في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمي كل جهة الجهة الأخرى.

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات: الإسلامية، والفرنجية الإسبتارية لا يكون عداداً على مالها في المناصفات: من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها، على العادة المقررة في ذلك.

وعلى أن إطلاق الرؤساء باتفاق من الجهتين: الإسلامية والفرنجية الإسبتارية، ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً، فإن ظهرت أعيدت إلى صاحبها، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر ممن يختارهم صاحب الدعوى، على ما يعلمونه في تلك الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها، وإن كان قد تعوض عنها أعيد العوض.

وعلى أن يكشفوا عن الأخيذة بجهدهم وطاقتهم، ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعي، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء مثله، وكذلك يجري الأمر في القتل: عوض الفارس فارس، وعوض الراجل راجل، وعوض البركيل بركيل وعوض التاجر تاجر، وعوض الفلاح فلاح.

وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوة ولم يحلف المدعى عليه للمدعي وجب عليه العوض حتى يرد، وإن رد اليمين على المدعي ومضى على ذلك عشرة أيام ولم يحلف صاحب الدعوة بطلب دعواه وحكمها، وإن حلف أخذ العوض.

ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود، وإن هرب عبد وخرج عن دينه، أعيد ثمنه، وإن كان باقياً على دينه أعيد.

وعلى أن لا يدخل من القاطنين في بلد المناصفات: من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم، وإلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لإغارة أو أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معاهديه ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم بيت الإسبتار ولا رضاهم ولا إذنهم.

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الإسبتار، وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقص بموت أحد من الجهتين ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي: عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه.

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحداً من التركمان ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الإسبتار آو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وببلد النصارى.

ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الإسبتار في غد نزولهم المكان، أن كان المكان قريباً، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجابون بيت الإسبتار.

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحلم فيها كما في المناصفات والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، أو ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت.

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين "سنجر".

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين، وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري: حجة بمقتضاه، وتأكيداً لما شرح أعلاه، كتب في تاريخ كذا وكذا.

نص الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م.[٢]

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية على بيروت وأعمالها المضافة إليها.

الجاري عاداتهم في التصرف فيها أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية.

وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليه: من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسن الفيل بحدودها والرح والشريف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والداكونة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقة، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان فلان، وهي الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار وما هو منسوب إليها، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما مختص بها، والمملكة الرحيبة وما هو مختص بها: من قلاع وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها: بثغورها وحصونها وممالكها، وبلادها وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه

---

(٢) – القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ٣٩-٤٢.

الله على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها براً وبحراً، وليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رغبة الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عدم لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن كان لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى، وبرئت جهته من تلك الدعوى.

فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي، وأخذ ما يدعيه، وغن قتل أحد من الجانبين خطأ أو عمداً كان على القاتل في جهته العوض عن نظيره: فارس بفارس وبركيل ببركيل، وراجل براجل، وغلام بغلام، وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وغن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقصها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ولا تنقص بموت احد من الجانبين: وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع احد منهم من العود إلى المستقرة، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا.

نص الهدنة المعقودة بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد بركة مع الإسبتارية في قلعة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م.(٣)

استقر الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين، وبين المباشر المقدم الجليل أفريز أولد كال مقدم جميع بيت الإسبتار.

سراجون بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الإسبتارية لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنين وثمانون للإسكندر بن فيلين اليوناني، على أن تكون قلعة لد بكاملها وربضها وأعمالها وما هو منسوب إلها ومحسوب بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان وما استقر لها الآن، ويتعلق بذلك من المواضع والمصايد والملاحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر: سهلها وجبلها وعامرها وداثرها، وما يجري بها من أنهار وينبع منها من عيون وما هو مبني بها من عمائر، وما استجد بها من القراح، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال.

وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها، وحصن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر، ولا يكون لبيت الإسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب، وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الإسبتار، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولا يكون للمرقب فيها شيء، ولا لبيت الإسبتار.

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى لا تكون فيها مناصفة لبيت الإسبتار ولا للمرقب ولا حق.

ولا رسم ولا شرط ولا طلب في جميع بلاد الدعوة، مصياف المحروسة والكهف والمنيقة والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة، يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر، وليس لبيت الإسبتار ولا الفرنجية فيه حديث ولا طلب.

---

(٣) – القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٢–٥٠

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر ولد ومقربا إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها، والداخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف، وحد البيوت المحاذية لسور الربض، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار نصفين بالسوية.

وما في جميع هذه البلاد، من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه العين والمستغلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة، وما هو مزروع من الفدن لأهل الربض وبيادرها: يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار سرجوان بالسوية نصفين.

وما هو داخل الربض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر للمقدم الكبير أفريز أولد كال مقدم الإسبتار سراجون وخيالته، ورجاله ورعيته، برسم إقامتهم وسكناهم من داخل الأسوار، وعن سور الربض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها بما فيه من حقوق طرقات وإحكار، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها وجميع السخريات، وكل أرض مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عداد يكون مناصفة.

وكل ما هو من الموانئ والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصن المرقب، من مينا بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقية، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار.

وما ينعقد عليها ارتفاعها، وتشهد به الحسبانات جميعه مناصفة، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير القاعدة من حين أخذ بيت الإسبتار المراقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة.

ويعتمد ذلك في كل ما يصل للمترددين والمقيمين بالقلعة والربض: من عامة وغير عامة، وخيالة على اختلاف أجناسهم، خلال مت يصل للأخوة ولغلمانهم المعروفين بالأخوة الإسبتارية من الحبوب والمئونة والكسوة، والخيل التي هي برسم ركوبهم خاصة، ولا يكون عليها حق بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك وما وخلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه.

وعلى أنه لا يحمي أحد من الأخوة الخيالة والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئاً عن اسم بيت الإسبتار ليستطلق الحق ويمنع من استيدائه، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم.

إذا أظهر منه خلال ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين، للديوان السلطاني المعمور ولبيت الإسبتار، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً وارداً، وكذلك في البر صادراً وارداً بعد المحافظة على ذلك وصحته.

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الإسبتار، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم بجميع ما يتعلق بهم، وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدموننا وكتابنا ورعايا بلادنا آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر أجناسها وكذلك الرآسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها.

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الإسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشيء، إلا باتفاق وتزيل في دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الإسبتار، ولا يطلق ولا يحبس إلا باتفاق من الجهتين، ولا ينفرد واحد دون آخر.

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه، يعتمد ذلك فيه نائبنا، من شنق يجب عليه أو قطع، وأدب بحكم الشرع الشريف من شنق وقطع وكحل أعين.

بحيث لا يعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الإسبتار حاضر يعاين ذلك بعينه، ويكون قد عرف الذنب وتحققه، وغن كان ذنبه يستوجب جناية أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواشي أو غير ذلك على اختلاف أجناسه، يكون ما يستأدي مناصفة للديوان المعمور لبيت الإسبتار وصاحب المرقب.

فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه، وصاحبه مسلم، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور لبيت الإسبتار.

وإن لم يعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلم أعيدت للخزانة السلطانية ولا يكون لبيت الإسبتار تعلق، وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً على اختلاف أجناس النصارى: تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا بعد الحق، وإن لم يعرف صاحب البضاعة، وكانت لنصراني، تبقى تحت بيد بيت الإسبتار، خلال ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه: إن كان نصرانياً أو ذمياً، على اختلاف جنس دينه، ليس لبيت الإسبتار عليهم اعتراض، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور.

وعلى أنه متى انكسر مركب، وظهر إلى بر الموانئ بضاعة، وقصد صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر، ولا يتبع، فيؤخذ الحق منه: إن باع يؤخذ الحق، ويكون الحق للجهتين، وهو الحق المعروف الجاري به العادة.

وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى خرجوا من الموانئ المحدودة في أعلاه، يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حق.

لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين، ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها، فالترتيب على الخفارة من الجهتين مع تدرك الرؤساء بالمرقب للطرقات صادراً وارداً، بحيث أنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى الموانئ، بالمرقب المحدودة أعلاه، طيبيين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ما شرحناه.

وعلى أن غلمان المباشر المقدم لبيت الإسبتار والأخوة والخيالة والرعية المقيمين بقلعة المرقب والربض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر، منا ومن نوابنا بالمملكة والبلاد الجارية في حكمنا، ومن ولدنا الملك السعيد ومن أراثنا وعساكرنا المنصورة، وإن قتل أو أخذت أخيذة في حدود المناصف ببلاد المرقب فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوماً.

فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوماً فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخيذة وتقل القتيل، إن كان أخذ وقتل فكان من قبل القتيل أو أخذ الأخيذة، أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلاً، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عن إحضاره بعد عشرين يوماً.

يلزم أهل نواب الجهتين من الغرباء الأقرب لذلك المكان بألف دينار صورية: للديوان السلطان النصف، ولبيت الإسبتار النصف، ولا تتكاسل الولاة في طلب ذلك، ويكون طلبه يداً واحدة ولا يخص الواحد دون الآخر ولا يجابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاسمة الغلال وطلب المفسدين ليلاً ونهاراً.

وعلى أن لا تغير الهدنة المباركة بأمر من الأمور، ولا من جهتنا ولا من جهة ولدنا المالك السعيد إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الإسبتار الحاكم على المرقب وغيره.

وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شغب، ويكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحد.

وإذا تغير النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنه هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المواصفة وإذا تسحب أحد من المسلمين على اختلاف أجناسه، غن كان مملوكاً أو غير مملوك أو معتوقاً أو غير معتوق، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلام يرد، بجميع ما يوجد معه، غن كان قليلاً أو كثيراً، ولو أن المنسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه.

وإن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه، وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما حضر معه: من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً يمسكه لنوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه.

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ولا الرعية الذين فيها، ولا مع نواب أنب الرديني المقيمين فيها: لا بكتاب ولا بمشافهة ولا برسالة ولا بقول: ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم.

ولا يمكن أحد من الحضور إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة، ولا تسير إليهم مئونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه، ولا تكون بينهم معاملة، وإن حشر أحد من جهة العليقة إليهم يمسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذون بذلك خطوطهم.

وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ، ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ولا يجددون عمارة في ربضها ولا في سورها ولا في أبراجها ، ولا يجددون حفر خندق وعمارة خندق.

أو تجدد بناية خندق ، أو قطع جبل أو تحصن عمارة أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر الدور التي أحرت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد ، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم.

وعلى أن صهيون وأعمالها ولرومة أعمالها والقليعة وأعمالها وعيدوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة.

وعلى أنه لا يمكن بيت الإسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا بأذية ولا ضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا، إلا أن يكونوا أيد غالبة صحبة ملك متوج.

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة وهو برج معاوية الذي عند المحاصة الدالة في مناصف المرقب الآن يخرب ما يخصنا فيه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه، وان الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الإسبتار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الإسبتار، وأن الدار المتسجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير الذي

هو عايز تكميل عمرة سقف القبو بالحجارة والكلس لا تكمل عمارتها ويبقى على حاله، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه.

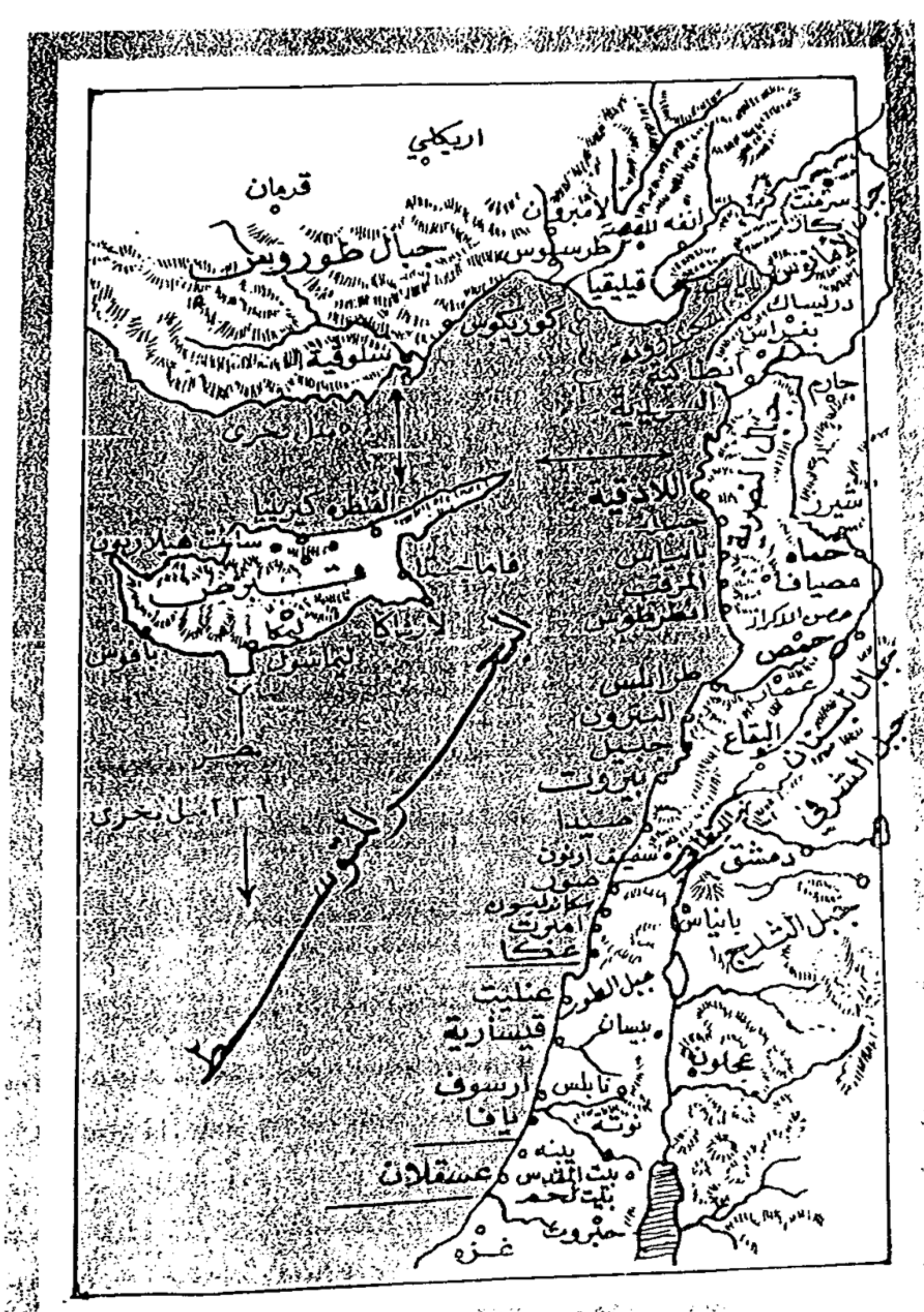
وعلى أن نواب الإسبتارية بالمرقب لا يخفون شيئاً منه من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الإسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً ، وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الإسبتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك.

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته.

وكذلك الماستر المقدم أفريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى، ومتى وقع والعياذ بالله فسخ بسبب من الأسباب.

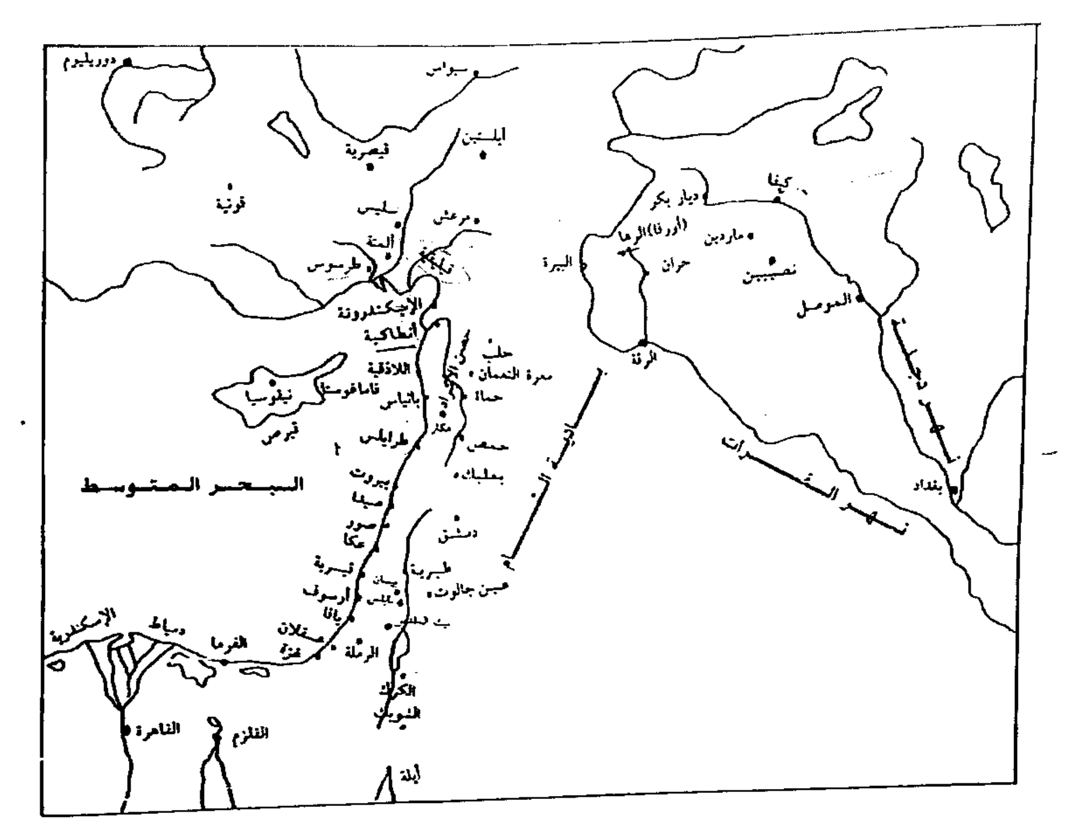
كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم، ولا يمنعوا من السفر إلى أماكنهم من الجهتين، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً، وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة، مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل، أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها متتابعة متوالية، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل وال وقيام غيره موضعه ولا زوال رجل غريبة ولا حضور يد غالبة.

بل يلزم كلا الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخراً، والخط أعلاه تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخراً، والخط أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى، في تاريخ كذا وكذا.



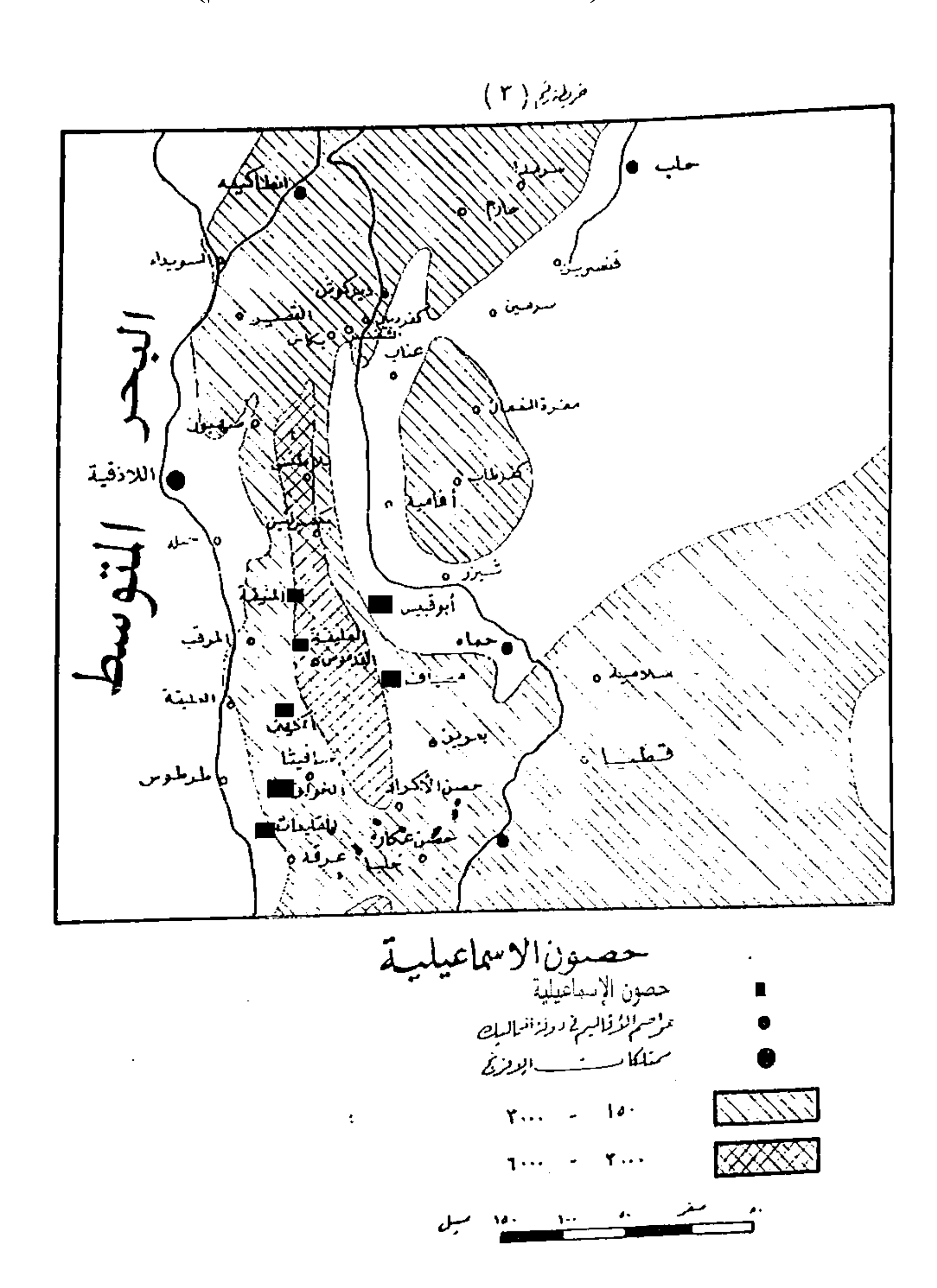
الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر

العسلي: الأيام الحاسمة ص ٢٩٤

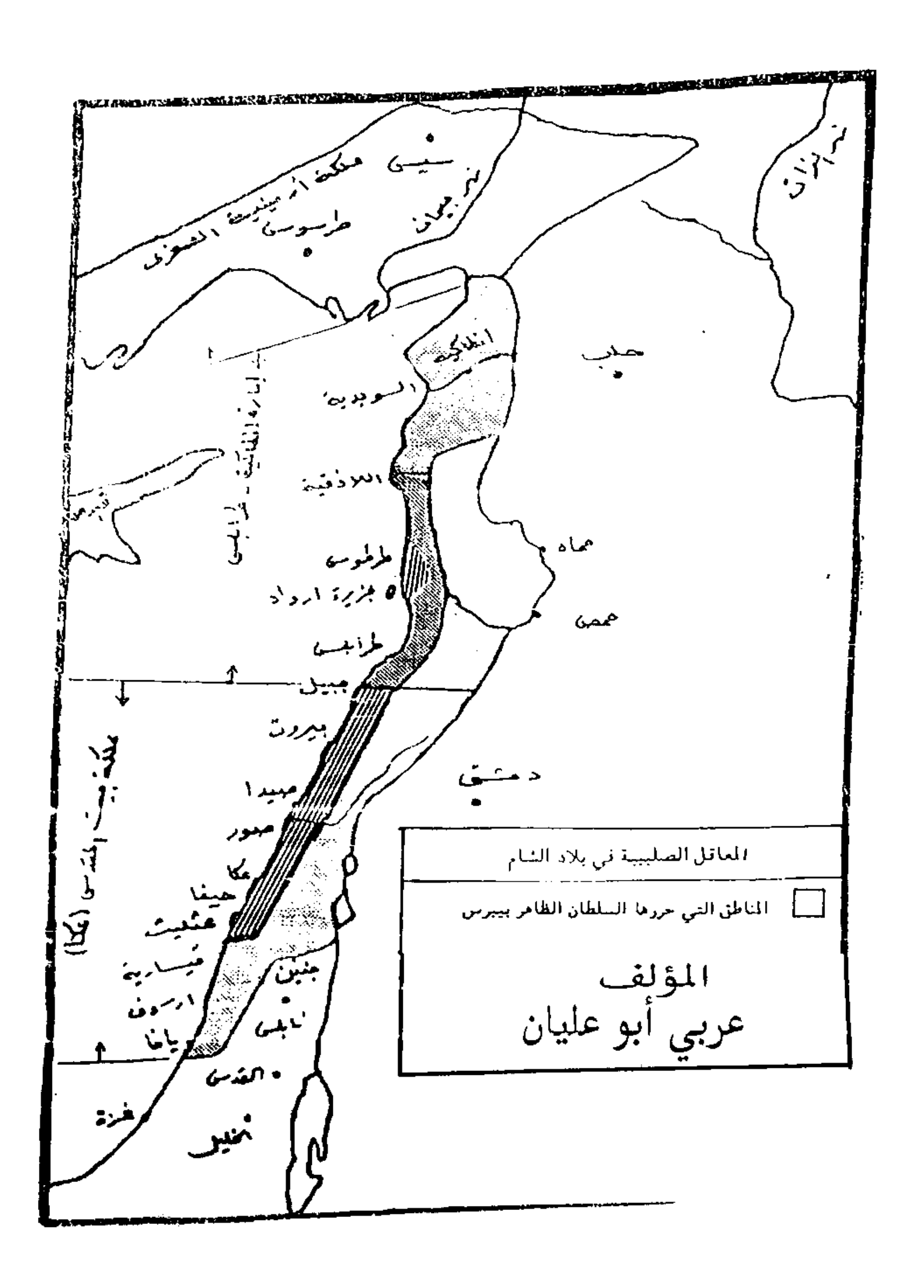


الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك

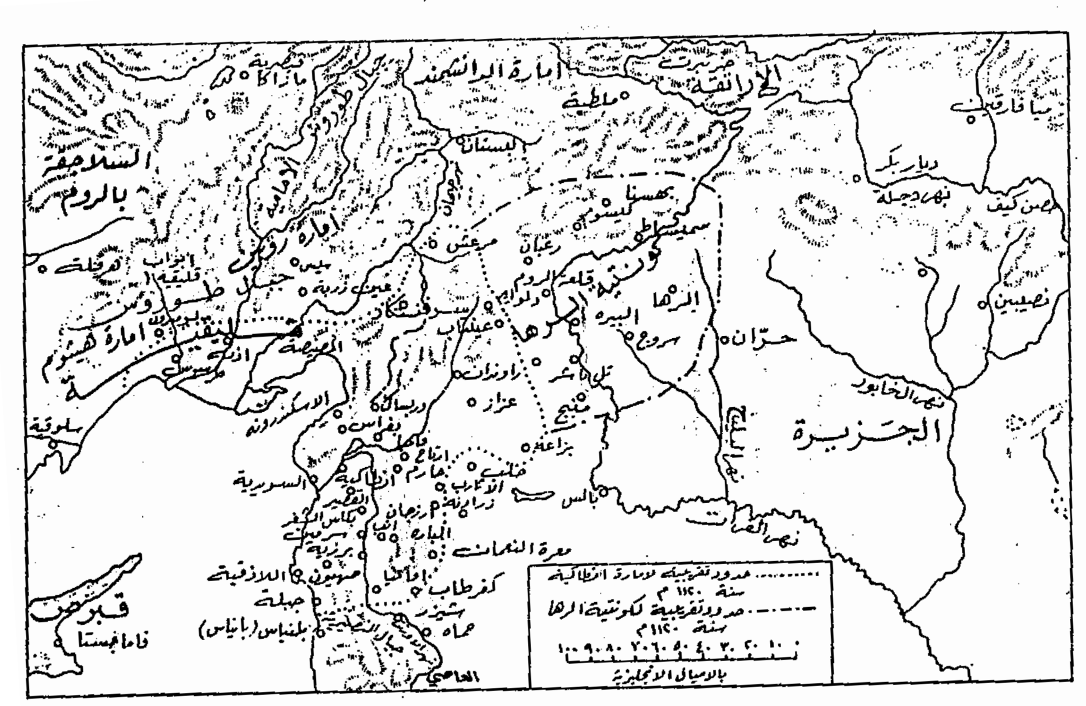
طقوش : تاريخ المماليك ، ص ٣٤



الخويطر: الملك الظاهر ، ص١١٩

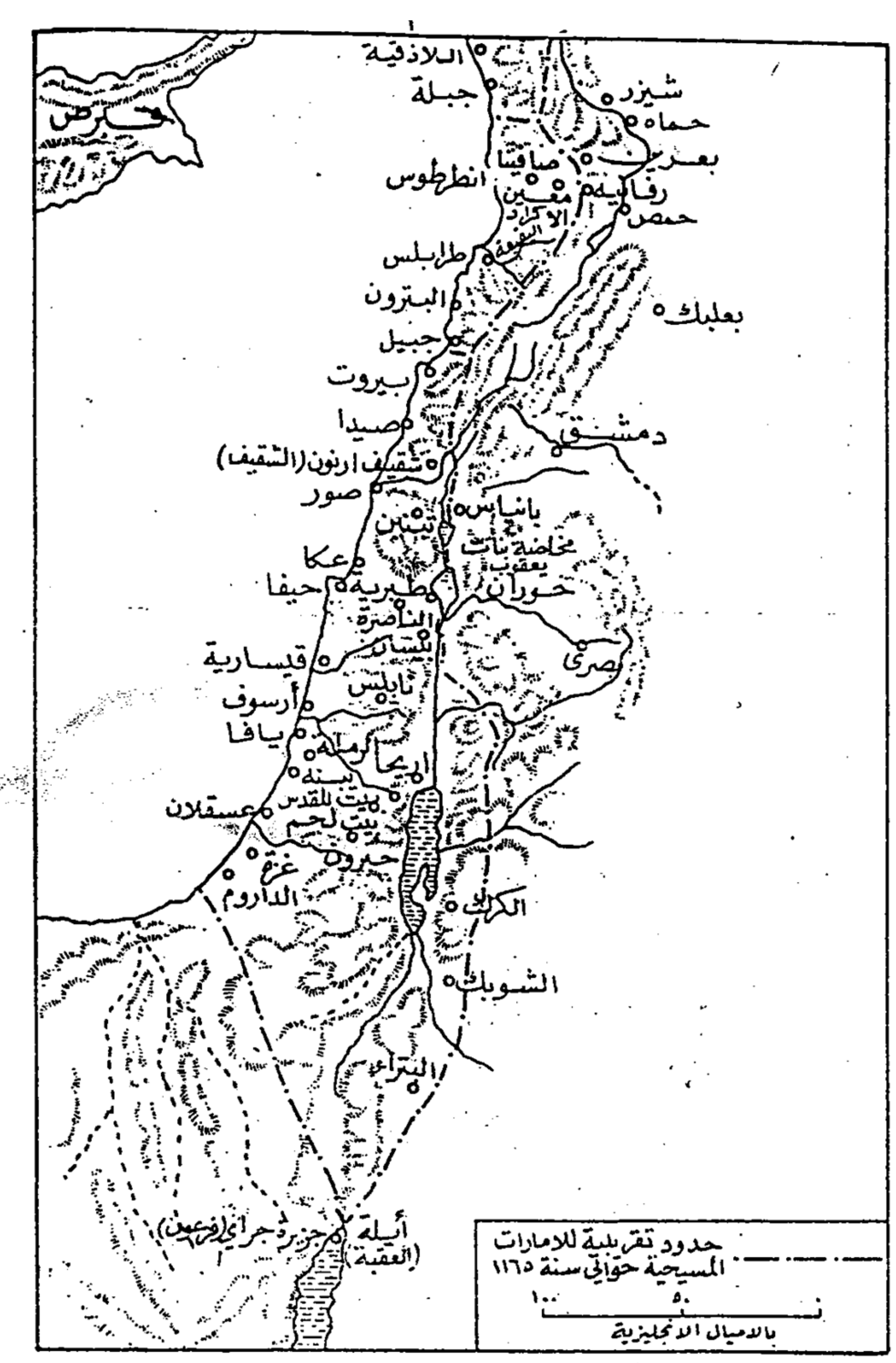


أبو عليان : مسيرة الجهاد ص ١٩٥



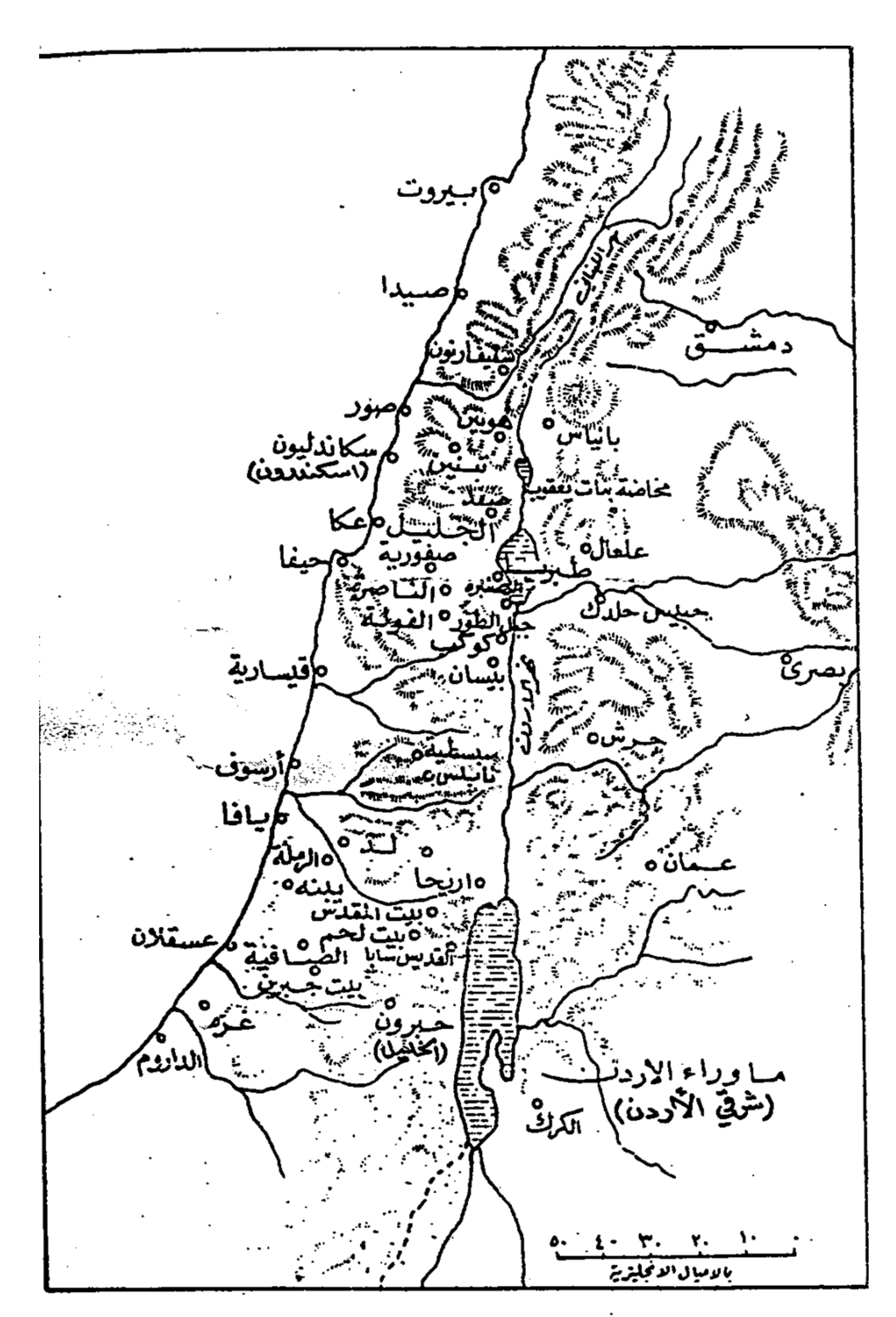
١ ـ شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣٠



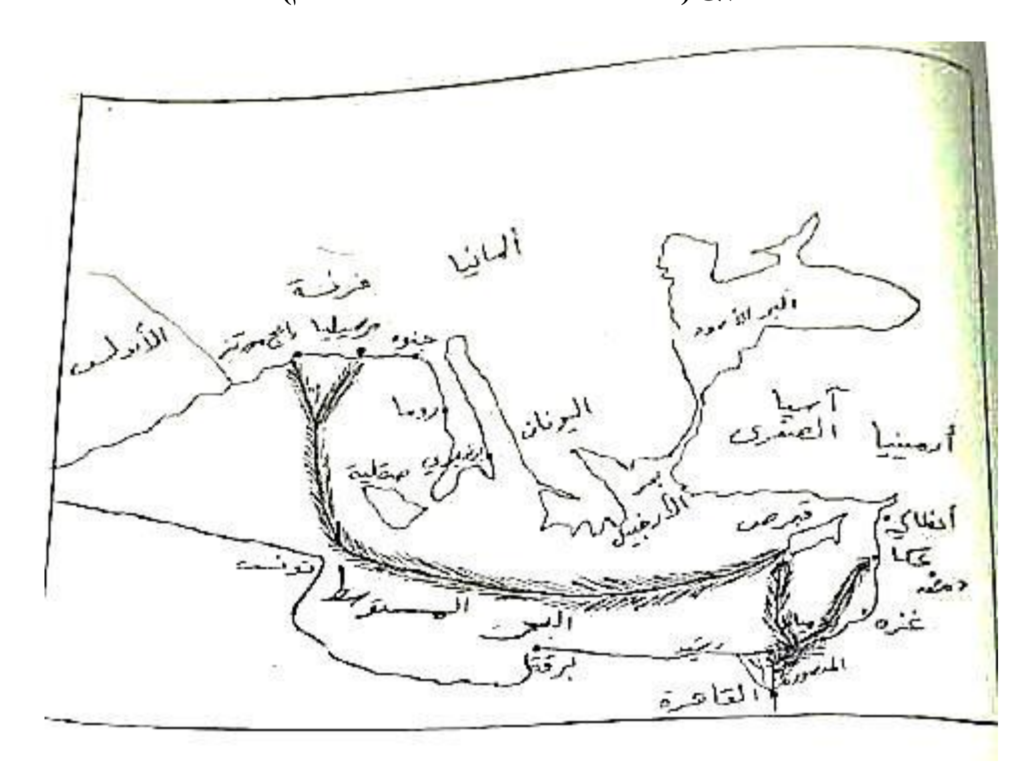
٢ ـ جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣١



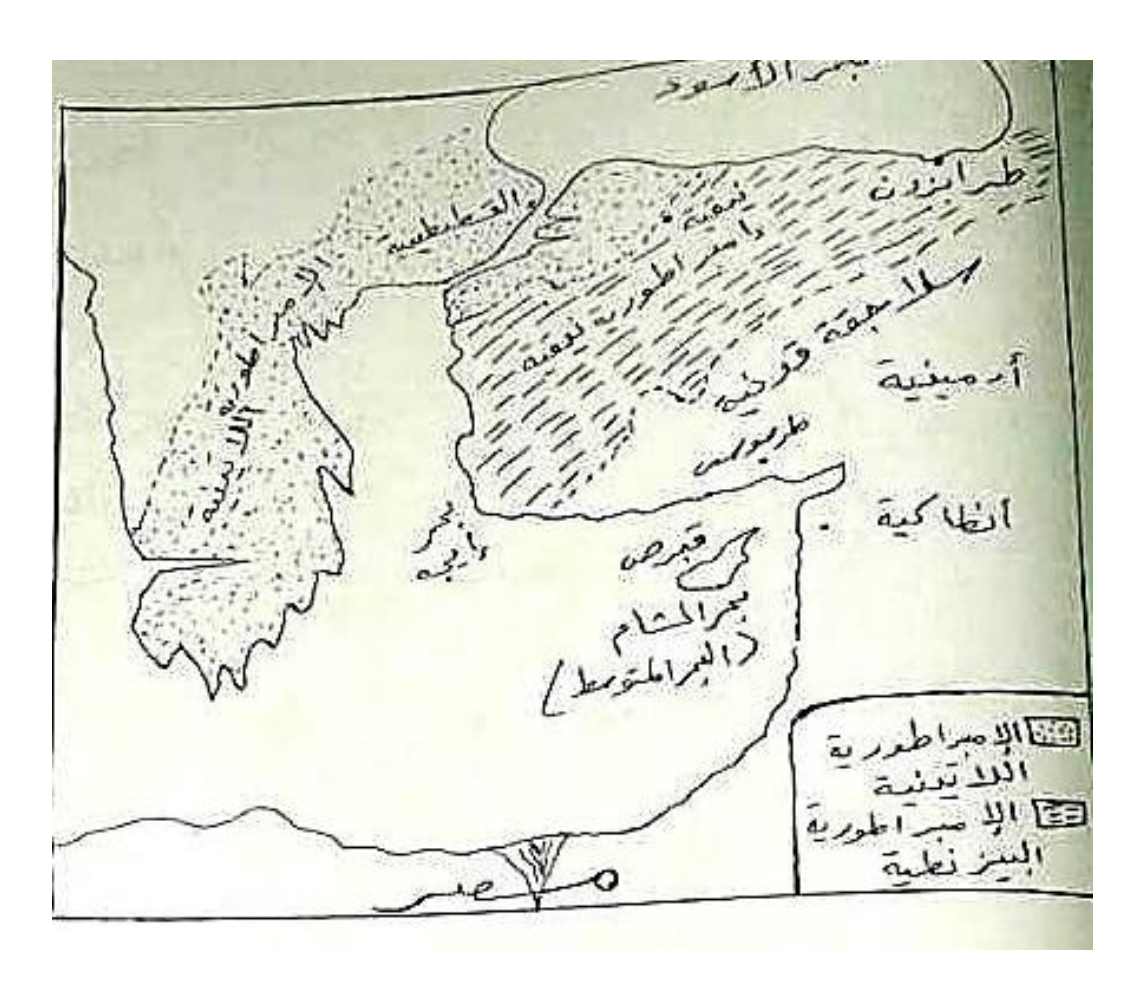
٣ ـ مملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣٢



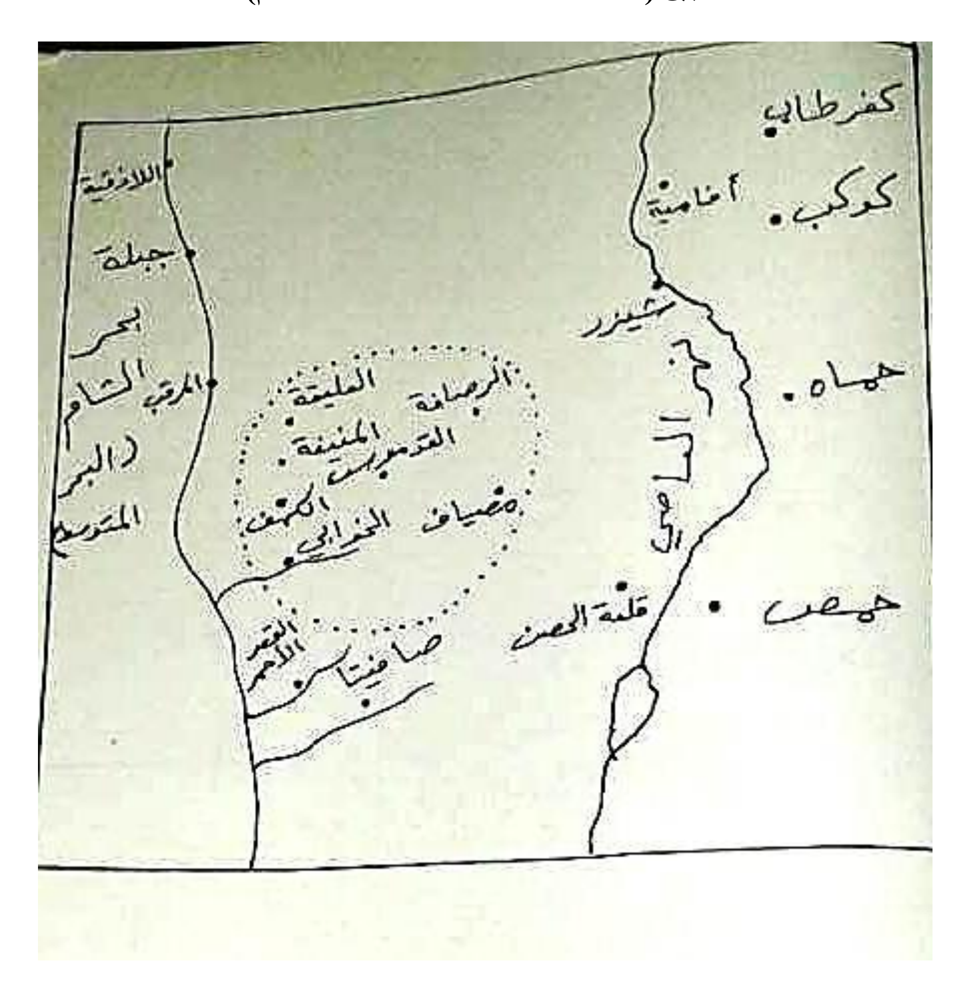
خط سير الحملة الصليبية السابعة من فرنسا إلى عكا

يوسف: العدوان الصليبي على مصر،ص٩٧



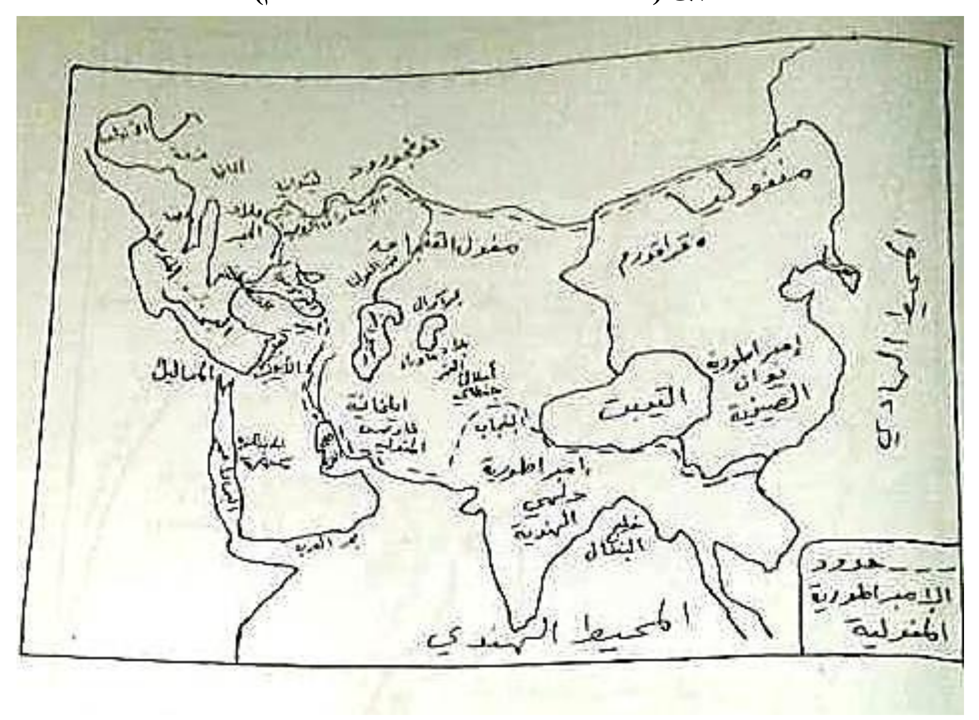
امتداد الإمبراطورية اللاتينية

يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٣١٨



قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام أواسط القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي

يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٢٣٤ .



ممتلكات المغول في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

العريني (السيدالباز): المغول، بيروت، دار النهضة، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص ١٥٧.

Arabic Language Abstract

The crusades are one of the most important historical topics that have attracted the attention of historians in most parts of the world because of their events and their results which were a wide area of study and research. The Crusader- Islamic conflict was essentially a civilizational conflict and ostensibly it was a political-military conflict between two cultures (Arab-Islamic and European) The Crusaders could establish some entities in the Arab region, through establishing a Latin Kingdom in the Levant which lasted nearly for two centuries, it had a major impact on the events of the Arab and European world, and the direct interaction between the Arab and European sides at all political, economic, social and other levels. since the Shami coast was a primary objective of these direct wars because of the important role played by coastal cities in various fields such as political, economic and social fields, especially since the Mediterranean Sea is a window on the outside world, as well as a link which connects East and West, hence the focus of the Crusaders was on these coastal cities. Therefore, the first tasks assigned to the Crusader armies were to control these cities to ensure the free transportation on the one hand, securing the supply of their troops with supplies, ammunition and soldiers on the other. The Crusades are one of the major conflicts that have affected the history of the Arab and Islamic Mashreq region. These wars originated from the European West as the planner and executor. The religion was under the guise of their will to hide its colonial ambitions to seize the land and wealth of Muslims and tampering with their sanctities in the Levant Arab Islamic.

The Crusaders were unable to establish their emirates in the Shami coast except for the weakness of the Arab and Islamic countries and for the dispersing of their words , and the Muslim Arabs succeeded in expelling the Crusaders under the unity of a wisdom leadership, which all of them worked under. The destruction of the Crusader entity in the Levant was a devastating blow to the Western Europe, where the kings and the rulers of the Western Europe were preoccupied with their political problems within Europe itself, leaving the Kingdom of Jerusalem and Latin.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

- ابن أبي الدم (شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم ت ٥٨٣ هـ / ١١٨١ م):

١- التاريخ المظفري من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م، جـ٢١.

- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م):

٢- الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، جـ٩، جـ١

- الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عمر بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤ م):

٣- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٩م، مج٢

- الاصطخري (ابراهيم بن محمد الفارسي المتوفّي في النصف الأوّل من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي).

٤- المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحسيني، دار التعلم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

- ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م):

٥- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، دار المعارف.

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م):

٦- رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.

- البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م):

٧- مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، د. م، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م، جـ٢.

- ابن تغري بردي الأتابكي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م):

٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م، جـ٩.

- ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م):

٩- رحلة ابن جبير، بيروت – لبنان، دار التراث، ط١، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

- ابن الجوزي (سبط ابن الجوزي ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م):

١٠- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الشروق ، ط١، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.

- ابن حبيب (الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م):

١١- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، د. م، دار الكتب، ١٩٧٦ م، ج١.

- الحموي (شهاب الدين ياقوت بن أبي عبد الله ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م):

١٢- معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت، جـ٢.

- الحنبلي(أحمد بن إبراهيم ت٨٧٦ هـ/١٤٧١ م):

١٣- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد ،العراق، وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م.

- ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م):

١٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، جـ٥٤.

- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ م):

١٥- سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.

١٦- العبر في خبر من غبر، حققه: صلاح الدين المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٠ – ١٩٦٩ م، جـ٥.

- ابن سباط (حمزة ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠ م) :

١٧- صدق الأخبار، تاريخ ابن سباط حققه: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دون طبعة ، ج١

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي ت ٦٥٥ هـ / ١٢٦٦ م):

١٨-الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: ابراهيم الزيبق، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م، جـ٢.

- ابن الشحنة (محمد بن الشحنة ت ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م):

١٩-الدر المنتخب في تاريخ حلب، دمشق، سوريا، دار الكتاب العربي، ١٩٤٩ م.

- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م):

٢٠-الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢ م.

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م):

٢١-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: أحمد ايبش، دمشق، ط١، ٢٠١٣ م.

- الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم بن أحمد ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م):

٢٢-الملل والنحل، تحقيق: عبد اللطيف محمد العيد، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧ م.

- شيخ الربوة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢١ م):

٢٣-نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

– ابن عباس(شافع بن علي ت.٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م):

٢٤-حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ،تحقيق : عبد العزيز الخويطر،الرياض، ط٢ ، ١٩٨٩

– الصفدي(صلاح الدين بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٢م):

٢٥-أعيان العصر و أعوان النصر ، تحقيق علي أبو زيد و آخرون ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ط١,٤١٨ هـ/١٩٩٨ م ، ج٤

٢٦-الوافي بالوفيات ، تحقيق : دوريتاكرفولسكي ، بيروت ، دار الأندلس ، د.ت،جـ١٧ .

– العماد الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م):

٢٧-الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، القاهرة، ط١، د. ت.

– ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي ت ١٠٩٨هـ /١٦٧٨ م):

٢٨-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م، جـ٧.

– ابن عبد الظاهر (محي الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):

٢٩-تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، مراجعة: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط١، ١٩٦١ م.

٣٠-الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٤ م.

– أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م):

٣١-المختصر في أخبار البشر، بيروت – لبنان، دار المعرفة، جـ٤.

٣٢-تقويم البلدان، تحقيق: البارون ماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٥٠ م.

– العيني(بدر الدين محمود ت٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) :

٣٣-عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد أمين، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط،١٩٨٧ م .

– القرماني (أحمد بن يوسف القرماني ت ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م).

٣٤-أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط، فهمي سعيد، بيروت، عالم الكتب، ط٢، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، مج٢.

– ابن القلانسي (أبو يعلى حمزه بن القلانسي ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م):

٣٥-تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط١، ١٩٨٣ م.

– القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م):

٣٦–صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، جـ٣.

٣٧–مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، د. ت، جـ٢.

– الكتبي (ابن شاكر صلاح الدّين محمد ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م):

٣٨–فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، جـ١.

– ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م):

٣٩–البداية والنهاية، بيروت – لبنان، مكتبة المعارف، ط٢، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م، جـ١٣.

– المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م):

٤٠–السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف للترجمة والنشر، د. ت، جـ١، ق٣.

٤١–الخطط المقريزية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، مج١، مج٢.

– ابن المغيزل (نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفري ت ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م):

٤٢–ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

– المنصوري(ركن الدين بيبرس الدوادار ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م) :

٤٣–التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر : عبد الحميد صالح حمدان ، القاهرة ، ط١، ١٩٨٧ م.

– ابن منقذ (أسامة بن منقذ مؤيد الدولة أبو مظفر ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م):

٤٤–الاعتبار ، حرره : فيليب حتى ، مطبعة برنستون ، الولايات المتحدة، ١٩٣٠ م .

– ابن نظيف (أبو الفضائل محمد بن علي ت ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م):

٤٥–التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، تحقيق: أبو العيد دودو، مراجعة: –عدنان درويش، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

– الهمذاني(رشيد الدين فضل الله ت٧١٨هـ/١٣١٨ م) :

٤٦– جامع التواريخ (تاريخ أبناء هولاكو) : ترجمة محمد نشأت ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة ، الإرشاد القومي ، د.ت، مج٢،جـ٢

– ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م):

٤٧-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم: سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧ م، جـ٤، والجزء السادس تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

- ابن الوردي (زين الدين عمر بن الوردي ت ٧٤٩ هـ / ١٤٤٨ م):

٤٨-تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، لبنان – بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م، جـ١، جـ٢.

- اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م):

٤٩-مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لبنان، دار الكتب العلمية، د. ت، جـ٤.

- اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد ت ٧٢٦ هـ/١٣٢٥ م)

٥٠-ذيل مرآة الزمان ، تحقيق وزارة التحقيقات والأمور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر أباد، دار الكتاب الإسلامي ، ط١، ١٩٦٠ م .

ثانياً: المصادر الأجنبية المعربة:

أرنول :

١- تاريخ أرنول من خلال الموسوعة الشامية ،تأليف و ترجمة وتحقيق سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣ ،جـ٨

أمبرويز :

٢- صليبية ريتشارد قلب الأسد من خلال الموسوعة الشامية ، تأليف وتحقيق و ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣ ،جـ٣٢.

- أولفر (أوف بادر بورن):

٣- الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، جـ٣٤.

- الأنطاكي (يحيى بن سعيد الأنطاكي):

٤- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة أوتيخان ٤٥٨ هـ / ١٠٦٧ م، حققه: عمر عبد السلام التدمري، طرابلس – لبنان، ١٩٩٠ م.

- بورتشارد:

٥- وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٧.

- بيير دوبوا:

٦- استرداد الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٦.

- التطيلي (بنيامين):

٧- رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، ط١، ١٩٤٥ م.

- جوانفيل (لويس):

٨- حياة القديس لويس جوانفيل من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٥.

- جون (أوف وورزبيرغ):

٩- وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، جـ٣٤.

- حاج مجهول قبل سنة ١١٨٧ م:

١٠- من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥ م، جـ٣٧.

- دي فيتري (جاك):

١١- المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٦.

- سانوتو (مارينو):

١٢- الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٦.

- سمباط (الأرمني):

١٣- التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٥.

- سميث(جوناثان ريلي) :

١٤- فرسان القديس يوحنا القدس وقبرص من خلال الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق و ترجمة: سهيل زكار ، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م ،ج٥٢

- سيولف الأنكلوسكسوني (١١٠٢ م):

١٥- حملة الملك ريتشارد إلى أراضي القدس المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، جـ٣١.

- الشارتري (فوشيه):

١٦- الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة ودراسة وتعليق: قاسم عبده قاسم، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.

- الصوري (وليم):

١٧- الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر، ط١، ١٩٩٨ م، جـ٢.

فابري (فليكس):

١٧- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته حوالي ١٤٨٠ – ١٤٨٣ هـ من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، جـ٣٨.

- فلهاردين:

١٨- الاستيلاء على القسطنطينية من خلال الموسوعة الشامية ، تأليف و تحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥ ، جـ١٠

- فوقاس (يوانس):

١٩- رحلة يوانس فوقاس في الأراضي المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، جـ٣٤.

- كندي (هيوج) :

٢٠- القلاع الصليبية من خلال الموسوعة الشامية ، تاليف و تحقيق و ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م، ج٥٢ .

- كيناموس (يوحنا):

٢١- أعمال يوحنا كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٧ م، جـ٢٩.

- لودولف دي سوخم:

٢٢- وصف الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٣٧.

- المؤرخ الرهاوي المجهول :

٢٣- روايات عن الحملتين الأولى والثانية من خلال الموسوعة الشامية تأليف وتحقيق و ترجمة : سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥ م ، جـ٥

- ميخائيل السوري:

٢٤- روايات ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، دمشق، دار الفكر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، جـ٥.

- ناصر خسرو (أبو معين الدين خسرو المروزي):

٢٥- سفرنامة، ترجمة: أحمد خالد، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٩٨٣ م.

- ويندوفر (روجر أوف):

٢٦-ورود التاريخ من خلال الموسوعة الشامية، تحقيق وتأليف وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م، جـ٣٩.

ثالثاً: المراجع العربية:

- أثناسيو (متري هاجي):
١- سوريا الشمالية، دمشق، مكتبة النيل، ط١، ١٩٩٧ م.
- الأمين (الحسن) :
٢- صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين و الفاطميين و الصليبيين ، د.م، دار الجديد ، د.ت ، د. ط
- اسكندر (توفيق):
٣- بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة، ١٩٦١ م.
- اغناطيوس ديك:
٤- الشرق المسيحي، بيروت – لبنان، المكتبة البوليسية، د. ت.
- برجاوي (سعيد أحمد):
٥- الحروب الصليبية في المشرق، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م.
- بشور (وديع):
٦- أضواء على حروب الفرنج والتركمان (الحروب الصليبية)، د. م، د. ت.
- أبو بكر (نضال)
٧- أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية و علاقتها مع الصليبيين ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق ، ١٤٢٩ هـ/٢٠٠٨ م .
- البهنسي (عفيف):
٨- سورية التاريخ والحضارة، دمشق ، وزارة السياحة، د. ت.
- توفيق (عمر كمال):
٩- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦ م.
- الترك (عثمان) :
١٠- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ، د.م، ط١، ١٩٦٠
- حافظ (فؤاد حسن) :
١١- تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .
- جوهر (دلال):
١٢- جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، ط١، ١٩٩٢ م، جـ١.
- حبشي (حسن):

١٣- نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨ م.
-حبيب (مالك) – شعبان (ابراهيم):
١٤- الموسوعة السياحية للساحل السوري، سوريا، اللاذقية، دار المنارة للنشر، ١٩٩٨ م.
- حجازي (حسين):
١٥- جزيرة أرواد والجذور الفينيقية على ضوء الاكتشافات الجديدة، طرطوس، دار أماني، ١٩٨٩ م.
- الحريري (سيد علي):
١٦- الحروب الصليبية، أسبابها – حملاتها – نتائجها، تحقيق وتقديم: عصام محمد شبارو، بيروت – لبنان، دار التضامن، ط١، ١٩٨٨ م.
- حسن (ابراهيم حسن):
١٧- تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ط١٤، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م، جـ٤.
- حسين (عبد الوهاب حسن):
١٨- تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، تقديم: محمد محمد مرسي الشيخ، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠ م.
- حمدي (عبد المنعم محمد حسين):
١٩- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، د. م، ٢٠٠٠ م.
- حمصي (أحمد فايز):
٢٠- قلعة المرقب، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٢ م.
- حنا (زكية):
٢١- القلاع والمواقع الأثرية، نشر كاتدرائية طرطوس، د. ت.
- الحويزي (محمود محمد):
٢٢- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، د. م، دار المعارف، ١٩٧٩ م.
- حيدر (جمال):
٢٣- اللاذقية وأهم المعالم الأثرية والسياحية، اللاذقية، دار المرساة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦ م.
٢٤- قلعة صلاح الدين، د. م، ط١، ٢٠٠٧ م.
- حميدة (عبد الرحمن) :
٢٥- أعلام الجغرافيين العرب ، دمشق، دار الفكر ،ط١ ، ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤ م
- الخالدي (إسماعيل عبد العزيز) :
٢٦- العالم الإسلامي والغزو المغولي ، الكويت، مكتبة الفلاح ، ط١، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م

- الخطيب مصطفى:
٢٧- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٩٩٦ م
- الخوري (ميتر):
٢٨- صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، د. ت.
- الدباغ (مراد مصطفى):
٢٩- بلادنا فلسطين ، بيروت – لبنان ، د.ت، ج٧،ق٢
- الدبس (يوسف):
٣٠- تاريخ سوريا، مراجعة: مارون رعد، دار نظير عبود، ١٩٩٤ م.
- الدجاني (زاهية):
٣١- الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، دار الكتاب العربي، د. م، د. ت.
- دويدري (رجاء وحيد):
٣٢- جغرافية الوطن العربي، جامعة دمشق، مطبعة طربين، ١٤٠١ – ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ – ١٩٨٢ م.
- الزركلي (خير الدين):
٣٣- الأعلام، بيروت – لبنان، دار العلم للملايين، ط١٤، ١٩٩٩ م.
- زعيتر (محمد):
٣٤- المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، الوكالة الشرقية للتوزيع، ط١، ١٩٩٤ م.
- زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، اسماعيل (اكتمال):
٣٥- حروب الفرنجة الصليبية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٥ – ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ م.
- زكار (سهيل) :
٣٦- فلسطين في عهد المماليك، د.م، د.ت .
- زكي (عبد الرحمن):
٣٧- دولة الظاهر بيبرس من مصر ، القاهرة ، دار إحياء الفكر العربي ، د.ط، ١٩٨٥ م،
- الزين (سميح وجيه):
٣٨- تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، بيروت، دار الأندلس، د. ت.
- سالم (السيد عبد العزيز):
٣٩- تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م.
- سرور(محمد جمال الدين)
٤٠- دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة، دار إحياء الفكر العربي ، د،ط، ١٩٨٥ م

٤١- دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربي، د. ت
- سعداوي (نظير حسان):
٤٢- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، ط١، ١٩٦١ م.
٤٣- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥ م.
- سليمان (أحمد الكريم):
٤٤- المغول والمماليك في دولة بني قلاوون، د. م، دار النهضة العربية، ط١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.
- شبارو (عصام محمد):
٤٥- تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، بيروت – لبنان، دار مصباح الفكر، ١٩٨٧ م.
٤٦-السلاطين في المشرق العربي معالمهم ، دورهم السياسي والحضاري (السلاجقة – الأيوبيون) ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د.ت
٤٧-تاريخ المشرق العربي الإسلامي من دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين ، القاهرة، دار الفكر ، ط١، ١٩٩٩ م .
- الشنتاوي (أحمد):
٤٨- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام و إقليم الجزيرة ، دار النفائس ، د.ط
- عبد القوى (زينب عبد المجيد)
٤٩- المعارف الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٩ م.
- صبرة (عفاف سيد):
٥٠- العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٨٣ م.
- الصلابي (علي محمد):
٥١- صلاح الدين الأيوبي، د. م، دار ابن الجوزي، د. ت.
- صليبي (كمال):
٥٢- الموارنة صورة تاريخية، بيروت، دار النهار، ١٩٧٢ م.
- طقوش (محمد سهيل):
٥٣- الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة ، القاهرة ،ط١ ،١٩٧٠ م
٥٤- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ،بيروت دار النفائس ، ط١، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م .
- عبد القوي (زينب عبد المجيد) :
٥٥- الإنجليز والحروب الصليبية ، د.م، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية : ط١، ١٩٩٦ م

– عاشور (سعيد):
٥٦– أضواء جديدة على الحروب الصليبية، د. م، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.
٥٧– أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، د. م، ط١، ١٩٨٦ م، جـ٢.
٥٨– الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣ م، جـ١، جـ٣.
٥٩– الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٣م
٦٠– بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ط١، ١٤٠٨ هـ
٦١– بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٧ م
– عاشور (فايد حماد) :
٦٢– الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، القاهرة ط١، ١٩٧٧ م .
– عثمان (أحمد) :
٦٣– تاريخ قبرص جزيرة الجمال والألم منذ القدم و إلى اليوم ، القاهرة،١٩٧٠م
– العريني (السيد الباز) :
٦٤– الشرق الأوسط و الحروب الصليبية ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٣م ،
– العزاوي (عباس) :
٦٥– التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، بغداد ، شركة التجارة والطباعة المحدودة،١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م
– علي (وفاء):
٦٦– دراسات في تاريخ الدولة الايوبية، القاهرة ،دار الفكر العربي ،د.ت،د.ط
–أبو عليان (عزمي عبد محمد)
٦٧– مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين من عهد المماليك ، الأردن، دار النفائس،ط١، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م
– عبدالله (عبد الفتاح لطفي):
٦٨– جغرافية الوطن العربي، عمان، دار المسيرة، ط١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م.
– عبد السلام (عادل):
٦٩– الأقاليم الجغرافية السورية، دمشق، مطبعة الاتحاد، ١٤١٠ – ١٤١١ هـ / ١٩٨٩ – ١٩٩٠ م.
– عبده (سمير):
٧٠– المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً، دمشق، دار علاء الدين، ط١، ٢٠٠٠ م.
– العريني (السيد الباز):
٧١– المغول، بيروت ، دار النهضة، ١٤٠٢هـ /١٩٨١م.
– العسلي (بسام):

٧٢- صلاح الدين الأيوبي، بيروت، دار النفائس، ط٥، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.
٧٣- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، لبنان، دار النهضة،١٩٨٦ م ، د.ط،١٩٦٧ م .
٧٤- فن الحرب الإسلامي لأيام الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفكر، ط١، ١٩٨٨م
- العلبي (أكرم حسن):
٧٥- الملك الأشرف خليل بن قلاوون، دمشق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- عمران (محمود سعيد):
٧٦- تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١ م، بيروت، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٩٩ م.
٧٧- الحملة الصليبية الخامسة ،د.م، دار النشر للمعارف ،١٤٠٥ هـ/١٩٨٦ م
- عميري (ابراهيم):
٧٨- سلسلة الجبال الساحلية، دمشق، دار الأقصى، ط١، ١٩٩٥ م.
- عوض (محمد مؤنس):
٧٩- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ٦ – ٧ هـ / ١٢ – ١٣م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩ – ٢٠٠ م.
٨٠- القلاع الصليبية في بلاد الشام، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٦ م.
٨١- الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩ – ١١٨٧ م، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٢ م.
- الغامدي (علي) :
٨٢- العلاقات بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى و راجعه : جوزيف نسيم .
- غلاب (محمد):
٨٣- في الصراع الإسلامي – الصليبي معركة أرسوف (٥٨٧ هـ/١١٩١م) :عين للدراسات و البحوث الإسلامية و الاجتماعية ،ط١، ١٩٩٧ م
٨٤- الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ط١، ١٩٦٩ م.
- غنيم (حامد):
٨٥- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ط١، ١٩٨٣ م، جـ٢.
- غوانمة (يوسف حسن):
٨٦- دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، عمان، دار الفكر للنشر، ١٩٨٣ م.
٨٧- معاهدات الصلح والسلم بين المسلمين والفرنج، الأردن، دار الفكر، ط١، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- فرح (نعيم) :
٨٨- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق ، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥
- قاسم (قاسم عبده):

٨٩- الأيوبيون والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.ت.

٩٠- عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٨ م.

٩١- ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠١ م.

- قلعجي (قدري):

٩٢- صلاح الدين الأيوبي، د. م، دار الكاتب العربي، د. ت.

- كحالة (عمر رضا)

٩٣- معجم المؤلفين ، د.م،مكتبة المثنى ، د.ت ، ج١٣

- كردعلي (محمد):

٩٤- خطط الشام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦٩ م، جـ٤.

٩٥- غرائب الغرب، مصر، المطبعة الرحمانية، ط٢، ١٩٢٣ م، جـ٢.

- ماهر (سعاد):

٩٦- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧ م.

- محمود(عبد الحليم)

٩٧- الغزو الصليبي و العالم الإسلامي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ١٤١٤ هـ /١٩٩٣ م

- محمود (علي السيد علي):

٩٨- العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، د. م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.

- المدور (مروان):

٩٩- الأرمن عبر التاريخ ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ط٢ ، ١٩٨٢ م.

- مصطفى (شاكر) :

١٠٠- من ذكريات الغزو الفرنجي ، دمشق ، دار طلاس ، ط١,١٩٩٦ م

١٠١- التاريخ العربي والمؤرخون ، بيروت، دار العلم للملايين،ط١، ١٩٨٠ م ، ج٢ .

- المطوي (محمد العروسي):

١٠٢- الحروب الصليبية في المشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٢ م.

- مقامي (نبيلة):

١٠٣- فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤ م.

- موسى (علي):

١٠٤- في ربوع سوريا (جغرافياً وسياحياً)، دمشق، مطبعة الشام، ١٩٩٥ م.

– النقاش (زكي):
١٠٥– العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، د. م، دار الكتب اللبناني، ١٩٥٨ م.
– الهيثي (صبري فارس)، أبو سمور (حسن):
١٠٦– جغرافية الوطن العربي، عمان، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٠ م.
– يعقوب (الياس):
١٠٧– عكاز الساحل (خراب مرقية)، حمص، ط١، ١٩٩٠ م.
يوسف (جوزيف):
١٠٨– العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأرض المقدسة ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٨١ م

رابعاً: المراجع الأجنبية المعربة:

– اديوري (بيتر)
١– قبرص والحروب الصليبية ، بيروت ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، ط١، ١٩٩٧ م
– باركر (أرنست):
٢– الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، بيروت – لبنان، دار النهضة العربية، ط٢، د. ت.
– براور (يوشع) :
٣– الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية ، ترجمة : عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، ط١، ٢٠٠١ م .
٤– عالم الصليبيين ، ترجمة وتقديم : قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة ، د. م، د.ت
– ب. هـ. نيوباي:
٥– صلاح الدين وعصره، ترجمة: ممدوح عدوان، تقديم: سامي الجندي، دمشق، دار الجندي للنشر، ط١، ١٩٩٣ م.
– بينز (نورمان) :
٦– الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، ترجمة : أحمد أيبش ، دار قتيبه ، دمشق ، ٢٠٠٢ م
– توراو (بيتر):
٧– الامبراطورية البيزنطية ، تعريب : حسين مؤنس ، محمد يوسف زايد ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م

٨- الظاهر بيبرس إسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر، ترجمة: محمد جديد، مراجعة وتقديم: أحمد حطيط، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٢ م.

٩- جروسيه (رينيه)

١٠- الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، ترجمة : أحمد أيبش ، دار قتيبة ، دمشق ، ٢٠٠٢ م

– رنسيمان (ستيفن):

١١- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، ١٩٨١ م، جـ٣.

– زابوروف (ميخائيل):

١٢- الصليبيون في الشرق، موسكو، دار التقدم، ١٩١٦ م.

– سميل (ر. ي):

١٣- الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٢ م.

– سميث (جوناثان رايلي):

١٤- تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة وتقديم وتعليق: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م.

–فشر (هـ.ا.ل):

١٥- تاريخ أوروبا العصور الوسطى، نقله إلى العربية ، محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م

١٦- الاستبارية، ترجمة: صبحي الجاني، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٩ م.

– فينر (فولفغانغ مولر):

١٧- القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، مراجعة: سعيد طيان، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٨٢ م.

– كاهن (كلود):

١٨- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، القاهرة، سينا للنشر، ط١، ١٩٩٥ م.

– كوكيد (جان بول ري):

١٩- كتابة جديدة من أرواد، تعريب: عدنان البني، مجلة الحوليات الأثرية، مج٨، ط١، ١٩٦٨ م.

– ماير (هانس أبرهارد):

٢٠- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم، دمشق، دار المدى، ط١، ٢٠٠٩ م.

– متز (آدم):

٢١- الحضارة العربية في القرن ٤ هـ / ١٠ م، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، بيروت – لبنان، دار الكتاب العربي، ط٥، د. ت.

– مدفيدكو (سيرغي) – أوسيبوف (ديميتري):

٢٢- سوريا تاريخ كبير لبلد عريق، ترجمة: عياد عيد، دمشق، دار الينابيع، ط١، ٢٠٠٢م.

– هايد (ف):

٢٣- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، د. م، ط١، ١٩٨٥ م، جـ١.

خامساً: المراجع الأجنبية:

1- CHAHEN (CLAUDE): La Syria du Norda L'epoquedes Croisades, Paris, 1940.
2- CHALANDON (F): Histoirede la premire crosiada, jusque, ill lectionde gode frole de bouillon, Paris, 1962.
3- Heanisch , Erich,Zuden Brifender Mongolishon llKhane Argun and oljectuand en philipp denschonenvonfram ,Kreich 1289-13.5 , oriens,II,1949 .
4- Lanapool,A History of Egyptin the Middle Ages , London , 1968 .
5- Ryan : The in terrelation of the oriental Mission and crusde Activities of the papacy under Nicholas IV, 1208 -1292 .
6- THOMPSON (J. W.): Economic and social history of the middle ages, London, 1959, 2 vols.

Syrian Arab Republic

Damascus university

Faculty of Arts and Humanities

Department of History



The political situation of the Shami Coast Between (585 - 690 AH, 1189 - 1291 AD)

A PhD thesis in the history of Arabs and Islam

Prepared by the student:

Zenab KherAlDen

Supervised by:

Pro.Dr. Ektimal Ismail

AD 2017-2016/AH 1439-1438